خوسيه ساراماجو

عام وفاة ريكاردو ريس



رواية

ترجمة

عبدالحميد فهمي الجمال

خوسيه ساراماجو

عام وفاة ريكاردو ريس

رواية

ترجمة

عبدالحميد فهمي الجمّال

للثقافة والنشر والإعلام

خوسيه ساراماجو: أول روائي برتغالي يفوز بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٩٨. مولود عام ١٩٢٢، في مدينة إزينهاجا. بدأ حياته الأدبية في سن متأخرة بعد طول انقطاع حيث نشر رواية عابرة عام ١٩٤٧، بأسم «أرض الخطيئة». ذاعت شهرته في الثمانينيات من خلال مجموع رواياته ومنها «بالتزار وبليموندا»، و«الإله الأكتع»، و«عام موت ريكاردو ريس»، و«إنجيل يسوع»، و«تاريخ حصار لشبونة». تعدد عطاؤه في كتابة الشعر، والمسرح، والرواية، والقصة القصيرة، والمقالات الفكرية.

Book: Aam Wafat Ricardo Race

الكتاب: عام وفاة ريكاردو ريس

Jose Saramajo

ترجمة: عبدالحميد فهمي الجمّال

Translated By: Abdulhameed Aljammal

First Edition: 2015

الطبعة الأولى ٢٠١٥

للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ - ٠١ - ٠٠٩٦١

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ISBN 978-9933-35-212-7

قبل أن تقرأ

أشار خوسيه ساراماجو في حديث صحفي أدلى به مؤخرا إلى أن روايته المهمة «عام وفاة ريكارد ريس» (١٩٨٤) لن يعجب بها إعجابا عظيما سوى شخص برتغالي، فهذه الرواية تتطلب معرفة كبيرة بتاريخ وثقافة البرتغال ابتداءً من أزمنة المجد والإمبراطورية حتى الفصول الأولى المشئومة للدكتاتورية التي مارسها بالازار، ورواية «عام وفاة ريكاردو ريس» شأنها شأن معظم الروايات المليئة بالثراء يمكن تفسيرها بطرق عديدة ومختلفة.

لقد كان ريكاردو ريس هو أحد الأسماء المستعارة التي استغلها الشاعر البرتغالي فرناندو بسوا (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) والحوارات العديدة التي جرت بين بسوا وريس في جميع أرجاء الرواية تشكل كمية شاملة ومميزة لحياة وأعمال أشهر شاعر في البرتغال منذ كاموس، ولقد أشار بسوا إلى أن أسماءه المستعارة الثلاثة الرئيسية وهي (ألفارو دي كامبوس ألبرتو كايرو ريكاردو ريس) لم تكن مجرد أسماء مستعارة وإنما هي دليل على الشخصيات المتعددة التي نمتلكها نحن جميعاً فهي بمثابة أوجه ومظاهر متغايرة لأنفسنا التي لا تحصى ولا تعد، ومن خلال تأثر ساراماجو بما حدده بسوا على أنه «ميل دائم وأساسي نحو تخفيض طابع الشخصية وطابع الادعاء» فإنه يستغل في صراحة العلاقة بين كل من: بسوا وريس وذلك من خلال السماح للنفس الثانية بأن تعيش لفترة أطول

من حياة خالقها بتسعة أشهر مع استدعاء بسوا في نفس الوقت من قبره لكي يجدد صداقته مع ريس الذي عاد إلى البرتغال بعد أن أمضى ١٦ عاما من النفي السياسي في البرازيل.

والملامح الفيزيقية لبسوا تعتبر دقيقة في تفاصيلها: فهو شخص نحيل ومثقف له نظارة ذات إطار ذهبي وهو لطيف وعصبي بعض الشيء في تصرفاته وأنيق الملبس وله طريقة في المشي مميزة، وبسوا لم يتزوج على الإطلاق وباستثناء صلة حب واحدة مع أوفيليا كويروز كانت هناك تلميحات غامضة عن ازدواجية جنسية، ومن الواضح أنه كان يفضل الرفقة على الحب لأن الرفقة أقل اتساما بالألم وأقل تطلباً للعناية الكبيرة، ويركز ساراماجو على التعقيدات والطابع السري اللذين ساهما في غموض بسوا في أثناء فترة حياته وجذب المزيد من الانتباه في السنوات الأخيرة، ولقد كانت اهتمامات بسوا موسوعية وشاملة، إذ كانت تنصب على: الشعر/ القصص البوليسية/ العلوم السياسية/ التنجيم/ الإيمان بالقوى الخفية/ السحر/ الماسونية، ونظراً لأنه مناهض للتماثل نجد أن آراءه السياسية كانت مثيرة للجدل والخلاف في الرأي، ولقد كانت آراءه الفلسفية انتقائية ومؤلفة من عناصر مختلفة وغير منظمة وغير منهجية، وكانت نظرياته الأدبية واقعة تحت تأثير الرواد الأوائل الأوربيين وتأثير تجارب الاشتراكيين الجدد والتكعيبيين والمستقبلين وغيرهم، بل وتوسع بسوا في البيان الشعري الخاص به الذي حدده بأنه بمثابة بوليزمو Poulismo، ونظراً لأنه كان مصراً أن يكون هناك المزيد من التفاعل بين الأشياء المجردة والأشياء المادية الملموسة وما بين المشاعر الداخلية للشاعر والحقيقة المادية فإنه قدم البوليزمو ومارسها في مساهماته مع الجرائد العصرية التي تطبع وتنشر في لشبونة، والصورة الدائمة عن بسوا على النحو الذي نقله لنا

ساراماجو هي صورة الخصوصية المتسمة بالحذر وتناقضات العقل والروح غير المحسومة والوعي الذي لا يمكن الهجوم عليه والمتعلق بعزلته الداخلية، فهو شاعر أفضى بدخيلة نفسه إلى أصدقائه ووثق فيهم عندما قال لهم: «إنني لا أعرف من أكون أنا ولا أعرف ما هي الروح التي أمتلكها».

وريكاردو ريس يمثل مظهراً حيوياً لطبيعة بسوا فهو شخصية خالية تنطق بأفكار بسوا وهو إلى حد ما أشبه بممثل يعيد نصاً دراميّاً إلى الحياة، ويعتمد ساراماجو على التفاصيل الواقعية الحقيقية عن ريس والتي قدمها بسوا نفسه.

ولد ريكاردو ريس في أوبورتو عام ١٨٨٧ وتلقى تعليمه على أيدي الجزويت وتخرج في كلية الطب وأصبح ممارساً عامّاً بينما كان يكتب الشعر، وآثر النفي السياسي بسبب تعاطفه مع نظام الحكم الملكي، وعلى نحو يمكن التنبؤ به يكشف ريس عن علاقات روحية معينة مع اسمين مستعارين آخرين لبسوا وهما: كامبوس وكايرو ولكن الشك الراديكالى لدى ريس يتم التأكيد عليه أكثر من ذي قبل، وريس من حيث هو شخص محب للفن والجمال فإنه يحاول التوفيق ما بين وضوح العقل وغموض عالم الأحلام (في بعض الأوقات يصل إلى حافة الجنون) ويواجه المجهول والأمور التي لا سبيل إلى معرفتها في رباطة جأش واتزان كاملين، وهو ملحد ومؤمن بالقضاء والقدر وبالتالي فهو يميل بشكل مكشوف إلى معاداة المسيحية الأرثوذكسية بسبب طبيعتها الإقصائية التي لا تبيح للأعضاء الجدد الانضمام إليها بسهولة، وهو مؤمن بالسيد المسيح ولكن إيمانه لا يزيد أو ينقص عن إيمانه بكافة الآلهة الآخرين، وهو يعرِّف الحرية بأنها الوهم أو الشعور الكاذب بالحرية ويعرف السعادة بأنها الوهم أو الشعوب الكاذب بالسعادة، وهو

يشير إلى أن الحقيقة لا يمكن معرفتها، ويؤمن ريس إيمانا عميقا بأن القدر كليّ القدرة، وبذلك يؤمن بأن الرجل الحكيم هو الذي يستمتع بكل لحظة في حياته كما لو كانت هي آخر لحظة ويتخذ حالة من التقبل الهادئ وليس حالة من الاستمتاع النشيط.

وقصارى القول أن ساراماجو يدعونا لكي نتأمل في البرتغال والعالم أثناء الثلاثينيات المائجة بالاضطراب من خلال عيني ريكاردو ريس الذي هو الاسم المستعار لفيرناندو بسوا: وهي فترة السنوات العشر التي أصابتها آفة الفاشية والتاكتيكات الوحشية لدى صراع الدول على السيادة، ويقوم ساراماجو بربط الوثائق التاريخية الحقيقية مع التعليقات الخاصة التي يقولها ريس أو بسوا.

والكلام التهكمي الساخر الذي يقوله المؤلف يضيف بعدا آخر لهذا التقييم الجديد لمصائر البرتغال، وساراماجو ـ على العكس من ريس ـ غير قانع بمجرد التأمل في العالم، فهو من خلال الحدس يرتاب في قيم العالم، والتفسير الذي يقدمونه عن تاريخ البرتغال الذي خضع لتقلبات متواصلة يكشف عن التزام عميق بالمثل العليا الإنسانية لكن بدون بذل محاولات لإخفاء تحيزاتهم السياسية والاجتماعية فالمؤلف والشخصيات بالرواية يقرون بالطريقة الخاصة بهم التناقضات الفاضحة الكامنة في الأمة البرتغالية والحالات النفسية المتقلبة لمحو الذات الذي هو تصرف كامن وفطري، وهناك أبيات من قصائد بسوا الغنائية تستخدم في النص، وغالبا ما تكون في شبه حوار مع أصداء متواترة للهم والكرب الوجودي في مواجهة شناعة الحياة وخياناتها المستمرة.

وموضوع الحب الذي يظهر في الرواية لا يعتبر بمثابة الحبكة الثانوية وإنما هو تحليل عميق للعلاقات الإنسانية، فهناك امرأتان متناقضتان

تماماً تجذبان ريكاردو، الأولى هي ليديا الوضيعة المسئولة عن غرف النوم بالفندق والتي تقدم إعادة الطمأنة الجنسية وتدبير الشئون المنزلية على نحو نموذجي فمن حيث أنها ليست لها مطالب ملحة ومليئة بالحيوية وصريحة ليست مختلفة كثيراً عن ليديا المثالية الروحانية غير المادية التي استحضرها ريس في قصائده الغنائية، وهناك علاقاته أيضاً مع مارسيندا الملتاعة الحذرة الواعية وهي فتاة من بيئة أرستقراطية تحطمت آمالها في العيش في حياة طبيعية بسبب التشويه المخجل والأعراض غير القابلة للشفاء لذراعها الذابل المشلول، وليديا ومارسيندا تمثلان الفجوة ما بين الرغبات الشهوانية للرجل والمناشدات التي لا يمكن مقاومتها لمثل أعلى يتعذر الوصول إليه، ولا يكون بمقدور كلا المرأتين حسم الصراع الذي يعيشه ريس ما بين ميوله الخاصة والخصائص الاجتماعية وهو صراع تعمق أكثر من خلال عدم التلاؤمات الخاصة به من حيث هو محب حذر دائماً ومغرور وأناني وغير راغب في صميم مناقشات الذكورة / الأنوثة في البرتغال المرتكزة على العادات والتقاليد في خلال الثلاثينيات.

ويتداخل الشعر والفلسفة في هذه الرواية، والمسائل التي تم تناولها ومناقشتها بمعرفة فرناندو بسوا ونفسه الثانية ريكاردو ريس تساعد على توضيح العلاقة المتناقضة بين ساراماجو وريكاردو ريس، فالروائي اعترف بإعجابه بالصرامة الذهنية والنظام الرسمي الذي يمكن العثور عليه في القصائد الغنائية لريس وهو أيضاً يتطابق تماماً مع رواقية الشاعر ومع مذهب الشك لديه، ولكن الشيء الذي لا يستطيع أن يتقبله هي اللامبالاة التي يجاهر بها ريس عندما يواجه بالمشاهد المثيرة للعالم وهي لا مبالاة تكون على نحو غير مريح أقرب إلى فتور الشعور، فالحوارات

الحادة التي يديرها ساراماجو بين بسوا وريس تكشف عن نقاط التقارب والاختلاف في مفاهيمهما الذهنية عن الفن والحياة، وتكون المناقشات على نطاق واسع ويستخدم الحوار هنا كوسيلة فعالة للتفحص الدقيق والتنفيس الروحانى، ويقوم كل من بسوا وريس باستكشاف متاهات ذهنية تشبه كثيراً تلك التي وردت في كتاب Ficciones بقلم بورخيس، وتأثير الكاتب الأرجنتيني تتمثل في تكرار الاشارة إلى كتاب «إله المتاهة» بقلم هربرت كوائين وفي اختيار ساراماجو للمجاز والاستعارة: المرايا+ نهر الزمان والتدفق الأبدي+ رقعة الشطرنج+ العدادة الخفية الغامضة Numerology+ لعبة الفرصة والمجازفة+ أساطير واقعة تحت سيطرة آلهة متحفظة وماكرة، ونجد أن ساراماجو - شأنه شأن بورخيس - يقوض الحقائق اليقينية الراسخة لصالح تدعيم الاحتمالات الممكنة، ولكي يجتاز الإنسان المتاهة فإن عليه أن يسير بطريقة عشوائية عبر الزمان والمكان وهذه مغامرة إنسانية تتطلب شجاعة وخيالا إبداعيا.

والرؤية - عن الجنس البشري - المقدمة هنا تكون معقدة وشاملة، فبطل الرواية على النحو الذي قدمه لنا ساراماجو هو كيان محفوف بالمخاطر ومسكون بأصوات غريبة ومنساق وراء الرغبات ومدرب من خلال المصلحة الشخصية فهو مخلوق غير عادي وتراجيدي، وكل كائن بشري يعتبر بكل تأكيد متفردا وقائما بذاته حتى عندما يكون شبيها بكل آدمي آخر، فنحن جميعاً متفردون ومع ذلك فنحن لا نعد أو نحصى، وآلهة ساراماجو لا تعد ولا تحصى أيضاً ولا يكونون أبداً إلها واحداً غير مقسم، وهذه الشخصية المتعددة العناصر تزيد من مشكلة الهوية الذاتية وتؤكد على التشظية الخاصة بنا، وكما يقول ساراماجو: «نحن جميعاً نعانى بعض التوعك والقلق والانزعاج ونعانى من قلق ما جوهرى غير

قابل للانفصال عما نحن عليه فهو قلق يجعلنا على ما نحن عليه: وربما يكون من الأكثر دقة أن نقول أن كل واحد منا هو القلق الخاص بنا لأننا بسبب ذلك القلق نكون قليلى العدد للغاية وبسبب ذلك القلق أيضاً ننجح في أن نكون كثيرين للغاية».

ورواية «عام وفاة ريكاردو ريس» والتي تشبه كتابا ما عظيما عن الحياة تتناول في دقة المسائل التي لا يمكن لرجل عاقل أو فنانا أن يتجاهلها: الحقائق والدوافع وسرعة الزوال والانعزال والعدم، ويغوص كل من: بسوا وريس على نحو متزايد في إعياء وإرهاق لا نهائي لدى كفاحهما من أجل التوصل إلى تفاهم مع القدر أو المصير الإنساني، فالفكرة المسيطرة المتكررة بالرواية هي: «لا أحد يهرب من مصيره» فبسوا الميت يحذر ريس، ومن المؤهل على نحو أفضل لكي يؤكد على الحد الفاصل الدقيق ما بين صدمات الحياة والموت؟ ويقول الشاعر لريس في تأكيد: «الحائط التي تفصل الأحياء وتعزلهم عن بعضهم البعض ليست أقل تعتيما من تلك الحائط التي تفصل الأحياء عن الموت».

كانت البرتغال في الثلاثينيات قد انخفضت أهميتها وأصبحت تقوم بدور غير مهم في أوروبا، ويشير ساراماجو إلى «الصوت الجبان الخائف للبرتغال» وهو صوت ربما كان جبانا، لكنه صوت متفرد على نحو مهذب، وهو صوت ذو نغمة منخفضة على نحو يمكن التنبؤ به ولكنه صوت يدرك أمجاد البرتغال الماضية وقيمتها الثابتة، فقدوة وروح أبطال البرتغال وقديسيها وشخصياتها المثالية وشعرائها ما زالت مفعمة بالحياة النابضة فهذه هي أرضي كاموس وأرض العملاق أداما ستور وأرض دوم سيباستيو، وكما يذكر ساراماجو قراءة فإن: «تاريخ البرتغال ليس هو تاريخ أوربا ولكن تاريخ أوربا لا يمكن تخيله أو تصوره بدون

تاريخ البرتغال»، وبعد أن أصبحت البرتغال قزماً محاطاً بجيران أقوياء وبعد أن نضبت واستنزفت مستعمراتها نجد أن «الدولة الجديدة» الخاضعة لـ سالازار قد أخضعت الأمة لنظام حكم صارم يرتكز على رُهاب الأجانب الذي يتعارض مع القومية الصحية التي قدر لها أن تنتهي إلى قمع وكبت وعزلة معوقة، ويقول ساراماجو: «صحيح أن الفضيلة المحددة الواضحة للوطنية تغتفر كل التجاوزات وتبرر كل التناقضات» إلا أن الانطباع لنهائي هو انطباع عن أناس متسمين بسهولة التكيف والصبر والاجتهاد الشديد في العمل، أناس مزودين بموارد داخلية للشجاعة والإيمان وهي خصائص تجعل منهم روادا طبيعيين ومهاجرين.

ولقد غيرت الأحداث السياسية وجه أوربا على نحو درامي، وكان لدى البرتغال ما يدعوها لأن تشعر بالقلق عندما تفجرت الحرب الأهلية في أسبانيا وعندما تصاعدت الفاشية إلى الذروة أيطاليا وألمانيا، ولقد جعل المؤلف الفترة الزمنية لروايته مقصورة على عامى ١٩٣٥، ١٩٣٦ وراح يشيّد من جديد من خلال نشرات الأخبار في تلك الفترة جو الإحباط وعدم اليقين الذي دعم طموحات سالازار، ونظرا لأن البرتغال كانت محاطة بدول منذرة بالتهديد وبحلفاء مشكوك في أمرهم فإنها شعرت بنفسها ـ مثل العملاق أداماستور مطمورة في الصخر وواقعة في مصيدة من خلال النفاق والاحتيال، وبذلك أصبح «الصوت الجبان» للبرتغال غير مسموع إلى حد بعيد في المهزلة التراجيدية التي نشأت نتيجة لذلك.

وهذا هو الجو الذي يعود إليه ريكاردو ريس عقب قضاء ١٦ عاما في المنفي، ومن حيث النواحى المرئية فإن لشبونة لم يطرأ عليها تغيير إلا بقدر ضئيل للغاية، إذا نجد أن نفي المعالم ونفي الأصداء المألوفة تعمل على إعادة ربط ريسي مع فترة شبابه، ولشبونة من منظور ساراماجو

ليست مجرد ستارة المسرح الخلفية وإنما هي بمثابة المركز العصبي أو مركز القيادة والنفوذ للبرتغال، ويصحبنا ريس عبر هذه المدينة ابتداء من ألتو دى سانتا كاتارينا الرفيعة المرتفعة حتى الشوارع المفعمة بالنشاط والحيوية بمنطقة بابيكسا المنخفضة، ومع ريس نقوم باستكشاف مدينة واقعة تحت سيطرة مينائها وتحت نفوذ مياه التاجوس، مدينة غنية بآثارها التاريخية وكنائسها ومسارحها ومطاعمها ومقاهيها، مدينة تنتقل فيها العين باستمرار من السماء إلى البحر وهما قوات الجذب والصد في جميع أرجاء الرواية، فآفاقهما غير محدودة ولا نهائية وكلاهما يبشر بطرق تؤدى إلى تجربة جديدة وإلى مستقبل أكثر إشراقا ولكن يمكن لهما أيضاً أن يضللانا ويسببان لنا الدمار.

ويعتقد ساراماجو أن العالم بمثابة مسرح كبير نحقق فيه مصائرنا وأقدرانا المتعددة، ويتم التركيز على الدراما والتعبير المسرحى في جميع أنحاء الرواية، وفي شغف وحب استطلاع شديد يتردد ريكاردو ريس على المسارح ودور السينما في لشبونة، فهذان الشكلان للفن: المسرح والسينما يدعمان الحقيقة مع مصادر الخيال، وفي نفس الوقت نجد أن المؤلف حريص على أن يذكرنا أن البرتغال يوجد بشوارعها قدر كبير من الدراما مثلما هو الحال في أي مسرح، فبرغم كل شيء نجد أن هذه أمة ميالة إلى الاستعراضات والمواكب والاحتفالات والأعياد الدينية، بل إن مجرد توزيع الصدقات على الفقراء في هذه الدولة يتخذ كافة الزخارف والاثارة التي توجد في المهرجانات الوقورة، وساحة السوق والكرنفال والحج إلى سانت فاطيما والمناورات الحربية والغارات الجوية الوهمية والتدمير السرى وأنشطة البوليس السرى لسالازار والاجتماعات الحاشدة السياسية تمثل كلها مظاهر مختلفة للدراما القومية الجماعية، تماماً مثلما أن فندق براجانسا وحجرة العمليات الجراحية والمنتزه العام وغرفة النوم

في شقة ريس تصبح تجهيزات المسرح من أجل مشاهد متسمة بالدفء للتراجيديا والكوميديا السوداء.

وساراماجو من حيث هو مراقب ذكي للطبيعة البشرية ينقلنا عبر الأطوار الحياتية لرجل لديه بعض التصويرات البارزة عن فترة الطفولة والشيخوخة وعن براءة وتلقائية أطفال يقفون في تناقض حاد مع المخاوف والهواجس التي تجتاج الناس الذين هم في مرحلة الكهولة، وكل كلام بشرى وكل حركة وكل تعبيرات للوجه تنقل الحالة النفسية ودرجة الشعور الخاصة بها، والعينان والشفتان تكونان معبرتين بصفة حاصة بل إن مجرد قبلة بسيطة تصبح طقوسا جنسية شهوانية، وتكون لمساته ناجحة عندما يصف لنا الاهتياج الداخلى المتولد من خلال الكراهية والخوف وفقدان الثقة وعدم الثقة في الذات، والشخصيات في رواية «عام وفاة ريكاردو ريس» تكشف عن أسرارها في سلسلة متتابعة من مناجاة النفس والحوارات لدى تفاعلها وتأثيرها في بعضها البعض على نحو جوهرى، وتكون العلاقات الإنسانية مليئة بالمتناقضات وسوء الفهم والأنانية والنفاق مما يتسبب في كثير من الأحيان في تدمير أي صداقة أو حب حقيقي، ودائما ما يذكرنا المؤلف بأنه: «لا ينبغي أن نثق في الطبيعة البشرية»، وفي هذه البيئة نجد أن فتاة أمية مسئولة عن غرف النوم بفندق يكون لديها ما تقدمه في مجال الغيرية والإخلاص والوفاء على نحو يفوق ما يقدمه ريس الداهية المهذب، وعلى نحو يدعو للسخرية نجد أن ليديا القليلة المطالب والتي تتعرض للكثير من الاستغلال هي التي تمتلك بكل وضوح الروح الأكثر تحررا، وعدم اتسامها بالغش والحنكة هو الذي يساعدها على تقبل الحياة في هدوء داخلى لا يعرفه ريس.

وفيما يتعلق بمسائل التكنيك نجد أن رواية «عام وفاة ريكاردو ريس»

تكشف عن ربط فردي بين عناصر تقليدية ومعاصرة، وعندما يصبح التفحص الفلسفي عميقا بصفة خاصة يعتمد ساراماجو على فصاحة ودقة النثر في فترة ما بعد عصر النهضة حيث يتم استغلال التصورات الرائعة والإطنابات العديدة وأسلوب التعبير المتناسق والهجاء اللاذع استغلالا كاملا، والمعرفة الواسعة الرائعة للمؤلف علاوة على مراجعة الثقافية العديدة تسمح له بالتحرك في سهولة ويسر من الماضي إلى الحاضر وتتوافق تبعا لذلك التسجيلات والانتقالات من نغمة لأخرى في المعالجة الموضوعية، وتمكنه الرائع من التطورات التاريخية والسياسية يجعله قادرا على إعادة تقييم المواقف وعقد المقارنات بينها علاوة على الكشف عن سخرية الظروف وتقلبات القدر، ومثلما هو الحال مع كبار الهجائين نجد أن مراقبته للعالم تقاد من خلال أمانة ملطًفة ومزيلة للنقمة ومن خلال عين قاسية على كل ما هو زائف ومتسم بالنفاق، وفي شجاعة ونزاهة وهدوء يتم تفحص ومراجعة كافة الأمور الإنسانية والإلهية.

وساراماجو ـ شأنه شأن بورخيس ـ يحاول أن يقنعنا بأنه لا توجد هناك متعة أعظم من متعة الفكر، وساراماجو الواثق من نفسه من الناحية الفنية والمتمتع بموهبة شعرية عظيمة ينتقل في سهولة ويسر من الوصف إلى التعليق ومن التأمل الدقيق إلى الحكمة الشعبية ومن الاستعارة والمجاز إلى العبارات البسيطة الإنسانية.

وهو مع استخدامه لقماشة عريضة للرسم نجد أنه يجاهد من أجل التوصل إلى نموذج ثرى من الموضوعات والأفكار المتجانسة في تشابك، ومناجاة النفس والحوارات العديدة تعيد إحياء المفاهيم التقليدية للقالب القصصى ومع ذلك نجده في مكان آخر يفضل اتخاذ التقنيات التجريبية المرتبطة برواية القرن العشرين وبالانتقادات الفجائية المتسمة

بحرية التصرف المتعلقة بالزمان والمكان وببؤرة الاهتمام المتعددة والارتجاع الفني» فلاش باك» والفن التلصيقى Collage والمعارضة اللغوية ومجرى الشعور، ففي نهاية الأمر نجد أن الحالة النفسية لها أهمية جوهرية للرواية تماماً مثل أهمية الحبكة القصصية أو سلسلة الأحداث وفي جميع أرجاء الرواية توجد نغمة سائدة عن قرب حدوث تغييرات بل وتوجد تلميحات واضحة عن قوى مهددة وقدر مشئوم يتجاوز الحدود وينتهك الحرمات، والمشاعر والانطباعات التي تمر بها الشخصيات تتأثر في عمق من خلال العوامل الجوية والأمطار المستمرة وفترات العاصفة ومن خلال الشمس الحارقة وبلادة أيام الشَّعْرَى(١) الشديدة الحرارة والرطوبة والتناسق والطباق(٢) هما ملامح الأسلوب الرئيسية فالعبارة الافتتاحية الموحية المثيرة: «هنا ينتهي البحر وتبدأ الأرض» تجد إجابة لها في العبارة الأخيرة «هنا حيث البحر قد انتهي وحيث الأرض تنتظر»، والشهور التسعة التي منحت لفرناندو بسوا لكي يتجول هائما على وجهه عقب خروجه من قبره تكون متوازنة مع الشهور التسعة الأخيرة من حياة ريكاردو ريس، كما يوجد توازن آخر ما بين التسعة شهور التي تنقضى ابتداء من الحمل حتى الميلاد والشهور التسعة التي تسلب من بسوا أي أثر للحياة كما يلاحظ التناسق والطباق أيضاً متمثلا في العلاقة بين الأحداث العامة والأحداث الخاصة وما بين المشاهد الجماهيرية الملحمية ومشاهد المودة والصداقة الهادئة، وفي نوع من الحذر والاحتراس نجد أن المؤلف يقحم عبارات تفسيرية

(١) الفترة بين أوائل يوليو وأوائل سبتمبر وتتميز بجوها القائظ الشديد الرطوبة في نصف الكرة الشمالي.
(٢) فن مزج الألحان ـ المترجم.

وأفكارا متكررة كما لو كان يضع ألحانا موسيقية للأوركسترا، كما يحدث الوصف التصويرى خواطر أو معانى متداعية: فعندما تسقط ليدا على نحو فجائي غير متوقع طبقا فيتحطم إلى شظايا صغيرة فأن هذا يثير في الأذهان على الفور الاكتشاف المرهق للأعصاب بأنها حامل.

ونظرا لأن هذه الرواية تتعلق بالأفكار أساسا فأن المحادثة تسود في جميع أرجائها، وأشكال وقوالب الكلام تشتمل على كل مستوى من مستويات الخلفية الثقافية والاجتماعية والملامح اللغوية تتراوح من التجنب الفعلى للتهذيب الشديد إلى الأمور المبتذلة وتتراوح من العبارات الشعرية إلى حضور البديهة التي تذكر بحياة المشردين وتتراوح من الأسلوب الكلاسيكي إلى التبادلات القذرة للطبقات المنخفضة.

ورواية «عام وفاة ريكاردو ريس» شأن معظم الروايات المهمة ـ تحدثنا كثيراً عن حرفة الأدب القصصى ومتطلبات النثر الخلاق.. وساراماجو من حيث هو متكلم بلغات عديدة ومترجم يفكر كثيراً في مشكلة اللغة وقيودها وعدم ملاءمتها.

وتعليقاته عن كفاح الكاتب مع الكلمات تعتبر تعليقات متسمة بالتنوير والتثقيف، إذ يشير في تعليقاته قائلاً: «لقد منح الإنسان الكلمات لكي يتمكن من إخفاء أفكاره» فهو يرى أن الكلمات عنيدة ومعاكسة ومضللة لأنها تنقل الحقائق والأكاذيب في نفس اللحظة، وسد الثغرة الموجودة ما بين التعبير والمعنى يمكن أن يتسبب في إحباط لا نهائي، وعدم مصداقية الكلمات تؤرقه وتستحوذ على تفكيره بل ويمكن للأسماء أن تصبح عديمة المعنى إذا تم فصلها عن المحتوى الإنساني، وهو يدعي «نحن لسنا ما نقوله وإنما نحن التصديق أو الاعتماد الذي يقدمه الآخرون لنا» وفي موضع واحد نجده يصل إلى الرأى الاستفزازى القائل

بأن «أفضل الكلمات هي تلك التي لا تقول أي شيء»، ومع ذلك نجد أن حشرات الحصاد البكماء الخرساء التي وردت في الرواية تخلق لنفسها الأغنية المميزة لها بشكل واضح واللغة البرتغالية ـ شأنها شأن اللغة الأسبانية ـ تميل لأن تكون لغة إطناب ممل علاوة على الاسراف في الزخارف والغنى في العواطف إلا أن نفس هذه الخصائص يمكن أن تصبح قاهرة للذات وجعلها من الناحية المفاهيمية غامضة ومشوشة وغير دقيقة، وساراماجو يتألق بين جيل جديد من الكتاب البرتغاليين الذين ينقلون بتصرات غير عادية بدون أي فقدان للوضوح أو الدقة.

والمشكلات التي يضعها ساراماجو أمام المترجم هي مشكلات كبيرة، فهو يتغاضى عن الاعراب والترقيم كما أنه يفضل السياق المتواصل لفقرات ممتدة ومطولة، والتوقفات يشار إليها دائماً من خلال الفواصل وعلامات الوقف الكاملة أما كافة أشكال الترقيم الأخرى مثل علامة الترقيم بنقطتين: «أو بعلامة تماماً عن الترقيم، أما حروف وكلمات الربط مثل: و. أو. لكن. فهي نادرا ما تستخدم ومن ناحية أخرى نجد أنه كثيراً ما يستخدم الحال أو الظرف كثيراً من أجل أن يشير إلى عدم اليقين أو التفكير والتأمل وبالنسبة للأزمنة فإنها تكون مثيرة للشكوك وذلك بسبب الانتقالات غير التقليدية وغير القويمة إلى الوراء والأمام من الماضي إلى الحاضر، كما نجد أيضاً أن الحوارات غير الخاضعة للترقيم تنتقل على نحو غير متوقع من الشخص الأول إلى الشخص الثاني إلى الشخص الثالث أو تنتقل من الكلام المباشر إلى مونولوجات داخلية.

وتشتمل الرواية على مساحة واسعة من المفردات اللغوية المتخصصة: كل شيء ابتداء من الطقوس الكنسية حتى الصراع الاستراتيجي وابتداء من الدعاية السياسية حتى النقاط الدقيقة المتعلقة

بالمصارعة، ولذلك فأنه ينبغي على المترجم أن يميز ما بين المثقف والمثقف الزائف ويفرق ما بين المتعلم والبدائي وما بين كلام الأحياء والأصوات الشبحية، ويجب على المترجم أن يعثر على مترادفات ملائمة من أجل مواجهة الأمثلة الشعبية التي لا حصر لها والتوريات والتلاعب بالألفاظ ومواجهة الأمثلة البارعة للتلاعب بالكلمة، كما أن التذبذبات ما بين الاستبطان الجاد والكلام الذي يقوله المهرج على انفراد وما بين البلاغة الشامخة واللغة العامة البليغة تستدعي وجود توافقات دقيقة إذا كان المترجم يأمل في أن يتوافق مع الفصاحة ومع الايقاع الرشيق الذكي للنص الأصلي.

وأخيرا يوجد هناك أمر بالغ الأهمية يتعلق بنماذج الصوت والمعنى فبالنسة لساراماجو يكون للون ودرجة الحرارة والموسيقى نفس أهمية الأفكار وصوته المتميز قد خلق «موسيقى الكلمة» الخاصة به الزئبقية الملائمة المتوافقة المعبرة في صدق شديد.

ونظراً لأن ساراماجو مقتنع بأن مهمة أي شخص يمتهن مهنة الكتابة هي أن يعمل على «توسيع العالم» فأنه يدعم رؤيتنا للطبيعة والجنس البشري بل ويذهب إلى ما هو أبعد من ذلك من خلال وخز ضميرنا وتحريك مشاعرنا، وفي النهاية فنحن نهتم اهتماما كبيرا بـ «الصوت الجبان للبرتغال» ونصادق على مناشدته لأن يُسمع في بيئة عالمية.

جيوفاني بونتيرو

(١)

هنا ينتهي البحر وتبدأ الأرض، يتساقط المطر فوق المدينة الشاحبة، مياه النهر ملوثة بالطين وضفاف النهر فاضت بالمياه، يصعد مركب داكن اللون ويسمى «هايلاند بريجيد» على النهر المعتم وهو على وشك أن يرسو عند رصيف ميناء القنطرة، والباخرة انجليزية وتنتمى لخطوط البريد الملكية، وهي تعبر المحيط الأطلنطى ما بين لندن وبيونيس أيريس مثل مكوك النسيج فوق الطرق العامة للبحر جيئة وذهابا مع التوقف في نفس الموانى: لا بلاتا نتفيديو، سانتوس ريودى جانيرو، بيرنامبوكو، لاس بالماس وفق هذا الترتيب أو بالعكس وإذا لم تتعرض هذه الباخرة للتحطيم فإنها ستتوقف أيضاً عند فيجو، وبولونى ـ سير ـ مير قبل أن تدخل إلى التميز مثلما تدخل الآن إلى التاجوس، ولا أحد يسأل عن أي النهرين أعظم أو أي المدينتين أعظم، وهي ليست مركبا كبيرا إذ تبلغ حمولتها ١٤ ألف طن ولكنها صالحة للإبحار تماماً وقادرة على مواجهة العواصف على النحو الذي كان يتم أثناء هذا العبور عندما ـ على الرغم من الطقس الردئ بصفة دائمة ـ لم يكن يتعرض لدوار البحر إلا أولئك الأشخاص غير المعتادين على رحلات المحيط أو أولئك المعتادين ولكنهم يعانون من متاعب في المعدة غير قابلة للشفاء.

ونظراً لأن هذه الباخرة تتميز بالجو العائلى علاوة على توفر وسائل الراحة بها فأنها أصبحت مشهورة بأنها ـ شأن الباخرة التي تسمى

«هايلاند مونارش» ـ باخرة العائلة، فكلتا الباخرتين مزودتان بظهر فسيح من أجل ممارسة الألعاب الرياضية وأخذ حمام شمسى بل أن لعبة الكريكيت وهي رياضة تحتاج لملعب ميدانى يمكن أن تمارس أيضاً على ظهر الباخرة مما يدل على أنه لا يوجد مستحيل بالنسبة للإمبراطورية البريطانية، وعندما يكون الطقس معتدلا تصبح «الهايلاند بريجيد»، بمثابة حديقة للأطفال وجنة للكبار، ولكن ليس اليوم لأن المطر يتساقط وهذه هي آخر فترة ما بعد الظهر لنا على متن هذه الباخرة وخلف الألواح الزجاجية للنوافذ المصطبغة بالأملاح يقوم الأطفال بالحملقة إلى الخارج نحو المدينة الرمادية، التي تقع منبسطة فوق التلال كأنها شيدت من منازل تتكون من طابق واحد، وربما هنالك يمكنك أن تلمح قبة عالية وجمالونا بارزا من نوع ما وخطاً حدودياً يوحي بوجود أطلال قلعة اللهم إلا إذا كان هذا بكل بساطة بمثابة وهم وانخداع وسراب ناجم عن الستارة المتحركة للمياه التي تسقط من السماء الرصاصية اللون والأطفال الأجانب الذين منحتهم طبيعتهم في مزيد من الكرم فضيلة حب الاستطلاع متلهفون لأن يعرفوا اسم الميناء، فيقوم أباؤهم وأمهاتهم بإخبارهم أو تقوم مربياتهم بتهجى الحروف أو ربما يقوم بالإرشاد بحار متجه في طريقه نحو القيام بمناورة ما، ليشبوا Lisboa أو ليشبون Lisbon أو ليشبون Lisbonne أو ليسابون Lissabon إذ توجد أربعة طرق مختلفة للنطق بهذه الكلمة إذا تركنا الأشكال المتنوعة والخاطئة.

وبذلك يبدأ الأطفال في معرفة أشياء لم يعرفونها من قبل، وهذا هو ما عرفوه بالفعل: لا شيء مجرد اسم، مما سبب المزيد من التشويش في عقولهم الصبيانية اسم ينطق باللهجة الغريبة على أهالي الأرجنتين إذا تصادف أن كانوا من الأرجنتين أو غريبة على أهلي أراجواي أو البرازيل أو أسبانيا.

ولدى خروج المسافرين من الباخرة ووضع أقدامهم على الأرض سارعوا إلى الاحتماء من الأمطار التي بدأت تهطل، ويتكلم الأجانب في غمغمة عن العاصفة كما لو كنا مسئولين عن الطقس الردىء ويبدو عليهم وكأنهم ينسون أن معشوقتهم فرنسا أو انجلترا عادة ما يكون الطقس بها أسوأ من ذلك بكثير، وباختصار فأنهم يستخدمون أبسط الذرائع بما في ذلك المطر الناجم عن الطبيعة لكي يعبروا عن احتقارهم للدول الفقيرة، ونحن لدينا أسباب جادة تدعونا للشكوى إلا إننا نظل ملتزمين بالصمت، يتم نقل الحقائب والأمتعة من الباخرة، والبحارة الذين يرتدون الكاب وهو رداء خارجى بلا كمين يطرح على الكتفين يبدون مثل السحرة المرتدون قبعة برنس على الرأس، بينما يوجد أسفل منهم العتالون البرتغاليون الذين يتحركون بسرعة وهم مرتدون قبعاتهم المستدقة وستراتهم القصيرة الواقية من الماء غير مبالين بالأمطار الغزيرة حتى أنهم يثيرون دهشة كل من يشاهدهم، وربما هذه اللامبالاة بالراحة الشخصية ستؤدي إلى تحريك أكياس نقود المسافرين لكي تنفق عليهم وبحيث تتحول هذه الشفقة إلى بقشيش، ويمّر المسافرون على الجمارك بأعداد قليلة ولكنهم سيستغرقون بعض الوقت قبل أن يخرجو حيث توجد استمارات عديدة ينبغي ملؤها، الجو يتجه نحو الظلام رغم أن الوقت لم يتجاوز الساعة الرابعة، وبعد تكون المزيد من الظلال الأخرى القليلة سيحل الليل ولكن هنا يكون الليل متواصلا دائما، ولذلك فإن المصابيح المعتمة تكون مضاءة طوال فترة النهار مما جعل بعضها يتعرض للاحتراق، وتلك اللمبة قد ظلت محترقة على مدى أسبوع ولم يتم استبدالها حتى الآن، والهواء الثقيل له رائحة الملابس الرطبة ورائحة الامتعة الزنخة ورائحة القماش الرخيص للزي الرسمي ولا يوجد أثر للسعادة في هذه العودة للوطن.

يقوم شخص أشيب نحيل للغاية، جلد على عظم، بالتوقيع على الاستمارة الأخيرة، ولدى تلقى المسافر نسخاً من الاستمارات فإنه يمكن له أن يذهب ويستأنف حياته على اليابسة يصطحبه عتال لا يحتاج مظهره الخارجى لأن يوصف بالتفصيل، يكفي أن نقول إن هذا العتال أشيب ونحيل وداكن اللون وحليق الذقن تماماً مثل الرجل الذي يصطحبه، ومع ذلك فهما مختلفان تماما: أحدهما مسافر والآخر عتال، والأخير يسحب حقيبة كبيرة موجودة فوق عربة كارو معدنية، بينما الحقيبتان الأخريان الصغيرتان نسبيا معلقتان في رقبته بشريط يلف حول القفا مثل ياقة رداء الراهب، وما أن يصبح خارج المبنى يضع الأمتعة على الأرض تحت حماية السقف الناتئ ويذهب للبحث على تاكسي، وعادة ما تكون التاكسيات منتظرة هنا عندما تجئ باخرة وينظر المسافر إلى السحب المنخفضة وبرك الماء الموجودة على الأرض وإلى المياه القريبة من رصيف الماء والملوثة بالزيت وإلى القشور والنفايات والفضلات من كل نوع ثم يتراءى له وجود العديد من السفن الحربية التي تعترض سبيل أيّ شيء، أنه لم يتوقع رؤية هذه السفن الحربية هنا، فالمكان الملائم لمثل هذه السفن هو عرض البحر أو عندما لا تكون مشتبكة في حرب أو مناورات عسكرية ينبغي أن توجد عند مصبّ النهر المتسع للغاية بحيث يمكن أن يضّم كافة الأساطيل بالعالم، وبزغ مسافرون أخرون من مبنى الجمارك مصحوبين بالعتالين التابعين لهم ثم ظهر التاكسي مطرطشا الماء تحت عجلاته، ويقول المسافر:

ليس لديّ سوى نقود إنجليزية، فيقول العتال: هذا رائع ثم شاهد عشرة شلنات توضع في يده اليمنى وقد سطعت العملات المعدنية في بريق يفوق بريق الشمس ذاتها، وأدرك العتال أن المسافر يعتبر كريما للغاية فأراد أن يردّ على الكرم بأن يدلى ببعض المعلومات عن السفن

الحربية: إنها زوارق طوربيدو، إنها تابعة لنا، إنها برتغالية، فهذه هي التيجو والداء ووالليما، الفوجا والتاميجا والداء وهي أقرب زورق حربي اليك، ولم يكن بمقدور أحد أن يعرف الفارق بينها فهي تشبه بعضها البعض ومتماثلة ومطلية كلها باللون الرمادي الكئيب، ومغسولة بسبب سقوط الأمطار ولا يوجد على متنها أيّ دليل للحياة وأعلامها منقوعة في الماء مثل الأسمال البالية، ولكن لا يُقصد من وراء ذلك أي عدم احترام ونحن نعرف أن اسم هذه المدمرة هو الداء وربما سنحصل على أنباء عنها فيما بعد.

ويرفع العتال قبعته للتحية ولشكره، ثم انطلق التاكسي، إلى أين؟، وهذا السؤال الطبيعي للغاية البسيط للغاية المتلائم تماماً مع المكان والظروف يأخذ المسافر على حين غرّة كما لو أن التذكرة المشتراة في ريودى جانيرو ينبغي أن تقدم الاجابة على مثل هذه الأسئلة بل وعن الأسئلة التي وجهت في الماضي والتي قوبلت في ذلك الوقت بالصمت، والآن يرى المسافر الذي نزل توا من الباخرة أن هذا السؤال ليس على ذلك النحو ربما بسبب أنه قد سئل بأحد السؤالين القدريين، إلى أين، أماً السؤال القدرى الآخر والذي يعتبر أسوأ بكثير فهو: لماذا فنظر سائق التاكسي في المرآة الخلفية بعد أن أعتقد أن المسافر لم يسمع تساؤله، وبدأ يفتح فه لكي يكرر السؤال: إلى أين ولكن الاجابة وصلته أولا، إلا وعدم الحسم: إلى فندق، أي فندق، لا أعرف، وما أن قال المسافر لا أعرف حتى أدرك على الفور وفي دقة ما كان يرغب فيه وأدرك ذلك في اقتناع شديد كما لو كان قد أمضى رحلته كلها في اتخاذ القرار، إنه فندق قريب من النهر ويقع في هذا الجزء من المدينة، والفندق الوحيد القريب من النهر هو فندق براجانسا والذي يقع عند

بداية شارع روا دو الكريم، إنني لا أتذكر الفندق ولكنني أعرف مكان الشارع، فقد اعتدت أن أعيش في لشبونة فأنا برتغالي، آه أنت برتغالي، من لهجة كلامك أعتقدت أنك ربما تكون برازيليا، هل اللهجة البرازيلية لدى واضحة للغاية، حسناً يوجد قدر ضئيل من اللهجة يكفي لمعرفة الفارق، إنني لم أعد إلى البرتغال منذ ستة عشر عاما، ستة عشر عاما تعتبر فترة طويلة، سوف تكتشف أن الأشياء تغيرت هنا كثيراً، وعقب قول السائق لهذه الكلمات لاذ بالصمت على نحو فجائي.

لكن المسافر لم يتكون لديه انطباع عن حدوث تغييرات كثيرة، فالطريق الذي انطلقا عليه كان على النحو الذي يتذكره إلى حد كبير، كل ما هنالك أن الأشجار على جانبي الطريق بدت أكثر طولا ولا عجب في ذلك حيث كان أمامها ١٦ عاما لكي تنمو، لقد تلاشى المطر لم يعد يسقط سوى قطرات قليلة متفرقة ولكن في السماء لا يوجد أي أثر للون الأزرق لأن السحب لم تنقشع وأنما شكلت سقفاً شاسعاً واحداً له لون رصاصي، وتساءل المسافر: أكانت هناك كميات هائلة من الأمطار؟، أجاب السائق وهو يوقف تشغيل مساحات الزجاج الأمامي: ظلت تمطر على مدى الشهرين الأخيرين مثل فيضان هائل، وكانت السيارات تمر بأعداد قليلة والترام بأعداد أقل والمترجم في الشارع بطريق الصدفة أغلق مظلته في إعياء وعلى طول أرصفة الشارع كانت توجد بركات كبيرة من الماء ناجمة عن البالوعات المسدودة، والعديد من البارات كانت مفتوحة وموجودة إلى جوار بعضها البعض وضبابية وكانت أنوارها اللزجة محاطة بالظلال وتوجد الصورة الصامتة لكأس خمر قذرة موجودة على كاونتر من الزنك، وهذه الواجهات هي الجدار الهائل الذي يحجب المدينة والتاكسي يطوف بها بدون تسرع كما لو كان يبحث

عن انكسار ما أو فتحة أو بوابة يهوذا الاسخريوطي الذي خان السيد المسيح أو يبحث عن المدخل المؤدي إلى متاهة، ويمر القطار القادم من كاسكيس في بطء ولكن بسرعة تكفي لأن يتخطى التاكسي إلا أنه بعدئذ يبطئ أكثر من سرعته ويدخل إلى المحطة في اللحظة التي يتجه فيها التاكسي إلى الميدان ويقول سائق التاكسي له: الفندق هو الذي ستراه لدى دخولك إلى الشارع، ثم توقف أمام مقهي وأضاف قائلاً: عليك أن تسأل عما إذا كان لديهم أي غرف شاغرة ويمكنني إيقاف السيارة في المكان المخصص بعيداً عن باب الفندق وذلك بسبب وجود الترام، فخرج المسافر من التاكسي وألقى نظرة خاطفة على المقهى الذي كان يسمى «رويال» وهو نموذج تجاري للحنين للنظام الملكي في عهد جمهوري ومتنكر هنا تحت ظل اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، إنه موقف عجيب، المرء ينظر إلى كلمة رويال بدون أن يعرف ما إذا كان ينبغي أن تنطق وكان لديه متسعا من الوقت لكي يفكر في هذه المشكلة لأن المطر كان قد توقف تماماً ولأن الطريق كان يتجه صاعدا، وبعدئذ تخيل نفسه هابطاً وعائداً من الفندق بعد أن يكون قد حصل أو لم يحصل على غرفة فلا يرى أي أثر للتاكسي لأنه قد اختفي وبه كل أمتعته وملابسه وأوراقه وتعجب كيف يمكنه أن يوجد بعد أن حرم من هذه الأشياء ومن كافة أموره الدنيوية، ومع صعود السلالم الأمامية للفندق أدرك أنه من خلال الاستغراق في التفكير على ذلك النحو كان مرهقا وكان يعانى من تعب شديد وتعب لا نهائي من احساسه باليأس إذا كنا نعرف حقاً معنى كلمة يأس عندما ننطق بها.

ولدى دفعه باب الفندق لكي يفتح دوى أزيز كهربائي، في فترة ما بالماضي كان يوجد مجرد جرس صغير عادي ولكن ينبغي على المرء أن

يعتمد دائماً على التقدّم والتطور والتحسينات، وظل المسافر يصعد على سلالم لا نهائية.

وبدا من غير المعقول أنه ينبغي على المرء الصعود إلى هذه المسافات الطويلة لكي يصل إلى الطابق الأول، وكان الأمر أشبه ما يكون بالصعود إلى قمة جبل إفريست وهو عمل بطولى فذ ما زال حلما ويوتوبيا بالنسبة لكل متسلق للجبال وشعر بالارتياح أشلدى ظهور رجل له شارب عند قمة السلالم يقدم كلمات التشجيع: إذن فقد تمكنت من الصعود ولم يقل الرجل هذه الكلمات لكنها يمكن أن تكون تفسيرا للنظرة التي بدت على وجهه لدى استناده على سلم المبنى لكي يتفحص الرياح المواتية والأوقات العصيبة التي أدت إلى احضار هذا الضيف، مساء الخير يا سيدي، فرد: مساء الخير لم يكن قد تبقت لديه أنفاس تعينه على قول المزيد من الكلمات، ابتسم الرجل ذو الشارب في صبر، أنت بحاجة إلى غرفة وتصبح الابتسامة شبيهة بابتسامة شخص يعتذر وهو يضيف قائلاً: لا توجد غرف في الدور الأول، إذ لا توجد به سوى صالة الاستقبال وصالة الطعام وردهة الانتظار، ومن هنا يوجد المطبخ والمخزن وحجرة الأطعمة الباردة فالغرف في الدور العلوي، ولكي نتفحصها علينا الصعود إلى الدور الثاني، هذه الغرفة ليست ملائمة فهي صغيرة وكئيبة ولا هذه الغرفة أيضاً فهي تطل على المنظر الخلفى وهما مشغولتان، إنني أريد غرفة مطلة على النهر، آه في هذه الحالة فإن الغرفة رقم ٢٠١ سوف تعجبك وهي قد أخليت في هذا الصباح فقط ولسوف أريك إياها الآن.

وافق المسافر على الغرفة أو الغرفتين إذا توخينا الدقة لأنهما غرفتان متصلتان بمدخل له قنطرة حيث يوجد على ذلك الجانب غرفة النوم

والتي كانت توصف ذات يوم بأنها فجوة في جدار وعلى هذا الجانب توجد غرفة الجلوس وهي تعتبر شقة ملائمة مثل أي شقة وبها أثاث داكن من الخشب الماهوجانى وبها ستائر على النوافذ وكمَّة للمصابيح، سمع المسافر صراخ ترام ينطلق صاعدا على الشارع، لقد كان سائق التاكسي على صواب، وبدأ الأمر وكأن فترة طويلة للغاية قد انقضت منذ أن ترك المسافر التاكسي منتظرا وابتسم لنفسه عندما تذكر المخاوف التي راودته عن احتمال قيام سائق التاكسي بسرقته، هل تعجبك هذه الغرفة؟ نعم، إنها على ما يرام سأخذها وما هو عدد الأيام التي ستمضيها هنا لا أستطيع أن أخبرك فذلك يتوقف على الوقت الذي تستغرقه تسوية شئوني، أنه الحوار العادي، أنه الحوار الذي يتوقعه المرء في مثل هذه المواقف ولكن في هذه المرة يوجد عنصر للكذب لأن المسافر ليس لديه شئون تتطلب التسوية في لشبونة ولا يوجد لديه شئون تستحق كلمة شئون فهو قد قال كذبة وهو الذي أعلن ذات مرة أنه يحتقر عدم الدقة.

هبطا إلى الدور الأول وقام المدير باستدعاء ـ موظف وهو ساعي وشّيال للأمتعة ـ وأرسله لكي يذهب ويحضر حقائب الجنتلمان، وكان التاكسي منتظرا أمام المقهي ونزل المسافر معه لكي يدفع أجرة التاكسي، وصعد الشيال وهو يحمل الأمتعة على كتفيه، وقال المدير: عليك بالصعود يا بيمينتا إلى الغرفة ٢٠١ في هذه المرة الحظ يحالف بيمينتا لأنه لن يضطر إلى الصعود إلى الأدوار الأكثر ارتفاعاً.

وفي تلك الأثناء يعود الضيف إلى مكتب الاستقبال وهو لاهث الأنفاس بعد أن بْذل كل ذلك المجهود، ويأخذ القلم ويسجل البيانات الرئيسية عن نفسه في السجل الخاص بالقادمين إلى الفندق حتى يعرف من يكون هو وذلك في لإطار الملائم الموجود على الصفحة المليئة بالسطور.

الاسم: ريكاردو ريس

العمر: ٤٨ سنة

مكان الميلاد: أوبورتو

الحالة الاجتماعية: أعزب

المهنة: دكتور

آخر مكان كان يقيم فيه: ريو دى جانيرو من البرازيل ووصل من هناك على ظهر الباخرة: «هايلاند بريجيد» هذا يبدو مثل بداية اعتراف أو مثل سيرة ذاتية متسمة بالطابع الشخصى للغاية، كل ما هو مخبأ يكون متضمنا في هذه السطور المكتوبة بخط اليد والمشكلة الوحيدة تكمن في تفسيرها، والمدير الذي كان يمد رقبته لكي يتابع الربط بين الكلمات مع التوصل إلى المعنى في نفس الوقت يعتقد أنه يعرف كل شيء تقريبا، وهو يعرف نفسه مبتدئاً بكلمة: دكتور ولا يقصد بهذا التملق والإطراء وإنما كدليل على الاحترام بعض الشيء، فيقول المدير: اسمي سلفادور وأنا المسئول عن هذا الفندق وإذا كنت ترغب في أي شيء يا دكتور عليك فقط بأن تخبرني بما تريد، في أي وقت تقدمون وجبة العشاء، يقدم العشاء في الساعة الثامنة يا دكتور وآمل أن تجد مطبخاً مرضياً ونحن نقدم أيضاً الأطباق الفرنسية، ويومئ الدكتور ريكاردو ريس برأسه بما يفيد أنه يشارك في ذلك الأمل ثم يسترد قبعته ومعطف المطر الخاص به من فوق الكرسي وينسحب.

وكان الحمال في انتظاره في المدخل المفتوح لغرفته، وأدرك الحمال من خلال خبرته الطويلة أن البقشيش كبير وذلك بدون أن ينظر إليه فظهر على وجهه الرضا والارتياح وقال: شكرا جزيلا يا دكتور، ولا نستطيع أن نوضح كيف عرف لأنه لم يشاهد سجل القادمين للفندق.

وجلس ريكاردو ريس على كرسى وراح ينظر فيما حوله، هذا هو المكان الذي سيعيش فيه ومن يدرى كم عدد الأيام التي سيقضيها هنا وربما سيقوم باستئجار منزل وفتح غرف للاستشارة أو ربما سيقرر العودة إلى البرازيل، ولكن بالنسبة للوقت الحالي سيفي الفندق بالغرض المطلوب، فهو مكان محايد ولا يتطلب أي التزامات، أنه في فترة ترانزيت انتقالية وحياته معلقة، وإلى ما وراء الستائر الناعمة اصبحت النوافذ مضيئة على نحو فجائي وهو تأثير ناجم عن مصابيح الشارع، أصبح الوقت متأخر للغاية ولقد انتهي هذا اليوم وما يتبقى يرفرف في المسافة البعيدة فوق البحر ويهرب بسرعة، ومع ذلك فمنذ ساعات قليلة فقط كان ريكاردو ريس ما زال مبحرا فوق المياه والآن يوجد الأفق على مسافة ذراع ويجسد من خلال حوائط وقطع أثاث تعكس الضوء مثل مرآة سوداء وبدلا من الذبذبة العميقة لماكينات الباخرة يكون بمقدوره سماع همس وتمتمة المدينة، ستمائه ألف شخص يتنهدون ويصيحون وينادون من على مسافة ثم يترامى صوت وقع أقدام حذرة في الطرقة وصوت إمرأة تقول سأجيئ على الفور هذه الكلمات وهذا الصوت من المؤكد إنها الخادمة، قام بفتح إحدى النوافذ ونظر إلى الخارج لقد توقف المطر تماماً، الهواء المنعش الرطب مع الرياح التي كانت تجتاح فوق النهر انتشر في أرجاء الغرفة وأزال الرائحة العفنة وهي رائحة الملابس الكتانية القذرة التي نسيت في أحد الأدراج.

وترك النافذة مفتوحة وذهب لكي يفتح نافذة أخرى وبعد أن انتعشت أكمام قميصه استعاد نشاطه على نحو فجائي، ففي خلال نصف ساعة كان قد أفرغ محتويات حقائبه ونقل ملابسه إلى خزانة الملابس ذات الأدراج، ونقل أحذيته إلى الحامل الخاص بالأحذية، وحلله إلى المشاجب الموجودة في الدولاب ثم نقل حقيبته السوداء المحتوية على

الأدوات الطبية إلى فجوة مظلمة في داخل الدولاب، أما الكتب القليلة التي أحضرها معه فإنها وضعت على رف بعض الكلاسيكيات اللاتينية التي حصل عليها بدافع عادة القراءة وبعض الدواوين الخاصة بالشعراء الإنجليز المفضلين لديه وثلاثة أو أربعة كتب من تأليف كتاب برازيليين وأقل من ١٢ كتابا برتغاليين ووجد بين الكتب كتابا كان قد استعاره من مكتبة الباخرة «هايلاند بريجيد» ونسى أن يعيده لو أن أمين المكتبة الإيرلندي اكتشف ضياع الكتاب سيوجه اتهامات خطيرة ضد الأمة اللوزيتانية التي هي أراضى العبيد واللصوص وقطاع الطرق مثلما قال الشاعر بايرون عنها في سخرية ومثلما سيتفق معه في الرأي أوبريان، فالتعديات والانتهاكات البسيطة المحلية غالبا ما تؤدى إلى نتائج مدوية وعالمية، ولكنني برئ وأقسم أن المسألة كانت مجرد نسيان من جانبي ولا شيء أكثر من ذلك ووضع الكتاب بجوار سريره على أمل أن ينتهي من قراءته خلال أحد هذه الأيام، أنه كتاب تحت عنوان «إله المتاهة» من تأليف هربوت كوائين وهو إيرلندي، ومن المؤكد أن عنوان هذا الكتاب قد جذب انتباهه، متاهة مع إله، ترى من يكون ذلك الاله وما هي تلك المتاهة وما هو ذلك الاله المتاهي، وفي النهاية اتضح أن الكتاب مجرد قصة بوليسية بسيطة قصة عادية عن حالة وفاة وتحريات وعن القاتل والضحية وأخيرا البوليس السري.

وهناك أيضاً وثائق ينبغي صيانتها وهي أوراق مكتوب عليها شعر بخط اليد وأقدم هذه الأوراق مؤرخ بتاريخ ١٢ يونيو ١٩١٤ وكانت الحرب الظمى على وشك الاندلاع ولقد سميت بالحرب العظمى إلى أن عاش الناس تجربة حرب أخرى أكثر عظمة، وكانت أحدث وثيقة مؤرخة بتاريخ ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ وقد جاء بها ما يلي: «أناس لا حصر لهم يعيشون بيننا، إذا كنت أفكر وأشعر فإنني لا أعرف من الذي يفكر

ويشعر فأنا لست سوى المكان الذي يوجد به التفكير والشعور»، وقام بتجميع هذه الأوراق مع بعضها البعض ووضعها في أحد أدراج المكتب الصغير الخاص بالكتابة، ثم أغلق النوافذ وذهب ليفتح المياه الساخنة لكي يأخذ حماما، كان الوقت قد تجاوز الساعة السابعة.

وعندما دقت الساعة الثامنة في ساعة الحائط البندولية التي تزين الحائط فوق مكتب الاستقبال نزل ريكاردو ريس إلى غرفة الطعام، فابتسم المدير سلفادور رافعا شاربه فوق أسنانه غير النظيفة لدى إسراعه للأمام لكي يفتح الباب المزدوج الذي كتب على لوحته الزجاجية حرف H وحرف B بطريقة زخرفية مما أضفي الوقار على هذا الفندق المتواضع، وقاد الطريق المترودوتيل، لم يكن يوجد نزلاء آخرون في صالة الطعام، وكان بالمستطاع سماع أصوات مترامية من خلف باب حجرة إعداد الأطعمة وكانت توجد أضواء معتمة قليلة عل السقف والحوائط ومفارش من القماش الأبيض على المناضد وأصبح ريكاردو ريس جالسا الآن، ويقول له المتردوتيل أصناف الطعام المذكورة في قائمة الطعام، الحساء والسمك واللحوم والسمك والحساء، وينبغي على أن أنصحك بتناول هذا الطعام الخفيف إلى أن تصبح معتادا على تناول هذا الطعام الجديد طالما أنك رجعت توا من المناطق الاستوائية عقب غياب دام ستة عشر عاما، إذ فهم حتى في المطعم ومكتب الاستقبال ودخل إلى المطعم رجل وزوجته وطفلان صغيران ولد وبنت كلاهما في لون الشمع رغم أن والديهما كانا متوردين وكان رب الأسرة يسير في الأمام لكي يرشد ويوجه قبيلته بينما الأم تدفع طفليهما إلى الأمام من الخلف، ثم ظهر رجل ممتلئ وثقيل الوزن وتوجد على بطنه سلسلة ذهبية ممتة من جيب صديريته إلى جيب آخر، ثم ظهر بعده على الفور رجل آخر نحيل للغاية قد ارتدى رباط عنق أسود اللون وشريط

حداد على ذراعه، ولم يظهر أي شخص آخر على مدى الربع ساعة التالية، وكان بالمستطاع سماع صليل سكاكين المائدة لدى ارتطامها بالأطباق، وقام والد الطفلين بالطرق بالسكين على كأس الخمر لكي يستدعي النادل فانزعج الرجل النحيل الحزين وألقى نظرة قاسية عليه ولكن الرجل الممتلئ استمر في مضغ الطعام في هدوء وترامى صوت تشويش واقع على زجاج النوافذ مما جعله يدرك أن المطر قد بدأ في الهطول مرة أخرى، هذه النوافذ لا تطل على شارع روا دو الكريم، ترى ما اسم هذا الشارع الآخر، ولا يستطيع تذكر اسمه ولكن النادل جاء لكي يستبدل أطباقه قال قبل أن يسأله ريكاردو ريس أنه شارع «روا نوفا دو كارفالهو» يا دكتور هل أعجبك الحساء ومن النطق الجيد للجرسون يمكن للمرء أن يقول أنه من بلاد الغال الفرنسية.

دخل رجل كهل طويل ذو مظهر متميز وله وجه مستطيل ومعه فتاة نحيلة في العشرينيات من عمرها، شقا طريقهما نحو المنضدة المواجهة لريكاردو ريس ثم اتضح أن المنضدة كانت في انتظارهما من المؤكد أنهما زبونان منتظمان ولربما يكونان الشخصين اللذين يمتلكان الفندق، وهذان الشخصان سواء أكانا مالكي الفندق أم لا عبرا صالة الطعام في حرية كبيرة كما لو كان في داخل منزلهما، مثل هذه التفاصيل يمكن لك أن تلحظها إذا ركزت انتباهك، وجلست الفتاة في بروفيل جانبي بينما جلس الرجل معطيا ظهرة نحو ريكاردو ريس وراحا يتحدثان في همس ولكنها رفعت صوتها عندما قالت له في تأكيد لا يا والدي فأنا على ما يرام، إذن، إذن فهما أب وابنته اقتران غير عادي في أي فندق في هذه الأيام وجاء الجرسون لكي يقوم بالتخديم عليهما وقد ظهر عليه الوقار وروح الصداقة في آن واحد ثم انصرف ودب الصمت في غرفة الطعام مرة أخرى ولا حتى الأطفال رفعوا أصواتهم، انتهت الفتاة النحيلة من

تناول الحساء ووضعت المعلقة وبدأت يدها اليمنى في التربيت على يدها اليسرى كما لو كانت كلباً صغيراً مستلقياً على ركبتيها، ويندهش ريكاردو ريس من هذا المنظر ثم أدرك أن يدها اليسرى لم تتحرك أبداً ويذكر أنها استخدمت يدها اليمنى فقط لكي تطوى ورقة السفرة الخاصة بها وهي الآن تمسك باليد اليسرى لكي تضعها على المنضدة في رفق شديد وكأنها تتعامل مع بللور رقيق للغاية وقابل للانكسار ولاحظ ريكاردو ريس أن الأطباق التي تجئ للفتاة جاهزة للتناول إذ تكون عظام الأسماك قد أزيلت من السمك وتكون قطعة اللحم مقطعة إلى مكعبات صغيرة وتكون الفاكهة مقشورة ومقطعة إلى شرائح، ومن الواضح أن هذه الأبنة وأباها معروفان تماماً للعاملين في الفندق ولعلهما مقيمان في الفندق بصفة دائمة، انتهي ريكاردو ريس من تناول طعامه ولكنه تلكأ قليلا لكي يسمح للوقت ولكن أي وقت ولماذا، وأخيرا نهض واقفا وجذب كرسيه إلى الوراء محدثا صوتا ربما كان عاليا للغاية مما جعل الفتاة تستدير وهي إذا شوهد وجهها بالكامل تبدو أكبر في السن من عشرين عاما ولكن في البروفيل يرجع شبابها على الفور، إذ تبدو رقبتها طويلة وهشة ويبدو ذقنها مشكلا على نحو جميل وخرج ريكاردو ريس عن المنضدة واتجه نحو الباب الزجاجي واضطر لتبادل التحية مع الرجل الممتلئ الذي يغادر المكان أيضاً في نفس اللحظة، شكرا لك يا سيدي لو سمحت سوف أخرج بعدك، وكان ينبغي أن يمر ريكاردو ريس من الباب أولا لأنه يضم في كيانه أناسا عديدين وفق الفهم الخاص به عن نفسه.

المدير سلفادور ممسكا بالفعل بمفتاح الغرفة رقم ٢٠١ ويقوم بحركة متسمة بالقلق كما لو كان بصدد تسليم المفتاح لريكاردو ريس لكنه يتراجع عن ذلك في خبث، ربما الضيف في التسلل خارجا من الفندق

في هدوء لكي يعيش في أجواء لشبونة بالليل وفي مباهجها السرية بعد أن أمضى سنوات عديدة للغاية في البرازيل وأياما عديدة للغاية عابرا المحيط الاطلنطى رغم أن الليالى الشتوية تجعل الجو الدافئ في قاعة الانتظار بالفندق أكثر متعة إذ تتوفر به الكراسي الفوتي العميقة الجلدية ذات الظهر العالى، كما توجد تلك المرآة الكبيرة التي تطوق القاعة بأكملها وتضاعفها في بعد آخر، وهنا يتأمل ريكاردو ريس في أعماق المرآة ويشاهد نفسه متكررا في شكل أشخاص لا حصر لهم في داخل المرآة بينما يطل الارهاق والتعب من جميع وجوههم، سأصعد إلى غرفتي إنني مرهق عقب الرحلة التي قمت بها حيث أمضيت أسبوعين كاملين مليئين بجو رهيب للغاية ألديك من قبيل المصادفات أية جرائد فأنا أريد القاء نظرة سريعة على الأنباء الوطنية إلى أن أشعر بالرغبة في النوم، الجرائد والصحف موجودة يا دكتور، خذ منها مايروق لك وفي هذه اللحظة دخلت الفتاة ذات اليد المشلولة ومعها والدها إلى قاعة الانتظار وهو يسير أمامها ويسبقها بخطوة واحدة كان ريكاردو ريس قد التقط بالفعل مفتاحه والجرائد التي كانت في لون الرماد والتي كانت حروف طباعتها ضبابية وغير واضحة.

الأريكة في غرفته مريحة، ومجموعات الزنبرك التي اضطجعت عليها أجساد عديدة للغاية تشكل تجويفا بشريا والضوء الصادر عن المصباح الواقف على منضدة الكتابة ينير الجريدة عند الزاوية الصحيحة، هذا الوضع شبيه بالوجود بالمنزل في حضن العائلة وبجوار الموقد الذي لا أمتلكه وربما لن أمتلكه ابدا في أي وقت من الأوقات، هذه جرائد بلدى البرتغال وتخبرنى هذه الجرائد بأن رئيس الدولة قد افتتح معرضا تكريما لموسينهو دى ألبوكيركيو في المكتب الاستعمارى فالمرء لا يسمح له بأن ينسى الشخصيات الاستعمارية وهناك ما يثير القلق في جوليجا بل

إنني لا أتذكر المكان الذي توجد فيه آه نعم أنها في مديرية ريباتيجو لأن الفيضانات قد تفجر السد الذي يعرف باسم فينتا وهذا اسم عجيب للغاية، ترى من أين جاء هذا الاسم لسوف نرى تكرارا لكارثة عام ١٨٩٥ ، في عام ١٨٩٥ كان عمرى ثمانى سنوات ومن الطبيعي ألا أتذكر، أطول امرأة في العالم هي الزا درويون حيث يبلغ طولها مترين ونصف المتر، ولم ترتفع المياه كثيراً إلى هذه الدرجة، وتلك الفتاة ترى ما اسمها تلك اليد المشلولة اللينة للغاية ربما كان ذلك ناجما عن مرض أو حادثة، المسابقة القومية الخامسة للجمال للأطفال الرضع نصف صفحة من الصور الفوتوغرافية للأطفال العارية تماماً وطيات الشحوم بارزة فقد تغذوا على لبن البودرة، بعض هؤلاء الأطفال سيكبرون لكي يصبحوا مجرمين ومتشردين وموسات، العمليات الحربية في أثيوبيا تستمر، ما هي الأخبار عن البرازيل، لا شيء جديد بعد أن تدمر كل شيء تقدم شامل للقوات الإيطالية لا توجد قوة بشرية قادرة على إيقاف الجندى الايطالى في هجومه البطوى والذي يمكن أن تحققه البندقية الحبشية ضد الجندى الإيطالي المحامي الخاص بلاعبة رياضية قد أعلن أنها أجريت لها عملية جراحية كبيرة لكي تغير جنسها في خلال أيام قليلة ستصبح رجلا وهي لا تنسى أن تغير اسمها أيضاً ما هو الاسم أنه بوكاج أمام محكمة التفتيش المقدسة، ورسم بريشة الفنان فرناندو سانتوس فالفنون الجميلة متقدمة في هذه الدولة وفي كوليو يعرضون الاعجوبة الأخيرة مع فانيس ميرليس وهي شكل شبيه بالتمثال مغلف بالفضة وهي قطعة فنية برازيلية مشهورة.

لقد فاتني أن أشاهدها في البرازيل إنها غلطتى، وهنا في لشبونة يمكن للمرء الحصول على مقعد في صالة عرض مقابل ثلاثة اسكود والحصول على مقعد أمامى بالمسرح في مقابل خمسة اسكود، ويوجد

هناك عرضان يوميا وعروض ماتينيه في أيام الأحد، ومسرح البوليتيما يعرض مسرحية الحروب الصليبية وهي ملحمة رائعة ومثيرة فرق عديدة من القوات الإنجليزية قد دخلت إلى مدينة بورسعيد، كل عصر له الحروب الصليبية الخاصة به وهذه هي الحروب الصليبية للأزمة الحديثة وهناك شائعات تفيد أنهم يتجهون نحو حدود ليبيا التي يحتلها الايطاليون، توجد قائمة باسماء البرتغاليين الذين ماتوا في البرازيل أثناء النصف الأول من ديسمبر، هذه الأسماء غير معروفة لي، لست بحاجة لأن أعبر عن تعاطفي أو ارتداء ملابس الحداد ولكن من الواضح أن عددا كبيرا من المهاجرين البرتغاليين يموتون هناك، مهرجانات المؤسسات الخيرية مع تقديم العشاء المجانى للفقراء في جميع أرجاء البلاد لقد تحسنت نوعية الطعام في التكيات التي يقيم فيها الفقراء، والكهول يعاملون معاملة جيدة للغاية في البرتغال ناهيك عن الأطفال المشردين حيث تترك بعض الأزهار من أجلهم في الشوارع، ثم هذا الخبر: رئيس مجلس مدينة أوبورتو بعث ببرقية للسيد وزير الداخلية، في جلسة اليوم قرر المجلس الذي أترأسه ـ عقب المناقشات التي دارت بشأن القرار الخاص بتقديم المساعدات للفقراء طوال فترة الشتاء ـ تهنئة سيادتكم على هذا المشروع المثير للاعجاب وأخبار أخرى، تلوث أحواض مياه الشرب بروث الماشية وانتشار مرض الجدرى في ليبوكادو وفي فاتيلا وانتشار الانفلونزا في بورتا ليجر وانتشار حتى التيفود في فالبوم وفتاة تبلغ من العمر ١٦ عاما ماتت بسبب أصابتها بمرض الجدري زهرة ريفية فُلَّة فصلت في قسوة عن ساقها قبل الأوان، لديّ كلبة من نوع الفوكسهاوند وهي ليست صريحة النسب، وهي قد ولدت مرتين وفي كل مرة اكتشف أنها كانت تأكل صغارها كلهم بدون أن يتمكن أي واحد من الصغار من الهرب فقل لي يا دكتور: ما الذي

ينبغي على أن أفعله، ردا على سؤالك يا عزيزي نقول أن أكل الحيوان لحوم حيوان من نفس جنسه وأكل الكلبة لصغارها يرجع عادة إلى سوء التغذية أثناء فترة الحمل، فالكلبة ينبغي أن تطعم جيدا باللحوم حيث أن اللحوم هي غذاؤها الرئيسي ثم يستكمل الطعام بتقديم اللبن والخبز والخضروات بحيث يكون الطعام متوازنا، فإذا لم تغير هذه الكلبة من عاداتها وطبائعها عندئذ لا يكون هناك علاج مفيد لها، وعليك أما أن تدمر هذه الكلبة أو لا تسمح لها بالتزاوج وممارسة الجنس وأجعلها تصر على الاهتياج الجنسي، والآن هيا بنا لكي نحاول أن نتخيل ما يمكن أن يحدث لو أن النساء اللائي تعانين من سوء التغذية أثناء فترة الحمل وتعانين من الحرمان من اللحوم والخبز والخضروات وهو أمر شائع بعض الشيء سيبدأن أيضاً في أكل أطفالهن الرضع، وبعد أن نحاول تخيل ذلك وبعد أن يتأكد لنا أن مثل هذه الجرائم لا تحدث يصبح من السهل علينا أن نشاهد الفارق بين الناس والحيوانات الناشر لم يقم بإضافة هذه التعليقات ولم يفعل ذلك ريكاردو ريس الذي يفكر في شيء ما آخر ألا وهو إعطاء باسم لهذه الكلبة، أنه لن يطلق عليها اسم ديانا أو لامبرادا وإنما سيعطيها اسم من أجل القاء الضوء على جريمتها أو دوافعها وهل هذه المخلوقة الشريرة ستموت إذا تم تقديم طعام مسموم لها أو إذا قام صاحبها باطلاق النيران عليها من بندقية ويصر ريكاردو ريس وأخيرا يعثر على الاسم الملائم، أنه اسم يجيئ من أوجولينو ديلا غيرار ديسكا وهو ذلك النوبلمان الشديد الوحشية الشهوانى الذي أكل أطفاله وأحفاده حيث توجد شواهد ودلائل على ذلك وردت في كتاب تاريخ أفراد العائلة الملكية الالمانية والغيباليون وأيضاً في كتاب «الكوميديا الإلهية» بالفصل الثالث والثلاثين الذي يتناول الجحيم.

ولذلك يمكن أن نطلق على الكلبة التي تأكل صغارها اسم أوجولينا فهي شاذة للغاية لدرجة أن قلبها لا يعاني من أية عاطفة لدى قيامها بتمزيق صغارها الذين لا حول لهم ولا قوة بفكيها وذبحهم وتكسير عظامهم الهشة وهم يعوون وينتحبون ويهلكون بدون أن يعرفوا من الذي يلتهمهم وبدون أن يعرفوا أن الأم التي انجبتهم هي التي تلتهمهم، يا أوجولينا لا تقتليني فأنا من نسلك.

الصفحة التي تقص في هدوء هذه الأهوال تقع في حجر ريكاردو ريس، أنه قد استسلم للنوم العميق هبت ريح فجائية تخشخش على زجاج النوافذ، الأمطار تهطل مثل الطوفان، وتجوس الكلبة أوجولينا في خلسة عبر شوارع لشبونة المهجورة بينما لعابها يسيل مختلطاً بالدماء وتتشمم في مداخل البيوت وتعوى في الميادين والحدائق العامة وتعض فرجها حيث أنها على وشك أن تصبح حبلى في المرة التالية.

(٢)

عقب انقضاء ليلة من الشتاء القاسي والعاصفة العنيفة، الكلمتان الأخيرتان وهما: العاصفة العنيفة قد ترتبطا مع بعضهما البعض منذ بداية استخدامها أما كلمتا: الشتاء القاسي فلم ترتبطنا كثيراً ولكن التعبيرين متلائمان للغاية مع الظروف حيث يوفران على المرء الجهد اللازم من أجل اختراع وابتكار كلمات جديدة، كان من المتوقع أن يشرق النهار في شمس ساطعة وسماء زرقاء ورفرفة بهيجة للحمام أثناء طيرانه، ولكن لم يكن هناك أي تغير في الجو، طيور السنونو تستمر في التحليق فوق المدينة والنهر لا يمكن للمرء أن يثق فيه والحمام نادرا ما يغامر بالطيران هناك.

فالمطر مستمر في التساقط ولكن على نحو يسمح للمرء بالخروج بدون معطف مطر وبدون مظلة والرياح بالمقارنة مع العواصف الهوجاء التي سادت في وقت مبكر من هذا الصباح تعتبر مجرد تربيت خفيف على خد المرء، وغادر ريكاردو ريس الفندق مبكرا وذهب إلى البنك التجاري لكي يستبدل بعض النقود الانجليزية الموجودة معه إلى عملة الاسكود البرتغالية وتلقى عن كل جنيه استرليني ١١٠ ألف «ريس»[١]، من المؤسف أن هذه الجنيهات الإنجليزية لم تكن ذهبا وإلا لكان قد

(١) وحدة نقد برتغالية قديمة ـ المترجم.

استبدلها بضعف هذه الكمية تقريبا. ومع ذلك لم يكن لدى المسافر العائد سبب حقيقي يدعوه للشكوى بعد أن أصبحت محفظته وهو خارج من البنك ممتلئة بخمسة آلاف اسكود وهو مبلغ يعتبر بمثابة ثروة في البرتغال ومن شارع دى كوميرسيو الذي يجد نفسه موجودا فيه فأن التيرو دو باكو لا يبعد إلا على مسافة أمتار قلية لكن ريكاردو ريس لن يغامر بعبور الميدان، أنه يتفحص المسافة وهو واقف تحت حماية صف الأعمدة فالنهر مظلم ومتلاطم الأمواج والفيضان عالى، وعندما ترتفع الأمواج الموجودة بعيداً عن الشاطئ يتخيل المرء أنها على وشك أن تغرق الميدان بحيث يغوص

تحت الماء إلا أن هذا بمثابة خداع بصري، فالأمواج تتشتت على السور، وهو يتذكر أنه جلس هناك في أيام ماضية أيام بعيدة للغاية حتى إنه يشك فيما إذا كان قد شهد تلك الأيام بالفعل، ، وربما كان هناك شخص ما آخر نيابة عني وربما كانت له نفس ملامح الوجه ونفس الاسم ولكنه شخص ما آخر، قدمان مبللتان وباردتان وهو أيضاً يشعر بمسحة من الحزن والكآبة تمر على جسده وليس على روحه وأنا أكرر ليس على روحه، فالانطباع فيزيقى إذ كان بمقدوره أن يلمسه بيديه لو لم تكن يداه مشغولتين بالإمساك بمقبض المظلة التي لا يتطلب الوضع فتحها، هذه هي الكيفية التي يبعد بها الإنسان نفسه عن العالم مما يعرض إلى السخرية من جانب شخص ما يمر ويقول مازحا: أيها السيد الدنيا لا تمطر في تلك البقعة ولكن ابتسامة الرجل تكون تلقائية وبدون خبث ويبتسم ريكاردو ريس من تشتته الذهني وبدون أن يعرف السبب يتمتم بأبيات شعرية من قصيدة من تأليف جاودوديوس ومعروفة لكل طفل في الحضانة، تحت صف الأعمدة هذا يمكن للمرء أن يمضى الليل في راحة.

لقد جاء إلى هنا لأن الميدان كان قريبا للغاية ولكي يتحقق أثناء مروره مما إذا كانت ذاكرته عن المكان تحمل أي تشابه مع الحقيقة الواقعة، مساحة رباعية الزوايا محاطة بمبان على ثلاثة جوانب وتمثال يمثل شخصاً ملكيا على ظهر جواد موجود في وسط الميدان وقوس نصر لا يستطيع مشاهدته من الموقع الذي يوجد فيه، ولكن كل شيء مشتت وضبابي والمباني ليست سوى خطوط مشوشة، من المؤكد أن السبب في ذلك هو الطقس وهذه الساعة من النهار وقوة إبصاره التي تخذله، لا شيء يبقى سوى عيون الذاكرة التي تكون حادة مثل عينى الصقر، الساعة الحادية عشرة تقريبا ويوجد الكثير من النشاط تحت صف الأعمدة، ويسير ريكاردو ريس في اتجاه شارع دوكرو سيفيسكو ويقاوم إلحاح بائع ورق اليانصيب الذي يحاول أن يبيع له تذكرة من أجل السحب القادم، التذكرة هي رقم ١٣٤٩ ولسوف تدور العجلة غدا، ذلك ليس هو الرقم والعجلة لن تدور غدا، ولكن على هذا النحو تسير أغنية العراف.

أرجوك يا سيدي أن تشتري تذكرة إذا رفضت الشراء سوف تندم على ذلك صدقنى أنها تذكرة رابحة يوجد إلحاح وتهديد متسم بالخبث والحيلة، ويدخل ريكاردو ريس إلى شارع جاريت، ويصعد إلى الشيادو حيث يوجد أربعة من الشيالين المستندين على قاعدة التمثال بدون اهتمام بالمطر المتساقط في رذاذ، هذه هي جزيرة الغاليين Galicians وعلى مسافة إلى الأمام كان المطر قد توقف بالفعل، توجد رقعة بيضاء من الضوء خلف لويس دى كاموس سحابة يسيح منها المطر Nimbus وهذه هي المشكلة مع الكلمات فكلمة Nimbus بمعنى المطر وبمعنى السحابة وبمعنى الهالة.

ويذهب ريكاردو ريس إلى أرشيف الجرائد.

بالأمس أخذ ملحوظة بالاتجاهات قبل الذهاب للنوم.

لا يوجد سبب يدعوه للاعتقاد أنه نام نوماً رديئاً وأنه وجد السرير أو الدولة غريبا، عندما ينتظر المرء النوم في صمت غرفة ما زالت غير مألوفة له ومصغيا للمطر بالخارج فإن الأشياء تتخذ بعدها الحقيقي وتصبح كلها هائلة ووقورة وثقيلة، الشيء المخادع هو ضوء النهار حيث يحول الحياة إلى ظل يصعب إدراكه، والليل وحده يكون رائقا وشفافا وصافيا ولكن النوم يتغلب عليه ربما من أجل هدوئنا وراحتنا وراحة أرواحنا، يذهب ريكاردو ريس إلى أرشيف الجرائد، حيث ينبغي أن يذهب إليه كل شخص يرغب في معرفة الأمور التي حدثت لأنه هنا في البيرو ألتو يمر العالم كله تاركا أثار أقدام وأغصانا مكسورة وأوراقا منسحقة بالقدمين وكلمات منطوقة، وما يتبقى هو هذا الابتكار الضروري حتى يمكن من العالم المذكور آنفا الحفاظ على وجه وعلى نظرة وعلى ابتسامة وعلى كرب مميت، ولقد تسبب الموت غير المتوقع لفرناندو بسوا في الكثير من الحزن في الدوائر الثقافية، الشاعر الذي ألف أورفيو.

وهو شخصية تدعو للاعجاب ولم يؤلف الشعر فقط في أشكاله الأصلية وإنما كتب أيضاً مقالات نقدية قد مات في صمت أمس الأول مثلما عاش دائماً في صمت، ونظرا لأنه لا يوجد أحد في البرتغال يستطيع أن يكسف عيشه من كتابه الأدب فأن فرناندو بسوا عُثر على وظيفة كاتب في شركة تجارية.

والمزيد من السطور الأخرى: وقام أصدقاؤه بوضع أكاليل الزهور تحية لذكراه إلى جوار مقبرته، ولا تقدم الجريدة المزيد من المعلومات، وتشير صحيفة أخرى إلى نفس الموضوع ولكن مع استخدام كلمات

مختلفة: فرناندو بسوا الشاعر غير العادي ومؤلف قصيدة «المناسجم» وهي قصيدة مليئة بالحماس الوطني ومن أجمل ما كتب في عالم الأدب قد دفن بالأمس حيث اختطفه الموت فجأة في سرير في مستشفي سولويس أثناء الساعات الأخيرة من ليلة السبت وهو في شعره لم يكن فقط فرناندو بسوا وإنما كان أيضاً ألفارو كامبوس وألبرتو كايرو وريكاردو ريس، في تلك المسألة توجد غلطة ناجمة عن عدم الانتباه ناجمة عن كتابة ما سمعه المرء بطريق الخطأ لأننا نعرف جيدا أن ريكاردو هو الرجل الذي يقرأ الجريدة بعينيه المفتوحين المفعمتين بالحياة وهو طبيب يبلغ من العمر ٤٨ عاما وهو أكبر بسنة واحدة من فرناندو بسوا عندما أغلقت عيناه وهي عينان كانت ميتتين بدون أدنى شك، ولا يحتاج الأمر لأية براهين أو دلائل أخرى للبرهنة على أننا لا نتعامل مع نفس الشخص وإذا كان هناك شخص ما مازال يموج بالشك فعليه أن يذهب إلى فندق براجانسا ويتحدث مع المدير سنهور سلفادور ويسأله عما إذا لم يكن يوجد جنتلمان مقيم بالفندق يسمى ريكاردو ريس ويعمل طبيبا ووصل مؤخرا من البرازيل، أنه سيرد قائلاً: نعم الدكتور قال إنه لن يرجع إلى الفندق من أجل تناول طعام الغذاء ولكنه سيتناول طعام العشاء بكل يتسلمها، والآن من الذي يجرؤ على تكذيب كلام مدير فندق وهو خبير في علم الفراسة ومترسخ في تحديد الهويات، ولكن بدلا من من أن نقنع أنفسنا بكلمة رجل لا نستطيع أن ندعى أننا نعرفه عن كثب فأنه توجد هنا صحيفة أخرى أوردت النبأ في صفحة الوفيات والنعى حيث يتم تناول مراحل حياته الوظيفية بالتفصيل، بالأمس جرت مراسم جنازة فرناندو انطونيو نوجيرا بسوا وهو أعزب يبلغ من العمر ٤٧ عاما ولا تنس أن عمره ٤٧ عاما وقد ولد في لشبونة ودرس الأدب في جامعة انجليزية وأصبح راسخاً ككاتب وشاعر في

الدوائر الأدبية وعلى نعشه وضعت أغصان من الأزهار البرية وهي لسوء الحظ أزهار تذبل بسرعة كبيرة وأثناء انتظار الدكتور ريكاردو ريس للترام الذي سينقله إلى البرازيرس قرأ الخطبة الجنائزية التي ألقيت بجوار القبر بالقرب من مكان شنق فيه رجل كما يعرف الجميع منذ ٢٢٣ عاما أثناء حكم الدوم جو الخامس الذي لم يذكر اسمه في قصيدة المنساجم، فهم قد شنقوا شخصاً من مدينة جنوه متسما بالغش والخداع حيث أنه قام بقتل واحد من أهالينا من أجل قطعة من القماش بأن طعنه في رقبته بسكين علاوة على قتل زوجة الرجل الميت بنفس الطريقة والتي ماتت في نفس الموقع ثم أصاب خادمها بجرحين لم يكونوا مميتين ثم فقع عين شخص آخر كما لو كان أرنبا وتم القبض على هذا القاتل وحكم عليه بالإعدام شنقا هنا نظر لأنه قريب من المكان الذي ارتكب فيه جرائمه وتم الشنق في حضور الجماهير التي احتشدت لكي ترقب عملية الشنق.

وجاء الترام ثم تحرك منطلقا وعثر ريكاردو ريس على مقعد طويل شاغر فجلس فيه بمفرده، وعندما وصل ريكاردو ريس إلى الجبانة كان الجرس عند البوابة يدق في جلبة ملأت الهواء بصوت برونزي رفيع حاد، وكان نعش محمولا على الأيدي على وشك أن يختفي وكانت ستائره الجنائزية تتمايل وكانت أوجه النساء مغطاة بالشال الأسود وكان الرجال مرتدين أفضل ثياب يوم الأحد الخاصة بهم وقد وضعوا على أذرعهم زهرات الأقحوان الإرجوانية اللون مع وجود المزيد من الأقحوان على الأرفف العلوية الناتئة للنعش، واختفى النعش في الأعماق وذهب ريكاردو ريس إلى مكتب التسجيل لكي يسأل عن كيفية العثور على قبر فرناندو انطونيو نوجيرا بسوا الذي مات في الثلاثين من الشهر الماضي ودفن في اليوم الثاني من هذا الشهر والذي وضع في هذه

الجبانة حتى نهاية الزمن وإلى أن يأمر الله الشعراء بأن يستيقظوا من موتهم المؤقت، وعندما أدرك رجل الدين أنه أمام رجل مثقف له مكانة رفيعة فأنه يخبره في دقة عن الطريق والرقم لأن الجبانة تشبه أي مدينة يا سيدي، ولكي يتأكد تماماً أن توجيهاته واضحة فأنه يصطحبه إلى الخارج ويشير بيده، إذهب إلى الطريق الرئيسي المشجر وعند نهايته اتجه إلى اليمين ثم في خط مستقيم للأمام ومقبرته تقع على الجانب الأيمن عند ثلثي هذا الممر عليك بتدقيق النظر فالمقبرة صغيرة الحجم بحيث يمكن أن تتجاوزها بدون أن تتعرف عليها.

ويشكره ريكاردو ليس على مساعدته، الرياح التي تجئ من بعيد عبر البحر والنهر لا يسمعها تولول فوق على النحو الذي يتوقعه المرء ولا يوجد سوى تلك السماوات الرمادية وهذه الاحجار الرخامية الرطبة التي تلمح عقب الأمطار الأخيرة بينما أشجار السرو الصنوبرية ذات اللون الأخضر الداكن أصبحت داكنة أكثر من ذي قبل، ووفقا للتعليمات التي تلقاها من رجل الدين يبدأ في السير في الطريق الذي تصطف على جانبيه نباتات الحور باحثا عن المقبرة رقم ٤٣٧١ وهو الرقم الذي سحب في اليانصيب بالأمس ولن يسحب مرة أخرى بمعرفة القدر وليس بمعرفة الحظ السعيد، الطريق ينذر لأسفل في رفق حتى أن المرء يكاد يجرى في مشيته.

توجد هنا الزاوية ينبغي أن أخذها، نحن نسأل أنفسنا عن السبب في مجيئنا وما هي الدموع المتبقية التي ينبغي أن تذرف ولماذا إذا لم نكن قد ذرفناها من قبل، ربما أننا قد صدمنا أكثر مما حزنا، لقد قطع ريكاردو ريس نفس المسافة على الممر مع النظر باستمرار إلى اليمين، الاسف الابدى الذكرى الحزينة، هنا يرقد في الذكرى الحبيبة، يمكن أن نشاهد نفس هذا الكلام المنقوش إذا نظرنا إلى الجانب الآخر، ملائكة

لها أجنحة متدلية وتماثيل حزينة وكئيبة وأصابع مجدولة وستائر مجمعة وأعمدة مكسورة ربما البناءون والنحاتون قد قطعوها على ذلك النحو أو ربما كسرها أقارب الموتى كتعبير عن حزنهم مثل المحاربين الذين قاموا بتحطيم دروعهم كتعبير عن الحزن عن وفاة قائدهم.

وتجاور ريكاردو ريس المقبرة التي يبحث عنها، ولم يناد صوت: هالو ها هي المقبرة موجودة هنا ومع ذلك ما زال يوجد أولئك الناس الذين يعتقدون أن الموتى يمكن لهم أن يتكلموا، وما الذي يمكن أن يحدث للموتى إذا لم تكن هناك وسيلة لتحديد هويتهم ولا اسم محفور على شاهد المقبرة ولا رقم مثل الذي يوضع على أبواب الأحياء، وها هي مقبرة فرناندو بسوا وقد سجل عليها تاريخ مولده وتاريخ وفاته علاوة على عبارة: أنا هنا فيكرر ريكاردو ريس هذه الكلمات بصوت مرتفع أنه هنا وفي تلك اللحظة تبدأ الأمطار في الهطول لقد قطع مسافة طويلة في سفره من ريو دى جانيرو وأمضى أياما وليالى فوق أعالى البحار تبدو الرحلة قريبة للغاية ومع ذلك تبدو للغاية والآن ماذا عليه أن يفعله بمفرده في هذا الطريق وبين هذه القبور بعد أن فتح مظلته، لقد حان وقت التفكير في الغذاء، من على مسافة يستطيع سماع الصوت الأجوف لجرس يدق، لا شيء آخر يمكن عمله في هذا المكان وما فعله يعتبر لا شيء، وفي داخل الضريح توجد امرأة عجوز مجنونة لا يمكن أن تترك لكي تتجول في حرية كما تريد، وتحت عينيها اليقظة يوجد أيضاً الجسد المتحلل المتعفن لشاعر ترك نصيبه من الجنون في العالم.

الفارق الكبير بين الشعراء والمجانين هو مصير الجنون الذي يتملكهم جميعاً، وشعر بالخوف وهو يفكر في الجدة ديونيسيا المستلقية هنالك وفي حفيدها المبتلى فرناندو حيث تحرص على فتح عينيها في تيقظ

شديد بينما هو قد حول عينيه باحثا عن ثغرة عن نسمة هواء من بصيص من الضوء بعد أن تحول شعوره بالقلق إلى غثيان كأنه يتعرض لاختناق بسبب موجة بحرية هائلة وهو الذي لم يشعر بدوار البحر على مدى الأربعة عشر يوماً التي استغرقتها الرحلة، وقال لنفسه في تفكير: «السبب في ذلك هو معدتى الخاوية وهو ربما يكون على صواب لأنه لم يتناول أي طعام طوال الفترة الصباحية».

ثم تزايد هطول الأمطار وجاء ذلك في الوقت المناسب تماماً والآن سيكون لدى ريكاردو ريس الاجابة الجاهزة لو سأله أي شخص، لا أنني لم أمض وقتاً طويلاً هناك لأن المطر كان شديداً وغزيراً للغاية وعندما بدأ في السير ببطء صاعدا على الطريق أحس بأن الغثيان أخذ في التراجع، وكل ما تبقى كان مجرد صداع خفيف ربما بسبب خواء موجود في الرأس مثل غياب أو مثل قطعة من المخ مفقودة القطعة المتخلى عنها من خلال بسوا، ووجد رجل الدين الذي سبق أن أرشده واقفا عند باب غرفة التسجيل، كان من الواضح من الدهنيات الموجودة على شفتيه أنه قد انتهي لتوه من تناول طعام الغذاء، وأين تناول الطعام، لقد تناوله في هذه الغرفة حيث نشر ورق السفرة على مكتبه بينما الطعام الذي أحضره من منزله ما زال ساخنا لأنه كان ملفوفا في جرائد أو ربما أعاد تسخينه على موقد بوتاجاز، إذن فأنا ربما أكون قد أمضيت وقتاً هناك أطول مما كنت أظن، إذن فأنت قد عثرت على المقبرة التي كنت تبحث عنها، فأجاب ريكاردو ريس: لقد عثرت عليها.

وبينما كان يمر من البوابة قال مكررا: نعم عثرت عليها.

وبسبب شعوره بالجوع الشديد ورغبته في الاسراع لوح بيده نحو صف من التاكسيات من يعرف ما إذا كان بمقدوره أن يعثر على مطعم

ما زال على استعداد لأن يقدم له وجبة غذاء في هذا الوقت المتأخر، كان السائق يلوك عود جلال من النوع الذي تنظف به الأسنان عقب تناول الطعام ويمرره من ركن لآخر في داخل فمه باستخدام لسانه، ومن المؤكد أن ذلك كان يتم من خلال استخدام لسانه نظرا لأن يديه كانتا فوق عجلة القيادة، ومن وقت لآخر كان يبتلع اللعاب الموجود بين أسنانه، وكان صوت الامتصاص شبيها بأغنية طائر فراح ريكاردو رى يفكر في هذا الأمر وابتسم لنفسه ولكن في اللحظة نفسها عيناه بالدموع، من الغريب أن هذا الصوت يحدث مثل هذا التأثير، أو ربما كان السبب هو منظر ملاك صغير يتم نقله إلى قبره على نعش أبيض اللون فرناندو من نوع ما لم يعش لفترة طويلة تكفي لأن تجعله شاعرا أو ريكاردو من نوع ما لم يستطع أن يصبح طبيبا أو شاعرا، وربما السبب في هذا الانفجار في البكار هو بكل بساطة أن اللحظة المناسبة قد حانت لكي يطلق عواطفه المكبوتة، وهذه المسائل الفيزيولوجية معقدة فلنتركها لأولئك الذين يفهمونها وخاصة إذا اتضح أنه من الضرورى أن نتتبع طريق العاطفة التي تصب في غدد الدموع ذاتها لكي نحدد على سبيل المثال الفارق الكيماوي ما بين دموع الحزن ودموع الفرح ومن المؤكد أن دموع الحزن تؤلمانه كثيراً نتيجة لتزايد الملوحة في العينين، وفي الأمام دفع السائق عود الخلال بين أنيابه الموجودة على اليمين ثم راح في صمت يحرك العود لأعلى ولأسفل مظهرا احترامه لحزن المسافر وهو أمر معتاد عليه عندما يلتقط أناسا قادمين من الجبانة، ونزل التاكسي هابطاً على شارع كالكادا دى استريلا.

ثم استدار عند الكورنيش واتجه نحو النهر ووصل إلى البايكسا ثم صعد إلى شارع أوجو سترا ولدى دخول التاكسي إلى روسيو تذكر ريكاردو ريس فجأة فقال: توقف عند أرموس يونيدوس وهو المطعم

الموجود أمامك واتجه إلى اليمين حيث يوجد مدخل في الخلف في شارع كوريروس، فالمرء يضمن الحصول على وجبة ممتازة هنا والجو فيه تقليدي لأن المطعم يقع على نفس الموقع الذي كانت تشغله مستشفي تودوس أوسى سانتوس منذ سنوات عديدة مضت، قد تظن أننا نقص تاريخ دولة أخرى زلزال يجيئ ولاحظ النتيجة ولكن إذ تتغير نحو الأفضل، أو الأسوأ فذلك يتوقف على الكيفية التي نحيا بها وعلى الآمال التي تساورنا.

وتناول ريكاردو ريس طعام الغذاء دون أن يشعر بالقلق إزاء طعامه، الأمس كان بمثابة ضعف من جانبه، فالمرء عندما يصل إلى الشاطئ عقب رحلة عبر المحيط يكون مثل طفل حيث يسعى في بعض الأحيان إلى إراحة على كتف إمرأة أو في أحيان أخرى يتناول كئوسا متتالية من الخمور في إحدى الحانات إلى أن يعثر على السعادة بشرط أن تصبّ السعادة في تلك الزجاجة مقدما، وفي أحيان أخرى يبدو الأمر كأنه ليس له إرادة خاصة به، ومن المنضدة التي يجلس إليها ومن خلال الفتحات الموجودة بين الستائر يمكنه مشاهدة الترام وهو يمر بالخارج ويمكنه سماعها وهي تصرخ عند الانعطافات والنواصى وسماع أصوات أجراسها وهو صوت رخيم أثناء سقوط الأمطار وشبيه بأصوات أجراس كاتدرائية مغمورة تحت الماء أو مثل صوت القيثارة الذي يّدوى إلى ما لا نهاية في أعماق بئر، الجرسونات يحومون في صبر وفي انتظار لأن ينتهي هذا الزبون الأخير من تناول طعام الغذاء، لقد وصل متأخرا إلى المطعم وتوسلّ إليهم لكي يقدموا له الطعام فأجيب إلى طلبه رغم أن العاملين بالمطبخ كانوا قد بدأوا بالفعل في رفع الأواني.

لقد انتهى الآن تماماً من تناول الطعام ويقدم شكره الجزيل للجرسونات في أدب متمنيا لهم قضاء وقت ممتع في فترة ما بعد الظهر

لدى مغادرته المكان من خلال الباب المؤدى إلى شارع كوريروس المؤدى بابيلون الحديد والزجاج، السوق الذي يموج بالنشاط وما زال هادئاً بالمقارنة مع ساعات النهار التي تتزايد خلالها صيحات التجار إلى عنان السماء.

وبدأ ريكاردو ريس يسير عائدا إلى فندقة وتذكر الغرفة التي أمضى فيها ليلته الأولى مثل طفل متسم بالتبذير وموجود تحت سقف أبوى، تذكر غرفته كما لو كان بيته، ليس بيته في ريو دى جانيرو وليس بيته الموجود في أوبرتو والذي ولد فيه كما نعرف جميعاً وليس بيته الموجود هنا في لشبونة حيث كان يعيش فيه إبحاره إلى النفي في البرازيل ليس أيّ بيت من هذه البيوت رغم أنها جميعاً كانت بيوتا بالنسبة له، إشارة غريبة عن ماذا، عن رجل يظن أن غرفته بالفندق بمثابة وطن له، شعر بالقلق بسبب وجوده بالخارج لفترة طويلة منذ الصباح الباكر فقال لنفسه متمتما: لسوف أعود إلى غرفتي على الفور، وكبح جماح رغبته في استدعاء تاكسي، وسمح لترام لأن يمرّ دون أن يستقله رغم أنه كان سينزله عند باب الفندق، وتمكن في النهاية في تهدئة هذا القلق السخيف وأن يرغم نفسه أن يكون مجرد شخص ما عائد إلى فندقه في غير تسرّع ولكن بدون أيّ تأخير لا داعي له، وهو ربما يشاهد الفتاة ذات الذراع المشلولة في صالة الطعام هذا المساء أنه مجرد احتمال مثل احتمال مشاهدة الرجل الممتلئ والرجل النحيل المرتدى زيّ الحداد والأطفال الشاحبين الذين لهم والدان متوردان ومن يعرف مَنْ هم الضيوف الآخرون الذين قد يجيئون وما هي حالات الوصول الغامضة القادمة من مكان مجهول مغلف في السديم الضبابي، ولدى تفكره في هؤلاء الناس أحس بدفء مواس في داخل قلبه واحساس عميق بإعادة الطمأنينة. أحبوا بعضكم البعض هي الكلمات التي قيلت ذات يوم ولقد

جاء الوقت المناسب لكي يبدأ التطبيق العملى لها، وهبت الرياح في قوة وشقت طريقها إلى شارع أرسينال إلا أن المطر لم يكن يتساقط كل ما سقط على الأرصفة كانت قطرات ثقيلة منفلتة من الطنف والأفاريز.

ربما سيتغير الطقس إلى الأحسن لأن فصل الشتاء لا يمكن أن يستمر إلى الأبد، على مدى الشهرين الأخيرين لم يكن يوجد هناك سوى الأمطار الغزيرة هكذا قال له سائق التاكسي بالأمس في نغمة توحي بأنه لم يعد يعتقد أن الأمور سوف تتحسن.

يصدر أزيزا حادا لدى قيامه بفتح الباب بدا الأمر وكأنه يتم الترحيب به من خلال تمثال الفارس الإيطالى، ونظر بيمنتا لأسفل نحو مجموعة درجات السلم المنحدرة من البسطة الموجودة في الأعالي في انتظار لأن يلقى عليه التحية في مراعاة للآخرين وفي حرص على الشكليات بينما ظهره منحنٍ قليلا ربما بسبب الأحمال التي يحملها باستمرار، مساء الخير يا دكتور، ظهر المدير سلفادورعلى بسطة السلم مكررا نفس الكلمات ولكن في نغمة أكثر تهذيبا، رد ريكاردو ريس على تحياتهما، لم يعودوا بمثابة مدير وحمال الفندق وطبيب وإنما أصبحوا بكل بساطة ثلاثة رجال مسرورين لمشاهدة بعضهم البعض مرة أخرى عقب مرور هذه الفترة الطويلة وليس منذ فترة مبكرة من ذلك الصباح، عليك فقط بتخيل مثل هذا الحنين سبحان الله، عندما دخل ريكاردو ريس غرفته لاحظ له أنها قد نظفت في عناية كبيرة ورتب غطاء السرير في أناقة وأصبح حوض الغسيل لامعا للغاية بل وأصبحت المرآة خالية من البقع على الرغم من الأغوار التي كانت قد جمعتها على مدى السنين تنهد في ارتياح كبير، وبعد أن استبدل ملابسه ووضع قدميه في الشبشب جذب إحدى نوافذ غرفة النوم فاتحا إياها في حركة تدل على أنه مسرور بعودته إلى بيته، ثم جلس في الكرسي الفوتيه.

بدا الأمر وكأنه قد تعثر في داخل ذاته وحدث سقوط فجائي عنيف في داخل كيانه، وتساءل: والآن يا ريكاردو ريس أو أيما امرئ تكون كما قد يقول الآخرون، وفي لحظة أدرك أن الخاتمة الحقيقية لرحلته كانت هي هذه اللحظة وأن الوقت الذي انقضى منذ أن وضع قدميه على رصيف الميناء في القنطرة قد أُنفق في مناورات الرسو وإلقاء المراسي وسبر أغوار تيار المياه والإلقاء بالكابلات لأن هذا هو ما كان يفعله عندما بحث عن فندق وقرأ تلك الجرائد الأولى ثم زار الجبانة وتناول طعام الغذاء في باكسيا ثم سار في شارع دورادوريس، وذلك التلهف الفجائي على الوصول إلى غرفته ودافع عدم التفرقة والمحبة العالمية والترحيب من جانب سلفادور وبيمنتا ومفرش السرير النظيف وأخيرا النافذة المفتوحة التي ترفرف ستائرها مثل الأجنحة، وماذا الآن لقد بدأ المطر يتساقط مرة أخرى محدثا صوتا على قمم الأسطح شبيها بصوت الرجل الذي يتم غربلته ونخله وهو صوت مثير للتحذير والنوم ربما أثناء الطوفان العظيم لقد جعل الله الناس ينامون بهذه الطريقة لكي يكون الموت سهلا ولطيفا، إذ تتسلل المياه في هدوء إلى فتحات أنوفهم وأوفواههم بدون أن تخنقهم وتتسرب المياه إلى داخل خلاياهم تدريجيا إلى أن يمتلئ التجويف الكامل لأجسادهم، وبعد أربعين يوماً وأربعين ليلة على نومهم وعلى هطول الأمطار تغوص أجسامهم تدريجيا إلى القاع بعد أن تصبح في نهاية الأمر أكثر ثقلا من الماء ذاته.

وأوفيليا تسمح لنفسها بالانجراف مع التيار وهي تغنى إلا أن الارادة تموت على نحو حتمى قبل نهاية الفصل الرابع، وكل شخص آدمي له طريقته الخاصة في النوم والموت ولكن الفيضان يستمر، فالزمن يمطر علينا ويغرقنا، وعلى سطح الأرضية المعالج بالشمع تجمعت قطرات المطر وانتشرت بعد أن دخلت من النافذة المفتوحة، بعض الضيوف

المتسمين بالاهمال لا يهتمون بالأعمال الوضيعة ربما لأنهم يعتقدون أن النحل لا يكتفي بصنع الشمع وإنما ينشره أيضاً على الألواح الخشبية بالأرضية ويحكها إلى أن تصبح لامعة، إلا أن الخادمات وليس النحل هن اللائي يقمن بهذا العمل وبدون الخادمات ستصبح هذه الأرضيات اللامعة قذرة ومتسخة، سرعان ما سيقوم المدير بتوجيه التأنيب للخادمات علاوة على معاقبتهن لأن هذه هي مهمة المدير، سارع ريكاردو ريس إلى اغلاق النافذة ووضع كميات من الجرائد لكي تمتص معظم المياه ونظرا لأنه لم تكن لديه وسيلة تعينه على انجاز هذه المهمة بطريقة سليمة فأنه دق الجرس، وقال لنفسه في تفكير: هذه هي أول مرة استخدم فيها الجرس مثل شخص ما يلتمس المعذرة من نفسه.

وسمع وقع أقدام في الطرقة وطرقات أصابع في خفوت على الباب، تفضل بالدخول، قالها في توسّل وليس في لهجة أمرة، وعندما فتحت الخادمة الباب قال دون أن ينظر إليها تقريبا كانت النافذة مفتوحة ودخل المطر إلى الغرفة، وغطى الماء جميع أرجاء الأرضية، ثم لاذ بالصمت مدركا أنه قد قال شعرا هزليا محطما الأوزان هو ريكاردو ريس الذي سبق أن ألف القصائد الغنائية، واستمر يقول كلاماً له وزن الشعر، أيمكنك أن تقدمي لي خدمة وتنظفي هذه الفوضى، وفهمت الخادمة بدون أن تركز ذهنها على الأشعار ما ينبغي عمله، وخرجت وعادت ومعها ممسحة وجردل، وجثت على ركبتيها وراح جسدها يتلوّى وبذلت كل ما في وسعها لإزالة المياه المزعجة.

غدا ستصنع طبقة أخرى من الشمع على الأرضية، أيمكنني أن أفعل أي شيء من أجلك يا دكتور: لا شكرا جزيلا ونظرا لبعضهما البعض نظرات عميقة مباشرة، وزاد ايقاع المطر في ضربات ثقيلة على زجاج النوافذ حيث كان يقرع مثل طبلة هائلة مما يجعل أولئك المستغرقين في

نوم عميق يستيقظون في ذعر، ما اسمك، فأجابت: ليديا يا سيدي، وأضافت: أنا في خدمتك يا دكتور، كان بمقدورها أن تعبرّ عن ذلك في طابع متسم بالمزيد من الرسمية بأن تقول بصوت أكثر ارتفاعا لقد صدرت لي التعليمات بأن أبذل قصارى جهدي لكي أدخل السرور على الطبيب لأن المدير قال: استمعي إليّ يا ليديا اعتنى عناية كبيرة بالضيف الموجود بالغرفة رقم ٢٠١ وهو الدكتور ريس.

ولم يردّ الطبيب وبدا وكأنه يهمس باسم ليديا لكي يحفظه ولكي يستخدمه في حالة احتياجه لاستدعائها، هناك أناس يكررون الكلمات التي يسمعونها لأننا جميعاً مثل الببغاوات التي تكرّر كلمات بعضها البعض وإلا فهل هناك أية وسيلة أخرى للتعلمّ، ربما هذا التفكير غير ملائم لأنه لم يتم من خلال ليديا التي هي المحاور الآخر والتي لها اسم بالفعل لذلك هيا بنا نسمح لها بالانصراف مع أخذ ممسحتها وجردلها معها، ويبقى ريكاردو ريس هناك مبتسما في سخرية ومحركا شفتيه بطريقة لا تخدع أحدا، ويكرّر: ليديا، ويبتسم، ويذهب وهو يبتسم إلى الدرج لكي يبحث عن قصائده، قصائده الغنائية ويقرا الأبيات التي تقع عليها عيناه لدى تقليب الصفحات: «وهكذا تجلس ليديا بجوار المدفأة، يا ليديا دعى الصورة تبدو على ذلك النحو، هيا بنا لا نظهر أيّ رغبة يا ليديا في هذه الساعة وفي هذا الوقت، عندما يحين خريف العمر يا ليديا أجلسى معي يا ليديا على شاطئ النهر، الوجود الذليل الدنئ للغاية مفضل على الموت».

لم يعد هناك أي أثر للسخرية في ابتسامته إذ كانت كلمة ابتسامة هي بمثابة وصف ملائم لتلك الشفتين المنفرجتين اللتين تكشفان عن الأسنان مع تثبيت عضلات الوجه على شكل ازدراء أو تعبير مليئ بالآلام والذي يمكن معه للمرء أن يقول هذا أيضاً سوف يمرّ، وينحنى ريكاردو ريس

على الصفحة ويعيد ترتيب أشعار قديمة مثلما ينعكس وجهه على صفحة مرآة هائلة من الماء، سرعان ما سيكون قادرا على التعرّف على ذاته، أنه أنا بدون أي سخرية وبدون أي أسف قانع بألا أشعر بمجرد الرضا مثل رجل لا يرغب في أيّ شيء آخر أو يعرف أنه لا يستطيع أن يمتلك أيّ شيء آخر، تتزايد الظلال في الغرفة، لابد أن سحابة ما مظلمة تمرّ عبر السماء، سحابة سوداء مثل الرصاص، مثل تلك السحب التي تستدعى من أجل أن يحدث الطوفان، يحدث ريكاردو ريس حركة بيديه متلمسا الهواء عديم اللون وبعدئذ لا يكاد يكون قادرا على التمييز بين الكلمات التي يتتبعها على الورقة فيكتب «كل ما أطلبه من الآلهة هو أنه ينبغي عليّ ألا أطلب أي شيء منها»، وبعد أن كتب هذا لا يعرف كيف يستمر في الكتابة، توجد هناك لحظات كهذه اللحظة، نحن نؤمن بأهمية ما قلناه أو كتبناه توا لأنه من المتعذر سحب الأصوات أو محو الحروف ولكن أغراء أن نكون صامتين يسود جسدنا، إنه إبهار الصمت وإبهار أن نكون صامتين وملتزمين بعدم الحركة مثل الآلهة التي ترقب ولا شيء غير ذلك، ويتحرك متجها نحو الأريكة ويستند بظهره إلى الوراء ويغلق عينيه ويشعر أن بمقدوره الارتماء في أحضان النوم ويصبح شبه نائم، ويأخذ بطانية من حجرة الملابس ويلف نفسه في داخلها والآن فأنه سينام ويحلم بأن الصباح ملئ بالشمس الساطعة وبأنه في نزهة في شارع أوفيدور في ريو دى جانيرو وبدون أن يجهد نفسه لأن الجو الحار للغاية، ويترامى من على مسافة وسط إطلاق نيران وانفجار قنابل ولكنه لا يستيقظ، ليست هذه هي أول مرة يحلم فيها هذا الحلم بل ولا يسمع الطرق على الباب ولا يسمع صوت امرأة تتساءل: هل ناديت يا دكتور؟.

دعونا نقول إن السبب في ذلك أنه لم ينم في الليلة السابقة إلا بقدر ضئيل للغاية وأنه ينام الآن نوما عميقا، وعلى كل حال توجد ورقة على

المنضدة مكتوب عليها عبارة «كل ما أطلبه من الآلهة هو أنه ينبغي عليّ ألا أطلب منها أي شيء» هذه الصفحة موجودة، والكلمات تحدث مرتين كل كلمة قائمة بذاتها وبعدئذ مع بعضها البعض وعندما تُقرأ فإنها تنقل معنى ولا يهم ما إذا كانت هناك آلهة أم لا أو ما إذا كان الشخص الذي كتبها قد استغرق في النوم أم لا، وربما لا تكون الأشياء بنفس البساطة التي نميل لأن نظرها عليها في بادئ الأمر، وعندما يستيقظ ريكاردو ريس تكون الغرفة غارقة في الظلام ولا يسمع أي صوت في أرجاء الفندق الذي تحوّل الآن إلى قصر للجمال النائم حيث يكون الجمال قد انسحب أو لم يُسحب على الاطلاق، كل شيء نائم: سلفادور وبيمنتا والجرسونات الغاليّون والضيوف وصفحة عصر النهضة وحتى ساعة الحائد الموجودة عند منبسط السلم قد توقفت، وفجأة أمكن سماع صوت الأزيز المترامى من المدخل، مما لا شك فيه أن الأمير قادم لكي يوقظ الجمال بأن يطبع قبلة عليه، إنه متأخر ذلك الشخص المسكين «لقد جئت وأنا أشعر بالمرح الشديد وغادرت وأنا في حالة يأس، لقد قدمت لي الليدي وعدها ثم تخلّت عني وأبعدتني» هذه أغنية أطفال مصاغة على شكل حكاية شعرية قد أنقذت من أعماق الذاكرة، الأطفال المغلفون في الضباب يلعبون في قاع حديقة شتوية ويتغنون بأصوات عالية حزينة ويتحركون للأمام وللخلف في خطوات وقورة ويتدربون على رقصة قديمة لأن الأطفال الموتى سوف ينضمون بمجرد أن يكبروا ويشبوا عن الطوق، ويدفع ريكاردو ريس البطانية ويؤنب نفسه بسبب إنخراطه في النوم بدون أن يستبدل ملابسه أولا، لقد حرص دائماً على مراعاة قواعد السلوك المتحضر، ونهض من الكرسي وذهب لكي يوقد الضوء كأن الصباح قد جاء وكأنه يستيقظ من حلم ليلى ثم ينظر لنفسه في المرآة ويربّت على وجهه كأن عليه أن يحلق ذقنه قبل العشاء أو على الأقل كان عليه أن يغيّر ملابسه، لا ينبغي عليه

الذهاب لتناول العشاء وقد تكرمشت ملابسه، ليس بحاجة لأن تهتم لم يلاحظ له كيف أن المقيمين الآخرين بالفندق يرتدون ملابسا في غير عناية حيث تكون ستراتهم مثل الأكياس الفضفاضة وتكون بنطلوناتهم منتفخة عند الركبة ويكون رباط العنق ثابتا على عقدة دائمة وتكون قمصانهم مكرمشة وقديمة، ويقرر عدم القيام بحلاقة ذقنه ثم يرتدى قميصا ويختار رابطة عنق تتماشى مع لون الحلة ثم يمشّط شعره في المرآة ويفرق شعره في عناية، وعلى الرغم من أن الوقت المناسب للعشاء لم يحن بعد فإنه يقرر النزول إلى صالة الطعام ولكن قبل أن يغادر غرفته وبدون أن يلمس قصاصة الورق يلقى نظرة أخرى على الكلمات التي كتبها ويبدو عليه نفاد صبر معين كأنه عثر على رسالة تركها له شخص ما لا يشعر نحوه بالارتياح أو شخص ضايقة كثيراً ذات مرة، ريكاردو ريس هذا ليس شاعرا وإنما هو بكل بساطة ضيف في فندق يتأهب لمغادرة غرفته ويكتشف وجود قصاصة ورق كتب عليها مقطع شعرى ونصف مقطع، تُرى من الذي ترك تلك القصاصة هنا، من المؤكد أن الذي ترك هذه القصاصة ليست الخادمة ليست ليديا هذه أو أية ليديا أنه لا يخطر على بال الناس أبداً أن الشخص الذي ينهي شيئاً ما لا يكون أبداً هو الشخص الذي ابتدأ ذلك الشيء حتى الذي ينهي شيئاً ما لا يكون أبداً هو الشخص الذي ابتدأ ذلك الشيء حتى ولو كان كلاهما يحملان نفس الاسم لأن الاسم هو الشيء الوحيد الذي يظل ثابتا ومستمرا ودائما.

كان المدير سلفادور في موقعه ثابتا بينما ابتسامته الدائمة تشع في ابتهاج فألقى ريكاردو ريس التحية عليه وواصل المسير والكن سلفادور سار وراءه حيث كان يرغب في معرفة ما إذا كان الدكتور يرغب في تناول مشروب كفاتح للشهية قبل أن يتناول طعام العشاء.

لا شكرا جزيلا، فهذه عادة لم يكتسبها ريكاردو ريس فتلكأ سلفادور

للحظات عند المدخل ليرى ما إذا كان الضيف قد يغيّر رأيه أو يطلب أي شيء آخر ولكن ريكاردو كان قد فتح بالفعل إحدى الجرائد، لقد أمضى ذلك اليوم بأكمله وهو على غير علم بما يجرى من أحداث في العالم، ولا كان هو قارئاً مواظبا على القراءة بطبيعته، فعلى العكس، إذ كان يجد تلك الصفحات الكبيرة وتلك المقالات المطّولة مثيرة للملل ولكنه هنا لم يجد شيئاً أفضل من ذلك يمكن أن يفعله وجعل من تلك الجريدة درعا يحميه من سلفادور ومن العالم المتسم بالمزيد من التعدّى على الآخرين، الأخبار المتعلقة بالعالم البعيد يمكن أن تقرأ من حيث هي رسائل إخبارية غير مهمة، لقد استقالت الحكومة الأسبانية وصدر قرار بحلّ البرلمان وفقا لما جاء في أحد المانشتات.

والنجاشي إمبراطور الحبشة أرسل برقية لعصبة الأمم يدّعى فيها أن الإيطاليين يستخدمون الغازات الخانقة.

تتناول الصحف كلها كل ما حدث بالفعل وتجئ الأخبار دائماً متأخرة بحيث لا يكون هناك متسع من الوقت لإصلاح الأخطاء ومنع حدوث الكوارث، فالجريدة الجديرة بالاحترام كان عليها أن تقول لك في أول يناير ١٩١٤ أن الحرب سوف تندلع في يوم ٢٤ يوليو أي أمامنا سبعة شهور تكفي تجنيب العالم ويلات الحرب، وربما يكون ذلك مساحة كافية من الوقت، بل ومن الأمور المفضلة أن تُنشر قائمة بأسماء الذين على وشك الانتقال إلى رحمة الله ملايين الرجال والنساء يقرأون لدى تناولهم قهوة الصباح الاعلان عن موتاهم وبحيث تطبع أسماؤهم بالكامل وبجوارها المكان والوقت الذي تتم فيه الوفاة، وعندئذ ما الذي سيفعله الناس وما الذي كان سيفعله فرناندو بسوا لو قرأ خبر وفاته أنه يموت بشهرين: مؤلف قصيدة المنساجم Mensagem سوف يموت في ١٣ نوفمبر القادم بسبب إصابته بالتهاب الكبد.

عندئذ ربما كان سيلجأ لاستشارة طبيب علاوة عن التوقف عن تناول الخمور أو ربما كان سيلجأ إلى مضاعفة تناوله للخمور لكي يموت بسرعة، ويخفض ريكاردو ريس الجريدة كي يتمكن من النظر إلى نفسه في المرآة، وهو انعكاس يخدع مرتين لأنه يبيّن مسافة عميقة ولأنه يبيّن أن المسافة هي مجرد سطح حيث لا يحدث فيه أي شيء بالفعل ولا شيء سوى الوهم الخارجي والصامت لأشخاص وأشياء، شجرة متدلية على بحيرة ووجه يسعى لمشاهدة ذاته وجه غير مشوش وغير متغيّر بل وغير ملموس من جانب صور الأشجار والبحيرة والوجه، المرآة هذه المرآة وجميع أنواع المرايا الأخرى تكون مستقلة عن الإنسان، قبلها نحن مثل المجندين الذاهبين إلى حرب عام ١٩١٤ وبعد أن يعجب ريكاردو ريس بزيه الرسمي المنعكس في المرآة فإنه يشاهد شيئاً ما أكثر من ذاته دون أن يعرف إنه لن يشاهد نفسه في هذه المرآة مرة أخرى.

نحن الغرور التافه ولا نستطيع أن نتحمل ونصمد ولكن المرآة تصمد لأنها ترفضنا، ويحوّل ريكاردو ريس عينيه ويغيّر موضعه ويترك المكان، أنه الجانب الذي يرفض ويدير ظهره للمرآة، ربما يكون هو عندئذ بمثابة مرآة.

ساعة الحائط الموجودة على بسطة السلم تدّق معلنة الساعة الثامنة، وما أن تلاشى آخر صدى حتى دقّ الجرس القرصي غير المرئي في نغمات مكتومة.

لا يمكن سماعه إلا في مكان قريب، ومن المؤكد أن الضيوف الموجودين بالأدوار العليا لا يستطيعون سماعه، يطوى ريكاردو ريس الجريدة ويذهب إلى غرفته لكي يغسل يديه ويهندم نفسه، ويعود على الفور ويجلس إلى نفس المنضدة التي سبق أن جلس إليها في اليوم

السابق وينتظر، أي شخص يرقبه ويلاحظ خطواته السريعة سيعتقد أنه أما أن يشعر بالجوع الشديد أو أنه في عجلة من أمره أو أنه تناول كمية ضئيلة للغاية أثناء تناول طعام الغذاء مبكرا وإما أنه اشترى تذكرة من أجل الذهاب إلى المسرح، لكننا نعرف أن الوضع بعكس ذلك فهو لم يتناول طعام الغذاء في فترة مبكرة كما نعرف أنه ليس بصدد الذهاب للسينما أو المسرح.

وفي طقس كهذا آخر في الازدياد سوءا لا يمكن للمرء التفكير في الذهاب للنزهة اللهم إلا إذا كان أحمقا أو غريب الأطوار، إذن فما هو السبب في التسرع الفجائي إذا كان الناس بصدد الوصول إلى الصالة من أجل العشاء: الرجل النحيل المرتدى زيّ الحداد والرجل الممتلئ وأولئك الآخرون الذين لم أشاهدهم في الليلة الماضية، الطفلان الصامتان وأبواهما غير موجودين، بالنسبة للغد لن أدخل صالة الطعام قبل الثامنة والنصف، تناول الحساء في بطء ثم راح يتلاعب في السمكة الموجودة في طبقة حيث لم يشعر بأيّ قدر من الجوع، وبينما كان الجرسون يقدم طبق الطعام الرئيسي أرشد الميتر دى أوتيل ثلاثة رجال إلى المنضدة التي كانت تشغلها في الليلة السابقة الفتاة ذات اليد «المشلولة» ووالدها إذن فهي لن تجئ قال لنفسه: لقد غادرا الفندق أو ربما كانا يتناولان طعام العشاء بالخارج، واعترف لنفسه بأنه نزل مبكرا من أجل مشاهدة الفتاة ذى اليد المشلولة التي كانت تربّت عليها وكأنها كلب صغير موجود في حجرها، وتوقف عن استكمال طعام العشاء وطلب قهوة وبراندى يمكنه أن ينتظر في الصالون كوسيلة لاستهلاك الوقت إلى أن يتمكن من سؤال المدير سلفادور عن الفتاة ووالدها، ذلك الأب والفتاة أظن أنني شاهدتهما من قبل في مكان ما آخر ربما في ريو دى جانيرو وليس في البرتغال بكل تأكيد لأنه من الواضح أن الفتاة

كانت مجرد طفلة منذ ١٦ عاما إن ريكاردو ريس يلف ويدور من أجل أن يعرف من المدير معلومات عنها، في تلك الفترة كان سلفادور يعتني بتلبية مطالب ضيوف آخرين من بينهم ضيف سيغادر في الصباح الباكر ويرغب في سداد الفاتورة الخاصة به وآخر يشتكي من أنه لا يستطيع النوم وسلفادور

يتعامل مع جميع الضيوف في براعة ولباقة وعناية زائدة بأسنانه غير الملونة وبشاربه الناعم، جاء الرجل النحيل المرتدى ثياب الحداد إلى الصالون لكي يطلع على شيء ما في جريدة ثم غادر المكان على الفور وظهر الرجل الممتلئ عند الباب وهو يقضم عودا خلال الأسنان ثم تردد عندما فوجئ بحملقة من ريكاردو ريس وانسحب على وجه السرعة بينما كتفاه يتهدلان بسبب نقصان الشجاعة.

وبعد مرور نصف ساعة أصبح سلفادور المتميز بدماثة الأخلاق وعذوبة المعاشرة قادرا على إخباره لا من المؤكد، أنك قد اختلط عليك الأمر لأنهما ـ بقدر ما أعرف ـ لم يقوما بزيارة البرازيل وهما يجيئان إلى هنا بشكل منتظم على مدى السنوات الثلاث الأخيرة وكثيراً ما قمنا بالدردشة سويا ولو كانا قد ذهبا إلى البرازيل لكانا قد حدثاني عن مثل هذه الرحلة، آه إذن لقد اختلط عليّ الأمر.

ولكنك تقول إنهما قد ظلا يجيئان إلى هنا على مدى السنوات الثلاث الأخيرة هذا صحيح فهما من كوامبرا وهما يعيشان هناك والأب هو الدكتور سمبيو وهو محامي وما اسم الفتاة؟ إسمها غير عادي فهي تسمى مرسيندا هل تصدق ذلك انهما ينتميان لأسرة أرستقراطية ماتت الأم منذ بضع سنوات، وما هي طبيعة تلك المتاعب الموجودة في يدها اعتقد أن ذراعها كله مصاب بالشلل وذلك هو السبب في أنهما يجيئان

ليقيما بالفندق لمدة ثلاثة أيام شهريا حتى يمكن فحصها بمعرفة أخصائي آه ثلاثة أيام شهريا نعم ثلاثة أيام شهريا ودائما ما يخطرنى الدكتور سامبيو مقدما لكي أحجز له نفس الغرفتين، وهل حدث أي تحسن خلال السنوات الثلاث إذا كنت تريد رأيي الصريح يا دكتور أقول لك أنني أعتقد أنه لم يحدث تحسن أنه أمر يدعو للأسف فالفتاة صغيرة في السن هذا صحيح يا دكتور ربما تقوم أنت بتقديم بعض النصائح في المرة القادمة إذا كنت ما زلت موجودا هنا من المحتمل جداً أن أكون هنا ولكنني على أية حال لست متخصصا في هذا المجال فأنا أمارس الطب العام ولقد قمت ببعض البحوث المتعلقة بالأمراض الاستوائية ولكن هذا غير مفيد بالنسبة للحالة التي تعانى منها، لا يهم ولكن من الصحيح تماماً أن النقود لا تجلب السعادة فالأب بالغ الثراء بينما الابنة معوقة ولا أحد شاهدها تبتسم أبداً، أقلت لي أن اسمها مارسيندا نعم يا سيدي أنه اسم عجيب لم يصادفنى اسم كهذا من قبل، ولا أنا تصبح على خير يا سلفادور تصبح على خير يا دكتور.

وعندما دخل ريكاردو ريس إلى حجرته لاحظ أن السرير قد تم ترتيبه وأن المفرش والملاية قد رفع طرفهما في زاوية، يوجد هنا مجرد إيحاء بأنه إذا كان يرغب في الاستلقاء فأن سريره جاهز لا ليس الآن ينبغي عليه أولا أن يقرأ بيت الشعر ونصف البيت الذي تركهما على قصاصة من الورق ويتفحصهما في دقة ويبحث عن الباب الذي يمكن أن يفتحه هذا المفتاح إذا كان هذا بمثابة مفتاح ويتفحص أبوابا أخرى أبوابا وبدون مفتاح وفي النهاية وبعد الكثير من الاصرار عثر على شيء ما كان قد ترك هناك بسبب الاعياء أنه شيء يخص شخصاً آخر ولكن من هو ذلك الشخص وبذلك انتهت القصيدة «ليس هادئاً ولا مضطربا ارغب في رفع

كياني لأعلى فوق هذا المكان حيث يعرف الناس المتعة والألم» التوقف الموجود في المنتصف أو السبوندية Spondee[١] ينبغي تغييرها،

الحظ السعيد هو عبء يدخل الحزن على الرجل السعيد لأن الأمر ليس سوى حالة ذهنية معينة وبعدئذ ذهب إلى السرير واستغرق في النوم على الفور.

---

(١) تفعيلة ذات مقطعين طويلين ـ المترجم.

(٣)

كان ريكاردو ريس قد قال للمدير أود أن يتم إحضار طعام الإفطار إلى غرفتي في التاسعة والنصف ولم يكن يهدف إلى النوم لساعة متأخرة وإنما كان يرغب في ألا يكون في عجلة من أمره وهو متجه لفتح الباب للفتاة التي تحمل صينية كبيرة عليها القهوة واللبن والتوست ووعاء السكر وكعكة وبسكويت وسرعان ما سنعرف ما إذا كان فندق البراجانسيا يقدم مثل هذا الكرم لأن ريكاردو ريس على وشك أن يختبر أول طعام إفطار يقدم له.

ووعده سلفادور بأن الإفطار سيصل إليه مع دقات الساعة التي تعلن التاسعة والنصف، وهاهي ليديا تطرق بالفعل على الباب في التاسعة والنصف وتنادى «إفطارك يا دكتور» تنفيذاً للتعليمات الصادرة إليها وهي على الرغم من أنها نشأت في بيئة متواضعة فأنها لم تنس التعليمات التي صدرت إليها ولو لم تعمل ليديا في وظيفة خادمة لكانت قد أصبحت فتاة تلعب على حبل البهلوان أو مشعوذة أو ساحرة لأن لها مواهب تتماشى مع تلك المهن وكان ريكاردو ريس قد ارتدى ملابسه بالفعل وأصبح حسن الطلعة قد حلق ذقنه وقام بفتح النافذة قليلا من أجل تهوية الغرفة من الأشياء التي لا يستثنى منها أي أناس حتى ولو كانوا من الشعراء، وأخيرا دخلت الفتاة صباح الخير يا دكتور وتقدمت لكي تضع الصينية التي كانت محتوياتها أقل بذخاً مما كان يتخيل ومع ذلك فأن

فندق البراجانسيا يستحق كل الثناء والتقدير ولا عجب في أن بعض ضيوفه لا يفكرون أبداً في النزول في أي فندق آخر لدى مجيئهم إلى لشبونة ويرد ريكاردو ريس التحية ويأمرها بالانصراف أتريد أي شيء آخر يا سيدي لا شكرا جزيلا فذلك هو كل ما أريده وإذا كانت الاجابة هي لا فعليها أن تنسحب في أدب مع التراجع بظهرها إلا الوراء إذا كان ذلك ممكنا لأن إدارة الظهر للزبون تنطوى على عدم إحترام للشخص الذي يتسبب في دفع الأجور لك، ولكن ليديا التي صدرت لها التعليمات بالاهتمام بصفة خاصة بمطالب الدكتور قالت لا أعرف ما إذا كنت قد لاحظت يا دكتور أن

الكاييه دوسودريه به مياه كثيرة، ونظر ريكاردو ريس من النافذة ورأى أشياء مثيرة للضحك وتجرأت ليديا ونظرت هي الأخرى من النافذة ووقفت خلف ريكاردو ريس وانخرطت في الضحك كما لو كانت ندا له لأن المنظر كان مثيراً للضحك بالفعل هذه لحظات سريعة الزوال من العصر الذهبي تولد فجأة وتموت فجأة مما يفسر السبب في أن السعادة سرعان ما يتسلل إليها الملل، لقد مرت اللحظة بالفعل ثم أغلق ريكاردو ريس النافذة وعادت ليديا إلى وضعها الاجتماعي السابق من حيث هي مجرد خادمة ثم تتراجع نحو الباب كل شيء ينبغي أن يتم بسرعة الآن لأن شرائح التوست بدأت تبرد ولم تعد تبدو فاتحة للشهية، لسوف أدق الجرس لكي تجيئي وتأخذى الصينية ويحدث هذا بالفعل بعد مرور نصف ساعة فتدخل ليديا في هدوء وتنسحب في هدوء وقد أصبح الحمل أخف من ذي قبل بينما ريكاردو ريس يتظاهر بالانشغال لدى جلوسه في حجرته متصفحا أوراق كتاب «إله المتاهة» بدون أن يقرأ بالفعل.

اليوم هو آخر يوم في السنة وفي جميع أرجاء العالم بالإماكن التي

يراعى فيه هذا التقويم يسلي الناس أنفسهم من خلال التفكير مليا في القرارات التي ينوون وضعها موضع التنفيذ خلال السنة القادمة، وهم يحلفون بأنهم سيتسمون بالأمانة والعدالة والتذرع بالصبر وأنهم سيكفون عن النطق بكلمات الإساءة أو الخداع أو الحقد أو الخبث مهما استحق أعداؤهم ذلك، من الواضح أننا نتحدث عن جماهير الناس أما الآخرون وغير العاديين فلديهم أسبابهم الوجيهة لأن يفعلوا العكس من ذلك كلما كان ذلك يتلاءم معهم أو يعود عليهم بالمزيد من الأرباح فهم لا يسمحون لأنفسهم بأن يخدعوا ويسخرون منا ومن نوايانا الحسنة وفي النهاية نعرف من خلال التجربة أنه ما أن يهل شهر يناير حتى ننسى نصف الوعود التي أخذناها على أنفسنا وبعدئذ لا يوجد سوى جدوى ضئيلة في محاولة تنفيذ الباقى، الأمر أشبه ما يكون

بقلعة مصنوعة من الورق المقوى حيث يكون من الأفضل، عدم وجود الجزء العلوي بدلا من انهيار القلعة كلها واختلاط المجموعات الأربعة وهذا هو السبب في أنه من المشكوك فيه ما إذا كان السيد المسيح قد فارق الحياة مع قول الكلمات التي نعثر عليها في الكتب المقدسة حيث ورد في انجيل متى ومرقص: يا إلهي يا إلهي لماذا تركتني بينما ورد في انجيل لوقا «يا أبي إننا أسلم روحي بين يديك» في حين جاء في انجيل يوحنا: لقد قضى الأمر وما قاله السيد المسيح بالفعل وفقا لما يقوله لك أي رجل في الشارع: وداعا أيها العالم أنت تسير من سيئ إلى أسوأ إلا أن آلهة ريكاردو ريس هي كيانات صامتة تطل علينا من علٍ في لامبالاة، وكلمتا الخير والشر بالنسبة لها لم تصلا إلى درجة الكلمات لأنها لم تنطق بها أبداً ولماذا ينبغي عليها أن تنطق بها وهي لا تستطيع معرفة الفارق بينها وهذه الآلهة تجوب مثلنا في نهر الأشياء وهي تختلف عنا لسبب واحد وهو أننا نطلق عليها اسم: الآلهة

وأحيانا نؤمن بها، ونحن قد علمنا هذا الدرس لكي لا نتعب أنفسنا ونتخذ قرارات جديدة وأفضل من أجل السنة القادمة، بل إن الآلهة لا تصدر أحكاماص ولا تعرف كل شيء وربما تكون الحقيقة المطلقة هي أنها لا تعرف أي شيء على الاطلاق ومهمتها الوحيدة هي أن تنسى في كل لحظة والشر على حد سواء، ولا داعي لأن نقول: سأفعل ذلك الأمر غدا لأنه من المؤكد أن الغد سوف يشعر بالإرهاق.

وبدلا من ذلك ينبغي لنا أن نقول: سأفعل ذلك بعد غد وذلك لكي يكون لدينا دائماً يوم احتياطى بحيث يمكننا أن نغير رأينا ونتخذ قرارات جديدة بل وربما يكون الحكمة أكثر أن نقول: ذات يوم سأفعل كذا وكذا بل ولا داعي لأن نقول ذلك أيضاً لأن الموت الحتمى يجيئ أولا ويحررنا من الالتزام هو أسوأ شيء في العالم لأننا بذلك نحرم أنفسنا من الحرية.

لقد توقف المطر وأصبحت السماء صافية ويمكن لريكاردو ريس أن يخرج للنزهة قبل الغداء بدون أن يتعرض لمخاطر تبلل ملابسه بالماء، ويقرر تجنب الأماكن المنخفضة بالمدينة لأن المياه لم تنحسر تماماً في كيس دو سودريه فأحجارها المرصوفة مغطاة بالطين الكريه الرائحة الذي رفعه تيار النهر من طبقات الطمى العميقة اللزجة إذا استمر الطق على هذا النحو سيجيئ العمال التابعون لمصلحة النظافة ومعهم خراطيم المياه، المياه قد لوثت والمياه سوف تنظف بارك الله في الماء.

ويسير ريكاردو ريس في شارع الكريم وما أن غادر فندقه حتى توقف عند أثر تاريخي ينتمي لعصر آخر ربما كان عاصمة كورينثيه أو محراب خاص أو شاهد ضريح جنائزى مثل هذه الأشياء إذا كانت لا تزال في لشبونة فأنها تكون مخبأة تحت التربة التي أزيلت عندما تمت تسوية

الأرض أو من خلال أسباب طبيعية أخرى، هذا ليس سوى بلاطة حجرية مستطيلة الشكل منطمرة في داخل حائط منخفضة تواجه شارع نوفا دو كارفيلهو وعليها النقوش التالية بخط زخرفي «عيادة للعيون والجراحة «أسسها أ، ماسكارو في عام ١٨٧٠» الأحجار لها عمر زمني طويل.

فنحن لم نشهد مولدها ولن نرى موتها إذ انقضت أعوام طويلة عديدة على هذا الحجر ولسوف يمر عليه المزيد من الأعوام في حين أن ماسكارو قد مات وأغلقت عيادته وربما يمكن تتبع سلالة المؤسس الذين يحترفون مهنا مختلفة ويتجاهلون أو لا يعرفون أن رمز أسرتهم معروض في هذا المكان العمومي، لو لم تكن العائلات متقلبة للغاية لكان أفراد هذه العائلة قد تجمعوا في هذا المكان من أجل أحياء ذكرى جدهم الأكبر الذي كان يعالج العيون وغير ذلك من الأمراض الأخرى، صحيح أنه لا يكفي حفر الاسم على حجر فالحجر يظل باقياً أيها السادة في حالة من الصيانة والأمان ولكن الاسم يتعرض للنسيان ويتوقف عن الوجود اللهم إلا إذا جاء ناس لكي يقرءوه كل يوم، هذه التناقضات تطوف بذهن ريكاردو ريس أثناء سيره في شارع الكريم بينما جداول مائية صغيرة ما زالت تعبر خطوط الترام، العالم لا يستطيع الالتزام بالهدوء فالرياح تهب والسحب تحلق في السماء ولا تسمح لنا بالتكلم عن المطر فقد شهد العالم ما فيه الكفاية من المطر.

ويواصل ريكاردو ريس سيره في الشارع بدون تسرع وقد استخدم مظلته المغلقة كعصاة يتوكأ عليها، ويقرع بمظلته على بلاطات الطريق أثناء سيره في إيقاع يتوافق مع الخطوات وكان الصوت محددا وواضحا وحادا لا يوجد صدى للصوت ولكن التأثير كان رخيما لأن الصوت بدا بالفعل رخيما لدى وقوع طرف المظلة على الحجر الجيري إنه استغرق

في هذه الأفكار الصبيانية، وعلى نحو فجائي يصبح مدركا لوقع أقدامه ذاتها كما لو أنه منذ أن ترك لم يتقابل مع أي شخص في الشارع أنه سيقسم على ذلك إذا استدعى لكي يدلى بشهادته عندئذ سيقول أنه لم يشاهد أي شخص أثناء سيره كيف يكون ذلك ممكنا أيها الرجل الطيب في مدينة لا يمكن أن تعتبر صغيرة وأين أختفي جميع الناس.

وهو يعرف بالطبع أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحا فمن المؤكد أنه مر بجوار عدد قليل من الناس على طول الطريق والآن ورغم الهدوء الشديد في هذا الشارع فأنه توجد مجموعات من الناس حيث يتجهون نحو سفح التل أنهم أناس فقراء بل وبعضهم يكاد يكون من الشحاذين عائلات بأكملها بينما العجائز منهم يسيرون في الخلف ويجرون أقدامهم في قلوب غائرة وتقوم الأمهات بجذب أطفالهم وهن يصحن: اسرعوا وإلا سيكون كل شيء قد انتهي، والذي انتهي هو السلام والهدوء إذ لم يعد الشارع متسما بالهدوء أما الرجال فهم يحاولون اتخاذ التعبير الصارم الذي يتوقعه المرء من رب الأسرة فهم يسيرون وفق الايقاع الخاص بهم مثل شخص ما لديه هدف آخر أمامه ثم تختفي هذه العائلات كلها مرة واحدة وعند ناصية الشارع التالي يوجد منزل مهيب وفخم به فناء مليئ بأشجار النخيل ولم تفقد ملامحه المنتمية للعصور الوسطى شيئاً من سحرها وجمالها، ويفاجأ ريكاردو ريس بكثافة سكانية هائلة محتشدة في عرض الشارع ومتحلية بالصبر ومائجة بالقلق في نفس الوقت بينما رءوسهم تهتز مثل تلاعب الأمواج ومثل حقل قمح يتماميل مع النسيم فيقترب منهم ريكاردو ريس ويطلب منهم افساح الطريق لكي يتمكن من المرور فتصدر عن الشخص الواقف أمامه حركة تدل على الرفض ثم يلتفت إليه ويكون على وشك أن يقول: لو كنت في عجلة من أمرك كان عليك أن تجيئ إلى هنا في وقت مبكر ولكن بصرة يقع على

جنتلمان أنيق لا يرتدى بيريه أو قلنسوة ويرتدى معطف مطر وقميصا أبيض اللون ورباط عنق ذلك هو كل ما يحتاج إليه لاقناع الرجل باتخاذ خطوة على جانب، وبدأ ريكاردو ريس في العبور ولكن العبور استغرق بعض الوقت لأن الجمهور يشغل مساحة شاسعة، علاوة على أنه كلما اقترب من الجزء المركزى يصبح من الصعب عليه أكثر اقناع الناس بأن يدعوه يمر ليس بسبب سوء نية فجائي ولكن لأن أحدا لا يستطيع أن يتحرك في هذا الحشر ويسائل ريكاردو نفسه: ما هذا الذي يحدث ولكنه لا يجرؤ على توجيه السؤال بصوت مرتفع حيث أدرك أنه طالما أن حشدا هائلا من الناس قد تجمع من أجل هدف معين معروف للجميع فإنه يكون من الخطأ وعدم الكياسة أن يظهر جهله من خلال التساؤل.

بل وربما يشعر الناس بالاساءة إذ كيف يمكننا أن نكون واثقين من مشاعر الآخرين بينما نحن غالبا ما نندهش من مشاعرنا، لقد قطع ريكاردو ريس نصف المسافة في هذا الشارع وأصبح واقفا أمام مدخل هذا المبنى الكبير الذي تشغله جريدة أوه سكيولو وهي أكبر جريدة تصدر في البلاد والجمهور أقل كثافة في الهلال الذي يواجه المبنى، والآن فقط يدرك ريكاردو ريس أنه كان يكتم أنفاسه لكي يتفادى الرائحة الكريهة المنبعثة عن البصل المحروق والثوم والعرق والملابس التي نادرا ما يتم تغييرها والأجساد التي لا تغسل أبداً اللهم إلا في حالة الذهاب للفحص بمعرفة الطبيب أعضاء الشم الشديدة الحساسية ستجد هذه الرحلة بمثابة محنة قاسية، يتمركز اثنان من رجال الشرطة عند المدخل بجوار بعضهما البعض، ريكاردو ريس على وشك أن يسأل أحدهما: ما هذا الحشد أيها الضابط؟ عندما يخبره مندوب القانون والنظام في احترام حيث يمكن للمرء أن يدرك من خلال لحظة واحدة أن هذا الجنتلمان

الذي يرغب في التساؤل قد وجد هنا بطريقة الصدفة أنه يوم الاحسان الذي تنظمه جريدة أوه سكيولو ولكن أيمكن أن يوجد مثل هذا الحشد الهائل نعم ياسيدي وهم يعتقدون أن عددهم يزيد على ألف شخص هنا وهل هؤلاء الناس جميعاً من الفقراء.

نعم يا سيدي كلهم فقراء قادمون من الشوارع الخلفية والأحياء الفقيرة وعددهم كبيرة للغاية نعم يا سيدي فهم جميعاً غير موجودين هنا بالطبع ولكن كل هؤلاء الناس قد تجمعوا لكي يحصلوا على الصدقات أنه منظر مزعج للغاية هذا المنظر لا يزعجنى يا سيدي فأنا معتاد عليه، وما هي الأشياء التي يحصلون عليها كل فقير يحصل على عشرة سكود عشرة أسكود، بالتمام والكمال والأطفال يتم أعطاؤهم ملابس ولعب أطفال وكتب، من أجل مساعدتهم على التعلم، نعم يا سيدي من أجل المساعدة في تعليمهم هذا صحيح بعضهم يمضى السنة كلها في انتظار توزيع الصدقات هذه وغيرها من الصدقات الأخرى التي توزع في مواقع مختلفة بل وهناك فقراء يمضون كل الوقت في الجرى من مكان لآخر يتم فيه توزيع الصدقات حيث يسعون للاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الصدقات، والمشكلة تبدأ عندما يذهبون إلى أماكن وأحياء غير معروفين بها حيث يطاردهم الفقراء التابعون لكل حى أنه مصدر للرزق متسم بالحزن، ربما يكون الأمر كذلك يا سيدي ولكن بخلاف ذلك يتعذر السيطرة عليهم.

أشكرك على تزويدك لي بهذه المعلومات أيها الضابط.

أنا في خدمتك يا سيدي يمكن المرور من هذه الناحية يا سيدي وما أن انتهي رجل الشرطة من قول هذه الكلمات حتى اتخذ ثلاث خطوات للأمام وقد نشر ذراعيه مثل شخص ما يوجه الدواجن والكتاكيت نحو

عشرة الفراخ، والآن تحركوا في هدوء إلى الأمام اللهم إلا إذا كنتم تريدون مشاهدتي وأنا استل سيفي الصغير ومع هذه التوجيهات المقنعة يتحرك الجمهور للأمام وتحتج النساء كالمعتاد ويتصرف الرجال كما لو أنهم لم يسمعوا أي شيء بينما يفكر الأطفال في اللعب التي سيحصلون عليها ربما تكون سيارة صغيرة وربما دراجة ثلاثية العجلات وربما دمية مصنوعة من مادة السليوليد، وصعد ريكاردو ريس منحدرا حيث يمكنه من هناك أن يلقى نظرة شاملة وبحيث يقدر حجم الجماهير أنهم أكثر من ألف شخص لقد كان رجل الشرطة على حق في تقديراته، أنها دولة زودها الله تماماً بالفقراء دعونا نتوسل لله لكي لا يذهب هذا الاحسان ويستمر في الوصول إلى هؤلاء الرعاع المرتدين الشيلان والمناديل والقمصان المليئة بالرقع والبنطلونات القطنية الرخيصة التي لها حجر مرقع بقماش من نوع مختلف والذين يرتدى بعضهم الصنادل بينما الكثير منهم عارى القدمين، وعلى الرغم من الألوان العديدة المختلفة فأنهم يبدون جميعاً بمثابة لطخة داكنة اللون وبمثابة طين أسود كريه الرائحة مثل الطين الموجود في كيس دو سودريه انهم ينتظرون ولسوف يستمرون في الانتظار إلى أن يجيئ الدور عليهم ـ لساعات وساعات واقفين على أقدامهم وبعضهم ينتظر منذ الفجر بينما الأمهات ممسكات بأطفالهن بين أذرعهن مع إرضاع الأطفال المولودين حديثا في حين يتحدث الآباء مع بعضهم البعض في موضوعات تهم الرجال بينما العجائز ملتزمون بالصمت والاكتئاب وترتعش سيقانهم ويسيل اللعاب من أفواههم واليوم الذي يتم فيه توزيع الصدقات هو اليوم الوحيد الذي لا تتمنى فيه عائلاتهم الموت لهم لأن ذلك يعنى الحصول على كميات من الاسكود أقل من ذى قبل، كما يوجد عدد كبير من

المصابين بالحمى المنخرطين في السعال والذين يمررون فيما بينهم

زجاجات قليلة من الخمور لكي يساعدهم ذلك على تمضية الوقت وابعاد البرد وإذا تساقطت الأمطار مرة أخرى فأن ملابسهم سوف تبتل لأنه لا يوجد هناك ستر وقائي يحميهم من الأمطار.

لقد مرت الساعات بسرعة أثناء هذا التجول سيرا على الأقدام وحان الوقت لتناول وطعام الغذاء ولم يخل شارع دو سيكولو من الفقراء إلا مع غروب الشمس كان ريكاردو ريس قد تناول طعام الغذاء في تلك الأثناء واستعرض الكتب المعروضة في اثنين من محلات بيع الكتب ثم تلكأ عند باب سينما تيفولي وراح يسائل نفسه فيما إذا كان يرغب في مشاهدة فيلم «أحب جميع النساء» أم لا وهو فيلم من تمثيل جان كيبورا ثم قرر مشاهدة ذلك الفيلم في وقت آخر والعودة إلى الفندق مستقلاً تاكسيا حيث كان يشعر بمتاعب في ساقيه بعد كل هذا السير على الأقدام.

وعندما بدأ المطر يتساقط مرة أخرى رجع إلى الوراء ودخل في مقهي وراح يقرأ الجرائد المسائية ووافق على أن يتم تنظيف وتلميع حذائه رغم أنه لا جدوى من وراء تلميع حذاء في شوارع كهذه ولكن ماسح الأحذية أكد له أن أوقية من الوقاية أفضل من رطل من العلاج فالحذاء عندما يتم تلميعه فأنه يطرد الأمطار يا سيدي، وكان الرجل على صواب لأن ريكاردو ريس عندما خلع حذاءه في غرفته كانت قدماه دافئتين وجافتين، ولكي يحافظ الإنسان على صحته ينبغي أن تكون قدماه دافئتين ويكون رأسه باردا، والجامعات ربما لا تعترف بهذه الحكمة التي ترتكز على التجربة لكن المرء لن يخسر شيئاً من خلال الالتزام بهذه الوصية، الفندق متسم بالهدوء الشديد ولا يوجد طرق على الأبواب ولا أصوات آدميين كما أن جهاز الطنان الشبيه بالجرس الكهربائي صامت، وسلفادور غير موجود في مكتب الاستقبال وهو أمر

غير عادي كما أن بيمنتا الذي ذهب للبحث عن المفتاح راح يتحرك في خفة مثل شبح صغير السن، من الواضح أنه لم يضطر لحمل أية أمتعة أو حقائب منذ الصباح الباكر وذلك من حسن حظه، وعندما نزل ريكاردو ريس إلى المطعم لكي يتناول العشاء كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء فوجد المطعم شاغرا على النحو الذي كان يتوقعه ويريده، وكان الجرسونات يثرثرون ويتجاذبون أطراف الحديث في أحد أركان المطعم ولكن عندما بزغ سلفادور راح العمال يتظاهرون بعمل أي شيء لأن ذلك هو ما ينبغي علينا أن نفعله دائماً عندما يظهر أمامنا رئيسنا المباشر فجأة، ويكفي ـ على سبيل المثال ـ أن ننقل ثقلنا إلى الساق اليمنى إذا كنا نرتكز من قبل على الساق اليسرى فذلك هو المطلوب بل وأحيانا يكون المطلوب أقل من ذلك، تساءل الضيف في تردد، هل ستقدمون وجبة العشاء، ولكن بالطبع فهم كانوا موجودين من أجل ذلك، قال سلفادور للدكتور الطيب أنهم في عيد رأس السنة الجديدة يكون لديهم عدد قليل من الزبائن وهذا العدد القليل عادة ما يتناول العشاء بالخارج، وذات يوم كان الفندق معتادا على الاحتفال بالسنة الجديدة ولكن أصحاب الفندق اكتشفوا أن الأمر باهظ التكاليف وتم الغاء الإحتفالات لأنها تتضمن أعمالا إضافية كثيرة ناهيك عن التدمير الناجم عن المرح الصاخب الذي يمارسه الضيوف وأنت تعرف كيف تحدث الأمور إذ يتناول الضيوف الكثير من كئوس الخمر ثم تبدأ المشاجرات بينهم وتتصاعد الضجة والضوضاء والشغب الجنونى ثم تتصاعد الشكوى من أولئك الذين لا يرحبون بالصخب الجنونى لأنه يوجد دائماً مثل هذه النوعية من الناس التي تميل للهدوء، لذلك توقفنا عن إقامة مثل هذه الاحتفالات ولكن ينبغي عليّ أن أعترف إنني آسف لتوقفها لأنها كانت مناسبة بهيجة وكان للفندق سمعته الطيبة من حيث

أنه يأوى الطبقة الراقية ويساير التطور، والآن وكما ترى فأن الفندق أصبح مهجورا تماماً في هذه المناسبة وهذا أمر حسن حيث يمكنك أن تنام مبكرا، تعاطف معه ريكاردو ريس لكن سلفادور أكد له إنه دائماً ما يظل مستيقظا لكي يسمع الأجراس وهي تدق معلنة العام الجديد في منتصف الليل لأن ذلك من تقاليد أسرته، وهم دائماً يأكلون الزبيب، زبيبة واحدة مع كل دقة من أجل جلب الحظ خلال السنة القادمة وهذه عادة شعبية تتبع على نطاق واسع بالخارج، أنت تتكلم عن الدول الغنية لكن هل تعتقد أن مثل هذه العادة من شأنها أن تجلب الحظ السعيد، لست أدرى ولكن عامى ربما يكون أسوأ حالا إذا لم أتناول تلك الحبات من الزبيب.

تناول ريكاردو ريس طعام عشائه بعد أن قام بالتخديم عليه واحد بينما كان رئيس النادلين واقفا كالديكور في نهاية صالة الطعام في حين ثبت سلفادور نفسه خلف مكتب الاستقبال لكي يقتل الوقت لحين حلول العام الجديد في منتصف الليل ولا يعرف المكان الذي يوجد فيه بيمنتا أما بالنسبة لخادمات الغرف فإما أنهن قد اختفين في الأعالى إذا كان يوجد بالفندق عليات حيث سيشربن نخب بعضهن البعض لدى دقات منتصف الليل مع الخمور المصنوعة بالمنزل التي تقدم مع البسكويت وإما أنهن قد ذهبن إلى بيوتهن مع ترك عدد منهن بالفندق من أجل مواجهة الطوارئ مثلما يحدث بالمستشفيات، يبدو المطبخ شبيها بقلعة مهجورة، ولكن هذا مجرد تخمين، فالنزلاء عادة لا يهتمون بمعرفة كيفية سير العمل بالفندق من وراء الستار، لأن كل ما يريدونه هو الحصول على غرفة مريحة وعلى الوجبات في أوقات منتظمة، وبالنسبة لطبق الحلو فإن ريكاردو ريس لم يتوقع أن تقدم له شريحة كبيرة من الكعك المخبوز خصيصا من أجل احتفالات عيد الغطاس، فهذه دول

صغيرة تراعي مشاعر الآخرين وتكون صداقات مع كل زبون ابتسم النادل وقال مازحا: بمناسبة الغطاس ستعطينى بقشيشا يا دكتور، موافق يا رامون لأن ذلك كان هو اسم النادل لسوف أدفع بمناسبة الغطاس لكن الساعة لم تكن قد وصلت بعد إلى العاشرة مساء يمر الوقت في بطء والسنة القديمة تتلكأ، وينظر ريكاردو ريس إلى المنضدة التي كان يشغلها منذ يومين الدكتور سابيو وابنته مارسيندا شعر بنفسه يتكفن من خلال سحابة رمادية، لو كانوا موجودين الآن لكانوا قد تحدثوا سويا مع بعضهم البعض لأنهما الضيفان الوحيدان اللذان يمكن أن يتلاءما معه أكثر خلال هذه الليلة التي تشهد نهاية وبداية جديدة، ومرة أخرى تخيل في ذهنه الحركة المثيرة للشفقة للفتاة وهي تمسك بيدها الخالية من الحياة وتضعها على المنضدة، ويشعر ريكاردو ريس بالدموع تتجمع في عينيه، ما زال يوجد بعض الناس الذين يشيرون في إستياء إلى الأطباء لأن الأطباء معتادون على مشاهد الأمراض والمحن والبلايا لدرجة أن قلوبهم تغدو متحجرة ولكن انظروا إلى هذا الدكتور، أنه يخيب ظن مثل هؤلاء الناس ومثل هذا الانتقاد وربما السبب أنه شاعر في نفس الوقت، ويستغرق ريكاردو ريس في هذه الأفكار وربما بعضها صعب للغاية بحيث يتعذر حلها بالنسبة لأي شخص يكون مثلنا واقفا على الجانب الخارجى ولكن رامون الذي يفهم الكثير من الأمور يتساءل: أترغب في أي شيء آخر يا دكتور وهي طريقة لبقة في القول ـ رغم توقع النفي ـ بأن الطبيب يرغب في شيء، وينهض ريكاردو ريس واقفا على قدميه ويقول لرامون طابت ليلتك وكل عام وأنت بخير ولدى صعوده على السلالم في بطء يبدو عليه الارهاق الشديد ومثل تلك الرسومات الكاريكاتورية أو الكارتونات في مجلة في تلك الفترة الزمنية: العام المنصرم مغطى بالشعر الأبيض والتجاعيد والساعة الرملية الخاصة به قد

أفرغت محتوياتها وذلك أثناء اختفائه في الظلال العميقة للماضي، في حين أن العام الجديد يتقدم في شعاع من الضوء ويبدو ممتلئاً مثل أولئك الأطفال الذين يتم تغذيتهم على اللبن البودرة والذين يرتلون أغنية أطفال عن هذا الوقت: أنني عام ١٩٣٦ تعالى وابتهج معي ابتهاجا عظيما، ويدخل ريكاردو ريس إلى غرفته ويجلس، لقد تم اعداد السرير بينما الماء العذب الطازج موجود في الإبريق الزجاجى لكي يلبي طلبه إذا شعر بالعطش أثناء الليل كما أن شبشبه في حالة انتظار على الحصيرة الموجودة بجوار السرير، شخص ما يعتني بي، إنه ملاك حارس، شكرا جزيلا في الشارع تنبعث قعقعة علب الصفيح لدى مرور المعربدين، لقد دقت الساعة معلنة الحادية عشرة مساء وفي تلك اللحظة يقفز ريكاردو ريس ناهضا وهو يموج بالغضب ما الذي أفعله هنا بينما كل شخص قد خرج من أجل الاحتفال لتمضيه وقت طيب مع عائلاتهم في الشوارع وفي صالات الرقص وفي المسارح ودور السينما والنوادى الليلية، ينبغي على الأقل الذهاب إلى روسيو لمشاهدة ساعة الحائط في المحطة المركزية، فهذا أفضل من الجلوس هنا متكوما في كرسى ومنتظرا دقات منتصف الليل، وبعد أن انتهي من مناجاة النفس منه أرتدى قبعته ومعطفه وأمسك بمظلته ودب الشغف والحماس في داخل كيانه على نحو فجائي مثل رجل طرأ عليه تغير من خلال اتخاذ قرار كان سلفادور قد انصرف للذهاب إلى أسرته ولذلك فإن الذي تساءل هو بيمنتا، أأنت بصدد الخروج يا دكتور، نعم سوف أتنزه، قليلا ثم شرع في النزول على السلالم، فسار وراءه بيمنتا حتى وصل إلى منبسط الدرج، عندما ترجع يا دكتور عليك بدق الجرس مرتين إحداهما دقة قصيرة تعقبها دقة طويلة عندئذ سأعرف أنه أنت، أستكون مازلت مستيقظا، سأذهب للنوم بعد منتصف الليل ولكن لا تقلق بشأني ويمكنك العودة في أي وقت

تشاء، كل عام وأنت بخير يا بيمنتا، أتمنى لك عاما جديداً مزدهرا للغاية يا دكتور وهي نفس العبارات التي يقرأها المرء على بطاقات المعايدة، ولم يقل أي كلام آخر ولكن عندما وصل ريكاردو ريس إلى نهاية السلالم بالدور الأول تذكر أنه عادة بالدور الأول تذكر أنه عادة ما يتم إعطاء بقشيش للعاملين بالفندق في هذا الوقت من السنة لأنهم يعتمدون على مثل هذه البقشيشات، لا داعي لذلك فأنا لست هنا إلا منذ ثلاثة أيام فقط، الخادم الايطالى نائم حيث أن مصباحه مُطفأ.

كان الرصيف مبتلاً وزلقاً وكانت خطوط الترام تلمع على طول شارع الكريم ونزل ريكاردو ريس هابطاً إلى شارع كارمو بينما جمهور كبير من الناس يتجهون معه بعضهم في شكل جماعات وبعضهم بمثابة عائلات بأكملها ولكن معظمهم كانوا فرادى لا ينتظرهم أحد بالمنزل أو ربما يفضلون الخروج لكي يشاهدوا انقضاء السنة القديمة وبزوغ العام الجديد وربما ستمر السنة القديمة بالفعل وربما فوق رؤوسهم ورؤوسنا سيحلق خط من الضوء أو نوع من الحد الفاصل وعندئذ سنقول أن الزمان والمكان هما شيء واحد وهما نفس الشيء، وكانت توجد هناك أيضاً نساء توقفن لمدة ساعة عن الطواف خلسة إبتغاء السلب والنهب وحول المسرح القومي كان الروسيو مزدحما، ثم هطل مطر فجائي ففتحت المظلات مثل الدروع القرنية والعظيمة اللامعة للحشرات أو كما لو كان هذا بمثابة جيش يتقدم تحت حماية الدروع وعلى وشك الهجوم على قلعة منيعة واختلط ريكاردو ريس مع الجماهير والتي كانت أقل كثافة مما بدت عليه من على مسافة وشق طريقه بين الناس، توقف المطر فأغلقت المظلات مثل سرب من الطيور تهز أجنحتها لدى هبوطها واستقرارها من أجل تمضيه الليل، يطل كل شخص بأنفه في الهواء وتركزت عيناه على قرص ساعة الحائط، ومن شارع بريماريو جاءت

مجموعة من الأولاد مهرولين يدقون على أغطية الأواني تانج تانج تانج بينما أنخرط آخرون في صفير حاد، ثم ساروا بخطوة عسكرية حول الميدان أمام المحطة قبل أن يستقروا تحت الرواق المعمد لمبنى المسرح مع الانطلاق بصفاراتهم من وقت لآخر علاوة على الطرق على غطاء علب الصفيح الخاصة بهم وهذا الضجيج يختلط مع القعقعة الخشبية التي تدوى في أرجاء الميدان رأ - رأ - رأ - رأ، لم يتبق على منتصف الليل سوى أربع دقائق، آه تقلب الجنس البشرى في إهتياج شديد مع الفترة الزمنية الضئيلة التي عليهم أن يعيشوها مع الشكوى دائماً من أن حياتهم قصيرة ومن أنهم لا يتركون وراءهم سوى الهسهسة المكتومة للأفعال ومع ذلك فهم ينتظرون بفارغ الصبر انقضاء هذه الدقائق القليلة المتبقية وعلى هذا النحو تكون قوة الأمل، هذه هي بالفعل صيحات الأمل ويصل الضجيج إلى نوع من التصاعد مثلما أن الصوت العميق للسفن الراسية يمكن سماعه من اتجاه النهر في دمدمة شبيهة بصوت الديناصورات في مرحلة ما قبل التاريخ مما يجعل المرء يصاب بالغثيان، تملأ أبواق السيارات الهواء بصراخ شديد شبيه بصراخ الحيوانات التي يتم ذبحها كما أن أبواق السيارات المترامية من مكان قريب يصم الآذان علاوة على أصوات ناجمة عن الأجراس الصغيرة للترام إلى أن يتلاقى عقرب الدقائق مع عقرب الساعات فيصبح الوقت هو منتصف الليل حيث سعادة الحرية، لأن لحظة زمنية خاطفة قد اطلقت وحررت الجنس البشرى وسمحت لهم بأن يعيشوا حياتهم الخاصة بهم، الزمن يقف على جانب ويطل برأسه في سخرية وفي إحسان بينما الناس يعانقون بعضهم البعض أصدقاء وأغرابا ورجالا ونساء يقبلون بعضهم البعض على نحو عشوائي هذه هي أفضل القبلات فهي قبلات مستقبل، والآن يملأ صخب السرينات الهواء ويتحرك الحمام في عصبية على

قوصرة مبنى المسرح حيث يرفرف بعضها في دوار ولكن في أقل من دقيقة تهدأ الضوضاء ولا يتبقى سوى شهقات قلية كما يبدو على السفن الموجودة في النهر أنها تختفي في سديم الضباب متجهة نحو البحر، مجموعات من الناس ما زالت موجودة في الروسيو إلا أن التجربة انتهت وبدأ الناس ينصرفون ويتركون الأرصفة فهم يعرفون ماذا سيحدث بعد ذلك، فمن الأدوار العليا بالمنازل تلقى القمامة فهذه عادة لا تراعي كثيراً هنا لأن عددا قليلا من الناس يسكنون هذه المنازل التي تضم أساسا مكاتب حكومية، ولكن على طول شارع أورو تكون الأرض مليئة بفضلات مبعثرة هنا وهناك، ومن النوافذ ما زال الناس يلقون بالخرق الباليه والصناديق الشاغرة وعلب الصفيح وبقايا الطعام وعظام الأسماك الملفوفة في جرائد، حيث تتبعثر كلها على الرصيف، وينفجر إناء ملئ بجمرات حية ويتطاير الشرر في كل إتجاه فيهرول المشاه ويحتمون تحت الشرفات ويستندون بظهورهم على المباني ويصيحون وهم ينظرون لأعلى في إتجاه النوافذ، إلا أن إحتجاجاتهم لا تؤخذ مأخذ الجد لأن هذه العادة منتشرة في كل مكان وبذلك ينبغي على كل رجل أن يحمى نفسه بكل وسيلة ممكنة لأن هذه هي ليلة الاحتفال وتشتمل على كافة أنواع التسلية التي يمكن أن يبتكرها الإنسان فكل أنواع سقط المتاع وكافة الأشياء التي لم تعد تستخدم ولا تستحق البيع يقذف بها من النافذة حيث يكون قد إحتفظ بها منذ فترة من أجل إلقائها في هذه المناسبة فهذه الأشياء بمثابة تمائم أو أحجبة تضمن توفر الازدهار طوال فترات السنة الجديدة، ونادى صوت في الأعالى من طابق علوى: احترسوا، نحن بصدد إلقاء شيء ما شكرا لهم على تحذيرنا، وتم إلقاء ربطة في عنف في الهواء فهبطت على شكل منحنى وكادت ترتطم بكابلات الترام يا له من إهمال شديد لأن ذلك كان من شأنه أن يتسبب

في وقوع حادثة خطيرة، وهذه الربطة كانت تمثالا لعرض الملابس من النوع الذي يستخدمه الترزى وله ثلاثة أرجل ويتلاءم مع سترة رجالى أو فستان حريمى، فتمزقت الحشوة السوداء وبعد أن سقطت في انسحاق لم تعد تشبه جسدا إنسانيا عقب فقدان الرأس والساقين، وكان هناك شخص يمر في تلك اللحظة فقام بحشو ذلك الشيء في البالوعة مستخدما قدميه، ستجيئ غدا عربة الزبالة وتنقل كل هذه الأشياء بعيداً التي تتألف من الخرق البالية وغيرها من الأشياء الأخرى، وسرعان ما سيقوم المتشردون بالبحث في هذه الأشياء لعلهم يجدون شيئاً نافعا يمكن استخدامه فالشيء الذي فقد قيمته بالنسبة لشخص ما قد يكون مفيدا لشخص آخر.

ويعود ريكاردو ريس إلى الفندق، تستمر الاحتفالات في أجزاء كثيرة من المدينة من خلال الألعاب النارية وتوزيع الخمور أو الشمبانيا الأصلية ومن خلال الانغماس في الملذات الوحشية على النحو الذي لا تنسى الصحف أن تشير إليه دائما، وأيضاً تكون النساء المومسات وشبه المومسات متاحات لمن يرغب فيهن حيث يكون بعضهن صريحا للغاية ومباشرا بينما تحرص أخريات على الألتزام ببعض الطقوس المعينة لدى عرض أنفسهن، ولكن هذا الرجل لا يتسم بالجرأة والمغامرة وهو لديه فكرة عن مثل هذه الأعمال البطولية الجريئة فقط من خلال أفواه الآخرين وكل ما لديه من تجربة هي مسألة الدخول من الباب والخروج على الفور من باب آخر، ويصرخ مجموعة من المعربدين المارين في نغمة جماعية متنافرة: كل عام وأنتم بخير أيها الرجل العجوز فيرد عليهم بأن يرفع يده لأعلى، ولماذا أقول لهم أي كلام، إنهم أصغر مني في السن بكثير، ويجوب بين الزبالة المنننتشرة في الشارع متفاديا الإرتطام بالصناديق، وينسحق الزجاج المكسور تحت قديمه، ربما

يكونون قد ألقوا بوالديهم الطاعنين في السن مع تمثال عرض الملابس حيث يوجد فارق بسيط لأنه بعد سنة معينة لا يعد الرأس يتحكم في الجسد ولا تعد الأقدام تعرف إلى أين تأخذنا، فنحن في النهاية نشبه الأطفال اليتامى لأننا لا نستطيع العودة إلى أمنا الميتة ولا نستطيع العودة إلى البداية وإلى العدم الذي كان قبل البداية، إننا ندخل إلى نطاق العدم قبل أن نموت وليس بعد أن نموت وذلك لأننا بزغنا من العدم وعندما نموت فأننا سنتعرض للتشتت بدون أن يكون الوعى ما زال موجودا، نحن جميعاً كنا ذات يوم نمتلك أبا وأما ولكننا أطفال الحظ والحتمية مهما كان المعنى الكامن وراء ذلك، هذه هي أفكار ريكاردو ريس ولندعه يقدم لنا الشرح والتفسير.

ورغم أن الوقت قد تجاوز الثانية عشرة والنصف فأن بيمنتا لم يكن قد ذهب للنوم، وهبط إلى الدور الأول لكي يفتح الباب وظهرت عليه الدهشة، إذن فأنت على كل حال قد عدت مبكرا كي تفعل الكثير من أجل الإحتفال، لقد كنت أشعر بالأرهاق والرغبة في النوم وكما تعرف فأن مشاهدة العام الجديد لم يعد لها مثل الرونق القديم هذا صحيح فهذه الاحتفالات تكون نابضة أكثر بالحياة في البرازيل، وتبادلا الحوارات المهذبة أثناء صعودهما على السلالم، وعند بسطة السلم قال ريكاردو ريس: طابت ليلتك تصبح على خير ثم واصل الصعود على المجموعة التالية من السلالم، فرد عليه بيمنتا: طابت ليلتك، ثم أطفأ أنوار بسطة السلم وبعد ذلك أطفأ أنوار كافة الطوابق الأخرى قبل أن يأوى إلى فراشة وهو واثق بأنه سينام نوما عميقا حيث من غير المتوقع مجيئ أي ضيوف جدد الفندق في مثل هذا الوقت المتأخر، وكان بمقدوره سماع وقع أقدام ريكاردو ريس يمشي في الطرقة، المكان هادئ للغاية ولا ينبعث أي ضوء من أي غرفة نوم أما لأن النزلاء

مستغرقون في النوم وإما لأن الغرف شاغرة بالفعل وفي نهاية الطرقة يتوهج في خفوت رقم الغرفة ٢٠١ ويلاحظ لريكاردو ريس خروج شعاع من الضوء من تحت الباب، من المؤكد أنه كان قد نسى إطفاء الأنوار، حسناً فهذه الأمور كثيراً ما تحدث، وأدخل المفتاح في كالون الباب وفتح الباب، ففوجئ بوجود رجل جالس على الأريكة فعرفه على الفور رغم أنهما لم يتقابلا ولم يشاهدا بعضهما البعض منذ سنوات عديدة، بل ولم يعتقد أنه من العجيب أن يكون فرناندو بسوا جالسا هنالك في إنتظاره، قال مرحبا دون أن يتوقع الحصول على إجابة لأن الأمور السخيفة لا تتمشى دائماً مع المنطق ولكن بسوا رد عليه قائلاً: مرحبا ثم مد يده وتعانقا، حسناً كيف كانت أحوالك هكذا تساءل أحدهما أو كلاهما فهذه مسألة غير مهمة لأن السؤال ليس له أي معنى على الإطلاق، قام ريكاردو ريس بخلع معطفه وقبعته وفي عناية وضع مظلته على الأرضية المشمعة في غرفة الحمام مع عمل مراجعة على الحرير الرطب الذي لم يعد مبللا بالفعل لأنه أثناء العودة إلى الفندق لالتتساقط أمطار، وجذب كرسياً وجلس أمام ضيفه وأدرك أن فرناندو بسوا أرتدى ملابسه بطريق المصادفة وهي الطريقة البرتغالية في القول بأنه لم يكن يرتدى معطفا عاديا أو معطف مطر أو أي نوع آخر من الحماية ضد الطقس القاسي بل ولا حتى قبعته وكل ما كان يرتديه هو حلة سوداء تشتمل على سترة مزدوجة الصدر وصدرية وبنطلون وقميص أبيض ورباط عنق أسود وحذاء وجورب أسود تماماً مثل شخص في جنازة أو مثل حانوتى، ينظران إلى بعضهما البعض في محبة وقد ظهرت السعادة عليهما في وضوح بعد أن تم الاتحاد بينهما مرة أخرى عقب سنوات من الإنفصال، وفرناندو بسوا هو الذي يتكلم أولا: أعتقد أنك جئت لزيارتى، وأنا لم أكن هناك لكنهم أخبرونى بذلك عقب عودتى،

فقال ريكاردو ريس: كنت متأكدا أنني سأجدك هناك ولم أتصور أبداً أن بمقدورك مغادرة ذلك المكان، فقال فرناندو بسوا: الخروج مسموح به بصفة مؤقتة، فأنا لدى حوالى ثمانية شهور استطيع التجول خلالها كما يحلو لي، تساءل ريكاردو ريس: ولماذا ثمانية شهور فقال فرناندو بسو موضحا: الفترة المعتادة هي تسعة شهور وهي نفس الفترة التي نقضيها في أرحام أمهاتنا.

وأعتقد أن هذه مسألة تناسقية وقبل أن نولد لا أحد يشاهدنا ومع ذلك فهم يفكرون فينا في كل يوم وبعد أن نموت لا يعد بمقدورهم مشاهدتنا ومع مرور الأيام يتزايد نسيانهم لنا تدريجيا وبغض النظر عن الحالات الاستثنائية فأن النسيان التام يتحقق عقب إنقضاء الأشهر التسعة، والآن قل لي: ما سبب مجيئك إلى البرتغال فقام ريكاردو ريس باستخراج محفظته من جيبه الداخلى واستخرج منها ورقة مطوية ودفع بها نحو فرناندو بسوا ولكن بسوا صدرت عنه حركة تدل على الرفض وقال: لم يعد بمقدورى أن أقرأ عليك قم أنت بقراءتها، فأطاع ريكاردو ريس وراح يقرأ: لقد مات فرناندو بسوا حقاً إنني مسافر إلى جلاسجو، توقيع: ألفارو دى كامبوس، وعندما تسلمت هذه البرقية قررت أن أعود، وشعرت أن عودتى بمثابة التزام، فلهجة البرقية مثيرة للغاية وهي مرسلة من ألفارو دى كامبوس بدون أي شك فحتى في تلك الكلمات القليلة يمكن للمرء أن يكتشف نعمة من الرضا الخبيث بل والاستمتاع في تسلية، لأن ألفارو يكون دائماً على ذلك النحو، وكان هناك سبب آخر وهو سبب يتعلق في هذه المرة بالمصلحة الشخصية، ففي نوفمبر تفجرت ثورة في البرازيل ومات الكثيرون وألقى القبض على العديد فخشيتُ أن تزداد الأمور سوءا لكنني لم أستطع أن أقرر ما إذا كان ينبغي عليّ أن أغادر البرازيل أم أبقى فيها إلى أن وصلتني هذه البرقية التي

حسمت الموقف، فقال بسوا: يا ريس يبدو أنه من المقدر لك أن تهرب من الثورات ففي عام ١٩١٩ ذهبت إلى البرازيل بسبب ثورة تفجرت وفشلت وأنت الآن تهرب من البرازيل بسبب تفجر ثورة وهي ثورة ربما تفشل هي الأخرى، فقال ريس: أنني في حقيقة الأمر لم أهرب من البرازيل وربما ظللت هناك لو أنك لم تمت فقال بسوا: أذكر أنني قرأت شيئاً عن هذه الثورة قبل موتى بأيام قليلة، وأعتقد أن الذي حرض عليها هم البلاشفة، فقال ريس: نعم البلاشفة هم المسئولون، وهم عدد قليل من الضباط والجنود، وأولئك الذين لم يموتوا تم القبض عليهم وتم إخماد تلك الثورة في خلال يومين أو ثلاثة أيام، فقال بسوا: أكان الناس خائفين، فقال ريس: بالتأكيد كان معظمهم خائفين، وهنا في البرتغال أيضاً تفجرت ثورات عديدة حيث وصلتني أنباؤها أثناء وجودى في البرازيل، فقال بسوا: أما زلت تؤمن بالنظام الملكي، فقال ريس: نعم، فقال بسوا: وبدون وجود ملك، فقال ريس: يمكن للمرء أن يؤمن بالنظام الملكي بدون المطالبة بوجود ملك، فقال بسوا: هل هذا هو ما تشعر به فقال ريس: نعم فقال بسوا: هذا تناقض ظريف، فقال ريس: أنه تناقض ليس أسوأ من تناقضات اخرى، فقال بسوا: أن ما تؤيده من خلال الرغبة لا يمكن أن تؤيده من خلال العقل، فقال ريس: بالضبط وها أنت تدرك أنني ما زلت اتذكرك، بالطبع.

ثم نهض فرناندو بسوا وترك الأريكة وسار خطوات قليلة ثم توقف أمام مرآة غرفة النوم قبل العودة إلى غرفة الجلوس، وقال: أشعر بشيء غريب عندما أنظر في المرأة ولا أشاهد نفسي منعكسا على صفحتها، فقال ريس: ألا ترى نفسك، فقال بسوا: لا أدرك أنني أنظر إلى نفسي ولكني لا أشاهد أي شيء، فقال ريس: ومع ذلك فأنت تلقى بظلال، فقال بسوا: ذلك هو كل ما أمتلكه، وجلس مرة أخرى ووضع ساقا

على ساق ثم تساءل: هل ستستقر في البرتغال بشكل دائم أم سترجع إلى البرازيل.

فقال ريس: لم أتخذ حتى الآن قرارا في هذا الشأن، لم أحضر معي سوى بعض الأشياء الضرورية وربما سأمكث في البرتغال وأفتح مكتبا وأكون زبائن وربما أعود إلى ريودى جانيرو، فأنا مقيم حاليا في البرتغال ولكنني كلما أمعنت التفكير في هذا الشأن اعتقدت أكثر أنني جئت إلى البرتغال لسبب واحد وهو أنك انتقلت إلى رحمة الله حيث يبدو لي كأن بمقدورى وحدى أن أشغل الفراغ الذي خلفته وراءك، فقال بسوا: ليس بمقدور أي شخص على قيد الحياة أن يحل محل شخص ميت، فقال ريس: لا أحدنا يعتبر ميتا حقاً أو حيا بالفعل، فقال بسوا هذا كلام مصاغ على نحو جيد وهو بمثابة قول مأثور يتلاءم مع إحدى قصائدك، ثم ابتسما سويا في آن واحد، وتساءل ريكاردو ريس: كيف عرفت أنني كنت مقيما في هذا الفندق، فقال فرناندو بسوا: عندما تموت فإنك تعرف كل شيء وهذه من بين الفوائد المهمة للموت، فقال ريس: وكيف دخلت غرفتي؟ فقال بسوا: تماماً مثلما يدخل أي شخص آخر، فقال ريس: هل جئت من خلال الهواء وهل مررت من خلال الحوائط؟ فقال بسوا: يا لها من فكرة سخيفة يا صديقي الطيب فمثل هذه الأمور لا تحدث إلا في قصص الأشباح لا لقد جئت من الجبانة الموجودة في برازيريس ومثل أي شخص ميت آخر صعدت على السلالم وفتحت الباب وجلست على الأريكة في انتظار وصولك، فقال ريس: ولم يبدأ أحد دهشته لدى مشاهدة شخص غريب يدخل إلى الفندق فقال بسوا: وهذا امتياز آخر يتمتع به الشخص الميت، إذا لا يستطيع أحد مشاهدته اللهم إلا إذا كان يرغب في ذلك، فقال ريس: ولكنني أراك بالفعل، فقال بسوا: لأنني أريد لك أن ترانى وإذا فكرت في الأمر مليا فمن

تكون أنت، وهذا سؤال بلاغى يطرح لمجرد التأثير في النفوس لا ابتغاء الحصول على إجابة، فلم يرد ريكاردو ريس بأي كلام بل وكأنه لم يسمع ذلك السؤال، وسادت فترة صمت طويلة، وكان بالمستطاع سماع صوت ساعة الحائط الموجودة عند بسطة السلم وهي تعلن الثانية صباحا وكما لو كان الصوت متراميا من عالم آخر، ثم نهض بسوا على قدميه قائلاً: ينبغي عليّ أن أعود، فقال ريس: هكذا بسرعة، فقال بسوا: وقتى هو ملك لي وأنا لي حرية المجئ والذهاب كما يحلو لي، وصحيح أن جدتى هناك لكنها لم تعد تضايقنى، فقال ريس: أريدك أن تبقى معي لفترة أطول، فقال بسوا: لا الوقت أصبح متأخرا وينبغي عليك أن تستريح، فقال ريس: متى سأراك مرة أخرى، فقال بسوا: أترغب أن أعود إليك، فقال ريس: أرغب كثيراً في ذلك إذ يمكننا أن نتجاذب أطراف الحديث ونجدد صداقتنا ولا تنس أنني بعد أن أمضيت ستة عشر عاما في البرازيل أشعر كأنني شخص غريب هنا في البرتغال، فقال بسوا: تذكر أنه يمكننا أن نتواجد سويا على مدى ثمانية شهور فقط وبعدئذ ينفذ وقتى فقال ريس: في البداية تبدو الثمانية شهور وكأنها فترة حياتية، فقال بسوا: سأجيئ لزيارتك كلما أصبح بمقدورى المجيئ، فقال ريس: ألا تود أن تحدد يوماً معيناً ووقتاً محدداً ومكاناً معيناً.

فقال بسوا: هذا أمر مستحيل، فقال ريس: حسناً فلنتقابل في القريب العاجل يا فرناندو لقد سعدت كثيراً برؤيتك، فقال بسوا: وأنا أيضاً سعدت بك يا ريكاردو، فقال ريكاردو ريس: أينبغي أن أتمنى لك عاما سعيدا جديداً.

فقال بسوا: يمكن لك أن تتمنى لي ذلك فهذا لن يعود بأي ضرر عليّ فهذه كلها مجرد كلمات وهو أمر تعرفه أنت جيداً.

فقال ريكاردو: كل عام وأنت بخير يا فرناندو، ورد فرناندو: كل عام وأنت بخير يا ريكاردو.

ثم فتح فرناندو بسوا باب غرفة النوم وخرج إلى الدهليز بدون أن يصدر صوتا عن وقع أقدامه، وبعد دقيقتين وهي الفترة التي استغرقها النزول على السلالم ترامى الصوت العالى الناجم عن غلق الباب الخارجى للفندق بعد أن صدر أزيز مقتضب عن الجرس الكهربائي، فاتجه ريكاردو ريس بسرعة إلى النافذة لكي يلقى نظرة... لقد كان فرناندو بسوا بصدد الاختفاء بالفعل في شارع الكريم، وتلألات قضبان الترام وهو ما زال ينطلق موازيا له.

(٤)

سواء أكان ذلك بسبب أنها في حد ذاتها تؤمن بذلك أو بسبب أن شخصاً ما أمسك بيدها عقب فشلها في الاستجابة للإيحاءات فإن الجرائد تخبرنا ـ ما لو كان ذلك بمثابة نبوءة عظمى ـ أنه فوق أطلال الدول القوية ستظهر الدولة البرتغالية قوتها الكبيرة وحكمة وذكاء الرجال الذين يحكمونها، لأن تلك الدول سوف تسقط وسيكون سقوطها مدويا فالدول المغرورة التي تتفاخر بتفوقها الحالي تتعرض للكثير من الخداع لأن اليوم الحاسم سيجيئ بسرعة وهو أسعد يوم في سجلات تاريخ هذه الأمة عندما يجيئ قادة دول أخرى إلى الشواطئ البرتغالية سعيا للحصول على المشورة والمساعدة والحكمة والإحساس علاوة على الحصول على الزيت اللازم لاشعاعهم الفكرى والروحي من رجال دولتنا البرتغالية العظام، ومن هم هؤلاء الحكام الذين يبدأون مع الحكومة التالية والتي يتم تشكيلها بالفعل، يوجد في القيادة أولفييرا سالازار رئيس المجلس ووزير المالية وبعد ذلك يوجد على مسافة بعيدة ووافقا للترتيب الذي تنشر به الصحف صورهم الفوتوغرافية: مونتايرو وزير الخارجية، بيرايرا وزير التجارة ما خادو وزير المستعمرات، أبرانش وزير الأشغال العامة، بتينكورت وزير البحرية، باشيكو وزير التعليم، ردريجيوس وزير العدل، سوسا وزير الحربية، سوسا وزير الداخلية ووزير الحربية هو باسوس دى سوسا بينما وزير الداخلية هو بائس دى

سوسا وينبغي كتابة اسميهما بالكامل حتى يمكن للالتماسات المرفوعة إليهما أن تصل بدون تأخير، ولا ينبغي أن ننسى ديوك وزير الزراعة والذي لا يمكن انتاج حبة قمح في أوربا أو في أي مكان آخر بدون الحصول على رأيه، وبالنسبة لوظائف وكيل الوزارة الدائمة يوجد لا مبريلز وكيل وزارة المالية، أندريز وكيل وزارة التعاون لأن هذه الدولة الصغيرة على الرغم من أنها ما زالت في مرحلة الطفولة إلا أنها متماسكة مما يوضح السبب في أن منصب وكيل الوزارة يعتبر كافيا تماماً، وتشير الصحف هنا أيضاً إلى أن معظم أجزاء البلاد قد حصلت على فوائد كثيرة من وراء الإدارة النموذجية التي تحرص على الحفاظ على الأمن العام وإذا كان مثل هذا البيان تشتم منه رائحة مدح الذات عليكم بقراءة تلك الجريدة التي تصدر من جنيف باللغة الفرنسية والتي تصف ديكتاتور البرتغال سالف الذكر والتي تقول عنا أننا سعداء للغاية حيث يتم قيادتنا من خلال ديكتاتور مستنير وقائد حكيم وكاتب ذلك المقال على صواب تماماً ونحن نشكره من كل قلوبنا، ولكن علينا أن نضع في الاعتبار أن باشيكو وزير التعليم ليس أقل حكمة إذا قال لنا غدا أن التعليم الأولى ينبغي أن يسدد تلاميذه الرسوم المدرسية ولا شيء أكثر من ذلك لأن المعرفة إذا نقلت بسرعة كبيرة فإنها لا تخدم هدفاً حقيقياً ولأن التعليم المرتكز على المبدأ المادى وعلى الوثنية التي تخنق الدوافع النبيلة يعتبر أسوأ من ظلام الأمية ولذلك يختتم باشيكو وزير التعليم كلامه مشيرا إلى أن سالازار يعتبر أعظم معلم في هذا القرن الخاص بنا وهذا يعتبر تأكيداً جريئاً للغاية لأننا لم نقطع سوى ثلث المسافة على طريق القرن العشرين.

لا تعتقد أن كل هذه الفقرات قد ظهرت على نفس الصفحة بنفس الجريدة لأنها عندئذ ستبدو وكأنها متصلة وستعطي المعنى التكميلى

والمترابط على نحو متبادل والذي قد تبدو عليه، ولكنها التقارير التي صدرت خلال الأسابيع القليلة الماضية والتي وضعت بجوار بعضها مثل أحجار الدمونيو بحيث يوضع كل نصف في مقابل المساوى له إلا إذا تصادف أن كانت مضاعفة أو مزودجة وفي هذه الحالة توضع بالعرض، هذه بمثابة أحداث جارية تشاهد عن بعد، ويقرأ ريكاردو ريس الجرائد الصباحية أثناء ارتشافه القهوة المخلوطة باللبن علاوة على تناول التوست الطعام الذي يقدمه فندق براجانسا، ونحن نعرف الخادمة التي تحضر له طعام أفطاره أنها ليديا التي تقوم أيضاً بترتيب سريره وتنظيف حجرته، وهي عندما تتحدث مع ريكاردو ريس فإنها تقول له دائما: يا دكتور في حين أنه عندما ينادى عليها يكتفي بذكر اسمها فقط: يا ليديا، ولكن نظرا لأنه رجل متعلم ومثقف فإنه لا يستخدم الصيغة المألوفة عندما يطلب منها شيئاً، فلا يقول: افعلى هذا أو أحضرى لي ذاك الشيء ونظرا لأن ليديا غير معتادة على مشاهدة مثل هذا الأدب فإنها تشعر أنه يتم تملقها ويتم اشباع غرورها لأن الضيوف بوجه عام يعاملونها بالطريقة المعتادة التي تعامل بها الخادمات ويعتقدون أن النقود تمنح كل حق وأن كانت هناك ضيفة أخرى تعاملها بنفس التقدير والاحترام وهي السنيوريتا مارسيندا ابنة الدكتور سامبيو، وتبلغ ليديا حوالى ثلاثين عاما وبذلك فهي امرأة ناضجة مكتملة الأنوثة ولها شعر أسود ولها ملامح برتغالية على نحو حاسم ولا يدع مجالا للشك، وهي تميل إلى القصر أكثر مما هي تميل إلى الطول إذ كانت توجد هناك أية أهمية تتعلق بالخصائص الجسمانية لخادمة عادية لم تفعل أي شيء بخلاف حك وتنظيف الأرضيات وتقديم طعام الافطار وهي في مناسبة واحدة تضحك عندما تشاهد رجلا ممتطيا ظهر رجل آخر عندما كان هذا الضيف يقف هناك مبتسما، أنه شخص لطيف ومع ذلك فهو يموج بالحزن ولا يستطيع أن

يكون سعيدا رغم أنه تجيء عليه لحظات يشرق فيها وجهه مثل هذه الغرفة المظلمة عندما تسمح السحب لأشعة الشمس بالتغلغل إلى داخلها، أنه ضوء القمر أكثر مما هو ضوء النهار، أنه بصيص من الضوء، لأنه أصاب راس ليديا عند زاوية ملائمة، ولاحظ ريكاردو ريس الوحمة الموجودة على جانب إحدى فتحتي أنفها، أنها تتلاءم معها، هكذا راح يفكر ولو أنه فيما بعد لم يستطع أن يعرف ما إذا كان قد أشار إلى الوحمة أو إلى مريلتها البيضاء أو إلى قلنسوتها المنشّاة.

مرت ثلاثة أيام ولم يظهر فرناندو بسوا مرة أخرى، ولم يسأل ريكاردو ريس نفسه هذا السؤال الواضح: أكان ذلك بمثابة حلم، لقد كان يدرك تماماً أن فرناندو بسوا قد وجد في غرفته وتعانقا سويا في ليلة السنة الجديدة وأنه وعده بأنه يعود إليه، وهو كان يصدقه لكنه بدأ يفقد صبره بسبب هذا التأخير في مجيئه وبدت له حياته الآن وكأنها أصبحت معلقة ومائجة بالتوقع والانتظار ومليئة بالشكوك، وراح يتفحص الجرائد من أجل العثور على دلائل وخطوط عريضة لكيان كلي أو ملامح لوجه برتغالي ليس من أجل استحضار صورة عن البلاد وإنما لكي يغلف الصورة الخاصة به بمادة جديدة ولكي يكون قادرا على رفع يديه إلى وجهه والتعرف على ذاته ولكي يكون قادرا على وضع يد على أخرى ويضمهما في أحكام سويا، إنه أنا وأنا هنا، وفي الصفحة الأخيرة وقع بصره على إعلان كبير بعرض عمودين، في الركن العلوي الأيمن كان يوجد رسم لفراير النقاش، كان مرتديا نظارة لها عين زجاجية واحدة علاوة على ارتداء رباط عنق على هيئة اسكتش من طراز قديم، وتحت هذا الرسم وإلى أسفل الصفحة كانت توجد سلسلة من الرسومات الأخرى التي تعلن عن ورش العمل الخاصة به وهي الورش الوحيدة التي تقدم مجموعة شاملة من البضائع مع شروح توضيحية زائدة على

الحاجة كما لو كانت تبرهن على أنها مساوية أو أفضل من الوصف بالكلمات باستثناء أنه لا توجد هناك صورة يمكن أن توضح النوعية الممتازة لمنتجات شركة قد تأسست منذ ٥٢ عاما بمعرفة حفار ونقاش ممتاز وهو رجل له شخصية وسمعة طيبة لا تشوبها أية شائبة وقام بدراسة العواصم الكبرى في أوربا والذي تعلم أولاده من بعده المهارات والتقنيات المتعلقة بحرفته وتجارته، ولأنه فريد من نوعه في البرتغال فإنه منح ثلاث ميداليات مذهبية، ولقد شيد في مصنعة ١٦ ماكينة تعمل بالكهرباء وكل ماكينة منها تساوى ستين كانتو وتلك الماكينات تستطيع أن تفعل أي شيء باستثناء التكلم، يا إلهي، عالم بأكمله يتم تصويره هنا، ونظرا لأننا لم نولد في الوقت الملائم لكي نشهد ساحات القتال الخاصة بطروادة أو درع أخيل الذي كان يعكس كل السماوات والأرض فهيا بنا نبدى اعجابنا بهذا الدرع البرتغالي الموجود هنا في لشبونة والذي يصور آخر أعاجيب الأمة واللوحات الرقمية الخاصة بالمباني والفنادق والخاصة بالغرف والدواليب ومشاجب المظلات ومشاحذ موس الحلاقة والمشاحذ الخاصة بالسكاكين والمقصات والأقلام التي لها سن ذهبي والمعاصر والموازين والأطباق الزجاجية ذات سلاسل النحاس وماكينات تحزيم الشيكات والأختام المصنوعة من المعدن والمطاط والحروف المطلية بالميناء والمطبعات الخاصة بالكتابة على القماش والشمع الأحمر والأقراص المرقمة من أجل الطوابير في البنوك وشركات الأعمال التجارية والمقاهي وسبائك الحديد التي بها وسْم وكيّ الماشية والصناديق الخشبية ومطواه الجيب ولوحات التسجيل الخاصة بالسيارات والدراجات والحلقات والميداليات الخاصة بكل نوع من أنواع الرياضة والبادجات اللازمة للطاقية التي يرتديها العاملون في محلات بيع الألبان والمقاهي والكازينوهات، والخزائن والأعلام

المصنوعة من المعدن والتي توضع فوق أبواب المعاهد والمؤسسات والمكاوى والفوانيس الكهربائية والمطواة التي لها أربع شفرات علاوة على أنواع أخرى من المطاوى، والشعارات وإطارات الطبع والقوالب الخاصة بالبسكويت وصابون التواليت ونعل الحذاء المطاطى والمونوجرام وشعار النبالة الذهبي والمعادن المخصصة لكل الأغراض التي يمكن تخيلها وولاعة السجاير والحجر والحبر اللازمان لأخذ البصمات وشعار النبالة للقنصليات البرتغالية والأجنبية والمزيد من لوحات التعريف الخاصة بالأطباء والمحامين ولمكاتب التسجيل الخاصة بتسجيل الميلاد والوفيات ومن أجل مجلس الأبرشية والقابلة والموثق العام وتلك اللوحات المكتوب عليها «ممنوع الدخول» وحلقات من أجل الحمام إلخ إلخ إلخ وثلاثة أخرى من إلخ، ولا ننسى أن نقول أن هذه هي ورش العمل الوحيدة التي تقدم قائمة جرد كاملة تكون قد قمت بإعدادها من أجل شراء بوابات حديدية مطلوبة لمقابر العائلة، حتى الآلهة تنسى موضوع الموت ولكن لا عجب في ذلك إذا كانت هي خالدة وفراير النقاش والحفار الأكثر صرامة يذكر كل شيء في الإعلان الخاص به الذي يشبه المتاهة ويشبه خصلة الشعر ويشبه النسيج المتشابك، وراح ريكاردو ريس يدرس ذلك الاعلان مما جعل قهوته المخلوطة باللبن تبرد علاوة على تجمد قطعة الزبدة الموجود على التوستا الخاص به، ولاحظوا أيها الزبائن المحترمون أن مؤسستنا ليس لها فروع في أي مكان واحترسوا من أولئك الذين يسمون أنفسهم مندوبين لأنهم يخرجون من أجل خداع الجماهير بأشياء زائفة وعندما جاءت ليديا لكي تأخذ الصينية أصابها الهم والقلق، أنت لم تأكل أي طعام يا دكتور، ألم يعجبك هذا الطعام؟ فاحتج على كلامها وأشار إلى أنه قد تناول طعامه بالفعل ولكنه أصبح مشتت الذهن بسب انشغاله في

قراءة الجريدة هل أطلب لك توست طازجا وأعيد تسخين قهوتك، لا داعي لأن تفعلى ذلك، فأنا على ما يرام، وعلاوة على ذلك فإنه لم يكن يشعر بالجوع، وبعد أن قال ذلك نهض واقفا ووضع يده على ذراعها لكي يؤكد لها هذا المعنى، وكان بمقدوره الاحساس بالنسيج الحريرى لكمها وبدفء بشرتها، فنظرت ليديا لأسفل وتحركت إلى جانب إلا أن يده صاحبتها أثناء تحركها وظلا على هذا الحال لثوان قليلة، وأخيرا رفع ريكاردو ريس يده عن ذراعها، فأخذت الصينية واهتزت الآنية الفخارية كما لو أن سطح الأرض الواقع فوق الزلزال كان موجودا في الغرفة رقم ٢٠١ أو إذا توخينا الدقة كان موجودا في قلب هذه الخادمة، وترحل ليديا الآن، أنها لن تستعيد هدوءها وتوازنها على وجه السرعة، أنها ستذهب إلى مخزن الأطعمة وتضع الصينية بينما يدها تلامس ذلك المكان بذراعها الذي استقرت عليه يده، أنها حركة رقيقة من غير المتوقع أن تصدر عن إنسانة لها هذه المهنة المتواضعة، وفي تلك اللحظة كان ريكاردو ريس يوبخ نفسه بسبب استسلامه لمثل هذا الضعف السخيف، يا له من شيء لا يصدقه العقل ذلك الذي فعلته مع هذه الخادمة، من حظه الحسن أنه لا يضطر إلى حمل صينية محملة بآنية فخارية وإلا لكان قد عرف أن يدي نزيل فندق يمكن أن ترتعش أيضاً المتاهات تكون على هذا النحو: شوارع ومفترقات للطرق وممشيات سديمية غير واضحة، يوجد أولئك الذين يدعون أن أفضل وسيلة للخروج من المتاهات هي أن تتخذ دائماً نفس الالتفاف ونفس الاتجاه ولكن هذا كما نعرف يتناقض مع الطبيعة البشرية.

ودائما ما ينطلق ريكاردو ريس من هذا الشارع وهو شارع الكريم ثم يدخل إلى أي شارع آخر يكون صاعداً أو هابطاً أو متجهاً إلى اليمين أو اليسار ويكون ذلك بمثابة أول حل لخصلة الشعر أو النسيج المتشابك،

وبعد مرور بعض الوقت تبدأ ساقاه في الشعور بالتعب، إذ لا يمكن للمرء أن يواصل التجول إلى ما لا نهاية، الرجل الأعمى ليس هو فقط الذي يحتاج لعصا من أجل تفحص خطوة للأمام أو يحتاج لكلب من أجل طرد المخاطر ولكن حتى الرجل الحاد البصر يحتاج لضوء يمكنه أن يتتبعه، ضوء يؤمن به أو يأمل في أن يؤمن به وذلك في حالة عدم وجود شيء ما أفضل، أن ما يحتاج إليه ريكاردو ريس هو كلب مرشد أو عصا أو ضوء يتلألأ أمامه لأن هذا العالم وكذلك لشبونة بمثابة سديم ضبابي داكن تختلط فيه جميع الاتجاهات: الشمال والجنوب والشرق والغرب، ولأن الطريق الوحيد المفتوح ينحدر لأسفل، وإذا لم يلتزم المرء بالحرص والحذر فأنه سيسقط في اندفاع نحو القاع مثل دمية الترزى التي هي بلا ساقين الخوف وليس صحيحا أنه عاد بسبب موت فرناندو بسوا لأن المرء لا يستطيع أن يرجع شيئاً إلى المكان والزمان الذي أبعد عنهما سواء أكان ذلك المرء هو فرناندو أو ألبرتو، فكل منا بمثابة كيان فريد من نوعه ويتعذر أبطاله أو الغاؤه أو نسخة وهو أمر غاية في التفاهة وربما لا يكون صحيحا تماماً، وحتى لو ظهر أمامى في هذه اللحظة بينما أشق طريقي نحو أفنيدا دا ليبرديد فإن فرناندو بسوا لم يعد هو فرناندو بسوا، ليس فقط لأنه أصبح ميتا، فالشيء المهم والحاسم هو أنه لم يعد قادرا على أن يضيف شيئاً إلى كيانه الذي كان عليه وإلى أعماله التي حققها وإلى التجربة التي مر بها وإلى الأشياء التي كتبها، بل إنه لم يعد بمقدوره أن يقرأ، يا له من شخص مسكين، وسيكون الخيار متروكا لريكاردو ريس لكي يقرأ له هذه المقالة الأخرى التي نشرت في مجلة مع وضع صورة للشاعر في إطار، منذ أيام قليلة اختطف الموت منا فرناندو بسوا الشاعر المتميز الذي أمضى حياته القصيرة في تجاهل كامل من جانب جماهير القراء ويمكن للمرء أن يقول ذلك أنه كان يدرك

القيمة العظيمة لانتاجه الأدبي الذي أدخره في غيره وحقد مثل شخص بخيل خشية أن يسرق منه ولكن ذات يوم ستظهر العدالة موهبته الرائعة مثلما أظهرت العبقريات العظمى الأخرى في الماضي، نقطة، نقطة، نقطة أولاد الزنا، أسوأ شيء يتسم به الصحفيون هو أنهم يعتقدون أن لهم الحق أن يضعوا في عقول الناس المستعدة لتصديق أي شيء أفكارا مثل هذه الفكرة التي تشير إلى أن فرناندو بسوا قد ادخر أشعاره وأخفاها عن الناس خشية أن يسرقها آخرون، كيف يمكنهم أن ينشروا مثل هذه التفاهات، وفي نفاد صبر راح ريكاردو ريس بطرف مظلته على الرصيف حيث كان قد أغلق مظلته واستخدمها كعصا طالما أن المطر لم يتساقط، المرء يمكن أن يضل الطريق حتى ولو كان يسير في خط مستقيم ودخل إلى منطقة الروسيو وربما كان أيضاً قد وصل إلى مفترق للطرق يتشكل من خلال أربعة أو ثمانية اختيارات لو كان قد أخذها وتتبعها لكانت كلها ستنتهي مثلما يعرف كل شيء إلى نفس النقطة وإلى ما لا نهاية، ولذلك فإنه لا يتم كسب سوى القليل إذا اتخذ أي طريق منها، وعندما يحين الوقت فأننا سنترك هذه المسألة للصدفة التي لا تقوم بالاختيار وإنما بكل بساطة تدفع وتدفع بدورها من خلال قوى لا نعرف عنها أي شيء وحتى لو كنا نعرف فما هو الذي يمكن أن نعرفه، من الأفضل أن تعتمد على هذه اللافتات التي ربما تكون قد صنعت بمعرفة ورش فراير النقاش والتي تحمل أسماء الأطباء والمحامين والموثق العام وهم الناس الذين نلجأ إليهم وقت الحاجة والذين تعلموا كيفية استخدام البوصلة، هذه البوصلات قد لا تتوافق مكانيا ولكن هذا الأمر له أهمية قليلة إذ يكفي للمدينة أن تعرف أن الاتجاهات توجد، أنت لست مضطرا لأن تغادر لأن هذا ليس هو المكان الذي تتفرغ من عنده الشوارع ولا هو تلك النقطة الرائعة التي تتلاقى عندها الشوارع وإنما هو المكان الذي تغير فيه

حاستها فالشمال يصبح جنوبا والجنوب يصبح شمالا، ولقد توقفت الشمس ما بين الشرق والغرب، المدينة هي الصخرة التي تعرضت للاحتراق والتي أحدق بها الزلزال، إنها دمعة عين لن تجف ولا يوجد لها أصبع لكي يزيلها، ينبغي عليّ أن أفتح مكتبا وأرتدى معطفا أبيض اللون واستقبل المرضى حتى ولو كان لمجرد أن أسمح لهم بأن يموتوا، هكذا قال ريكاردو ريس لنفسه وهو مستغرق في التفكير، على الأقل سيعقدون أواصر الصداقة معي خلال فترة وجودهم على قيد الحياة، ونحن لا نقول إن هذه أفكار جميع الأطباء وإنما هي أفكار هذا الطبيب بالتحديد وعلى نحو أكيد وذلك لأسباب تتعلق به وهي أسباب لم تظهر بعد إلا فيما ندر، وما هو نوع الممارسة الطبية التي سأقدمها وأين ومن أجل من، إذا كنت تعتقد أن مثل هذه الأسئلة لا تتطلب أي شيء سوى إجابات فأنت واهم، فنحن نجيب من خلال الأعمال تماماً مثلما أنه من خلال الأعمال نوجه أسئلة ريكاردو ريس على وشك النزول إلى سباتيروس عندما يشاهد فرناندو بسوا واقفا عند ناصية شارع سانتا جوستا، يبدو على فرناندو بسوا أنه قد ترك واقفا في حالة انتظار لفترة طويلة ولكنه لا يبدى دلائل نفاد الصبر، وهو يرتدى نفس الحلة السوداء بدون أن يضع غطاء على رأسه وتفصيل آخر لم يلحظه ريكاردو ريس وهو أنه بدون نظارة، ويعتقد ريكاردو ريس أنه يعرف السبب في ذلك، إذ سيكون من السخف أن يتم دفن رجل وهو مرتدى نظارته، ولكن ذلك ليس هو السب وكل ما حدث هو أنهم قد فشلوا أن يناولوه نظارته في الوقت الذي كان يعانى فيه من سكرات الموت، إذ كان قد طلب منهم قائلاً: أعطونى نظارتى ثم تركوه مستلقياً هناك وغير قادر على الرؤية لأننا دائماً جاهزون في الوقت المناسب من أجل تلبية الرغبات الأخيرة لمن يعانون من سكرات الموت، ويبتسم فرناندو بسوا ويلقى

عليه تحية ما بعد الظهر فيرد ريكاردو ريس على تحيته ثم يسيران في اتجاه تريرو دو باكو، وبعد أن قطعا مسافة ضئيلة بدأ المطر يتساقط مرة أخرى مظلة واحدة تظلهما وتحميهما سويا وعلى الرغم من أن فرناندو بسوا ليس لديه ما يدعوه للخوف من المطر إلاّ أن حركته المتعجلة كانت هي حركة شخص لم ينس الحياة تماماً أو ربما كانت هي الفكرة المواسية للمشاركة في نفس السقف والوجود على مقربة شديدة، أدخل تحت المظلة حيث يوجد متسع لشخصين، ولا أحد سيرفض مثل هذا العرض بأن يقول: لست في حاجة إلى ذلك فأنا لا أخشى المطر، ويتساءل ريكاردو ريس في فضول:

لو كان شخص ما يرقبنا الآن فمن سيشاهد، أنت أم أنا إنه سيشاهدك أو بالأحرى سيشاهد شكلاً مليئاً بالظلال ليس أنت أو أنا، الكمية الخاصة بكل منا مقسومة على اثنين، لا يمكنني القول إنها نتيجة ضرب عدد واحد في عدد واحد هل علم الحساب موجود، الاثنان مهما كانا لا يجمعان وإنما يضربان تقول القاعدة كن مثمرا وأضرب، ليس بهذا المعنى البيولوجي المقيد يا صديقي العزيز أنظر إلى حالتي فأنا لم أترك ورائي أي أطفال، وأنا متأكد إلى حد ما أنني أيضاً لن أترك ورائي أي أطفال، ومع ذلك فنحن متعددو العناصر ولقد كتبت قصيدة أشرت فيها إلى أن أناسا لا حصر لهم يوجدون في داخلنا، إنني لا أذكرها.

لأنني كتبتها منذ حوالى شهرين، وكما ترى فإن كلا منا يقول نفس الكلام وبالتالي ليست هناك جدوى من وراء تكاثرنا، لو لم نتكاثر لما أصبح التكاثر أمراً ممكنا، دارت هذه المحادثة القيمة بما فيها من نظريات استدارا إلى اليسار ليدخلا في شارع أوحسترا ثم سارا في خط مستقيم مرة أخرى، توقف ريكاردو ريس فجأة وقال مقترحا: هيا بنا إلى مقهى مارتينيو فقال فرناندو بسوا: ليس من الحكمة أن نفعل ذلك

لأن الحوائط لها آذان وذاكرة قوية ويمكننا الذهاب إلى ذلك المقهي في يوم آخر عندما لا تكون هناك مخاطر من احتمال أن يتعرف عليَّ أحد فالمسألة هي مسألة وقت، ولدى سيرهما ببطء تحت رواق مقنطر أغلق ريكاردو ريس مظلته وقال: أفكر في الاستقرار هنا كي أمارس مهنة الطب، اذن فأنت ليس لديك أي نية للعودة إلى البرازيل أنه من الصعب عليَّ أن أوضح لك الأمور بل أنني غير متأكد أنه بمقدورى تقديم توضيح دعنا نقول أنني أشبه بالإنسان المصاب بالأرق الذي يعثر على مكان مريح على الوسادة بحيث يمكنه الحصول على قدر من النوم إذا كنت تنشد النوم فأنك تكون قد وصلت إلى دولتك الملائمة، إذا وافقت على النوم فأن ذلك يعنى أنني قادر على مشاهدة الأحلام، أن تحلم هو أن تكون غائبا أو تكون على الجانب الآخر، ولكن للحياة جانبان يا بسوا، جانبان على الأقل ولا يمكننا الوصول إلى الجانب الآخر إلا من خلال الأحلام، يمكن أن تقول هذا لرجل ميت يستطيع أن يقول لك من تجربته الشخصية أنه لا يوجد على الجانب الآخر أي شيء سوى الموت، حسناً لا أعرف كنه وجوهر وطبيعة الموت ولكنني غير مقتنع أن هذا الجانب الآخر من الحياة هو الذي نناقشه لأن الموت في رأيي يقصر نفسه على الوجود، الموت موجود، الموت غير موجود.

أليست كلمة الوجود والتواجد لهما نفس المعنى، لا يا عزيزي ريس فالوجود والتواجد ليسا هما نفس الشيء والدليل على ذلك فإننا لدينا كلمتان مختلفتان تحت تصرفنا، على العكس من ذلك فلأنهما ليسا نفس الشيء فإننا لدينا هاتان الكلمتان ونستخدمهما، ووقفا يتجادلان تحت بهو الأعمدة عندما كان المطر يخلق بحيرات صغيرة من الماء في الميدان والتي تجمعت على شكل بحيرات أكبر حجما والتي أصبحت بحارا طينية، ولا حتى في هذه المناسبة يمكن لريكاردو ريس الذهاب

إلى رصيف الميناء لكي يلقى نظرة على تكسر الأمواج، وكان على وشك أن يقول هذا وأن يشير إلى أنه كان هنا من قبل عندما نظر فيما حوله وأدرك أن فرناندو بسوا ينصرف بعيدا، وهنا فقط يدرك أن بنطلون الشاعر كان قصيرا للغاية مما جعله يبدو كأنه يمشي على رجلين خشبيتين، وأخيرا سمع صوته متراميا من مكان قريب على الرغم من أن فرناندو بسوا كان قد قطع مسافة طويلة لسوف نستأنف هذا الحديث مرة أخرى إذ ينبغي عليَّ أن أنصرف الآن للذهاب إلى هناك، وبين قطرات المطر لوح بيده ولكنه لم يقل إلى اللقاء أو لسوف أعود إليك، كانت السنة قد بدأت بطريقة أصبحت فيها حالات الوفيات هي حدث يتم يوميا صحيح أن كل عمر يكتسح ما يمكن له أن يكتسح وبسهولة أكبر في بعض الأحيان عندما تكون هناك حروب وأوبئة وأحيانا في إيقاع ثابت بحيث تتم حالة وفاة وراء أخرى ولكن من غير المعتاد أن نجد عددا كبيرا للغاية من الناس المشهورين يموتون سواء في الداخل أو في الخارج في مثل هذه الفترة الزمنية القصيرة، نحن لا نشير إلى فرناندو بسوا الذي رحل عن هذا العالم منذ فترة قصيرة ولا أحد يعرف أنه يعود من وقت لآخر إنما نشير إلى ليوناردو كوامبرا الذي ابتكر الإبداعية وإلى فال ـ انكلان مؤلف كتاب: رومانس دى لوبوس وإلى جون جلبرت الذي تألق في الموكب الكبير وإلى روديارد كبلينج الشاعر الذي كتب قصيدة إذا وأخيرا وليس أخرا نشير إلى ملك انجلترا جورج الخامس، كما كانت هناك بكل تأكيد وفيات أخرى وإن كانت لها أهمية أقل مثال ذلك الرجل العجوز الفقير الذي دفن من خلال إنزلاق من الطين أو أولئك الثلاثة والعشرين شخصاً الذين جاءو من ألينتجو وهاجمهم قط مصاب بمرض الكلب، والذي لا تعرفه يا دكتور هو أنه في نوفمبر الماضي وبمدن الإقليم الرئيسية مات ٢٤٩٢ شخصاً من بينهم السنيور

فرناندو بسوا، وهذا عدد ليس كبيرا أو صغيراً أنه ما كان مقدرا له أن يكون لكن الشيء المثير للحزن للغاية أن من بينهم ٧٣٤ طفلا تحت سن الخامسة، فإذا كان هذا هو الوضع في المدن الرئيسية تخيل ما يمكن أن تكون عليه الأوضاع في القرى حيث تكون القطط مصابة بمرض الكلب، يمكننا أن نواسي أنفسنا دائماً مع الفكرة القائلة بأن غالبية الملائكة الصغار بالسماوات من البرتغاليين، وعلاوة على ذلك فأن الكلمات يمكن أن يكون لها تأثير كبير للغاية، فعندما تتولى حكومة مقاليد السلطة يذهب الناس في حشود لكي يقدموا ولاءهم للوزير المحترم حيث يذهب كل فرد: مدرسون وموظفون مدنيون وممثلون عن القوات المسلحة الثلاثة وقادة وأعضاء في التحالف الوطني واتحادات ونقابات وفلاحون وقضاة ورجال شرطة وحراس جمهوريون ومحصلوا الضرائب وأفراد من الجمهور العمومي.

ويقوم الوزير بتقديم الشكر لكل فرد منهم من خلال خطبة قصيرة مصاغة في وطنية الكتاب الأول لتعليم مبادئ القراءة ومتوافقة مع آذان جمهور الحاضرين، وأولئك الحاضرون يرتبون أنفسهم حتى يمكنهم أن يظهروا في الصورة الفوتغرافية بينما الموجودون منهم في الصفوف الخلفية يمدون رقابهم ويقفون على أطراف أقدامهم لكي يلقوا نظرات مختلسة من فوق أكتاف جيرانهم الطوال القامة، وها أنذا هناك، أنهم سيخبرون في افتخار زوجاتهم عندما يعودون للمنزل، الأشخاص الموجودين في الأمام منتفخون في غرور وخيلاء إنهم لم يتعرضوا لعضات القطة المصابة بمرض الكلب ولكن لديهم نفس التعبير السخيف حيث ينزعجون من فلاش التصوير، في الفوضى فقدت بعض الكلمات ولكن يمكن استنتاجها من النغمة التي صدرت عن وزير الداخلية في مونتيمور - أوه - فيلو عندما افتتح تركيب الكهرباء وهذا تقدم كبير

ولسوف أقول لهم في لشبونة إن كبار مواطني مونتيمور يعرفون كيف يكونون مخلصين لسالازار، ويمكن لنا تخيل المنظر بسهولة، بائس دى سوسا يوضح للديكتاتور الحكيم الاسم الذي أطلقته عليه جريدة «التربيون دى نيشانز» وأن الناس الطيبين المنتمين لأرض فيرنو منديس بنتو كلهم مخلصون لسيادتك، ومع نظام للحكم كهذا شبيه بالحكم في القرون الوسطى يكون من المعروف جيدا أن الفلاحين والعمال كثيراً ما يتم استبعادهم عن تلك الطيبة فهم أناس لم يرثوا ممتلكات ولذلك فهم ليسوا رجالا طيبين وربما هم ليسوا برجال وإنما هم مخلوقات لا تختلف كثيراً عن هذه الحشرات التي تعض أو تقضم أو تزعج، ومن المؤكد أنه قد أتيحت لك الفرصة لكي تلحظ نوعية الناس الذين يسكنون في هذه الدولة يا دكتور مع الوضع في الحسبان أن هذه هي عاصمة الامبراطورية عندما مررت بجوار المدخل المؤدى إلى أو سيكيولوه في ذلك اليوم وشاهدت الدهماء المنتظرين من أجل الحصول على الصدقات، وإذا كنت ترغب في مشاهدة الفقر الحقيقي إذهب إلى الأحياء والمناطق السكنية وشاهد بنفسك مطاعم الفقراء والحملة الرامية إلى مساعدة الفقراء أثناء الشتاء وهو مشروع يدعو للإعجاب كما قال رئيس مجلس مدينة أوبورتو في برقية رحمة الله عليه، لا تعتقد أنه كان من الأفضل أن نتركهم لكي يموتوا حيث عندئذ كنا سنوفر على أنفسنا مشاهدة ذلك المنظر المخزى للحياة في البرتغال حيث المتسولين يجلسون على أرصفة الشوارع ويأكلون كسرة من الخبز الجاف بل إنهم لا يستحقون الأنوار الكهربائية فكل ما يريدون أن يعرفوه هو المسافة الواقعة بين الطبق الخاص بهم وأفواههم وهذا يمكن العثور عليه في الظلام.

وفي داخل الجسد أيضاً يوجد ظلام عميق ومع ذلك فالدماء تصل

إلى القلب والمخ بدون إبصار لكنه يرى وهو أصم لكنه يسمع وهو ليس لديه يدان ومع ذلك يمتد للأمام، من الواضح أن الإنسان واقع في المصيدة في داخل المتاهة وفي صباح اليومين التاليين ذهب ريكاردو ريس إلى الدور الأول لكي يتناول طعام إفطاره في المطعم فهو خائف من النتائج التي يمكن أن تترتب على حركة بسيطة مثل وضع يده على ذراع ليديا، لم يكن يخشى من أنها ربما تكون قد أبدت شكواها للمسئولين لأن كل ما حدث هو مجرد حركة بسيطة ومع ذلك فقد شعر ببعض القلق عندما تحدث لأول مرة عقب هذا الحادث مع المدير سلفادور، ولم يكن هناك داع للقلق لأن الرجل أبدى مودته واحترامه الشديد كالمعتاد، وفي اليوم الثالث رأى ريكاردو ريس أنه كان غبيا وبذلك لم ينزل إلى الدور الأول لتناول الإفطار بالمطعم، وتظاهر بأنه نسى موعد الإفطار على أمل أن يفعلوا نفس الشيء، لم يكن يعرف سلفادور جيدا ففي اللحظة الأخيرة جاء طرق على الباب ودخلت ليديا تحمل الصينية ثم وضعتها على المنضدة وقالت: صباح الخير يا دكتور على نحو طبيعي تماماً كالمعتاد، دائماً ما تكون الأمور على هذا النحو المرء يعذب نفسه ويفكر في الأسوأ ويعتقد أن العالم كله بصدد أن يطلب توضيحا كاملا في حين أن العالم واصل مسيرته مفكرا في أمور أخرى، ولكن ليس من المؤكد أن ليديا لدى عودتها لغرفته لكي تأخذ الصينية كانت لا تزال بمثابة جزء من العالم الذي يواصل سيره، إذ بدا عليها وكأنها تتلكأ وقد اجتاحها نوع من الشكوك، ثم تقوم

بالحركات العادية وتكون بصدد رفع الصينية لقد أمسكت الصينية بالفعل وتجعلها في خط مستقيم ثم ترفعها في الهواء على هيئة نصف دائرة وتتجه نحو الباب، أوه يا إلهي هل سيتكلم أنه وربما لن يقول أي كلام وربما سيكتفي بأن يلمس ذراعي مثلما فعل في المرة السابقة وإذا

لمس ذراعي فماذا سأفعل، نطق ريكاردو ريس باسمها: يا ليديا، فوضعت الصينية ورفعت عينيها المليئتين بالذعر وحاولت أن تقول: يا دكتور ولكن صوتها التصق في داخل حلقها، لم تكن لديه الشجاعة، وقال مرة أخرى: يا ليديا، ثم قال في صوت هامس: أرى أنك جميلة للغاية، ووقف هنالك محملقا فيها على مدى ثانية أو لحظة خاطفة فهو لم يستطع تحمل النظر إليها لفترة تزيد على الثانية، ثم حول بصره، توجد لحظات يفضل فيها المرء الموت على الحياة، وأغلق الباب في بطء ثم سمع وقع أقدام ليديا وهي عائدة في الطرقة.

وأمضى ريكاردو ريس اليوم بأكمله خارج الفندق، وقرر أن يترك فندقه في اليوم التالي ويذهب إلى فندق آخر أو يستأجر جزءا من منزل أو يعود إلى البرازيل مع أول باخرة متجهة إلى هناك، وعاد إلى الفندق وتناول طعام العشاء وخرج مرة أخرى لكي يشاهد فيلما في سينما البوليتيما تحت عنوان «الحروب الصليبية».

إنه فيلم مليئ بالإيمان وبالمعارك الطاحنة والقديسين والأبطال والخيول البيضاء الرائعة، وانتهي الفيلم، وسادت هالة من الحماس الديني في شارع سانتوس حيث ظهرت فوق رأس كل مشاهد للفيلم هالة نورانية ومع ذلك هناك أناس ما زالوا غير مقتنعين بأن الفن يمكن أن يحسن الجنس البشرى، واتخذ ابيسود الصباح الأبعاد والنسب الصحيحة، كما كان سخيفا منا أن ندخل في مثل هذه الحالة.

وفتح بيمينتا الباب له، كان المبنى مليئاً بالهدوء والسلام على نحو لا يصدقه العقل، من الواضح أن هيئة العاملين بالفندق لم يكونوا يعيشون فيه، ودخل إلى غرفته، وعلى الفور ومن خلال الغريزة نظر إلى السرير لم يكن السرير مرتبا كالمعتاد وبدلا من وجود وسادة واحدة شاهد

وسادتين، ربما تكون فتاة أخرى غير ليديا هي التي رتبت السرير واعتقدت أن الغرفة يشغلها شخصان، نعم يمكن أن نفترض أن الخادمات يتبادلن الأدوار من وقت لآخر حتى تكون لديهن فرص متساوية للحصول على البقشيش أو ـ وهنا ابتسم ريكاردو ريس ـ لمنعهن من تكوين صداقات مع الضيوف، حسناً غدا سوف تتضح الأمور، فاذا ظهرت ليديا في صباح الغد ومعها صينية الأفطار فهي بالتأكيد التي تكون قد رتبت السرير وماذا بعد، استلقى على السرير وأطفأ الأنوار ولم يكلف نفسه مشقة إزاحة الوسادة الثانية ثم أغلق عينيه في إحكام، أقبل تعال أيها النوم، لكن النوم لم ينفذ الأوامر الصادرة إليه، ومر ترام في الشارع وربما كان هو الترام الأخير، من هو الموجود في كياني الذي لا يرغب في النوم والذي يتملك جسده القلق جسدي أو أهي قوة ما غير ملموسة تموج بالقلق في جميع أرجاء جسدي أو على الأقل في هذا الجزء مني الذي ينمو، يا إلهي أنها الأشياء التي يمكن أن تحدث للانسان، نهض في غضب وتحسس طريقه من خلال الضوء الخافت المتسرب من النافذة وذهب لكي يفتح الباب قليلا ويتركه مواربا، ثم عاد إلى سريره هذا عمل صبياني، إذا كان الرجل يريد شيئاً ما فإنه لا ينبغي عليه أن يتركه للصدفة وإنما يشرع في انجازه، أنظر بعين الاعتبار إلى ما حققه الصليبيون في زمانهم حيث كانوا على استعداد للموت إذا اقتضت الضرورة وانظر إلى تلك القلاع وانظر إلى شعارات النبالة، لم يعد يعرف ما إذا كان مستيقظا أو نائما، ويفكر في أحزمة العفة والطهارة التي كانت موجودة بالعصور الوسطى ويفكر في المفاتيح التي كان يفوز بها الفرسان ويفكر في المخلوقات المسكينة المضللة المخدوعة، ويفتح باب غرفته في صمت ثم يغلق، ويعبر الغرفة هيكل شبحي متحسسا طريقة نحو حافة السرير، وتمتد يد ريكاردو ريس وتتقابل مع يد

متجمدة وتجذبها نحوه، وترتعد ليديا وكل ما يمكنها أن تقوله: إنني انتفض بسبب البرد الشديد، ويظل هو ملتزما بالصمت حيث راح يفكر فيما إذا كان ينبغي عليه أن يقبلها على شفتيها مثل هذه الفكرة المثيرة للحزن.

(٥)

من المقرر أن يصل الدكتور سامبيو وابنته اليوم حيث أعلن عن ذلك سلفادور في نشاط وخفة كما لو أن هذا الخبر السار من شأنه جلب مكافأة، ما زال هناك لكي يستدعى ليديا ويقول لها: إذهبي وتأكدي بنفسك من أن كل شيء مرتب وغرفتا الدكتور سامبيو والسانوريتا ما رسيندا هما رقم ٢٠٤ ورقم ٢٠٥ وهو أمر تعرفه ليديا تماماً بدا على ليديا أنها لا تلاحظ أن الدكتور ريكاردو ريس واقف هنالك لدى انطلاقها صاعدة إلى الدور الثاني، تساءل الدكتور كم عدد الأيام التي سيقضيانها بالفندق، أنهما يقضيان عادة ثلاثة أيام وهما سيذهبان في مساء الغد إلى المسرح فأنا قد حجزت لهما مقعدين بالفعل، إلى المسرح، ما هو اسم ذلك المسرح، أنه مسرح دونا ماريا، آه هذه الكلمة ليست من أجل إبداء التعجب والدهشة وإنما قد أدخلت هنا من أجل إنهاء حوار لا نقدر على استمراره أو لا نرغب في استمراره وحقيقة الأمر أن معظم القادمين من الأقاليم من أجل زيارة لشبونة ـ ولعل كوامبرا تغفر لي لأنني وضعتها ضمن الأقاليم ـ ينتهزون الفرصة ويذهبون للمسرح حيث ربما يذهبون لمشاهدة الرفي REVVE[1] الذي يعرض في

(١) عمل مسرحى يتألف من مزيج من الحوار والرقص والغناء ويهدف عادة إلى السخرية من الأحداث الجارية والأزياء السائدة ـ المترجم.

بارك ميار أو مشاهدة فيلم في دار أبولو أو دار أفينيدا في حين أن أولئك الذين لهم ذوق رفيع يذهبون حتما إلى مسرح دونا ماريا والذي يعرف أيضا باسم: المسرح القومي، ذهب ريكاردو ريس إلى الصالون وراح يتصفح جريدة وألقى نظرة على صفحة الترفيه ودليل المسارح وشاهد إعلانا عن مسرحية مار من تأليف ألفريدو كورتز فقرر على الفور الذهاب إلى المسرح فهو كمواطن برتغالي صالح ينبغي عليه تشجيع الممثلين البرتغاليين وكان على وشك أن يطلب من سلفادور أن يحجز له مقعدا من خلال اتصال تليفونى لكنه غير رأيه وقرر أن يحجز بنفسه مقعدا في اليوم التالي.

ما زالت هناك ساعتان متبقيتان قبل حلول موعد تناول العشاء، وفي تلك الأثناء سيصل الضيفان القادمان من كوامبرا اللهم إلا إذا وصل قطارهما متأخرا ويسائل ريكاردو ريس نفسه لدى صعوده على السلالم متجها إلى غرفته، ولكن لماذا ينبغي عليّ أن أكون مهتما للغاية ويقول لنفسه إنه من المستحب دائماً أن يقابل أناسا متحضرين قادمين من أماكن أخرى وعلاوة على ذلك فإنه توجد تلك الحالة المرضية المثيرة الخاصة بمارسيندا، ويمر بجوار الغرفة رقم ٢٠٤ ويدرك أن الباب مفتوح بينما ليديا في داخل الغرفة تقوم بتنظيف الأثاث باستخدام منفضة مصنوعة من الريش، ينظران في خلسه إلى بعضهما البعض وتبتسم ليديا لكنه لا يبتسم لها، وعقب ذلك مباشرة يصبح موجودا في غرفته ثم يسمع طرقا خفيفا على الباب، إنها ليديا التي تتسلل في هدوء وتسأله: أأنت متضايق مني؟، ويرد عليها بشق الأنفس بينما شفتاه مزمومتان، هنا في وضح النهار لا يعرف كيف يتصرف، إنها ليست سوى خادمة للغرف بالفندق وكان بمقدوره أن يربت على مؤخرتها الآن في فسق ومجون، إلا أنه يشعر بالارتباك الشديد بحيث لا يستطيع القيام بحركة كهذه. ربما

هذا الارتباك له ما يبرره في فترة زمنية سابقة ولكن ليس بعد أن التقيا سوياً بالفعل واضطجعا في نفس السرير وفي نوع من التكريس، وقالت ليدا: سوف أجيئ إليك هذه الليلة إذا سمحت ظروفي بذلك، فلم يرد عليها، إذ بدا له من غير الملائم أن تخطره مقدما في حين أن الفتاة ذات اليد المشلولة ستكون نائمة قريبة منهما وغير مدركة لتلك الأسرار الليلية التي تجرى في هذه الطرقة وفي هذه الغرفة الموجودة في الطرف البعيد، لكنه لم يكن قادرا على أن يقول لها: لا تجيئ، ثم غادرت ليديا غرفته واستلقى على الأريكة لكي يستريح، ثلاثة ليال مليئة بالنشاط الجنسي عقب مرور فترة طويلة من الامتناع عن ممارسة الجنس ولا عجب في أنه وهو في هذه المرحلة من العمر لا يستطيع فتح عينيه إلا بصعوبة، ويقطب جبينه ويسائل نفسه ـ وبدون العثور على إجابة ـ عما إذا كان ينبغي عليه أن يعطي لليديا هدية صغيرة من نوع ما مثل جورب أو قرط رخيص الثمن أو شيء ما يتناسب مع فتاة من نفس طبقتها الاجتماعية، ينبغي عليه أن يحسم عدم اليقين هنا مع التفكير في الدوافع والأسباب المؤيدة والمعارضة، هذا الموضوع ليس شبيها بمسألة ما إذا كان عليه أن يقبّلها على شفتيها أم لا لأن الظروف هي التي تحدد له القرار وذلك من خلال ما يسمى بلهيب العاطفة فهو نفسه لم يكن يعرف كيف حدث ذلك وكيف راح يقبلّها كما لو أنها أجمل فتاة في العالم، وربما سيتضح له أن مسألة تقديم هدية لها ستكون أمراً سهلا مثل موضوع القبلات فعندما يستلقيان معا يمكن أن يقول لها: أود أن أقدم لك تذكارا صغيراً وعندئذ ستجد ذلك أمراً طبيعياً للغاية، بل وهي ربما تسائل نفسها عن السبب الذي جعله لا يقدم حتى الآن هدية لها عقب مرور كل هذا الوقت.

ترامى من الدهليز صوت وقع أقدام وأصوات بشرية حيث كان بيمنتا

يقول: شكرا جزيلا يا سيدي ثم أغلق بابان عقب ذلك، لقد وصل المسافران، لقد كان على وشك الانخراط في النوم، لقد تحول النهار إلى ليل منذ فترة قصيرة وربما حان بالفعل وقت تناول طعام العشاء، لكن ريكاردو ريس لا يرغب في أن يكون هو أول من ينزل متجها إلى صالة الطعام، ويقول لنفسه في تفكير: إذا كنت لم أسمعهما وهما يغادران غرفتيهما فربما أكون قد استغرقت في نوم عميق دون أن أدرى ثم استيقظت دون أن أدرك أنني كنت نائما، لقد اعتقدت أنني أخذتني سنة من النوم في حين أنني استغرقت في نوم عميق، ويجلس معتدل القامة في نوع من القلق ثم ينظر إلى ساعة يده، لقد تجاوز الوقت الثامنة والنصف بقليل وفي نفس هذه اللحظة يترامى صوت رجل من الدهليز قائلاً: يا مارسيندا، إنني في انتظارك، ويفتح باب ثم تترامى أصوات غامضة ووقع أقدام تتحرك بعيداً ثم الصمت المطبق، وهنا ينهض ريكاردو ريس ويذهب إلى حوض الغسيل لكي يغتسل ويمشط شعره، الشعر على صدغيه يبدو اليوم أكثر بياضاً، ينبغي عليه أن يستخدم غسولا أو صبغة من النوع الذي يعيد اللون الطبيعي للشعر بسرعة وبحيث يعيد اللون الأصلي وبدون أي مبالغة.

جميع المناضد تقريبا مشغولة، ويتوقف ريكاردو ريس عند المدخل، ويجيئ المتر دى أوتيل لكي يقوده ويرشده إلى منضدته، لا حاجة لأن يفعل ذلك فالمنضدة موجودة في نفس المكان الذي يجلس فيه دائما، ولكن ماذا يمكن أن تكون عليه الحياة بدون هذه الطقوس وغيرها من الطقوس الأخرى: اركع عندما تصلي، ارفع الغطاء عن رأسك تحية العلم لدى مروره أمامك، أجلس وانشر المنديل على ركبتيك، إن نظرت حولك لكي تعرف من هو الشخص الجالس إلى جوارك إفعل ذلك في حذر، أومئ برأسك تحية لأي شخص تعرفه، ذلك هو ما

يفعله ريكاردو ريس، هذان الزوجان وذلك الضيف الجالس بمفرده وهؤلاء الناس الموجودون هنا، وهو يعرف أيضاً الدكتور سامبيو وابنته مارسيندا ولكنهما لا يتعرفان عليه مرة أخرى، إذ ينظر إليه الدكتور المحامى سامبيو بنظرة خالية من أي تعبير وربما هو يبحث في داخل ذاكرته لكنه لا ينحنى نحو ابنته ولا يهمس في أذنها قائلاً لها: ألست بصدد إلقاء التحية على الدكتور ريكاردو ريس الذي وصل إلى صالة الطعام توا، ولكنها هي التي تنظر إليه عقب مرور لحظات قليلة حيث كانت تنظر من فوق كُمّ الجرسون أثناء تقديم الطعام لها وظهرت رعشة خفيفة للغاية على وجهها الشاحب وتورد خفيف في الوجه كدليل على أنها تعرفه، وقال ريكاردو ريس لنفسه في تفكير: إنها تعرفني ثم قال بصوت عالٍ موجها كلامه للجرسون رامون سائلا عن نوعية الطعام الذي سيقدم في وجبة العشاء، وهذا ربما يوضح السبب أن الدكتور سامبيو نظر إليه ولكن لا فقبل ذلك بثوانٍ قليلة قالت مارسيندا لوالدها: ذلك الجنتلمان هو الذي كان مقيما بالفندق عندما كنا هنا في المرة الأخيرة، ولدى مغادرتهما للمائدة أومأ الدكتور سامبيو برأسه إيماءة خفيفة تحية للدكتور ريكاردو ريس بينما تحفظت ابنته، فارتفع الدكتور ريكاردو بجسده قليلا عن مقعده كرد على التحية، كل شيء يسير على نحو يبشر بصداقة جميلة، مما لا شك فيه أنهما سيتجهان إلى الصالون ولكنهما يذهبان إلى غرفتيهما، وربما سيذهب الدكتور سامبيو لنزهة فيما بعد على الرغم من الطقس الممطر وذلك لأن مارسيندا تنام مبكرا حيث تجد هذه الرحلات بالقطار مليئة بالأرهاق، وعندما يدخل ريكاردو ريس إلى الصالون فأنه لن يجد سوى عدد قليل من الضيوف الصامتين وسيجد بعضهم منخرطين في قراءة الصحف والبعض الآخر يتثاءب بينما الراديو يبث في هدوء أغنيات برتغالية منتمية للمسرحيات الشعبية الساخرة عالية

النغمة وبهيجة ولكن لا يكاد أحد ينصت لها. وفي هذا الضوء أو بسبب هذه الوجوه الداكنة اللون الكئيبة فأن المرآة تشبه المربى المائي وعندما يعبر ريكاردو ريس الصالون عند الجانب البعيد ويرجع من نفس الطريق لكي لا يستدير ويتخذ خطاً مباشراً في اتجاه المدخل فأنه يشاهد نفسه في اللج الأخضر كما لو كان يسير في قاع المحيط وسط الحطام والجثث الغارقة، ينبغي عليه مغادرة هذا المكان على الفور ويصل إلى السطح ويتمكن من التنفس مرة أخرى، ويصعد إلى غرفته الرهيبة، لماذا ينبغي عليّ هذه التوترات الظاهرة في المرآة أن تسبب له كل هذا الاكتئاب إذا كان كل ما يشغل باله هما هذان الشخصان اللذان يعيشان في كوامبرا ويجيئان إلى لشبونة مرة واحدة في كل شهر، هذا الدكتور لا يبحث عن زبائن من المرضى وهذا الشاعر لديه موزيات[1] عديدات لكي يقدمن له الإلهام، وهذا الرجل لا يسعى من أجل الحصول على زوجة فهو لم يعد إلى البرتغال سعيا وراء تحقيق هذا الهدف وعليك أن تنظر بعين الاعتبار إلى الفارق بينهما في السن، إنه ليس ريكاردو ريس الذي يفكر في هذه الأفكار ولا أي واحد من تلك الكيانات العديدة التي لا حصر لها والتي توجد في داخله، ربما كانت فكرة تفكر في ذاتها بينما هو ينظر في دهشة لدى تفكك عقدة خيط تقوده لأسفل نحو ممرات ودهاليز مجهولة يوجد في نهايتها فتاة مرتدية ثوبا أبيض اللون لا تستطيع حتى مجرد الإمساك بباقة من الزهور لأن ذراع يدها اليمنى سيكون متشابكا مع ذراعه لدى عودتهما من مذبح الكنيسة سائرين على السجادة الحمراء الوقورة نحو توترات المشى المتعلق بالزوج، وكما ترى فأن ريكاردو ريس تولى زمام الفكرة ويسيطر عليها بالفعل ويوجهها

(١) الإلهات الحاميات للشعر والغناء في الميثولوجيا اليونانية (المترجم).

ويستغلها من أجل أن يخدم نفسه، والأوركسترا والسجادة الحمراء هما بمثابة تحليقات الخيال والآن ولكي تكون لقصة هذا الشاعر نهاية سعيدة فأنه يحقق المعجزة الطبية عندما يضع باقة الزهور على ذراع مارسيندا الأيسر فتظل الباقة موجودة على ذراعها بدون تقديم أية مساعدات، والآن يمكن لمذبح الكنيسة والقسيس أن يختفيا ويمكن للموسيقى أن تتوقف ويمكن للضيوف أن يختفوا في هالة من الدخان، وينسحب العريس بعد أن أصبحت خدماته غير مطلوبة بعد أن تمكن الطبيب من شفاء المريضة ومن المؤكد أن الباقى كان من عمل الشاعر، وهذه الحلقات الرومانتيكية لا يمكن مواءمتها في أغنية ألكيه Alcaic مما يبرهن على أن ما يكتب غالبا ما يكون مختلطاً مع التجربة المعاشة ومن ثم فأن المرء لا يسأل الشاعر عن أفكاره أو أحاسيسه.

لقد انقضى الليل ولم تهبط ليديا من العلية ورجع الدكتور سامبيو متأخرا وفرناندو بسوا لا يعرف مكانه إلا الله، وبعدئذ طلع النهار، وأخذت ليديا الحلة من أجل أن يتم كيها وغادرت مارسيندا ووالدها الفندق من أجل الذهاب للطبيب الاخصائي في الموعد المحدد، ويقول سلفادور بأنها ذهبت من أجل العلاج الطبيعي والتدليك، ولأول مرة يدرك ريكاردو ريس أنه من العجيب أن تجيئ فتاة إلى لشبونة بينما هي تعيش في كوامبرا وهي مدينة مليئة بالاخصائيين من أجل عمل تدليك وعلاج طبيعي كان يمكن أن يقدم لها بكل سهولة في كوامبرا، فالأشعة فوق البنفسجية ـ على سبيل المثال ـ إذا لم تطبق وفق جدول زمنى معين لا ينجم عنها سوى فوائد قليلة، ويقلب ريكاردو ريس هذه الشكوك في داخل ذهنه أثناء سيره في الشيادو متجها إلى شباك التذاكر عند المسرح القومي ولكن انتباهه تشتت لدى رؤيته أناسا عديدين يرتدون دلائل الحداد من بينهم عدد من النساء المرتديات للحجاب وأناس متميزون

بملابسهم السوداء وتعبيراتهم الوقورة بل ومن بينهم رجال يرتدون شرائط الحداد على قبعاتهم، لقد كان يتم دفن أقدم حليف لنا وهو جورج الخامس ملك انجلترا، وعلى الرغم من الحداد الرسمي فإنه يوجد عرض مسرحى في هذا المساء وليس هذا بمثابة عدم احترام فالحياة ينبغي أن تواصل سيرها، وقام الرجل الموجود خلف شباك التذاكر ببيع تذكرة له في الصفوف الأمامية بالمسرح وأبلغه بأن الصيادين سيكونون من بين جمهور المشاهدين في هذه الليلة، فتساءل ريكاردو ريس عمن يكونون هؤلاء الصيادين قبل أن يدرك أنه قد أرتكب خطأ فادحا، فتجهم الرجل الموجود في شباك قطع التذاكر وغير نغمة صورنه وقال في حدة: من الواضح أنهم الصيادون القادمون من نزاري NAZARE، فمن هم الآخرون الذين كان يتوقع مجيئهم حيث لم يكن هناك داع لإحضار صيادين من كاباريكا أو من بوفو، ولقد تم تحمل نفقات الرحلة ونقل أمتعة الصيادين القادمين من نزارى وذلك حتى يمكنهم المشاركة في هذا الحدث الثقافي، وراح ريكاردو ريس يقتل الوقت المتبقى من فترة ما بعد الظهر بالجلوس في المقاهي علاوة على الذهاب لتفحص العمل الذي ينفذ في مسرح عدن كما أن مسرح شاف دى أورو على وشك الافتتاح مما سيجعل الأهالي والمواطنين والأجانب على حد سواء يدركون أن لشبونة آخذة في الرقى والتقدم السريع، وبذلك فإنها سرعان ما ستكون قادرة على منافسة المدن الكبرى الأوروبية وهي جديرة بذلك من حيث هي عاصمة امبراطورية عظمى، لم يتناول ريكاردو ريس طعامه بالفندق وإنما عاد إليه فقط من أجل تغيير ملابسه، كان بنطلونه وجاكتته وصديريته قد وضعوا في أناقة على مشجب عقب كيها فهو عمل من انجاز اليدين المحبتين ومعذرة للمغالاة في القول إذا كيف يمكن أن يكون هناك حب في المضاجعة الليلية التي

تتم بين نزيل بالفندق وخادمة غرف هو من حيث هو شاعر وهي بالصدفة تسمى ليديا ولكنها ليديا مختلفة وإن كانت لا تزال سعيدة الحظ لأن ليديا الواردة في أشعاره لم يسبق لها أبداً أن سمعت تأوهاته وتنهداته حيث كانت تكتفي بالجلوس على شاطئ النهر مصغية لشخص ما يفضى بدخيله نفسه «إنني أعانى يا ليديا من الخوف من القدر»، وتناول شريحة من لحم البقر في مطعم مارتينيو وشاهد مباراة في البلياردو، ثم أدرك أن الوقت حان للذهاب إلى العرض المسرحى فترك المطعم ودخل إلى المسرح وهو محاط عن يمينه وعن يساره بعائلتين كبيرتى العدد، لم يكن لديه الرغبة في أن يشاهد إلى أن يختار هو بنفسه اللحظة الملائمة لذلك والله وحده هو الذي يعرف تلك الاستراتيجية العاطفية التي كان يتبعها، وعبر الردهة بدون توقف، وعند المدخل المؤدى إلى القاعة قابلة المرشد الذي قاده في الممشى الأيسر إلى أن وصل به إلى الصف السابع ثم قال له: أنه ذلك المقعد الموجود بجوار السيدة، لا تطلق العنان لأفكارك الخيالية أيها القارئ فالرجل قال بجوار هذه الفتاة، فأي مرشد في المسرح القومي يمكن الاعتماد عليه من حيث أنه إنسان يتحدث في لباقة ووضوح شديد لأن أساتذته هم أعظم دراميين في الذخائر من المسرحيات الكلاسيكية والحديثة، مارسيندا جالسة في الصف الثالث أمامه ونحو اليمين وبالتالي فهي في مكان بعيد عنه بل وهي غير مدركة لحضورى وهي تجلس على يمين والدها وهذا وضع ملائم لأنها عندما تتكلم مع والدها وتستدير برأسها قليلا يصبح بمقدور ريكاردو ريس مشاهدة بروفيل وجهها، هل وجهها يبدو أطول من ذى قبل لأنها مشطت شعرها لأسفل، أنها ترفع يدها اليمنى إلى مستوى ذقنها لكي توضح كلمة قالتها أو بصدد أن تنطق بها وربما هي تتناقش في موضوع الطبيب الأخصائي الذي يعالجها وربما تتناقش في موضوع

المسرحية التي هما بصدد مشاهدتها، من هو هذا الأديب الذي يسمى الفريدو كورتيز ولا يستطيع والدها أن يقول الكثير عنه فهو قد شاهد مسرحية «المصارعون»[1] بمفرده منذ عامين ولم تعجبه كثيراً ولكن هذه المسرحية لفتت انتباهه بسبب موضوعها التقليدي، لن يمضى وقت طويل حتى نعرف الشكل الذي تبدو عليه المسرحية، هذه المحادثة التي نفترض أنها حدثت قد عرقلت من خلال جر الكراسي بالأماكن العلوية ومن خلال همسات متصاعدة مما جعل كافة الرؤوس تستدير وتنظر لأعلى، الصيادون القادمون من نزارى وصلوا ويجلسون في مقاعدهم الموجودة في المقصورة العليا إنهم يجلسون منتصبي القامة كي يشاهدوا ولكي يشاهدهم الناس، وهم رجال ونساء يرتدون الزى الخاص بهم وربما يكونون حفاة الأقدام إذ لا يستطيع المرء التأكد من ذلك وهو جالس في المكان السفلى هنا، ويقوم بعض الناس من الجمهور بالتصفيق فيبدأ آخرون بالتصفيق في نوع من المحاكاة، ويشعر ريكاردو ريس بالتوتر ويطبق جماع يديه في تكلف متنفح من جانب شخص لا تجرى في عروقه دماء زرقاء، ولكن الأمر ليس كذلك إنها فقط مسألة لباقة حيث يجد ريكاردو ريس أن الانفجار بالتصفيق يعتبر أمراً متسما بالسوقية والابتذال.

تطفأ الأنوار وتصبح القاعة غارقة في الظلام ويمكن سماع الدقات العالية المنسوبة إلى موليير على خشبة المسرح، ما هو الرعب الذي تبثه تلك الدقات في قلوب الصيادين وزوجاتهم، ربما هم يتخيلون أن هذه هي الطرقات الأخيرة التي يقوم بها النجارون الذين يقومون بإعداد المسرح للتمثيل، وتفتح الستارة، وتظهر امرأة تشعل نيرانا الوقت ما زال

(١) شخص يقاتل حتى الموت لإمتاع الناس في روما القديمة ـ المترجم.

بالليل ومن خلف المشهد يترامى صوت رجل يقول «نانى زيه» لقد بدأ عرض المسرحية، ويتنهد الجمهور ويتمايل ويبتسم أحيانا ويموج بالإثارة لدى انتهاء الفصل الأول مع ذلك الفرار الكبير من جانب النساء وعندما تضاء الأنوار تبدو الوجوه مفعمة بالحيوية وهذه دلائل تبشر بنجاح المسرحية، يوجد تصايح صادر عن الأماكن العلوية من مقصورة إلى مقصورة بحيث يمكن أن يظن أن هؤلاء الصيادين هم الممثلون أنفسهم حيث أن طريقة التكلم تكاد تكون واحدة سواء أكان إلى الأفضل أو الأسوأ حيث يتوقف ذلك على درجة المقارنة.. وراح ريكاردو ريس يفكر في هذا الموضوع فيقرر أن الهدف من وراء الفن ليس هو التقليد وأن المؤلف ارتكب خطأ فادحا من خلال كتابة المسرحية باللغة المحلية لنازايه وذلك لأن الحقيقة لا تتسامح مع انعكاساتها أو بالأحرى ترفضها، ويصفق الجمهور مرة أخرى فيشارك ريكاردو ريس من خلال التعاطف ولا تصفق مارسيندا لأنها لا تستطيع ولكنها تبتسم، وتبقى، معظم النساء جالسات ولكن الرجال هم الذين بحاجة لأن يتمددوا ويحركوا سيقانهم ويذهبوا لدورة المياه المكتوب عليها كلمة «للرجال» ويدخنون سيجارة وسيجارا علاوة على تبادل الآراء مع أصدقائهم وإلقاء التحية على الأشخاص الذين يعرفونهم بالإضافة إلى أن يشاهدوا ويشاهدوا في الردهة، وإذا ظلوا باقين في مقاعدهم فأن ذلك يرجع عادة لأسباب تتعلق بالحب والمغازلة، وعندما يقفون تحوم عيونهم مثل عيون الصقور فهم أبطال الدراما الخاصة بهم، فهم ممثلون يؤدون أدوارهم أثناء فترة الاستراحة بينما الممثلون الحقيقيون يوجدون في غرف الملابس التابعة لهم يطرحون الأدوار التي سيؤدونها بعد قليل، وعندما ينهض ريكاردو ريس واقفا وينظر بين الرؤوس فأنه يشاهد الدكتور سامبيو وهو ينهض واقفا هو الآخر، وترفض مارسيندا النهوض من

خلال إيماءة من رأسها وتظل جالسة فيضع والدها يده على كتفها في محبة ثم يتحرك سائرا نحو الممشى، فسارع ريكاردو ريس إلى الوصول إلى البهو أولا، وسرعان ما سيتقابلان وجهاً لوجه وسط هذه الحشود من الناس الذين يسيرون هنا وهناك ويتجاذبون أطراف الحديث في جو سرعان ما أصبح مليئاً بدخان السجائر، وتوجد أصوات وتعليقات: بالميرا رائعة في رأيي أنهم وضعوا على خشبة المسرح شباكا للصيد عديدة أكثر من اللازم، يالهم من مجموعة من الأفاقين الذين يصارعون بعضهم البعض على نحو يجعلك تظن أنهم جادون، ذلك لأنك يا صديقي العزيز لم تشاهدهم أبداً مثلما شاهدتهم أنا في نازارى حيث يقاتلون هناك بعضهم البعض مثل الشياطين، في بعض الأحيان يصعب معرفة أو فهم الكلام الذي ينطقون به، حسناً تلك هي الطريقة التي يتكلمون بها، وتحرك ريكاردو ريس بين مجموعات الناس وهو يصغى في انتباه شديد إلى تعليقاتهم كأنه الذي ألف المسرحية مع مراقبة تحركات الدكتور سامبيو في نفس الوقت من على مسافة حيث كان يحرص أن يلتقي معه فجأة كما لو كان بطريق المصادفة، وبعدئذ أدرك أن الدكتور سامبيو قد رمقه وحدد موقعه وبدأ يشق طريقه قادما إليه، وكان سامبيو هو الذي تحدث أولا: مساء الخير، على أي نحو تستمتع بالمسرحية، وشعر ريكاردو ريس أنه لا حاجة به لأن يقول: يالها من مفاجأة يالها من مصادفة، حيث رد على التحية على الفور وأكد أنه يستمتع بالمسرحية وأضاف: نحن نقيم في نفس الفندق بل وكان ينبغي عليه أن يعرف نفسه قائلاً اسمي ريكاردو ريس وتردد فيما عدا كان عليه أن يضيف قائلاً أنه دكتور في الطب وأنه كان يعيش في ريو دى جانيرو وأنه رجع إلى لشبونة منذ أقل من شهر، ولم يكن الدكتور سامبيو يصغى إلا فيما ندر حيث كان يبتسم وكأنه يقول: لو كنت قد عرفت سلفادور

لفترة طويلة مثلي لكنت قد أدركت أنه قد أخبرني بجميع التفاصيل عنك، ونظرا لأنني أعرفه جيدا فأعتقد أنه زودك بمعلومات عني وعن ابنتي، من المؤكد أن الدكتور سامبيو داهية حيث أمضى سنوات عديدة في العمل كموثق عام مما عاد عليه بفوائد معينة، وقال ريكاردو ريس: نحن لسنا بحاجة لأن نتعرف على بعضنا البعض، هذا صحيح، وشرعا على الفور في الدخول في مناقشة عن المسرحية والممثلين مع التعامل مع بعضهما البعض في احترام شديد: يا دكتور ريس يا دكتور سامبيو إحساس لطيف بالمساواة ينصب عليهما من خلال لقبيهما ولذلك ظلا يتحدثان سويا إلى أن دق جرس التحذير فعادا إلى القاعة سويا وقالا: إلى لقاء آخر ثم ذهب كل منهما إلى مقعده حيث جلس ريكاردو ريس على مقعده أولا ثم ظل يرقب إلى أن شاهده يتحدث مع ابنته، فنظرت خلفها وابتسمت له فرد عليها بابتسامة، لقد كان الفصل الثاني على وشك البدء.

وتقابل ثلاثتهم خلال فترة الاستراحة التالية ورغم أنهم كانوا يعرفون جميعاً بعضهم البعض إلا أن الأمر كان لا يزال يتطلب التعريف: ريكاردو ريس ومارسيندا سامبيو، وتصافحا بالأيدي: اليد اليمنى تصافحت مع اليد اليمنى بينما يدها اليسرى كانت متدلية وعاجزة وخجولة وراغبة في التخفي عن الأنظار وكأنها غير موجودة على الأطلاق، ولم يبق ريكاردو ريس موجودا في البهو وإنما راح يتجول بين المماشى خلف المقصورات الموجودة في الردهة الكبرى وراح يحملق لأعلى نحو المقصورات العلوية لكي يلقى نظرة عن كثب على الصيادين للأسماك، ولكن جرس التحذير بدأ يدق حيث كانت فترة الاستراحة في هذه المرة أقل من فترة الاستراحة السابقة عليها وعندما دخل إلى القاعة كانت الأضواء قد بدأت تخبو، وطوال فترات الفصل

الثالث راح يوزع انتباهه ما بين المسرح ومارسيندا التي لم تنظر خلفها على الاطلاق، ولكنها كانت قد غيرت جلستها قليلا حتى يمكنه أن يشاهد مساحة كبيرة من وجهها ومن وقت لآخر كانت تلقى بشعرها للخلف على الجانب الأيسر مستخدمة يدها اليمنى في بطء شديد كما لو كان ذلك يتم في تعمد، ما الذي تريده هذه الفتاة؟ ومن تكون هي، لأن الناس لا يكونون دائماً على النحو الذي يبدون عليه، وشاهدها وهي تجفف خديها من الدموع لدى اعتراف ليانور بأنها سرقت مفتاح صدار النجاة[١] وذلك لكي يموت لافاجانتى، وتدوى القاعة بالتصفيق الحاد ويشارك ريكاردو ريس في التصفيق هنا في هذا المسرح يدرك المرء كيف أنه يمكن بسهولة خلق تفاهم ما بين الطبقات المختلفة والمهن المختلفة وما بين الاغنياء والفقراء وما بين هؤلاء الذين يشغلون الطبقة المتوسطة الاجتماعية، هذا مشهد نادر للاخوة يستحق التسجيل ويتم حاليا إغراء صيادى الأسماك لكي ينضمون للمثلين على خشبة المسرح وبذلك يتم سماع جذب الكراسي مرة أخرى، إذن العرض لم ينته بعد ويجلس المشاهدون على كراسيهم مرة أخرى وتجيئ الآن لحظة الذروة المليئة بالاثارة والبهجة عندما يسير مجتمع صائدى الأسماك القادمين من نازارى في المماشى والطرقات ثم يصعدون إلى خشبة المسرح، وهنالك ينخرطون في الرقص والتغنى بالألحان الشعبية التقليدية الخاصة بالاقليم التابع لهم بالاشتراك مع الممثلين ويعانق زعيم المجموعة الممثل روبلز مونتايرو وتتلقى أكبر زوجات الصيادين سنا قبلة من الممثلة بالميرا باستوس ويتحدث الكل في وقت واحد في نوع من الهرج والمرج حيث يتحدث كل منهم بلهجته المحلية ولكن مع التهيؤ

(١) ثوب من الفلين للوقاية من الغرق (المترجم).

لفهم الآخرين وبعدئذ يتصاعد المزيد من الرقص والغناء وتؤدى الممثلات الأصغر سنا رقصة منيو الشعبية التقليدية إلى أن يبدأ المرشدون في دفعنا برفق نحو أبواب الخروج ومن المقرر أن يتم تقديم عشاء للممثلين ولسوف تفرقع الزجاجات المليئة بالخمور الفوارة التي تلسع فتحات أنف الإنسان ولسوف تنخرط نساء نازارى الطيبات في نوبات من الضحك الهستيري بعد أن تدور رؤوسهن مع تناول الخمور الفوارة التي هن غير معتادات على تناولها: وغدا عندما يغادر الأتوبيس في حضور الصحفيين والمصورين وقادة المؤسسات سيهتف الصيادون بهتافات مدوية بحياة الدولة الجديدة والوطن، لا يمكن للمرء أن يكون متأكدا من أن الصيادين قد دفعت لهم نقود لكي يفعلوا ذلك ولكن دعونا نفترض أن هذا بمثابة تعبير تلقائي عن الامتنان بسبب تقديم خمور البورت لهم وهي ذلك النوع من الخمور التي يعشقونها تماماً.

ولم يحاول ريكاردو ريس تجنب لقاء ثانٍ لدى مغادرته للمسرح، ففي الممشى الجانبي سأل مارسيندا عما إذا كانت قد استمتعت بالمسرحية فقالت أن الفصل الثالث قد أثار مشاعرها للغاية مما جعل الدموع تنساب من عينها، فقال لها: نعم لقد شاهدتك وأنت تبكين، ثم انتهت المناقشة عند هذا الحد وبعد أن استدعى الدكتور سامبيو تاكسيا أشار إلى أن ريكاردو ريس يمكن أن يستقل التاكسي معهما إذا كان ينوى العودة مباشرة إلى الفندق ولكن ريكاردو رفض هذا العرض وعبر عن شكره وامتنانه اذن تصبح على خير طابت ليلتك، لقد اسعدنى لقاؤك ثم انطلق التاكسي كان يسعده أن يرافقهما ولكنه أدرك أن ذلك سيتسبب في حدوث ارتباك إذ كانوا جميعاً سيشعرون بالارتباك والقلق ويلتزمون بالصمت حيث لن يصبح من السهل العثور على موضوع آخر للمناقشة ناهيك عن المسألة الحساسة الخاصة بترتيبات الجلوس في داخل

التاكسي طالما لن يكون هناك مكان يتسع لثلاثة أشخاص بالمقعد الخلفي وبالطبع لن يرغب الدكتور سامبيو في الجلوس بالمقعد الامامى تاركا ابنته بمفردها مع شخص غريب بالمقعد الخلفي، نعم شخص غريب وموجود في ظلام ملائم لأنه حتى ولو لم يحدث أدنى اتصال جسمانى فإن الظلام سوف يغلفهما سويا بيدين ناعمتين مما يجعلهما يقتربان أكثر من بعضهما البعض من خلال أفكارهما التي ستصبح تدريجيا بمثابة أسرار من الصعب اخفائها، كما لم يكن من الملائم أن يجلس ريكاردو ريس في المقعد الامامى بجوار السائق لأنه لا يمكن لك أن تعرض على شخص ما أن توصله مجانا وبعدئذ تطلب منه الجلوس في المقعد الامامى في مواجهة عداد التاكسي وأيضاً في نهاية التوصيلة بالتاكسي سيجد الشخص الجالس بالمقعد الامامى أنه مضطر لأن يسدد الأجرة، والمضيف الجالس بالمقعد الخلفي لا يستطيع العثور على محفظة نقوده ولكنه يصر على أن يسدد الاجرة قائلاً: أترك هذا لي مع القول لسائق التاكسي بألا يأخذ أية نقود من الشخص الجالس في المقعد الامامى لأنني أنا الذي سأسدد الأجرة وفي نفاد صبر ينتظر سائق التاكسي إلى أن يتخذا قرارا، فهذه مناقشة سبق له أن سمعها آلاف المرات، ويسير ريكاردو ريس عائدا إلى فندقه، الليل بارد ورطب، ولكن السماء لا تمطر ويرغب في قضاء بعض الوقت في التنزه سيرا على الأقدام فينزل هابطاً على طول شارع أوجوستا ويعبر تيريريو دى باكو ليصل إلى تلك السلالم المؤدية إلى جانب رصيف الميناء، هذا الرجل الواحد الموجود جسمانيا يرقب اليوم ولكن توجد في داخله أيضاً تلك الكيانات التي لا حصر لها والتي ينطوى عليها كيانه فهو كان يحمل في جوانبه تلك الكيانات في كل مرة جاء فيها إلى هنا والتي تتذكر الوجود هنا رغم أنه لا يتذكر، العينان اللتان تعتادان على الظلام تستطيع

المشاهدة لمسافة بعيدة على مسافة بعيدة توجد الخطوط الخارجية الرمادية لبواخر تنتمي للاسطول والتي تركت الأمان الذي يتميز به الميناء وعلى الرغم من أن الطقس ما زال يتسم بالقسوة إلا أنه لم يعد قاسياً إلى الدرجة التي لا تتحملها البواخر وعلى كل حال فأن حياة البحار هي حياة تتسم بالتضحية، وتبدو بعض البواخر من على نفس هذه المسافة أن لها نفس الابعاد ومن المؤكد أن هذه هي زوارق الطوربيد التي تسمى باسم أسماء البحار.

هذا الجو البارد لا يصلح للتأملات الفلسفية يشعر كأن قدميه تتجمدان من البرد، وتوقف رجل شرطة في إعياء لكي يرقبه على نحو متواصل، إن رجلا يتأمل في الماء لم يلفت نظره من حيث هو رجل أفاق أو نصاب وإنما كرجل يفكر في القاء نفسه في مياه النهر، وفكر رجل الشرطة في المتاعب التي يمكن أن تترب على انتحار ذلك الرجل حيث سيضطر إلى إطلاق صفارة الانذار واستخراج الجثة من الماء وكتابة تقرير رسمي عن الحادث ولذلك قرر الاقتراب منه وهو لا يعرف على وجه الدقة ما سيقوله له من كلام ولكن كان يأمل في أن مجرد وجوده يكفي لتعويق فكرة الانتحار، وسمع ريكاردو ريس صوت وقع الأقدام وأحس ببرودة الحجر اللوحى وكأنها تخترق قدميه.. ينبغي عليه شراء حذاء، له رقبة ونعل سميك وقال مساء الخير أيها الضابط فأحس رجل الشرطة بالاطمئنان وتساءل: أهناك أي شيء خاطئ، لا لا شيء، أنه أمر طبيعي للغاية في العالم أن يتنزه رجل على طول الرصيف حتى في الليل لكي يشاهد النهر والبواخر، فهذا هو نهر التاجوس الذي لا ينساب عبر قريتي لأن التاجوس الذي ينساب عبر قريتي يسمى دورو ولكن حقيقة أنه ليس له نفس الاسم لا يعنى أن النهر ينساب عبر قريتي يعتبر أقل جمالا، فانصرف رجل الشرطة في اتجاه شارع الفانديجا وهو

يفكر في جنون بعض الناس الذين يظهرون في منتصف الليل فما الذي سيطر على عقلية هذا الرجل لكي يعتقد أنه يمكنه الاستمتاع بمنظر النهر في جو رهيب كهذا فهو إذا كان مضطراً مثلي أن يسير في دورية لمراقبة أرصفة الميناء في كل ليلة لكان قد أدرك أن ذلك أمر متعب للغاية وواصل ريكاردو ريس سيره في طريق الأرسنال وفي خلال عشر دقائق وصل إلى الفندق وظهر بيمنتا على بسطة السلم ومعه كمية من المفاتيح وانسحب بدون أن ينتظر كالمعتاد إلى أن يصل الضيف إلى الدور العلوي فلماذا فعل ذلك وسأل ريكاردو ريس نفسه هذا السؤال الطبيعي وبدأ يشعر بالقلق، ربما أنه يعرف بالفعل حكايته مع ليديا ومن المؤكد أنه سيكتشف ذلك إن عاجلا أو آجلا لأن أي فندق يعتبر بمثابة منزل من زجاج وبيمنتا الذي لا يترك الفندق أبداً يعرف كل صغيرة وكبيرة ومن المؤكد أنه يشك في شيء ما، قال ريكاردو ريس في دفء مبالغ فيه مساء الخير يابيمنتا فرد بدون أي أثر للتحفظ وبدون أية مشاعر عدائية، فقال ريكاردو ريس لنفسه: ربما أكون أنا مخطئاً في رأيي وعندما ناوله بيمنتا مفتاحه كان على وشك الاستمرار في الصعود ولكنه التفت وراءه وفتح حافظة نقوده، هذا من أجلك يابيمنتا وناوله ورقة مالية من فئة عشرين سكود ولم يقدم توضيحا كما أن بيمنتا لم يسأل أية أسئلة.

لم يكن هناك أي ضوء منبعث من أية غرفة فسار ريكاردو ريس في هدوء في الدهليز خشية أن يزعج الضيوف المستغرقين في النوم، وتوقف على مدى ثلاث ثوان عند باب غرفة مارسيندا وفي غرفته كان الهواء رطبا وليس أفضل من الهواء الموجود عند النهر، فدبت الرعشة في جسده كأنه لا يزال يحملق في تلك البواخر الشاحبة ويصغى لوقع أقدام رجل الشرطة، ما الذي كان سيحدث لو أنه أجاب قائلاً: نعم هناك شيء ما خاطئ على الرغم من عدم قدرته على اتقان هذا الدور

والتوسع فيه ولدى اقترابه من سريره تلاحظ له وجود انتفاخ في اللحاف المحشو بزغب الغيْدر أنه شيء ما قد وضع بين الملايات من المؤكد أن ذلك هو زجاجة ماء ساخنة ولكي يتأكد وضع يده على قمتها، لقد كانت دافئة بالفعل لقد كانت ليديا انسانة طيبة لأنها حرصت على تدفئة سريره، وهذا من أسباب الراحة التي يتم توفيرها لعدد قليل من الناس المختارين ربما لن تجيئ في هذه الليلة واستلقى وفتح الكتاب الموجود على الكومودينو وهو الكتاب الذي يتناول هربرت كوين وألقى نظرة على صفحتين دون أن يفهم المعنى، يوجد ما يشير إلى أن هناك ثلاثة دوافع لارتكاب الجريمة، وكل دافع منها يكفي لإلصاق تهمة الجريمة بالشخص المشتبه فيه، وكافة الدوافع الثلاثة تتركز عليه، ولكن الشخص المشتبه والذي يحاول الاستفادة من القانون يشير إلى أن الدافع الحقيقي إذا كان الأمر يتطلب إثباتا أنه هو بالفعل الشخص المجرم ـ ربما يكون هو دافع رابع أو خامس أو سادس وكل دافع منها يعتبر معقولا بالتساوى وبالتالي فأن التفسير الكامل للجريمة لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال علاقة متبادلة بين كافة هذه الدوافع من حيث تأثير بعضها على البعض الآخر في كل ربط إلى أن تبطل التأثيرات في نهاية الأمر بعضها البعض وتصبح النتيجة هي الموت، وعلاوة على ذلك ينبغي على المرء أن يضع في الاعتبار إلى أي حد كان الضحية نفسه مسئولا مما قد يقدم لنا من الناحية الاخلاقية والقانونية دافعا سابعا ومحددا، وشعر ريكاردو ريس بتسرب الدفء إلى كيانه حيث كانت زجاجة الماء الساخن تدفئ قدميه وبدأ ذهنه ينشط بدون إية إعاقة من جانب العالم الخارجى إلا أن هذا الكتاب المثير للملل والسأم جعل جفنى عينيه ثقيلين فأغلق عينيه للحظات وعندما فتحها شاهد فرناندو بسوا جالسا عند نهاية السرير كما لو كان قد جاء من أجل زيارة شخص مريض، نفس هذا النظرة الغريبة

قد احتفظ بها من أجل الأجيال القادمة في صور عديدة إذ وضع يدا على يد فوق فخذه الايمن بينما رأسه منحنٍ للامام بعض الشيء وقد ظهر الشحوب الشديد على وجهه فوضع ريكاردو ريس كتابه على جانب بين وسادتين وقال: لم أكن أتوقع مجيئك في هذا الوقت المتأخر للغاية ثم ابتسم في مودة خشية أن يلحظ الزائر مسحة من نفاد الصبر في صوته ويلحظ غموض كلماته التي يمكن أن تعنى: كان بمقدورى الاستغناء عة زيارتك اليوم، وكان لديه سبب وجيه أو سببان إذا تحرينا الدقة، السبب الأول هو أنه كان يود التكلم ـ ولكن ليس مع فرناندو بسوا ـ عن الأمسية التي قضاها في المسرح والسبب الثاني هو احتمال مجيئ ليديا إلى غرفته في أية لحظة ولم يكن يخشى من احتمال أن يكون لدى فرناندو بسوا الرغبة ـ رغم أن ذلك لم يكن من طبيعته ـ في البقاء ومشاهدة هذه المغازلات المتعلقة بالجسد والروح وهو احتمال غير مستبعد، ولذلك قال ريكاردو ريس لا نستطيع أن نتجاذب أطراف الحديث لمدة طويلة لأنني أتوقع مجيئ زائرة ومن المؤكد أنك ترى أن الوضع سيكون متسما بالارتباك إذا جاء جاءت هي وشاهدتك هنا فقال فرناندو بسوا أنت لا تضيع الوقت فأنت هنا منذ أقل من ثلاثة أسابيع وها أنت قد دخلت مغامرات تتعلق بالحب والغرام.. فقال ريس: الأمر يتوقف على ما تعنيه بكلمة حب فهي خادمة بالفندق قال فرناندو: يا عزيزي ريس: أنت إنسان محب للجمال وصديق حميم لآلهة الأوليمب ومع ذلك تضاجع خادمة فندق مجرد خادمة وأنا الذي اعتدت أن أصغى إليك وأنت تتحدث باستمرار ولائك الشديد لكل من ليديا وناريا وشلوئي والآن تقول لي أنك مفتوم ومتيم بخادمة غرف بالفندق، أنت تخيب ظنى فيك وتصيبنى بالأحباط الشديد، فقال ريس: خادمة الفندق تسمى ليديا أيضاً ولست مفتونا بها وأنا لست الشخص الذي يتعرض

للتخبل والافتتان، فقال بسوا يا عزيزي ري اراك تقرأ قصة بوليسية مع وضع زجاجة ماء ساخن عند قدميك وفي إنتظار خادمة لكي تجيئ وتدفأ كل جسدك ومع ذلك تتوقع مني أن أصدق أنك نفس الرجل الذي كتب هذا البيت من الشعر «في هدوء جليل أرقب الحياة من على مسافة» ينبغي أن أسألك عن المكان الذي كنت فيه عندما رحت ترقب الحياة من على مسافة فقال ريس: أنت نفسك سبق أن قلت أن الشاعر هو شخص ما يدعى ويتظاهر فقال بسوا ـ نحن ننطق بمثل هذا الحدس أو البديهيات دون أن نعرف كيفية التوصل إليها ومما يؤسف له أنني أنتقلت إلى رحمة الله دون أن اكتشف ما إذا كان الشاعر هو الذي يدعى ويتظاهر بأنه رجل أو أن الرجل هو الذي يتظاهر بأنه شاعر فقال ريس: أن يتظاهر المرء وأن يخدع المرء نفسه ليسا هما نفس الشيء، فقال بسوا هل ذلك جملة خبرية أم سؤال؟ فقال ريس سؤال، قال بسوا بالطبع ليسا هما نفس الشيء أنا ابتكرت فقط ولكنك ابتكرت نفسك إذا كنت تريد أن تشاهد الفارق اقرأ قصائدى وارجع واقرأ قصائدك فقال ريس: هذه المحادثة تهدف بكل تأكيد إلى أن ابقى مستيقظا طوال الليل، فقال بسوا: ربما تجيئ ليديا وتضمك بين ذراعيها، فقال ريس يبدو انك متضايق.. فقال بسوا: أنا متضايق بالفعل فقال ريس: قل لي هل مظهري هو مظهر شاعر أم مظهر رجل، فقال بسوا:

يا صديقي ريس موقفك حالة ميئوس منها فأنت قد ابتكرت نفسك وأنت من اختراع نفسك وهذا الوضع ليس له علاقة بشاعر أو برجل، فقال ريس: حالة ميئوس منها بسوا: هل هذا سؤال أم جملة خبرية، قال ريس: مجرد سؤال فقال بسوا: نعم، حالة ميئوس منها، أولا وقبل كل شيء أنت لا تعرف من أنت فقال ريس: وماذا عنك هل سبق أن عرفت في أي وقت من الأوقات من أنت فقال بسوا: لم أعد أهتم فأنا

رجل ميت، لكن لا تقلق سيكون هناك العديد من الناس الذين على استعداد لتفسير كل شيء يتعلق بي فقال ريس: لعلى رجعت إلى البرتغال لكي أعرف من أنا، فقال بسوا: كلام فارغ وهراء صبيانى يا صديقي العزيز فالالهامات من ذلك النوع لا يمكن العثور عليها إلا من خلال التصوف ومن خلال الطرق التي تؤدى إلى دمشق قال ريس: لا استطيع فتح عينى إلا بصعوبة فقال بسوا: لسوف أتركك الآن لكي تحصل على قدر من النوم، النوم هو الشيء الوحيد الذي احسدك عليه، السخفاء هم فقط الذين يعتقدون أن النوم هو ابن عم الموت أو شقيق الموت لا أستطيع أن أتذكر، أظن أنه ابن عم الموت، وبعد هذه الكلمات القليلة من التعاطف هل تودنى حقاً أن أرجع إليك؟، فقال ريس: أرجوك أن ترجع إليَّ، فأنا ليس لدى عدد كبير من الناس الذين أثق فيهم وأفضى إليهم بأسراري ودخيلة نفسي، فقال بسوا: ذلك سبب قوى ووجيه بكل تأكيد فقال ريس: استمع إليَّ قدم لي خدمة بأن تترك الباب مواربا فقال بسوا: «أمازلت تتوقع مجيء أحد لزيارتك؟» فقال ريس: لا يمكن للمرء أن يعرف يا عزيزي فرناندو لا يمكن للمرء أن يعرف.

وبعد نصف ساعة فتح الباب في عنف وقفت ليديا ترتعد عقب صعود جهيد للسلالم والدهاليز وانزلقت إلى داخل سريره وتكورت إلى جواره وتساءلت: أكان المسرح ظريفا ولطيفا؟ فأخبرها بالحقيقة: نعم كان لطيفة للغاية.

(٦)

لم تظهر مارسيندا ووالدها أثناء تناول الغذاء بالمطعم، اكتشاف السبب لا يتطلب ذكاء كبيرا من جانب ريكاردو ريس أو أي دهاء جدلى من جانب مخبر سرى يجرى تحرياته فهو بكل بساطة أعطى لسفادور ولنفسه بعض الوقت حيث راح يتجاذب أطراف الحديث معه في تكاسل وقد استند بمرفقيه على مكتب الاستقبال في جو من الصداقة، وأثناء الدردشة أبلغ سلفادور أنه قد تقابل مع الدكتور سامبيو وابنته وتعرف عليهما وأشار إلى أنهما من الناس المهذبين المحببين للنفس للغاية، فأصبحت الابتسامة التي تطل من وجه سلفادور ملتوية بعض الشيء بعد أن تحدث كثيراً مع الضيفين لدى مغادرتهما فلم يذكر له تقابلهما بطريق الصدفة مع الدكتور ريس بالمسرح صحيح أنه قد عرف هذه الحقيقة الآن لكنه لم يعرف إلا في حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، كيف يمكن لمثل هذا الشيء أن يحدث بالطبع لم يكن يتوقع أن يحصل على ورقة عقب العودة من المسرح مكتوب عليها: لقد تقابلنا بالصدفة مع الدكتور ريس أو أنا تقابلت مع الدكتور سامبيو وابنته ولكنه مع ذلك شعر بالظلم الكبير لعدم إبلاغه على مدى ساعات طويلة فمدير الفندق الذي يحرص على عقد أواصر الصداقة على ذلك النحو مع ضيوفه لا ينبغي معاملته بهذه الطريقة، يا له من عالم بغيض متسم بالعقوق، وتغلب سلفادور على شعوره بالضيق قبل أن يعد المرء من واحد إلى عشرة على حد

تعبير المثل الشعبي وسمح لنفسه بأن يسير فقط على هدى طبيعته الحسنة فعبر عن ابتهاجه وامتدح الدكتور سامبيو وابنته فهو جنتلمان بمعنى الكلمة وهي فتاة شابة مهذبة للغاية من خلال نشأة صالحة تماماً ومما يدعو للشفقة أن حياتها حزينة بسبب ذلك العجز أو المرض: وبيني وبينك يا دكتور ريس لا اعتقد أن هناك أملا في الشفاء أو العلاج، أن ريكاردو ريس لم يبدأ في المناقشة من أجل أن يتورط في نقاش طبي حيث سبق أن أعلن عن نفسه أنه غير مؤهل للدخول في مثل هذه المناقشات الطبية ولذلك غير موضوع المناقشة إلى الشيء المهم أو إلى الشيء الذي كان يهمه وهو الحقيقة التي مفادها أن الدكتور سامبيو ومارسيندا لم يهبطا إلى المطعم من أجل العشاء فتساءل على نحو فجائي: هل رجعا بالفعل إلى كوامبرا، فأجاب سلفادور الذي كان بمقدوره أن يدعى بأنه يعرف كل شيء في هذا الشأن قائلاً: لا ليس قبل الغد فهما اليوم يتناولان طعام الغداء في بايكسا لأن الانسة مارسيندا لديها موعد مع الاخصائي وبعدئذ سيقومان بجولة لشراء بعض الأشياء التي يحتاجان إليها، لكنهما ستناولان العشاء بالفندق بكل تأكيد، وتحرك ريكاردو ريس مبتعدا عن مكتب الاستقبال وسار خطوتين ثم غير رأيه وقال: أعتقد أنني سأذهب للنزهة فالجو يبدو مستقرا، فقال سلفادور وهو يتظاهر بأنه يعطي مجرد معلومة لا قيمة لها: السينورا مارسيندا قالت إنها تنوي العودة إلى الفندق عقب الغداء وأنها لن تصاحب والدها لدى ذهابه لانجاز بعض الاعمال التي تتعلق بمهنته والآن ذهب ريكاردو ريس إلى الصالون ونظر من النافذة متفحصا الجو ثم عاد إلى مكتب الاستقبال وقال: صحيح أن المطر لا يتساقط ولكن من المؤكد أن الجو بارد، فشجعه سلفادور على البقاء بالفندق قائلاً: سأطلب إحضار سخان يعمل بالكيروسين كما يوضع هنا في الصالون،

ودق جرس اليد مرتين فجاءت خادمة غرف ولكنها لم تكن ليديا، آه يا كارلوتا اشعلى سخانا وضعيه في الصالون وسواء أكانت مثل هذه التفاصيل أمر لا يمكن الاستغناء عنه أم لا من أجل تحقيق فهم واضح لهذه القصة فأن كل منا يجب أن يحكم على ذلك بنفسه والحكم سوف يختلف وفقا لدرجة انتباهنا وحالتنا النفسية ومزاجنا الخاص، يوجد أولئك الذين يهتمون بالأفكار المتحررة أولا وقبل كل شيء ويفضلون البانورامات واللوحات الجدارية التاريخية بينما آخرون يفضلون التقارب والتضاد بين ضربات الفرشاة الصغيرة، ونحن ندرك جيدا أنه من المستحيل إرضاء كل شخص لكن هنا كان الأمر مجرد مسألة السماح بمرور الوقت الكافي من أجل المشاعر لكي تنمو وتتطور ما بين وفي نطاق أبطال الرواية بينما كارلوتا تذهب جيئة وذهابا أما سلفادور يكافح مع بعض الحسابات الصعبة في حين يسائل ريكاردو ريس عما إذا كان قد أثار الشكوك لدى تغيير رأيه على نحو فجائي.

وجاءت الساعة الثانية ثم الساعة الثانية والنصف وتمت قراءة وإعادة قراءة جرائد لشبونة ذات حروف الطباعة الباهتة والتي توجد المانشتات الرئيسية بها على الصفحة الأولى: تتويج أدوارد الثامن ملكا على انجلترا وزير الداخلية يتلقى التهنئة من المؤرخ كوستا بروشادو، الذئاب تتجول في المناطق الحضرية، خطة انشولاش تقترح ضم النمسا إلى ألمانيا رفضتها الجبهة الوطنية النمساوي، الحكومة الفرنسية قدمت استقالتها والشقاق ما بين جيل روبلز وكالفو سوتيلو يمكن أن يعرض الكتلة الانتخابية لاحزاب الجناح الايمن الاسبانية للاخطار، وبعدئذ توجد الاعلانات، بارجيل هو أفضل اكسير لصحة الفم، في مساء الغد ستظهر راقصة الباليه ماروجيتا فونتان لأول مرة في مسرح الاركاديا، نحن نقدم أحدث موديلات السيارات التي صنعتها مؤسسة ستوديو بيكر، ومن

وقت لآخر كان يطن جرس الباب الرئيسي معلنا عن مغادرة أناس للفندق ووصول أناس جددِ ويقوم نزيل جديد بتسجيل اسمه في سجلات الفندق ويصدر أزيزا حادا لدى قيام سلفادور بالضغط على زر الجرس ويصعد بيمنتا حاملا معه أمتعة، ثم يسود الصمت، صمت طويل وقابض للنفس، وتصبح فترة ما بعد الظهر متسمة بالكآبة متجاوزة الساعة الثالثة والنصف، نهض ريكاردو ريس من الأريكة وحرك قدميه نحو مكتب الاستقبال، فينظر سلفادور إليه في تعاطف بل وفي حنو وشفقة، إذن فأنت قد فرغت من قراءة كل الصحف، كل شيء يحدث بسرعة كبيرة حتى أن ريكاردو ريس لا يجد متسعا من الوقت لكي يرد، صوت طنين الجرس الرئيسي يترامى كما يترامى صوت من أسفل: يابيمنتا أيمكنك أن تساعدني في نقل هذه الأشياء إلى الدور العلوي، فينزل بيمنتا ويصعد مرة أخرى ومعه مارسيندا وعندئذ لا يعرف ريكاردو ريس ما ينبغي عليه أن يفعله، ولكن مارسيندا أنقذت الموقف عندما قالت له بكل بساطة: سأواصل الصعود لكي أضع هذه الأشياء في غرفتي ثم أنزل إليك من أجل التحدث معك قليلا إذا لم يكن أمامك أمور ترغب في انجازها، ولا ينبغي أن نندهش عندما نرى سلفادور يبتسم في هذه اللحظة لأنه يسعده أن يرى زبائنه يعقدون أواصر الصداقة مع بعضهم البعض فهذا أمر حسن بالنسبة لصورة الفندق كما يخلق جوا بهيجا، وابتسم ريكاردو ريس أيضاً وقال لها في تأكيد: يسعدني كثيراً التحدث معك أو قال لها كلاماً له نفس هذا المعنى.

وسرعان ما رجعت مارسيندا هابطة على السلالم، وذلك بعد أن أعادت تمشيط شعرها وجددت أحمر الشفاة فوق شفتيها، ونهض ريكاردو ريس تحية لها وقادها إلى الأريكدة التي تقع على زاوية حادة مع أريكته، وجلست مارسيندا وقد وضعت يدها اليسرى في حجرها

وابتسمت بطريقة غريبة غير مألوفة وكأنها تريد أن تقول: عليك بالقاء نظرة فاحصة يدي عاجزة تماماً، وكان ريكاردو ريس على وشك أن يقول: أتشعرين بالارهاق عندما ظهر سلفادور وسأل عما إذا كان بمقدوره أن يحضر لهما بعض الشاي أو القهوة، فوافقا وأشارا إلى أنهما يفضلان احتساء القهوة في مثل هذا الجو البارد، ولكن سلفادور راح يتفحص السخان الذي ملأ الصالة برائحة الكيروسين التي تجعل المرء يشعر بالدوار بعض الشيء في حين كان اللهب مقسما إلى العديد من الألسنة الزرقاء الصغيرة التي تهمس باستمرار، وسألت مارسيندا ريكاردو عما إذا كان قد استمتع بالمسرحية، فقال أنه قد استمتع بها بالفعل رغم أن طبيعة الأداء كانت مصطنعة بعض الشيء وحاول توضيح الأمور أكثر فقال: في رأيي أن الأداء المسرحى ينبغي ألا يكون طبيعياً على الإطلاق فما يقدم على خشبة المسرح هو مسرحية وليس الحياة ذاتها، فالحياة لا يمكن استخراج نسخة طبق الأصل منها وحتى أكثر الانعكاسات صدقا وهي الانعكاسات التي تحدث في المرآة نجد أنها تحول اليمين إلى يسار واليسار إلى يمين، فقالت مارسيندا في اصرار: لكن هل استمتعت بهذه المسرحية أم لا؟ فرد، نعم استمتعت بها، وفي هذه اللحظة دخلت ليديا إلى الصالون ووضعت صينية القهوة على المنضدة وسألت عما إذا كان يرغبان في أي شيء آخر، لا شكرا جزيلا ولكن ليديا كانت تنظر إلى ريكاردو ريس الذي لم يرفع بصره لكي ينظر إليها والذي كان يأخذ فنجانه ويسأل مارسيندا قائلاً: كم عدد الملاعق من السكر، فردت عليه: اثنتان، وكان من الواضح أن وجود ليديا لم يعد أمراً مرغوبا فيه ولذلك انسحبت بسرعة أكثر من اللازم من وجهة نظر سلفادور، فأنبها في قسوة بينما هو جالس في عرشه قائلاً لها: «خلى بالك من ذلك الباب».

وبعد أن وضعت مارسيندا فنجانها على الصينية قامت بوضع يدها اليمنى على يدها اليسرى، كلا اليدين باردتان ولكن بينهما كان يوجد الفارق ما بين الأحياء والأموات، الفارق بين ما يمكن انقاذه وما قد ضاع للأبد، والذي لن يشعر بالارتياح إذا أدرك أنني على وشك الاستفادة من صداقتنا من خلال طلب المشورة الطبية منك، فقال ريس: أتريدين رأيي بشأن العجز الذي تعانين منه، فقالت: هذه الذراع التي لا تستطيع أن تتحرك ويدي التعيسة هذه، فقال: آمل أن تفهمي السبب في إحجامي عن تقديم رأيي، أولا لأنني لست أخصائيا وثانيا لأنه ليس لدى معلومات عن تاريخك المرضى وثالثا لأن أصول المهنة تمنع تدخلى في فحص حالة مرضية يتم علاجها بمعرفة زميل آخر، فقالت: أعرف كل ذلك، لكن لا أحد يمنع مريضة من اتخاذ طبيب كصديق لها واستشارته بشأن مشكلاتها الشخصية.

فقال: بالطبع لا فقالت: إذن إعطني رأيك كصديق، وعادت ليديا إلى الصالون ومن خلال نظرة خاطفة أدركت أن وجه مارسيندا يحمر خجلا وارتباكا كما شاهدت الدموع المترقرقة في عينيها بينما ريكاردو ريس يسند خده الأيسر على قبضة يده، وكان كلاهما صامتين كأنهما وصلا إلى نهاية محادثة مهمة أو على استعداد للبدء في نقاش مهم، فما هي نوعية تلك المناقشة التي انتهت أو التي على وشك أن تبدأ ثم أخذت ليديا الصينية.

بدا على ريكاردو ريس كأنه غارق في تفكير عميق، ثم انحنى للأمام ومد يديه لمارسيندا، وانحنت هي أيضاً للأمام بعض الشيء وأمسكت يدها اليمنى بيدها اليسرى ووضعتها بين يديه كما لو كانت طائرا مكسور الجناح علاوة على وجود رصاصة في صدره، وجرى بأصابعه في بطء ورفق ولكن في حزم على تلك اليد حتى المعصم ولأول مرة في حياته

يدرك معنى الاستسلام الكامل ألا وهو عدم إظهار أي رد فعل سواء أكان إراديا أو غريزيا ولا أي مقاومة بل والأسوأ من ذلك أن تلك اليد بدت وكأنها شيء غريب أجنبي لا ينتمي لهذا العالم، وحملقت مارسيندا في ثبات نحو يدها أو نحو تلك الآلية المشلولة، لقد تفحص أطباء آخرون تلك العضلات الميتة وتلك الأعصاب عديمة الجدوى والعظام التي لا تقدم الحماية لأي شيء وها هي الآن يتم لمسها بمعرفة هذا الرجل الذي وضعت ثقتها فيه، لو أتى الدكتور سامبيو بالصدفة في هذه اللحظة فإنه لن يصدق عينيه، لكن لم يحضر أحد إلى الصالون الذي عادة ما يكون مكاناً مليئاً بالكثير من حركة المرور، اليوم هو مكان للصداقة الحميمة الهادئة، وبعد أن سحب ريكاردو ريس يده في بطء راح ينظر إلى أصابعه دون أن يعرف السبب في ذلك ثم تساءل: منذ متى ظلت يدك على هذا النحو، فقال: في ديسمبر الماضي أكملت أربع سنوات، فقال: هل حدث ذلك على نحو تدريجي أم فجأة. فقالت: هل تعتبر فترة شهر تتسم بالتدريج أم بالفجائية؟ فقال: أتريدين أن تقولي أنك في خلال شهر فقدت القوة الموجودة في ذراعك تماماً، فردت: نعم، فقال: هل كانت هناك دلائل مسبقة تشير إلى أن شيئاً إلى أن شيئاً ما بصدد أن يصبح خاطئاً، فأجابت: لا، فقال: ولم تتعرضي لأية أصابة أو سقوط شديد على الأرض أو ضربة عنيفة، فقالت: لا شيء من هذا القبيل، قال: وماذا قال الطبيب؟ بررت: أن ذلك ناجم عن اصابتى بمرض القلب، فقال: لم يسبق لك أن قلت لي أنك تعانين من القلب، فقالت: اعتقدت أنك كنت مهتما بحالة ذراعي فقط، فقال: وما هي الأمور الأخرى التي قالها الطبيب، قالت: في كوامبرا أخبروني أنه لا يوجد علاج لحالتي هذه وهنا في لشبونة قالوا لي نفس الأمر لكن آخر طبيب أخصائي وهو الذي يعالجني منذ حوالي سنتين قال: أنه

يمكن لي أن أتحسن قليلا، فقال: وما هو العلاج الذي يقدمه لك؟ ردت: تدليك وعلاج بالمصباح الكهربائي الذي يرسل الأشعة فوق البنفسجية علاوة على علاجي بالصدمات الكهربائية، سأل: وهل هناك استجابة؟ أجابت: يدي تقفز وترتعش ثم تصبح ساكنة بدون حركة مرة أخرى.

لاذ ريكاردو ريس بالصمت وخيل إليه أنه يشاهد على وجهها مسحة خفيفة من العداوة والاستياء وكما لو كانت مارسيندا تطلب منه أن يتوقف عن توجيه مثل هذه الأسئلة الكثيرة أو توجيه أسئلة أخرى من نوع مختلف لها مثل «هل تتذكرى ما إذا كان شيئاً ما مهما قد حدث لك في ذلك الوقت» أو مثل «هل عانيت من محنة من نوع ما».

بدا على وجه مارسيندا أنها على وشك الانفجار في البكاء، ثم قال ريكاردو ريس: بغض النظر عن هذه المشكلة التي تتعلق بيدك هل تعانين من تعاسة من نوع ما، فأومأت برأسها وتحركت في جلستها ولم تكمل حركتها ثم اهتزت من خلال شهقة بكاء عميقة كأن قلبها قد انتزع من مكانه ثم انهمرت الدموع من عينيها في غير تحكم، فشعر سلفادور بالانزعاج وظهر عند مدخل الصالة ولكن ريكاردو ريس طرده في خشونة، فانسحب سلفادور واكتفي بالتلكؤ خارج الباب، واستردت مارسيندا رباطة جأشها واستجمعت قواها لكن دموعها استمرت في الانسياب في هدوء وعندما استأنفت كلامها كانت مسحة العداء قد اختفت من صوتها: عقب وفاة والدتى اكتشفت أنه لم يعد بمقدورى استخدام ذارعى، فقال ريس: لكنك قلت لي منذ لحظات فقط أن الأطباء قالوا أن الشلل نتيجة لمرض في القلب، رددت: ذلك هو ما قالوه، فقال: وهل تصدقيهم، فقالت: نعم فقال: إذن لماذا تظنين أن هناك رابطة ما بين موت والدتك والشلل الذي أصاب ذراعك؟،

فقالت: أنا واثقة في ذلك لكنني لا أستطيع توضح هذا الأمر، وتوقفت عن الكلام واستدعت ما تبقى من الحقد والعداء الموجود لديها ثم قالت في حدة: إنني لا أبحث عن طبيب روحانى فقال: وأنا لست طبيبا روحانيا، فأنا مجرد طبيب عادي وممارس عام، وظهر التوتر على وجه ريكاردو ريس، فرفعت مارسيندا يدها نحو عينيها وقالت: سامحنى، إنني أسبب لك الضيق والازعاج، فقال: أنت لا تسببين لي التوتر، يسعدنى أن أقدم لك يد العون بأية وسيلة، وأضاف: إذن فأنت مقتنعة بأن هذه الرابطة موجودة فقالت: أنني متأكدة من ذلك تماماً مثل تأكدي من أننا نجلس الآن معا فقال: وأنت غير قادرة على تحريك ذراعك من خلال معرفتك أن الشلل حدث بسب موت والدتك، فقالت: هل ذلك هو كل ما في الأمر؟ فقال: نعم كل ما في الأمر وهذا يقول لنا الكثير لأنه بالنسبة لك ومن خلال اعتقادك الراسخ لم يكن هناك أي سبب آخر، ولذلك فقد حان الوقت لأن تسألى نفسك سؤالاً واحداً مباشراً: هل ذراعك غير متحرك لأنك لا تستطيعين تحريكه أو بسبب أنك لا ترغبين في تحريكه، وتم النطق بهذه الكلمات في همس محسوس أكثر مما هو مسموع، ولو لم تتوقع مارسيندا هذا الرأى لما تمكنت من سماعه، ومد سلفادور رقبته لكي يسمع ولكن ترامى وقع اقدام بيمنتا من عند بسطة السلم حيث جاء ليسأل عما إذا كانت هناك وثائق لكي يأخذها ويسلمها للشرطة، هذا السؤال أيضاً قد وجه بصوت منخفض ولنفس السبب لكي لا يتم سماع الاجابة: في بعض الأحيان تكون الاجابة غير مصاغة في كلمات وانما تكون محبوسة بين الاسنان وبين الشفاة وغذا تم النطق بها فأنها تكون غير مسموعة، مجرد نعم أو لا خفيفة للغاية وتتفكك بين طيات ظلال صالون الفندق مثل قطرة دماء في بحر شفاف لكنها غير مرئية، لم تقل مارسيندا: لأنني لا أستطيع ولم

تقل: لأنني لا أرغب في ذلك، وبدلا من ذلك نظرت في وجه ريكاردو ريس وسألته: هل لديك أية نصيحة لي، شيء ما يمكن أن يؤدي إلى الشفاء، علاج من نوع ما، قال ريس: لقد سبق أن قلت لك أنني لست اخصائيا ولكن يمكن أن أخبرك يا مارسيندا أنك إذا كنت تعانين من مرض في القلب فأنك تعانين أيضاً من نفسك، فقالت: هذه هي أول مرة يقول فيها شخص لي كلاماً كهذا فقال: نحن جميعاً مرضى نعانى من مرض ما أو آخر، مرض ضارب بجذوره للغاية بحيث يتعذر فصله عما نكون عليه، وهذا على نحو ما يجعلنا على ما نحن عليه بل ويمكنك القول أن كل شخص ما هو بمثابة المرض الخاص به ونحن ضئيلون للغاية بسبب المرض الخاص بنا ومع ذلك فنحن ننجح في أن نكون كثيرين بسبب ذلك المرض أيضاً.

فقالت: لكن ذراعك يتحرك ويدي عاجزة تماماً، فقال: ربما أن ذراعك لا يتحرك لأنه لا يرغب في ذلك، قالت: اسمح لي أن أخبرك أن هذه المحادثة لم توصلنا إلى أية نتيجة، قال: قلت أنك لا تشعرين بأي تحسن قالت: لا أشعر بأي تحسن فعلا، فقال: إذن لماذا تداومين على المجيئ إلى لشبونة؟ ردت: هذا لا يرجع إليَّ وإنما يرجع إلى والدي الذي يصر على ذلك وهو لديه أسبابه الوجيهة التي تجعله يصر على ذلك، فقال: وما هي تلك الأسباب؟ قالت: أبلغ من العمر ٢٣ عاما وغير متزوجة ونشأت على ألا أتناقش في أمور معينة حتى ولو كنت أفكر فيها لأن التفكير شيء لا يمكن للإنسان أن يتجنبه، قال: أيمكنك أن تكوني أكثر صراحة معي، ردت: هل ذلك ضرورى؟ فقال بيتا من الشعر «يا لشبونة على الرغم من أن لشبونة ولديك بواخر في البحر»، فقالت: ما هذا فقال: بيت من الشعر لا أتذكر من الذي كتبه، فقالت: هذه طريقة ملتوية تسألنى بها عما إذا كان لوالدي صديقة في لشبونة

والاجابة هي: نعم، فقال: من المؤكد أن والدك ليس بحاجة لأن يبرر زيارته للشبونة عندما يكون له ابنة بحاجة إلى النصيحة الطبية وعلاوة على ذلك فهو رجل في ريعان شبابه بالإضافة إلى أنه أرمل وبالتالي فهو غير مرتبط بزوجة معينة، قالت: كما قلت فإنني نشأت على ألا أتحدث في أمور معينة ومع ذلك أواصل التحدث عن تلك الأمور سرا، فأنا مثل والدي أعتقد أنه كلما كان المرء ملتزما بالسرية كان ذلك أفضل، فقال: شيء حسن أنني ليس لدى أطفال، سألت: لماذا؟ فقال: لأنه لا توجد رحمة في عينى أبناء المرء، فقالت: إنني أحب والدي فقال: إنني أصدقك لكن الحب لا يكفي يشعر سلفادور بالغيظ لأنه لا يعرف ما يدور من مناقشات وأفكار بين هذين الشخصين اللذين لا يكادان يعرفان بعضهما البعض.

قالت: أخبرنى، هل تعتقد أنني سأشفي في أي وقت من الأوقات مستقبلا، أجاب: لا أستطيع أن أقول ذلك، لقد ظللت على هذا الحال طوال أربع سنوات دون أي تحسن، والطبيب الذي يعالجك لديه كافة تفاصيل تاريخك المرضى بينما لا أعرف ذلك التاريخ وعلاوة على ذلك - وكما سبق أن أوضحت - فأنني غير متخصص في هذا المجال، فقالت: أينبغي عليَّ التوقف عن المجيء إلى لشبونة وبحيث أقول لوالدي أنني أتقبل الوضع الذي أنا عليه وأنه ينبغي عليه ألا يبدد أي مزيد من النقود في محاولة منه للعثور على شفاء لحالتي، فقال: والدك لديه سببان يدفعانه للمجيئ إلى لشبونة، فإذا قمت بالغاء سبب منهما فأنه ربما يجد أولا يجد الشجاعة التي تعينه على المجئ بمفرده لكنه سيكون قد فقد العذر الذي يقدمه مرضك، فهو في الوقت الحالي يرى في نفسه الأب الذي يرغب لابنته الشفاء، فقالت: وماذا ينبغي عليَّ أن أفعل، فقال: نحن لم نعرف بعضنا البعض إلا منذ فترة قصيرة ولذلك

ليس لدى الحق في أن أقدم لك نصيحة فقالت: أرجوك إنني أطلب منك النصيحة، فقال: لا تتوقفي عن المجيئ إلى لشبونة من أجل والدك حتى ولو كنت لا تؤمنين حاليا بالشفاء، قالت: لقد توقفت تقريبا عن الاعتقاد في الشفاء، فقال: تشبثي بأي قدر متبق من الإيمان فالإيمان هو عذرك الخاص، سألت: العذر من أجل ماذا؟ فقال: العذر من أجل الأمل، هتفت: الأمل في ماذا، فقال: الأمل مجرد الأمل، عليك فقط بالأمل فالمرء عادة يصل إلى مرحلة لا يكون متبق فيها أي شيء سوى الأمل وعندئذ نكتشف أن الأمل هو كل شيء فاستندت مارسيندا بظهرها على الأريكة، وراحت تربت في بطء على يدها اليسرى بينما كان ظهرها في اتجاه النافذة ووجهها لا يكاد يرى إلا بصعوبة، وكوضع طبيعي كان على سلفادور أن يوقد النجفة الكبيرة التيَ هي مفخرة فندق براجانسا ولكن في هذه المناسبة نجد أنه لا يفعل ذلك كما لو كان يريد أن يظهر عدم ارتياحه بسبب استبعاده من هذه المناقشة، فهذه هي الطريقة التي يكافئانه بها حيث يجلسان هنالك غارقين في المناقشة مع الهمس في جو يسوده شبه الظلام، وما كاد يفكر في هذا الخاطر حتى أضاءت الأنوار في النجفة، لقد اتخذ ريكاردو ريس المبادرة لأن أي شخص يدخل إلى الصالون ستساوره الشكوك عندما يجد رجلا وفتاة مغلفين في الظلال حتى ولو كان ذلك الرجل طبيبا وكانت تلك الفتاة معوقة، فهذا الوضع أسوأ من الوجود في المقعد الخلفي للتاكسي، وكما كان متوقعا ظهر سلفادور وقال: كنت بصدد المجيء في نفس اللحظة لكي أضيء الأنوار يا دكتور، ابتسم فابتسما هما أيضاً، أنها حركات وأوضاع تتمشى مع قواعد السلوك المتحضر الذي يجمع بين النفاق والضرورة من أجل اخفاء الكرب الذي يجتاحنا، وعقب انسحاب سلفادور سادت فترة صمت طويلة وبدا أنه من الصعب التكلم مع وجود

كل هذه الأضواء الهائلة، ثم قالت مارسيندا: بدون التدخل في شئونك لماذا ظللت مقيما طوال شهر في هذا الفندق، فقال: لم أقرر ما إذا كان «ينبغي عليَّ البحث عن مكان أم لا ولربما أعود إلى ريو دى جانيرو، فقالت: أخبرني سلفادور أنك عشت في البرازيل على مدى ١٦ عاما فما الذي جعلك تقرر العودة إلى البرتغال؟ قال: لأنني شعرت بالحنين للوطن، فقالت: أنك تغلبت على مشكلة الحنين للوطن بسرعة إذا كنت تتحدث الآن عن العودة إلى البرازيل، فقال: الأمر ليس كذلك على وجه الدقة، فأنا عندما صعدت إلى الباخرة المتجهة إلى لشبونة شعرت أنه لم يعد باستطاعتي تأجيل هذه الزيارة إذ كانت هناك أشياء مهمة ينبغي انجازها هنا، والآن. والآن. الآن... والآن توقف عن الكلام وراح يحملق في المرآة الموجودة أمامه، والآن أصبحت مثل الفيل الذي يشعر بقرب نهاية حياته فيذهب إلى المكان الذي عليه الموت فيه، فقالت: إذا عدت إلى البرازيل فأنها ستكون هي المكان الذي يذهب إليه الفيل ليموت فيه، فقال: عندما يهاجر الرجل فأنه يعتقد أن الدولة التي سيموت فيها هي الدولة التي يمضى فيها بقية حياته وذلك هو الفارق، فقالت: ربما عندما أعود إلى لشبونة في المرة القادمة لن أجد هنا، فقال: عندئذ ربما أكون قد عثرت على مكان أعيش فيه علاوة على فتح غيادة لممارسة الطب مع الاستقرار في حياة روتينية أو ربما عندئذ أكون قد رجعت إلى ريو دى جانيرو ولسوف تعرفين حيث سيقوم صديقنا سلفادور بتزويدك بكافة الأخبار، فقال: سوف أجيئ إلى هنا حتى لا أفقد الأمل، فقال: سأكون هنا إذا لم أفقد الأمل.

تبلغ مارسيندا من العمر ٢٣ عاما، لا نعرف على وجه الدقة نوع التعليم الذي حصلت عليه، ولكن نظرا لكونها ابنة موثق عام ومن مدينة كوامبرا وليست من بيئة أقل من ذلك فأنها بالتأكيد قد وصلت إلى مرحلة

التعليم الثانوى، ولولا حالتها المرضية لوصلت بدون شك إلى كلية من نوع ما، ربما كلية الحقوق أو الآداب أو الفنون وهو الأمر الأكثر ترجيحا لأنه على الرغم من وجود محامى في عائلتها إلا أن الدراسة الصعبة للقوانين واللوائح والتنظيمات لا تتلاءم مع فتاة، وتنهض من الأريكة وتمسك بيدها اليسرى وترفعها إلى صدرها وتبتسم قائلة: شكرا جزيلا على الصبر الذي أبديته لي، فقال: لا داعي لأن تشكرينى فقد استمتعت بالمناقشات التي دارت بيننا، هل ستتناولين طعام العشاء هنا هذا المساء؟! ردت: نعم فقال: إذن سنشاهد بعضنا البعض بعد قليل، مع السلامة، وراح ريكاردو ريس يرقبها وهي تغادر المكان، أنها لم تكن في نفس الطول الذي ارتسم في ذاكرته وإنما كانت نحيله، سمعها تقول لسلفادور: أخبر وفي الموعد المحدد طرق ريس على باب الغرفة رقم ٢٠٥ لأنه ليس من قبيل الذوق أن يطرق على باب مارسيندا إذ ينبغي مراعاة تلك الرسميات.

ولدى دخولهم إلى صالة الطعام قام الجميع بتوجيه التحية لهم علاوة على الابتسامات والإيماءات من الرأس، وسلفادور الذي نسى مشاعر الضيق التي انتابته أو كبتها من الناحية الدبلوماسية فتح لهم الأبواب الزجاجية، فدخل أولا ريكاردو ريس ومارسيندا وفقا لترتيبات الأتيكيت لأنه يعتبر ضيفهما، ولا حاجة للقول أن المنضدة التي سيجلسون إليها هي منضدة الدكتور سامبيو والتي يخدم عليها فيليب ولكن رامون لا يتخلى عن الامتياز الذي يتمتع به فهو سيساعد زميله وابن بلده، فكلاهما مولود في فيلاجارسيا دى أروزا، إن قدر الآدميين هو أن يتتبعوا ممرات المنطقة الخاصة بهم في الحياة، والبعض تتبعوا زملاءهم القادمين من جاليسيا إلى لشبونة في حين أن هذا المدعو ريس مولود في أوبورتو ثم عاش فترة في العاصمة ثم هاجر إلى البرازيل بينما الشخصان

الموجودان معه ظلا يسافران جيئة وذهابا ما بين كوامبرا ولشبونة على طوال السنوات الثلاث الأخيرة، وكل يبحث عن شفاء عن نقود عن هدوء العقل عن المتعة فكل واحد له الهدف الذي يسعى وراءه وهذا يوضح السبب في أنه من الصعب للغاية أن جميع أولئك الذين هم بحاجة إلى شيء ما، تمر فترات تناول طعام العشاء في هدوء، مارسيندا تجلس على يمين والدها بينما يدها اليسرى موضوعة كالمعتاد إلى جانب طبقها ولكن من العجيب أن هذه اليد ليست متوارية وإنما على العكس من ذلك تبدو في تألق عندما يشاهدها أي شخص، ولا تتم مناقشة العجز الذي تعانى منه مارسيندا، إذ يتحدث الدكتور سامبيو عن أعاجيب أثينا البرتغال: هنالك ولدت وبزغت إلى العالم وهناك نشأت وتخرجت من الجامعة وهناك أمارس مهنتى وأقسم أن هذه المدينة لا يمكن مقارنتها مع أي مدينة أخرى، أسلوبه قوى ولكن لا خطر من الدخول في مناقشة تدور عند المنضدة عن مزايا كوامبرا إذا قورنت مع المدن الأخرى سواء أكانت أوبورتو أو فيليجارسيا دى أروزا، ولا يهتم ريكاردو ريس بالمكان الذي يولد فيه المرء ولن يجرؤ فيليب ورامون على الاشتراك في هذه المناقشة فهما يعرفان المكان الذي ليس هو مسقط رأسيهما، وكان من المحتم أن يعرف الدكتور سامبيو أن ريكاردو ريس ذهب إلى البرازيل لأسباب سياسية على الرغم أنه من الصعب أن نقول كيف عرف ذلك، فسلفادور لم يخبره لأنه لم يكن يعرف أيضاً بل أن ريكاردو ريس لم يفض بهذا السر لأحد، لكن أشياء معينة تجمع من كلمات متقطعة ومن لحظات صمت ومن نظرة، كان عليه فقط أن يقول: لقد سافرت إلى البرازيل في عام ١٩١٩ وهي السنة التي تم فيها استعادة النظام الملكي بالشمال وكان عليه فقط أن يستخدم نغمة صوتية معينة وعندئذ فإن أذن الموثق العام المعتادة على الاستماع إلى الأكاذيب

والقسم باليمين والاعترافات لم تخدع، ومن خلال طرق ملتوية وغير مباشرة ومن خلال اختبار الأرض ومحاولة اكتشاف الألغام المخبأة أو الشراك المنصوبة ولكن مع الشعور بأنه غير قادر على تغيير موضوع الحديث نجد أن ريكاردو ريس قد سمح لنفسه بأن ينزلق وقبل أن يتم تقديم طبق الحلوى في نهاية الوجبة أشار إلى أنه ليست لديه ثقة في الديمقراطية وأنه يحتقر الاشتراكية من كل قلبه، وأكد له الدكتور سامبيو في ابتسامة بهدف أن يطمئنه: أنت الآن مع صديقين ولم تظهر مارسيندا سوى قدر ضئيل من الاهتمام بالمناقشة التي دارت بينهما، ولسبب ما وضعت يدها اليسرى في حجرها، لو كان هناك توهج فإن هذا التوهج أنطفأ، ما نحتاجه يا عزيزي ريس في هذا الركن من أوربا هو رجل له رؤى وتصميم حازم لكي يرأس حكومتنا ويدير شئون البلاد، تلك كانت هي الكلمات التي قالها الدكتور سامبيو والذي أضاف قائلاً: لا يمكن عقد مقارنة بين البرتغال التي عرفتها عندما سافرت إلى ريو دى جانيرو وبين البرتغال التي عدت إليها ـ وأنا أعرف أنك عدت منذ فترة قصيرة ـ ولكنك إذا كنت قد تجولت وشاهدت الأشياء بعينين مفتوحتين فمن المؤكد أنك لاحظت حدوث تغييرات هائلة ولاحظت ازدهار أكبر من ذي قبل ونظاما عموميا وخطة متماسكة من أجل تدعيم الروح الوطنية علاوة على احترام الأمم الأخرى للانجازات التي حققها وطننا من أجل تاريخه العلمانى وامبراطوريته العلمانية، فقال ريكاردو ريس كأنه يعترف: في حقيقة الأمر لم أشاهد معالم كثيرة ولكنني أتابع باستمرار التقارير الواردة في الصحف فقال الدكتور سامبيو ينبغي قراءة الصحف لكن هذا لا يكفي، إذ ينبغي أن تشاهد بنفسك الطرق والموانى والمدارس والأشغال العامة الموجودة في كل مكان ونشاهد جو النظام يا صديقي العزيز وتشاهد الهدوء الموجود في الشارع وفي قلوب الناس

فهذه أمة بأكملها مكرسة من أجل العمل الشريف تحت قيادة رجل دولة عظيم له يد من حديد مغلفة في قفاز مخملى ناعم وذلك هو المطلوب على وجه الدقة، والحقيقة يا عزيزي الدكتور ريس لا تختار المكان دائماً وإنما تبقى لتشاهد إذا اختار المكان دائماً الحقيقة، وتجهم الدكتور سامبيو بعض الشيء حيث أزعجه هذا التناقض لكنه تعامل مع ذلك التناقض كأنه أمر عميق للغاية بحيث لا ينبغي مناقشته بالتفصيل في هذا الجو الملئ بالخمور الواردة من كولاريس واستغرقت مارسيندا في التفكير في شئونها الخاصة فراحت تقضم في رفق قطعا صغيرة من لحاء ثم رفعت صوتها لتقول أنها لا ترغب في طبق الحلو أو القهوة، وأضاف والدها قائلاً: هناك كتاب غير أدبي رائع لكنه مفيد بكل تأكيد ومن السهل قراءته وهو كتاب يفتح عيون الكثيرين من الناس، فقال ري: ما هو ذلك الكتاب، فقال سامبيو: إنه كتاب تحت عنوان «المؤامرة» وقد ألفه صحفي وطني متحمس للوطن يسمى تومى فييرا ولا أعرف ما إذا كنت قد سمعت عن ذلك الاسم، فقال ريس: لا لم أسمع عنه فقد عشت في مكان بعيد للغاية، فقال سامبيو: هذا الكتاب قد طبع ونشر منذ أيام قليلة فقط وينبغي عليك أن تقرأه وتعطينى رأيك، فقال ريس: سأقرأه بكل تأكيد إذا كنت توصى بقراءته بمثل هذا الحماس الكبير، وبدأ ريكاردو ريس يشعر بالأسف لأنه قال عن نفسه أنه مناهض للاشتراكية ومناهض للديموقراطية ومناهض أيضاً للبلشفية ليس بسبب أن موقفه لم يكن كذلك ولكن بسبب سأمه وملله المتزايد من مثل هذه الوطنية غير المتحررة وربما كان يشعر بالضيق أكثر بسبب عدم تمكنه من التحدث مع مارسيندا ومثلما يحدث كثيراً فإن الشيء الذي يترك بدون انجاز يسبب لك المتاعب أكثر من أي شيء آخر حيث لا تشعر بالارتياح إلا بعد انجاز ذلك العمل.

وعقب الانتهاء من تناول طعام العشاء قام ريكاردو ريس يسحب مقعد مارسيندا إلى الوراء لكي يسمح لها بالانصراف مع والدها في المقدمة، وما أن أصبحوا في خارج صالة الطعام حتى أصابهم التردد بشأن قضاء بعض الوقت في الصالون ولكن مارسيندا قررت في نهاية الأمر الذهاب إلى غرفتها بعد أن أشارت إلى أنها تعانى من الصداع وقالت لريس: غدا ربما لن نشاهد بعضنا البعض لأننا سنغادر الفندق في وقت مبكر، فتمنى ريس لهما رحلة طيبة وأضاف: ربما أكون موجودا هنا بالفندق عندما تعودان في المرة القادمة في الشهر القادم فقال الدكتور سامبيو: إذا تركت الفندق أترك لنا عنوانك الجديد، والآن لا يوجد هناك شيء آخر يمكن أن يقال، فمارسيندا سوف تذهب إلى غرفتها فهي تقول أنها تعانى من الصداع وريكاردو ريس لا يعرف ما يريد أما الدكتور سامبيو فإنه سيخرج من الفندق مرة أخرى في هذا المساء.

وخرج ريكاردو ريس من الفندق أيضاً، وراح يتجول وذهب إلى العديد من دور السينما ونظر إلى الملصقات الاعلانية وشاهد مباراة في الشطرنج ولدى مغادرته المقهي كانت السماء تمطر لذلك استقل تاكسيا ورجع إلى الفندق، ولدى دخوله إلى غرفته تلاحظ له أن سريره غير منظم وأن الوسادة الثانية لم تسحب من الخزانة، فابتسم لنفسه وراح يتمتم بهذه الأبيات من الشعر: الحزن الغامض السخيف يتوقف عند باب روحي ويحملق في وجهي لبعض الوقت ثم يواصل السير.

(٧)

ينبغي للمرء أن يقرأ كثيراً أو يقرأ قدرا ضئيلا عن كل شيء بقدر ما يستطيع ولكن نظر لأن حياة الإنسان قصيرة ونظرا للسأم والملل الذي يتسم به العالم لا ينبغي أن يطلب الكثير من الإنسان، ولندع الإنسان يبدأ بالعناوين التي لا ينبغي أن يغفلها أحد وهي عناوين الكتب التي يشار إليها بأنها كتب التعليم كما لو أن كافة الكتب ليست من أجل التعليم وقائمة الكتب هذه سوف تختلف وفقا لينبوع المعرفة الذي يشرب منه المرء ووفقا للسلطة التي تتحكم في تدفقه، وفي حالة ريكاردو ريس الذي تلقى تعليمه على أيدي الجزويت يمكن لنا أن نكوّن فكرة ما على الرغم من الفارق الكبير بين مدرسى الأمس ومدرسى اليوم، وبعدئذ تجيئ ميول الشباب وأولئك الكتاب المفضلون وتلك الافتتانات والتخبلات العابرة وتلك المادة المقروءة التي كتبها ويرثار والتي تدفع المرء للانتحار أو الحفاظ على الذات ثم الكتابات الجادة المتعلقة بفترة المراهقة، وما أن نصل إلى مرحلة معينة من الحياة فأننا جميعاً نقرأ نفس الأشياء تقريبا رغم أن نقطة البداية دائماً ما تشكل اختلافا ويكون للذين هم على قياد الحياة ميزة واضحة وهي أنهم يكونون قادرين على قراءة ما لن يعرفه آخرون لأنهم انتقلوا إلى رحمة الله، ولكي نقدم مثالاً واحداً على ذلك نقول أن ألبرتو كايرو الذي مات في عام ١٩١٥ وياله من شخص مسكين لم يقرأ الكتاب الصادر تحت

عنوان «اسم الحرب» وبالتالي فهو ليس لديه فكرة عن هذه الأمور التي فاتته، وكذلك كل من فرناندو بسوا وريكاردو ريس سيرحلان عن هذا العالم قبل أن ينشر ألمادا بخريوس روايته، وهذه الرواية تكاد تكون تكرارا للقصة المسلية التي تدور عن ذلك الجنتلمان الذي هو من لاباليس والذي كان قبل ربع ساعة من وفاته ما زال على قيد الحياة ضاربا في الأرض على حد تعبير الحكماء، وهو لم يخطر على باله للحظة أنه سيكابد من الاحزان التي تتعلق بأنه لن يكون بمقدوره أن يبقى على قيد الحياة ضاربا بقدميه في أرجاء الأرض، وهيا بنا ننتقل إلى موضع آخر، الإنسان إذن سيأخذ عينة من كل شيء بل ومن كتاب «المؤامرة» ولن يتعرض لأي ضرر إذا هبط من وقت لآخر من السحب حيث يلجأ إلى هناك عادة لكي يرى كيف أن الأفكار العادية المبتذلة تصاغ لأن تلك الأفكار هي التي تساعد الناس على الوجود من يوم إلى يوم وليست تلك الأفكار التي قالها شيشيرون أو اسبينوزا ولذلك عندما تجيء التوصية وهي نصيحة مزعجة من كوامبرا فعليك يا صديقي بقراءة كتاب «المؤامرة» حيث ستجد به بعض الاختيارات القوية وإذا وجدت أي ضعف في الشكل أو القالب أو الحبكة فإن ذلك يتم تعويضه من خلال جدارة الرسالة أو المحتوى، فكوامبرا أعظم المدن علما وثقافة والتي تعج بالدارسين تعرف الأمور التي تتحدث عنها وفي نفس اليوم التالي خرج ريكاردو ريس واشترى الكتاب الضئيل وأخذه معه إلى غرفته وفتحه في خلسة لأنه ليس كافة الأعمال التي تنفذ خلف الأبواب المغلقة تكون على النحو الذي تبدو عليه، فهي في بعض الأحيان لا تكون سوى خجل المرء من عاداته الخصوصية ومباهجه السرية ونتف شعر أنفه وحك فروة.رأسه، وربما هذا الغلاف الذي يظهر امرأة مرتدية معطف مطر وقبعة وسائرة في شارع بجوار سجن بينما النافذة ذات

القضبان الحديدية وكشك الحارس يزيلان أية شكوك بشأن مصير المتآمرين يكون أقل إثارة للخجل أو الارتباك، إذن ريكاردو ريس موجود في غرفته وقابع في ارتياح على أريكته، والمطر يتساقط على أي مكان ينظر إليه المرء كما لو كانت السماء بمثابة بحر معلق تنساب منه المياه على نحو متواصل من خلال شقوق لا حصر لها، في كل مكان توجد فيضانات ومجاعات ولكن هذا الكتاب الصغير سيحدثنا عن كيف أن امرأة قد أطلقت نفسها في حملة صليبية نبيلة تهدف إلى إعادة رجل إلى صوابه وإلى روحه الوطنية بعد أن أصبح ذهن ذلك الرجل مشوشاً ومليئاً بالأفكار الخطيرة، فالنساء بارعات للغاية في مثل هذه الأمور ربما لكي يكفرن عن تلك الخدع المتمشية مع طبيعتهن والتي وشوشت أذهان الرجال وسببت لهم السقوط منذ آدم عليه السلام، لقد قرأ ريكاردو ريس الآن الفصول السبعة الأولى وهي: عن الفترة التي سبقت الانتخاب + انقلاب غير دموى + خرافة الحب + عيد الملكة المقدسة + اضراب بالجامعة + المؤامرة + ابنة السيناتور، وتشير الحبكة القصصية على النحو التالي: طالب جامعي وهو ابن فلاح يتورط في أعمال مزعجة يتم إلقاء القبض عليه وإيداعه سجن الجوبة وتعمل ابنة السيناتور سالفة الذكر والتي تموج بالحماس الوطني والروح التبشيرية على إطلاق سراحه من السجن وهو أمر اتضح أنه ليس صعبا للغاية حيث اكتشف والدها السيناتور والذي كان ينتمي للحزب الديموقراطى لكنه الآن متآمر غير مقتنع أن ابنته تلقى كل تبجيل في الدوائر الحكومية العليا فالأب لا يعرف أبداً على أي نحو ستصبح ابنته التي أنجبها، ورغم أنه توجد بعض الفوارق فإنها تتكلم مثل جان دارك، والدي كان سيتم إلقاء القبض عليه منذ أيام فأعطيت لهم كلمة شرف بأنه لن يتهرب من مسئولياته بل وقدمت لهم ضمانا يفيد بأن والدي سيتوقف عن تآمره

وتضيف الفتاة المخلصة قائلة لوالدها: يمكنك أن تحضر اجتماعك المقرر عقده غدا وأنا أعدك بأنه لن يحدث لك أي شيء لأنني أعرف والبوليس يعرف أيضاً أن المتآمرين سيعقدون اجتماعا مرة أخرى لكنهم قرروا التغاضى عنك والشرطة هنا بالبرتغال طيبة ولا عجب في ذلك طالما لديهم مخبرة في معسكر العدو ألا وهي ابنة سيناتور سابق مناهض لنظام الحكم هذا، لقد تعرضت تقاليد الأسرة للخيانة ولكن كل شيء سينتهي إلى سعادة بالنسبة لكافة الأطراف المعنيين إذا نظرنا نظرة جدية لمؤلف هذا الكتاب، ودعونا نستمع الآن لما ينبغي عليه أن يقوله: الوضع في دولتنا قد نوقش بشكل حماسي في الصحافة الأجنبية وقد نظر إلى استراتيجيتنا الاقتصادية على أنها نموذج يحتذى به كما توجد إشادة باستمرار بسياساتنا النقدية وفي جميع أرجاء البلاد تقدم المشروعات الصناعية باستمرار الوظائف للآلاف من العمال وفي كل يوم تحدد الصحف الخطوات الحكومية الرامية إلى التغلب على الأزمة التي بسبب الأحداث العالمية ـ قد أحدثت تأثيرات علينا ولكن اقتصادنا إذا ما قورن باقتصاد دول أخرى يعتبر مشجعا للغاية، فالأمة البرتغالية ورجال الدولة البرتغاليين الذين يقودونها ويوجهونها يتم الاسترشاد بهم في جميع أرجاء العالم كما أن النظرية السياسية التي نتبعها هنا يتم دراستها بالخارج ويمكن القول بكل ثقة أن الدول الأخرى تنظر إليها بعين الحقد والاحترام وتبعث كبرى الصحف العالمية بكبار صحفييها إلى البرتغال لكي يكتشفوا سر نجاحنا ويتم تملق رئسي حكومتنا بسبب اصراره على التواضع باستمرار وبسبب كرهة الشديد لأعمال الدعاية وتنشر صورة في مكان بارز في أعمدة الصحف في أرجاء العالم ويتم القاء الضوء الشديد على صورته ويتم تحويل بياناته السياسية إلى رسالة انجيلية، وفي ضوء كل هذا والذي لا يعتبر سوى ظل شاحب لما يمكن

أن يقال فعليك يا كارلوس أن تتفق معي في الرأى على أنه من الجنون المطلق أن تشارك في اضرابات الجامعة التي لا تحقق أي شيء له قيمة، وهل تدرك المتاعب التي تكبدتها من أجل إخراجك من هنا، أنت على حق يا ماريليا لكن البوليس ليس لديه أي دليل أنني فعلت أي شيء خاطئ وكل ما يعرفونه على وجه اليقين هو أنني الذي قمت بالتلويح بالعلم الأحمر الذي لم يكن علما على الاطلاق أو أي شيء شبيه بعلم.

إذ كان مجرد منديل يبلغ ثمنه ٢٥ سنتاً وكان الأمر مجرد مزاح، وتحدث هذه المناقشة في داخل السجن في صالة الزائرين ولكن في قرية وكما يحدث أيضاً في منطقة كوامبرا نجد أن فلاحا آخر وهو والد الفتاة الجميلة التي سيتزوجها كارلوس في نهاية الرواية يوضح أمام حشد من التابعين والمرؤوسين أنه لا يوجد شيء أسوأ من الشيوعية فالشيوعيون لا يريدون أن يكون هناك رؤساء في العمل أو عمال ولا يوافقون على القوانين أو الأديان ولا يؤمنون بضرورة تعميد أي شخص أو ارتباطه بالزواج فهم يرون أن الحب لا وجود له وأن المرأة انسانة متقلبة المزاج ويحق لجميع الرجال استعمالها ومضاجعتها ويرون أن الأطفال مسئولون عن أعمالهم أمام آبائهم وأن كل شخص له حرية التصرف على النحو الذي يروق له، وفي أربعة فصول أخرى وفي الخاتمة تنقذ الفتاة فالكيريان ماريليا المهذبة الطالب من السجن ومن السوط السياسيى وتصلح من شأن والدها الذي يتخلى عن أنشطته الهدامة تماماً ويعلن أنه من خلال الخطة التعاونية الجديدة سيتم حل المشكلة بدون حاجة لأي نفاق أو صراع أو عصيان مسلح، وانتهي صراع الطبقات وحل محلة نظام يضم القيم الممتازة ورأس المال والعمل، وفي نهاية الأمر ينبغي أن تدار شئون الأمة مثل عائلة لديها الكثير من الأطفال حيث يفرض الأب النظام من أجل حماية تعليمهم لأنه إذا لم يتم تعليم الأطفال

احترام والدهم فإن كل شيء يتعرض للسقوط والانهيار ويحكم على البيت كله بالفشل والاخفاق.

ومع وضع هذه الحقائق التي لا تقبل الجدل موضع الاهتمام نجد أن صاحبي الأرض وهما والد العريس ووالد العروسة ـ وذلك عقب تسوية بعض الخلافات البسيطة ـ يساعدان على حسم صراعات معينة ضئيلة بين العمال وعندئذ لن نهدد بالطرد من لجنة بعد الإدراك أنه بمقدورنا استعادة الجنة مرة أخرى في خلال فترة قصيرة للغاية، وأغلق ريكاردو ريس الكتاب لقد قرأه في خلال فترة قصيرة، هذه هي أفضل الدروس بالنسبة للجميع وهي دروس موجزة ومختصرة وفورية، ويشعر للحظات أنه يكره العالم كله ويكره المطر المتواصل والفندق والكتاب الملقى على الأرض ومارسيندا، لكنه يرى عقب مرور لحظات أخرى ـ استثناء مارسيندا من ذلك الكره بدون أن يعرف السبب في ذلك ربما لمجرد المتعة التي يشعر بها وهو يستثنى أو ينقذ أو يوفر شيئاً ما مثلما يلتقط المرء قطعة خشب أو حجر من كومة من الدبش الشكل جذب الانتباه وبدون وجود الشجاعة للالقاء بذلك الشيء بعيداً فإننا نضعه في جيبنا دون أن يكون هناك سبب يدعو إلى ذلك.

بالنسبة لنا فنحن نسير على ما يرام وفي مثل جودة تلك الأعاجيب التي وصفت أعلاه، ومن ناحية أخرى وفي أراضى نجد أن الأمور تسير من سئ إلى أسوأ، فالأسرة منقسمة على نحو يدعو للحزن وربما جيل روبلز هو الذي يكسب في الانتخابات أو لارجو جاباليرو وأعلن الفلانج[1] أنه سيواجه الديكتاتورية الحمراء في الشوارع، وفي واحة السلام الخاصة بنا نرقب في أسف مشهد أوربا الغارقة في الشجار

(١) الحزب الفاشستي الذي حكم أسبانيا بعد حرب ٣٦ ـ ١٩٣٩ الأهلية.

والفوضى وفي المناقشات اللانهائية وفي النزاعات السياسية التي لم تحقق أبداً ـ من وجهة نظر ماريليا ـ أي شيء يستحق الذكر.

ففي فرنسا نجد أن سارو قد شكل حكومة ائتلافية جمهورية وسرعان ما انقضت عليه أحزاب الجناح الأيمن ووجهت إليه وابلا من الانتقادات والاتهامات والاهانات التي تقال بلغة بذيئة أقرب إلى لغة السفاحين المشاكسين منها إلى لغة مواطني دولة تعتبر نموذجا للأدب ومنارة للثقافة الغربية، ونشكر الله لأنه ما زالت توجد هناك أصوات قوية في هذه القارة وهي أصوات أولئك الذين هم على استعداد للتعبير بوضوح باسم السلام والوفاق ونحن نشير بذلك إلى هتلر وإلى البيان الذي أعلنه أمام أصحاب القمصان السمراء[١] والذي يشير فيه إلى أن ألمانيا تريد أن تعمل في جو من السلام: ودعونا نتخلى للأبد عن الشكوك وعدم الثقة وليعلم العالم كله أن ألمانيا ستناصر السلام وترحب به على نحو يفوق ما فعلته أي دولة أخرى بالعالم، وفي الواقع نجد أن ٢٥٠ ألف جندى ألمانى يقفون على أهبة الاستعداد لاحتلال أراضى الرين وفي خلال الأيام الأخيرة القليلة قامت قوة حربية ألمانية بغزو أراضى تشيكوسلوفاكيا، صحيح أن جونو[٢] تظهر في بعض الأحيان على شكل سحابة وبعدئذ تكون كل السحب بمثابة جونو، وبرغم كل ذلك فإن حياة الشعوب تتألف من الكثير من النباح والقليل من العض ولسوف ترى أن شاء الله أن الكل سوف ينتهي في توافق تام، ما لا نستطيع أن نقبله الكلام الذي يقوله لويد جورج والذي يؤكد أن البرتغال لديها مستعمرات كثيرة للغاية بالمقارنة مع ألمانيا وإيطاليا في حين أننا منذ أيام

(١) أعضاء في قوات الصاعقة الهتلرية.
(٢) ملكة السماء في أساطير اليونان.

قلائل فقط أعلنا الحداد العام بمناسبة وفاة جور الخامس ملك انجلترا وارتدى الناس أربطة العنق السوداء والأشرطة السوداء كما ارتدت النساء شارة الحداد، وكيف يجرؤ على الشكوى من أننا لدينا مستعمرات كثيرة للغاية في حين أننا لدينا في حقيقة الأمر مستعمرات قليلة للغاية ويمكنك أن تلقى نظرة على الخريطة الوردية الحمراء التي تعبر عن الأراضى البرتغالية الموجودة في أفريقيا، لو كان هذا التجاسر قد أوقف عند حدة منذ فترة لما ظهر أحد لكي يتنافس معنا الآن ولما أصبحت أمامنا أية عقبة في المسافة من أنجولا إلى موزمبيق ولأصبح كل شيء تحت العلم البرتغالي ولكن انجلترا الغادرة بطبعها راحت تطاردنا، فالانجليز غدارون بطبيعتهم والغدر هو الرذيلة القومية الخاصة بهم وجميع الدول لديها الأسباب التي تجعلها تشتكي دائماً من انجلترا وعندما يجيئ فرناندو بسوا فعلى ريكاردو ريس ألا ينسى أن يطرح عليه السؤال المهم وهو ما إذا كانت المستعمرات تعتبر شيئاً حسناً أم رديئاً ليس من وجهة نظر لويد جورج الذي ينصب اهتمامه الوحيد على إغاظة المانيا من خلال تسلم ما امتلكته الدول بشق الأنفس وبذل الجهود المضنية ولكن من وجهة نظره هو أي وجهة نظر بسوا الذي أحيا حلم بدرى فييرا من خلال التبشير بمجيئ الامبراطورية الخامسة، وعليه أيضاً أن يسأله من ناحية ـ كيف سيحسم التناقش الذي يصنعه بيديه والذي يشير إلى ان البرتغال ليست بحاجة إلى المستعمرات لكي تحقق مصيرها الامبراطوري مع أنها بدون مستعمراتها تتضاءل في الداخل وفي الخارج من حيث النواحى المادية والمعنوية ويسأله من ناحية أخرى عن رأيه في احتمال تسليم مستعمراتها لألمانية وإيطاليا وفقا للمقترحات التي سيعلنها لويد جورج في القريب العاجل، على أي نحو ستكومن الامبراطورية الخامسة بينما نتعرض للسلب والنهب والخيانة ونجرد من ملابسنا مثلما حدث للسيد المسيح

وهو في طريقه إلى الجمجمة[1] فنحن شعب محكوم عليه أن يعانى وقد امتدت أياديه الموثقة برباط سائب لأن السجن الحقيقي هو الموافقة على أن نوضع في السجن بينما تمتد أيدينا في اذلال لكي تصل إلى الصدقات التي تقوم بتوزيعها أوه سيكيولو وربما سيرد فرناندو بسوا مثلما رد في مناسبات أخرى قائلاً: مثلما تعرفون جيدا فأنا ليس لدى مبادئ قوية إذ أجادل لصالح شيء ما ثم أجادل غدا لصالح شيء ما آخر وقد لا أؤمن بما أدافع عنه اليوم وقد لا يكون لدى أي إيمان حقيقي بما أدافع عنه غدا، بل وقد يضيف على سبيل التبرير: بالنسبة لي لم يعد هناك ما يمكن أن يسمى باليوم أو يسمى بالغد فكيف يتوقع لي أن استمر في الاعتقاد أو أتوقع الاعتقاد من جانب الآخرين وحتى إذا كانوا يعتقدون فهل هم يعرفون فعلا الشيء الذي يعتقدون فيه أو يؤمنون به، أن رؤياي عن الامبراطورية الخامسة كانت غامضة ومشوشة ومتسمة بكثرة الخيال فلماذا ينبغي أن تصبح حقيقة بالنسبة لكم، كان الناس يسارعون إلى الإيمان بما أقوله رغم أنني لم أحاول أبداً إخفاء شكوكي، لقد كان من الأفضل لي أن ألتزم بالصمت مع الاكتفاء بمراقبة الموقف بكل بساطة وعندئذ سيرد ريكاردو ريس: مثلما فعلته أنا نفسي دائماً وعندئذ سيرد عليه فرناندو بسو قائلاً: فقط عندما نكون موتى نصبح مجرد مشاهدين ومتفرجين ولا حتى يمكن لنا أن نكون متأكدين من ذلك أنني رجل ميت وأتجول هنا وهناك وأتوقف عند ناصية الشوارع وإذا كان هناك أناس قادرون على مشاهدتي وهم عدد قليل للغاية فأنهم سيعتقدون أن كل ما أفعله هو مجرد مراقبة الناس الآخرين وهم يمرون إلى جواري وهم لا يعرفون أنه إذا سقط أي شخص على الأرض فإنني لا استطيع أن التقطه

---

(١) المكان الذي صلب فيه السيد المسيح ـ المترجم.

ومع ذلك فأنا لا أشعر أنني أراقب الأشياء فقط فكل أعمالى وكل كلماتى تستمر في العيش فهي تسبقنى إلى ما وراء ناصية الشارع التي أستريح عندها وأشاهدها وهي تنصرف ولا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجل احداث تعديل عليها حتى ولو كانت نتيجة غلطة أنني لا أستطيع أن أوضح أو أكون رأيا أو حكما عن نفسي في حركة واحدة أو كلمة واحدة حتى لو كان لمجرد وضع النفي محل الشك ووضع الظلام محل الظلال ووضع كلمة لا محل كلمة نعم فكلاهما له نفس المعنى بل والأسوأ من ذلك ربما لا تكون هي الكلمات التي نطقت بها أو الأعمال التي أديتها ونقول أسوأ لأنه لا سبيل إلى العلاج وربما تكون هي أشياء لم أفعلها على الاطلاق وكلمات لم أنطق بها على الاطلاق وإذا كان الرجل الميت يتعرض لمثل هذا القلق الشديد يصبح من الواضح أن الموت لا يجلب الهدوء والسلام فالفارق الوحيد بين الموت والحياة هو أن الأحياء ما زال لديهم بعض الوقت ولكن الوقت اللازم لقول تلك الكلمة أو القيام بتلك الحركة يتسرب بسرعة معهما، ما هي تلك الحركة وما هي تلك الكلمة لست أدرى والإنسان يموت بسبب عدم قول الكلمة وعدم الاتيان بالحركة فذلك هو السبب الذي يجعله يموت فهو لا يموت بسبب المرض وذلك هو، السبب في أنه عندما يصبح ميتا يجد أنه من الصعب عليه للغاية أن يتقبل الموت، ويقول ريكاردو ريس: يا عزيزي فرناندو بسوا أنت تقرأ الأشياء مقلوبة رأسا على عقب.

ويقول فرناندو بسوا: عزيزي ريكاردو ريس إنني لم يعد بمقدورى أن أقرأ نظرا لأن ريكاردو ريس لم يقدم سببا يدعوها للغيرة بخلاف التحدث على الملأ ما مارسيندا وإن كان التحدث قد تم بصوت منخفض فأنه لم يكن من المتوقع لغضب ليديا أن يستمر لفترة طويلة، فهما قد قالا لها أولا وفي وضوح انهما لا يرغبان في أي شيء آخر ثم

لاذا بالصمت للحظات بينما كانت هي تنقل فنجاني القهوة، وكان هذا يكفي لجعل يديها ترتعشان، وعلى مدى أربع ليال كانت تبكي على وسادتها قبل أن تستغرق في النوم، ولم يكن بكاؤها ناجما عن الشعور بالاذلال أثناء نقلها فنجان القهوة بقدر ما كان ناجما عن توقف الدكتور عن تناوله طعام افطاره في غرفته، حيث رأت أن ذلك بمثابة عقاب لها، فلماذا كل هذا يا روحي في حين أنني لم أرتكب خطأ، ولكن في الصباح الخامس لم ينزل ريكاردو ريس لتناول الافطار في المطعم فقال سلفادور: آه ياليديا خذى بعض القهوة إلى الغرفة رقم ٢٠١ وعندما دخلت ليديا إلى الغرفة اجتاحتها موجة غضب فتاة مسكينة انها لم تستطع التحكم في أعصابها.

فنظر إليها في وقار ووضع يده على ذراعها وتساءل: أأنت غاضبة مني؟ فقالت: لا يا دكتور فقال: ولكنك لم تعودى إليّ، وهنا لم تعرف ليديا ماذا تقول فهزت كتفيها في تعاسة فجذبها نحوه، وفي نفس تلك الليلة نزلت إلى غرفته وقالت: لقد كنت أشعر بالغيرة.

الأمم تكافح ضد بعضها البعض من أجل المصالح التي هي ليست مصالح جاك أو بيير أو هانز أو مانولو أو جيوسيب كافة الأسماء المذكورة من أجل تبسيط الأمور إلا أن هؤلاء وأولئك الرجال ينظرون بكل براءة إلى تلك المصالح على أنها تخصهم أو ستكون خاصة بهم من خلال تكلفة كبيرة عندما تجيئ اللحظة لتسوية الحسابات القاعدة أن البعض يأكل التين بينما آخرون يرقبون، جماهير الشعب تكافح من أجل القيم الخاصة بها ولكن ما قد يكون مجرد عواطف يثار في أية لحظة وتلك هي الحالة مع ليديا خادمة الغرف بالفندق ومع ريكاردو ريس المعروف لكل شخص على أنه دكتور في الطب إذا استأنف ممارسته لمهنة الطب ومعروف للبعض على أنه شاعر إذا سمح لأي شخص من

الأشخاص أن يقرأ ما يؤلفه في جد واجتهاد من قصائد شعرية، ولكن جماهير الشعب تكافح أيضاً من أجل أسباب أخرى ومن أجل نفس الأسباب ومن أجل النفوذ والهيبة والكراهية والحب والحقد والغيرة والخبث المحض ومن أجل تحديد أراضى الصيد والمسابقة والمنافسة بل ومن أجل الغنائم والسلب والنهب مثلما حدث مؤخرا في مقاطعة موراريا لم يقرأ ريكاردو ريس تقارير عنها ولكن سلفادور كان يلتهم التفاصيل في شراهة وقد وضع مرفقيه على الجريدة المفتوحة والتي نشرت صفحاتها في رفق وعناية ويقول:

إنه عمل شنيع يا دكتور هؤلاء الناس بموراريا يتميزون بالعنف الشديد وليس لديهم أي احترام للحياة الإنسانية ولأتفه الأسباب يكونون على استعداد لطعن بعضهم البعض بدون أي شفقة أو رحمة بل والشرطة تخاف منهم حيث لا تذهب الشرطة إلى هناك إلا عقب انتهاء القتال لكي تلتقط أشلاء الضحايا استمع إلى هذا الخبر يقول هنا أن شخصاً يسمى خوسيه ريس وكنيته خوسيه رولا قام باطلاق خمس رصاصات على رأس انطونيو ميسكويتا والمشهور باسم أوه موراريا فأرداه قتيلا وتشير الجريدة إلى أن هذا الحادث لم يكن له علاقة بالنساء وإنما كان بمثابة مشاجرة بشأن بضائع وسلع مسروقة حيث قام أحدهما بغش وخداع الآخر وهذا يحدث في كل الأوقات، ولكي يبدو ريكاردو ريس غير مهتم قال: خمس رصاصات على نفس الهدف حيث يتلقى الرأى الرصاصة الأولى بينما لا يزال الجسد منتصبا ثم يتهاوى الجسد على الأرض متفجرا بالدماء ومتخاذلا في ضعف متزايد أما الرصاصات الأربع الأخرى والتي تعتبر زائدة على الحاجة ومع ذلك ضرورية على نحو ما اثنين ثلاثة أربعة خمسة بينما تتدفق الكراهية مع كل طلقة ويهتز الرأس مع كل طلقة على الرصيف في حين ينتشر الرعب على كافة الجوانب

وبعدئذ يتصاعد عويل وصراخ النساء منبعثا من النوافذ من المشكوك فيه أن أحدا وجد لديه الشجاعة لأن يمسك بذراع خوسيه رولا وأكثر الأمور احتمالا هو أن طلقات الرصاص قد نفدت من مخزن البندقية أو أن أصبعه تجمد فجأة على الزناد أو أن الكراهية المنبعثة منه تم اشباعها، القاتل سوف يهرب ولكنه لن يذهب إلى مكان بعيد حيث لا أحد يفعل شيئاً منكرا دون أن يتعرض لعواقب وخيمة في موراريا ويقول سلفادور موجها كلامه لريس: ستقام الجنازة غدا لو لم أكن منهمكا في أعمالي الفندقية لكنت قد ذهبت لحضور هذه الجنازة، فقال ريس: أتحب الذهاب للجنازات فقال سلفادور: إنها ليست على وجه الدقة مسألة حب للجنازات ولكن جنازة من ذلك النوع تستحق المشاهدة وخاصة عندما تكون هناك جريمة ونظرا لأن رامون يعيش في شارع كفاليروس فأنه قد سمع اشاعات ويقوم بتمرير هذه الاشاعات إلى ريكاردو ريس أثناء تناول طعام العشاء من المتوقع لجميع سكان «الحي» أن يجيئوا يا دكتور بل ويقال أن أصدقاء ورفقاء خوسيه رولا يهددون بتحطيم النعش وإذا نفذوا تهديدهم سيكون هناك مزاح ثقيل صاخب ويقول ريس: ولكن إذا كان أوه موراريا قد أصبح ميتا فما الذي يمكن أن يفعلوه فيه أكثر من ذلك فرجل كهذا ليس من المتوقع له أن يجيئ من العالم الآخر لكي ينهي ما ابتدأه في هذا العالم، ويقول رامون: مع أناس من ذلك النوع لا يمكن لك أبداً أن تعرف جوانب الموقف فالكراهية العميقة لديهم لا تنتهي مع الموت ويقول ريس: أنني أميل إلى الرغبة في أن أحضر هذه الجنازة بنفسي ويقول رامون: إذن عليك بالذهاب ولكن إحرص على ألا تكون في مكان قريب للغاية وغذا تفجرت أية متاعب عليك بالاحتماء تحت بئر سلم ودعهم يحسمون الخلاف بينهم بالقتال.

ولم تصل الأمور إلى ذلك الحد لأن التهديد لم يكن سوى تظاهر

بالشجاعة وربما لأن اثنين من رجال الشرطة المسلحين كانا يقومان بدورية في المنطقة وكانا بمثابة رمز لتوفير الحماية هو رمز كان سيتضح أنه غير فعال لو تمادى مثيرو الشغب في خطتهم الرهيبة ولكن عندما قيل كل شيء وعمل كل شيء فأن وجود القانون ينال بعض الاحترام وظهر ريكاردو ريس لقد بدأ تحرك الموكب الجنائزى وراح يرقب من على مسافة وفقا للنصيحة التي صدرت إليه وذلك لكي لا يجد نفسه فجأة وسط أعمال شغب فجائية ودهش عندما شاهد مئات الناس المحتشدين في الشارع أمام معرض الجثث على نحو شبيه تماماً بيوم الاحسان الذي نظمته أوه سيكيولو ولكن في هذه المرة توجد كل أولئك النساء المرتديات في فساتين وجونلات وبلوزات وشيلان حمراء اللون ورجالهن يرتدون حللا لها نفس اللون الأحمر وهو تعبير عن الحداد غير عادي للغاية إذا كان هؤلاء أصدقاء للميت واستفزاز شديد إذا كانوا أعداءه، ويبدو الأمر أقرب ما يكون إلى مهرجان كارنفالى، والآن يلوح النعش في الأفق مرفرفا بستائر، وهو يتجه إلى المقبرة وقد جره حصانان لهما ريش للزينة وغطاء مزركش للسرج بينما يرافقه اثنان من رجال الشرطة على جانبي النعش كحرس شرف من أجل أوه موراريا وهذه هي سخريات القدر فمن كان يتخيل حدوث ذلك، وهنالك يذهب رجال الشرطة العسكريين بينما سيوفهم تطرق على سيقانهم في حين أن الجراب مفكوك الزراير ويبكي المحزونون ويولولون وأولئك المرتدون الزى الأحمر يحدثون شغبا لا يقل عن أولئك المرتدين الزى الأسود والذين يبكون لأن الرجل الميت يتم نقله إلى قبره بينما المرتدون للزى الأحمر يبكون لأن القاتل أودع في السجن، الكثيرون من الناس يرتدون أثمالا بالية وحفاة الأقدام، وبعض النساء مرتديات ثيابا مبهرجة وأساور ذهبية ويسرن متأبطات ذراع أزواجهن الذين لهم شوارب خديه ووجوه

محلوقة الذقن وما زالت زرقاء بسبب استخدام موس الحلاقة والذين ينظرون فيما حولهم في ريبة وشكوك، ونساء أخريات يصحن بالشتائم والاهانات بينما أجسادهن تهتز عند الأرداف، ولكن جميع الناس سواء أكانت لهم مشاعر مخلصة أم زائفة يبدون نوعا من البهجة الشديدة للغاية التي جلبت الأصدقاء والاعداء إلى مكان واحد، هذه القبيلة من المجرمين والقوادين والمومسات والنشالين ولصوص المنازل تطوق الحشود السوداء التي تمشى عبر المدينة وتفتح النوافذ لمشاهدة الموكب الذي يمر، ويصيح الأطفال: انظري يا أمي لأن كل شيء من وجهة نظر الأطفال يعتبر بمثابة احتفال عظيم، وسار ريكاردو ريس في الموكب الجنائزى إلى أن وصل الموكب إلى باكودا أنها وبدأت النساء في القاء نظرات مختلسة إلى الجنتلمان المرتدى ثيابا أنيقة، ترى من يكون هو ذلك الجنتلمان، هذا حب استطلاع أنثوى وهو أمر طبيعي لدى أولئك اللائي يمضين حياتهن في تقييم الرجال، واختفي الموكب الجنائزى عند ناصية للشارع حيث كان يتقدم بكل تأكيد نحو ألتو ذى سوجوا اللهم إلا إذا استدار إلى اليسار في اتجاه بنفيكا واتضح على نحو أكيد أنه لا يتقدم في اتجاه جبانة البرازارز وياللأسف لأننا نفقد نموذجا تهذيبيا للمساواة التي يمنحها الموت: أوه موراريا يرقد جنبا إلى جنب مع فرناندو بسوا ترى ما هي المناقشات التي تدور بين هذين الشخصين تحت ظلال أشجار السرو الصنوبرية بينما يرقبان البواخر وهي تدخل إلى الميناء في فترات ما بعد الظهر المتسمة بالحرارة الشديدة والرطوبة العالية حيث يشرح أحدهما للآخر كيف أنه يبتغي التلاعب بالكلمات من أجل انتزاع أموال أو انتزاع قصيدة، وفي نفس المساء أوضح رامون أثناء تقديمه الحساء للدكتور ريكاردو ريس أن الملابس الحمراء لا تدل على الحداد أو عدم الاحترام وإنما تلك عادة مميزة لهذا الحى السكني الذي يرتدى

سكانه الملابس الحمراء في المناسبات الخاصة، وأن هذه التقاليد كانت موجودة قبل أن يجيئ من جاليسيا وهو علم بأمر هذه التقاليد من آخرين، تساءل ريس: هل وقع بصرك على امرأة ملفتة للنظر أثناء الجنازة وهي امرأة طويلة ولها عينان سوداوان ومرتدية ملابس جميلة حيث ترتدي ثوبا من الصوف الناعم، فقال رامون: يا عزيزي كانت هناك نساء كثيرات بين الجمهور مئات منهن ومن كانت هذه المرأة فقال ريس: إنها عشيقة أوه موراريا وهي مغنية، فقال رامون: لا لم يقع بصري عليها، مثل هذا الجمال ومثل هذا الصوت لسوف يكون من الممتع أن نعرف من سيختطفها الآن، فقال ريس: ليس من المحتمل أن أكون أنا الذي يختطفهما يا رامون ولا أعتقد أنك الذي ستخطفها فقال رامون: لو صادقتها سأكون سعيد الحظ للغاية يا دكتور إلا أن تلك النوعية من النساء تكلف الشخص أموالا باهظة، فقال ريس: هذا مجرد كلام ومجرد تمنيات فالمرء عليه أن يقول أي كلام أليس كذلك؟ أما بالنسبة للملابس الحمراء فأعتقد أن هذه العادة ترجع إلى المغاربة فهذه ملابس الحداد الخاصة بالشيطان وهذه العادة ليس لها علاقة بالديانة المسيحية، وعندما رجع رامون بعد ذلك لكي ينقل الأطباق سأل ريكاردو ريس عن رأيه في الأنباء التي تجئ من أسبانيا عند اقتراب موعد الانتخابات وعن من هو الذي سيكسب من وجهة نظره، والنتيجة لن تؤثر عليَّ فأنا أسير على ما يرام هنا ولكنني أفكر في أن يعود والدي إلى جاليسيا حيث لا يزال يوجد لي بعض الأقارب على الرغم من أن معظمهم هاجر، فقال ريس: هاجروا إلى البرتغال، فقال رامون: إلى جميع أرجاء العالم ما بين أخوة وأولاد الأخت وأولاد العم فعائلتى مبعثرة في أرجاء كوبا والبرازيل والأردنتين بل ولى أبن بالمعمودية في شيلى، فأبلغه ريكاردو ريس بالمعلومات التي حصل عليها من خلال

قراءة تقارير الصحف وأنه من المتوقع لأحزاب الجناح الأيمن أن تكسب الانتخابات وأن جيل روبلز قد أعلن أنه إذا وصل إلى السلطة فأنه سيلغى الماركسية وصراع الطبقات ويقيم الحالة الاجتماعية وتساءل ريس هل تعرف يا رامون ما هي الماركسية وما هو صراع الطبقات وما هي العدالة الاجتماعية، فقال رامون: لا يا دكتور، فقال ريس: في خلال الأيام القليلة القادمة سنعرف من الذي كسب وربما لن يتغير أي شيء، فقال رامون: اعتاد جدى أن يقول أن الشيطان الذي تعرفه أفضل من شخص لا تعرفه، فقال ريس: كان جدك على حق يا رامون كان إنساناً ذكياً.

وكسب اليسار الانتخابات وأشارت الصحف في صباح اليوم التالي أن المسألة بدت في في بادئ الأمر كأن اليمين هو الذي كسب في ١٧ مديرية ولكن عندما تم إحصاء جميع الأصوات اتضح أن اليسار تفوق على الوسط واليمين مجتمعين، وظهرت شائعات تفيد بأنه يتم التخطيط لتنفيذ انقلاب عسكرى بتشجيع سرى من جانب الجنرال جوديد والجنرال فرانكو ولكن اتضح أن تلك الشائعات كاذبة، وقام الرئيس الكالا زامورا بتكليف آزانا بتشكيل الحكومة، وتساءل ريس: تهب الرياح من أسبانيا فما الذي ستحضره لنا تلك الرياح، ورد فناندو بسوا: الشيوعية سرعان ما ستجئ وأضاف: أنت تعيش الحظ يا عزيزي ريس فأنت قد هربت من البرازيل لكي تعيش بقية حياتك في هدوء وسلام وها هي جارتنا أسبانيا تموج

الآن في اضطرابات كبيرة وكثيراً ما قلت لك أنني عندما أجئ من العالم فإنني في كل مرة أجئ من أجلك.

عندما عاد ريكاردو ريس إلى الفندق شعر بشيء ما يتحرك في الهواء

مثل أزيز مثير للقلق وكأن جميع النحل الموجود في خلية أصيب بالجنون على نحو فجائي أنها الوطأة التي تثقل على ضميره هي التي جعلته يردد لنفسه لقد اكتشفوا كل شيء، أنه كشخص رومانسي يعتقد أن اليوم الذي تنكشف فيه مغامرته مع ليديا فأن فندق براجانسا كله سيتقوض تحت وطأة الفضيحة، إنه يعيش في الخوف الدائم أو ربما في الرغبة الشديدة في أن تنكشف تلك المغامرة وهذا تناقش غير متوقع في داخل كيان رجل يدعى أنه منفصل تماماً عن العالم ومع ذلك فهو يرغب في أن يتقوض العالم منهدما فوقه، تراوده بعض الشكوك القليلة في أن القصة آخذه في التداول بالفعل ويتم الهمس بها بين الابتسامات المختلفة إذ كانت هناك شائعة فأنها تكون قد صدرت عن بيمنتا يمشي المذنب في براءة، ولكن سلفادور لم يتم إبلاغه بعد، ترى ما القرار الذي سيتخذه عندما يقول له شخص ما حقود سواء أكان رجلا أم امرأة: يا سنيور سلفادور هذا الموضوع الذي جرى ما بين ليديا والدكتور ريس يعتبر أمراً مخزيا وفاضحا للغاية، إنه سيفعل خيرا إذا كرر في نبل كلمات الانجيل «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر»، وسار ريكاردو ريس إلى أن وصل إلى مكتب الاستقبال وكان سلفادور يتحدث بصوت مرتفع في التليفون وكان يقول: صوتك يبدو كما لو كان يجئ من الجانب الآخر من العالم هالو هل تسمعنى نعم يا دكتور سامبيو يجب أن تخبرنى عندما تقرر المجئ هالو هالو نعم استطيع الآن سماعك المشكلة أنني ليس لدى حاليا أية غرف شاغرة وذلك بسب جميع هؤلاء الناس الأسبان نعم أنهم من أسبانيا ولقد وصلوا اليوم عقب الكرنفال وفي يوم ٢٦ من الشهر سأحجز لك الغرفتين: لا شكر على واجب يا دكتور ضيوفنا الخصوصيون يجيئون في المرتبة الأولى يادكتور أنها عشرة ثلاث سنوات وليس ثلاثة أيام بلغ سلامى للسنيوريتا مارسيندا وعلى فكرة الدكتور

ريس واقف هنا بجواري وهو يهديك تحياته وكان ريكاردو ريس من خلال الإيماءات والكلمات المنطوقة يهدى تحياته بالفعل وذلك لسببين أولا لكي يشعر أنه قريب من مارسيندا حتى ولو كان ذلك من خلال طرف ثالث وثانيا لكي يصبح متصادقا مع سلفادور بهدف إبعاد سلطة هذا الرجل عنه وهو أمر يبدو شديد التناقض لكنه ليس كذلك، فالعلاقات بين شخصين لا يمكن تفسيرها بكل بساطة من خلال عملية جمع وعملية طرح حسابية، وكثيراً ما نعتقد أننا نجرى عملية جمع ونكتشف أنها تنتهي بوجود شيء متبقٍ ومن ناحية أخرى كثيراً ما نعتقد أننا نقوم بعملية طرح ونكتشف أنها ليست مجرد العكس المباشر لها أي الجمع وإنما الضرب، ووضع سلفادور سماعة التليفون في انتصار بعد أن نجح في اتمام محادثة تليفونية حاسمة مع مدينة كوامبرا وبدأ الآن يرد على ريكاردو ريس الذي سأل عن الكيفية التي تسير بها الأمور حيث قال: لقد حجزت توا لثلاث عائلات أسبانية وصلت إلى الفندق بدون حجز مسبق عائلتين من مدريد وعائلة من كاسيريس وكلهم لاجئون، فقال ريس: لاجئون فقال سفادور: نعم لأن الشيوعيين قد فازوا في الانتخابات فقال ريس: أنهم ليسوا الشيوعيين فالذين فازوا هم أحزاب اليسار، فقال سلفادور: النتيجة واحدة في كلتا الحالتين، فقال ريس: ولكن هل هم لاجئون بالفعل، فقال سلفادور: حتى الصحف تنشر هذه الحكاية، وكان هؤلاء الاسبان المهاجرون من الأثرياء حيث اتضح ذلك لدى ذهابهم إلى المطعم لتناول طعام العشاء حيث ظهروا رجالا ونساء في ملابسهم الجميلة وجواهرهم واخترقت لغة سرفانتيس الجهورية جميع أرجاء المكان، لقد جاء وقت كان يتم فيه التحدث باللغة الاسبانية في جميع ارجاء العالم أما نحن ـ البرتغاليون ـ فلم نستطع تحقيق شيء من هذا القبيل، وكان رامون يموج بالاستياء بسبب نظرات الاسبان

المليئة بالكبرياء وعندما وصل إلى ريكاردو ريس لكي يخدم عليه لم يستطع تمالك أعصابه وقال: لم يكونوا بحاجة لأن ينزلوا إلى المطعم وهم مرتدون لكل هذه الحلى والجواهر لأن أحدا لن يسرق هذه الأشياء من غرفهم.

وبسبب الطقس اللعين المستمر ليلاً ونهاراً والذي لا يظهر أية دلائل على إمكان انقشاع السحب والذي لا يعطي فترة راحة للفلاحين والمزارعين مع هذا الفيضان الذي يعتبر الأسوأ من نوعه على مدى الأربعين عاما الماضية وهي حقيقة أكدتها تسجيلات وشهادات الناس الطاعنين في السن فأن الكرنفال لن يكون بارزا ومهما في هذه السنة، اللاجئون الأسبان يتدفقون إلى البرتغال، وهم إذا استطاعوا رفع روحهم المعنوية فأنهم سيجدون الكثير من التنوع والتسلية هنا والتي لا يوجد مثيل لها في بلادهم، ونحن لدينا كل الأسباب التي تجعلنا نشعر بالرضا، انظر على سبيل المثال إلى قرار الحكومة بالاستمرار في الخطة الرامية إلى إنشاء كوبرى على نهر التاجوس أو القرار الذي يحد من استخدام السيارات الحكومية أو القرار الذي بمقتضاه يتم منح العمال بمنطقة دور خمسة كيلو جرامات من الأرز وخمسة كيلو جرامات من السمك وعشرة اسكود لكل عامل وفي خلال الأيام القليلة القادمة سيلقى وزير حكومى خطابا يعلن فيه انشاء مطعم للفقراء من أجل الفقراء الموجودين في كل دائرة إقليمية، ورغم رداءة الجو شارك ريكاردو ريس في الكرنفال وبدأ يشعر أنه مصاب بالحمى بعض الشيء، ربما أصيب بالبرد أثناء مشاهدته موكب الكرنفال أو ربما أن الاكتئاب يمكن أن يتسبب في حدوث حمى أو غثيان أو هذيان ولكن الحالة عنده لم تصل إلى هذا الحد وجاء إليه رجل عجوز مخمور مزود بعصا خشبية طويلة وسيف قصير ثقيل مع الطرق بهما واصدار زئير مع القول: انحنى

على بطني وألقى بنفسه على الشاعر ريس وكانت هناك وسادة مربوطة على بطنه بلفائف من القماش فضج الجمهور بالضحك لدى مشاهدتهم جنتلمان مرتديا معطف مطر وقبعة يتملص من مهرج عجوز، وما كان يريده ذلك الرجل هو الحصول على النقود من ريس لكي يتمكن من تناول المزيد من الخمور، وعندما أعطاه ريس بعض العملات المعدنية انخرط الرجل العجوز في الرقص ثم انصرف بعيدا، وفي عربة صغيرة للاطفال تشبه زورق جلس رجل ضخم الجثة بينما ساقاه ناتئتان من العربة ووجهه مطلى بالألوان وطاقية أطفال مثبتة على رأسه وتظاهر بأنه منخرط في البكاء أو ربما كان يبكي بالفعل إلى أن قام شخص قبيح الوجه يقوم بدور المربية بارضاعه من خلال وضع زجاجة مليئة بالخمور في فمه فراح يمتص الخمور في حيوية بينما الجمهور المحتشد يشعر بالمتعة والتسلية، هذا هو الكرنفال في البرتغال ويسير رجل محترم بينما قد تعلقت في ظهره ورقة مكتوب عليها، هذا البغل للبيع، وكلما شاهد أحد ظهره ينفجر في ضحكات مدوية وأخيرا يتنبه الرجل ويزيل تلك الورقة، ويشعر ريكاردو ريس بالأمن لأنه من الصعب غرس دبوس في معطف المطر الذي يرتديه إلا ان التهديدات تجيء من كل جانب إذ تسقط مقشة مربوطة في حبل من دور علوى مما يطيح بقبعة ريس على الأرض ثم يسمع صوت فتاتين بالدور العلوي وهما تنفجران في الضحك، الكرنفال من أجل المرح والتسلية ويستعيد ريس قبعته التي أصبحت ملوثة بالطين ويواصل السير في طريقه، لقد حان الوت لكي يرجع إلى فندقه، نحن نضحك اليوم اليوم ولكن سيجيء اليوم الذي سنرغب فيه في البكاء، لقد خيم الليل تقريبا، ويجر ريكاردو ريس قدميه وقد يكون السبب في ذلك هو الاعياء والتعب أو الاكتئاب أو الحمى التي يشك في أنه قد أصيب بها، وشعر ببرد فجائي في ظهره

فشعر بالرغبة في استدعاء تاكسي لكن الفندق أصبح قريبا منه في خلال عشر دقائق سأكون قد وصلت إلى سريرى بالفندق وأضاف في غمغمة مرددا لنفسه: لسوف أتغيب عن تناول طعام العشاء بالفندق، وكان على وشك الصعود عندما فوجئ بمشاهدة هيكل غريب في موكب يضم عددا كبيرا من مرتدى الاقنعة وكان ذلك الموكب شبيها بجنازة وكان الرجل شبيها بالموت، إذ كان مغلقا في مادة سوداء ضيقة وربما تكون مادة التريكو وفوق تلك المادة توجد كافة عظامه من الرأس إلى القدمين، الرغبة الجنونية في الأزياء الخيالية كثيراً ما تصل إلى أقصى درجات التطرف، وبدأ ريكاردو ريس يرتعد مرة أخرى ولكنه في هذه المرة كان يعرف السبب في ارتعاده، أيمكن أن يكون ذلك الرجل هو فرناندو بسوا، وقال في تمتمة لنفسه: هذا قول سخيف فهو لا يمكن له أبداً أن يفعل شيئاً كهذا وحتى إذا كان قد رغب بشدة في ذلك فأنه لن يمشي أبداً مع مثل هذه الحثالة من القوم، صحيح أنه قد يقف أمام مرآة فذلك أمر ممكن، ويصبح قادرا على مشاهدة نفسه وهو يرتدى على ذلك النحو، وبينما ريكاردو ريس يتمتم لنفسه بكلام كهذا اقترب من الرجل لكي يلقى نظرة عليه من كثب، فهو يعرف تماماً طول وبنية فرناندو بسوا وإن كان هذا الرجل يبدو أكثر نحافة وربما كان السبب في ذلك أنه يرتدى زيا محزقا، وألقى ذلك الرجل نظرة خاطفة على ريكاردو ريس ثم تحرك نحو مؤخرة الموكب، فسار ريس وراءه وشاهده وهو يصعد إلى كالكادا دوساكرامنتو، أنه رجل له منظر مخيف لا شيء سوى عظام تحت الضوء المتلاشى وبينما كان يندفع مبتعدا بدا وكأنه يترك وراءه ذيلا مضيئاً، وعبر في سيره اللارجو دى كارمو ثم استدار وجرى في شارع أوليفيرا الكئيب المهجور ولكن كان بمقدور ريس مشاهدته في وضوح على مسافة ليست بالقصيرة وليست بالبعيدة مثل هيكل عظمى

يمشي، هيكل عظمي مثل ذلك الذي درسه في كلية الطب، وأولئك الذين تقابلوا معه بطريق الصدفة كانوا يصيحون هاى الموت، هاى أيتها الفزاعة ولكن الرجل المرتدى ثيابا تنكريه لم يكن يرد على تحيتهم أو ينظر وراءه وإنما كان يندفع في المشى في خط مستقيم وفق إيقاع سريع ثم صعد على سلالم، الاسكادينهارس دو ديوك، توقف عند قمة السلالم ونظر لأسفل لكي يعطيه وقتاً لكي يلحق به ثم عبر الميدان ودخل إلى ترافيسا دى كويمادا، قال ريس لنفسه: إلى أي مدى يقودنى هذا الموت اللعين ولماذا أنا أسير وراءه، ثم خطر على ذهنه أن ذلك الشبح المتنكر ربما لا يكون رجلا وإنما امرأة، أنها يمكن أن تكون امرأة أو ليست امرأة أم رجل وإنما الموت فقط بكل بساطة ثم قال لنفسه: من المؤكد أنه رجل وذلك عندما شاهده وهو يدخل إلى حانة بينما يضج الناس بالحانة بالهتافات والتصفيق قائلين: انظروا إلى هذا الموت.

وراح ريس يرقب في دقة فشاهد الهيكل وهو يتناول كأسا من الخمور عند البار وقد القى برأسه إلى الوراء.

لقد كان صدره منبسطاً وملفطحاً وهذا يعنى أنه ليس امرأة.

ثم جاء الشبح نحو ريس ولم يكن لدى ريس متسعا من الوقت لكي يتراجع ثم انطلق ريس في الجرى ولكن الشبح لحق به عند الناصية، لقد كانت اسنانه حقيقية وكانت اللثة مليئة باللعاب ولكن الصوت لم يكن صوت رجل وإنما كان صوت امرأة أو شيئاً ما بين صوت المرأة وصوت الرجل عندما قال: قل لي أيها العبيط الأخرق من الذي تتبعه على ما تعتقد هل أنت مخبول أم إنك تسرع لكي تموت، فقال ريس: لا يا سيدي من على مسافة ظننت أنك أحد أصدقائي ولكن من خلال

صوتك أدرك أنني كنت مخطئاً في تقديراتى فقال الشيخ: وكيف تعرف أنني لا أخادعك، وبدا صوته في هذه المرة مختلفا تماماً، وقال ريكاردو ريس: أرجو أن تلتمس لي العذر، فرد الشبح بصوت يشبه تماماً صوت فرناندو بسوا: أذهب إلى الجحيم أيها الغائط ثم استدار واختفي في الظلام الآخذ في التجمع وبدأت الأمطار تتساقط مرة أخرى.

(٨)

أمضى الليل غارقا في الحمى ونام نوما متقطعا وقبل أن يتمدد على السرير في ارهاق تناول قرصين من الاسبرين ووضع الترمومتر تحت ابطه، كانت درجة حرارته تزيد على مائة فقال لنفسه في تفكير: كان هذا أمراً متوقعا من الانفلونزا ونام واستيقظ وحلم بسهول شاسعة مليئة بضوء الشمس وبأنهار تتلوى بين الأشجار وباندفاع سفن من التيار نائية وغريبة بينما هو نفسه يبحر في جميع تلك السفن متعددا ومنقسما وملوحا لنفسه مثل شخص ما يقول وداعا أو يبدى لهفته للملاقة، ودخلت السفن إلى مصب نهر به مياه هادئة ساكنة، ولم تهتز تلك السفن وكان يوجد حوالى عشر من هذه السفن أو عشرين أو أكثر وهي بدون شراع أو مجداف وعلى مسافة تمكن من سماع الاصوات وكان البحارة يتكلمون جميعاً في وقت واحد، ونظرا لأنهم ينطقون بنفس الكلمات فنه لم يكن بمقدورهم سماع بعضهم البعض وأخيرا بدأت السفن في الغرق فتلاشى تدريجيا صوت الكوراس، وحاول ريكاردو ريس أثناء ذلك الحكم التقاط تلك الكلمات الأخيرة واعتقد أنه نجح في هذا الشأن ولكن لدى اتجاه السفينة الأخيرة نحو القاع تفككت مقاطع الكلمات وقرقرت في الماء وخرجت إلى السطح.

وكانت الكلمات جهورية وعالية إلا أنها كانت عديمة المعنى فالكلمات الغارقة لم تحمل معنى الوداع أو التعهد أو الوصية وحتى لو

كانت تحمل أي معنى فأنه لم يعد هناك أي شخص لكي يسمعها، وسواء أكان نائما أم مستيقظا فأنه راح يفكر: أكان الرجل المرتدى قناع الموت هو فرناندو بسوا بالفعل، وفي بادئ الأمر قرر الاجابة على ذلك التساؤل بنعم ثم رفض ما كان واضحا لصالح ما كان عميقا، على كل حال يمكنه أن يسأله عندما يلتقيان في المرة القادمة، ولكن هل سيتلقى منه اجابة صادقة، يا ريس من المؤكد أنك لست جادا في سؤالك هذا أيمكنك أن تتخيلنى وأنا اتجول في تنكر في ثياب الموت على النحو الذي كانوا يفعلونه في العصور الوسطى فالرجل الميت لا يرقص في فرح ويتصرف بحماقة وإنما هو وقور وحكيم ومدرك لحالته ومتحفظ ويشمئز من العرى الكامل الذي ينتهي إليه كهيكل عظمى وذلك عندما يتجلى ويظهر فأنه أما أن يتجلى على النحو الذي أبدو عليه الآن مرتديا الحلة الأنيقة التي يرتديها من أجل الدفن وإما أن يتجلى عندما يرغب في تخويف شخص ما وعندئذ يلف نفسه في كفنه وهو أمر لا يمكن لي أن أفعله أبداً من حيث أنني رجل قد تلقيت تربية مهذبة، تمتم ريكاردو ريس: ما كنت بحاجة لأن أسأله وأتكبد هذه المشقة، ثم أضاء النور وفتح كتاب «إله المتاهة» وقرأ صفحة ونصف الصفحة وادرك انها عن رجلين يلعبان الشطرنج ولكنه لم يعرف ما إذا كان يلعبان أو يتحدثان، وأصبحت الحروف ضبابية وغير واضحة فوضع الكتاب على جانب، كان قد عاد إلى شقته في ريو دى جانيرو ومن نافذته شاهد طائرات بعيدة تلقى قنابل على أوركا بينما الدخان يتصاعد في لفائف سوداء هائلة ولكن لم يكن بالمستطاع سماع أي صوت ربما أنه قد أصبح أصما أو أنه لم يمتلك أي حاسة للسمع على الاطلاق وبذلك أصبح غير قادر أن يتخيل حتى بمساعدة حاسة الابصار زئر القنابل والدمدمة الصاخبة لقصف المدافع وصيحات الجرحى، واستيقظ وهو غارق في العرق،

كان الفندق غارقا في صمت الليل المطبق وكان جميع الضيوف غارقين في نوم عميق وحتى اللاجئون الاسبان لو أيقظهم أي شخص فجأة وسألهم: أين أنتم فأنهم سيردون: أنا في مدريد وأنا في كاسيريس وقد انخدعوا من خلال الراحة التي وفرتها لهم أسرتهم وفي أعلى المبنى ربما تكون ليديا نائمة، إنها تنزل في بعض الليالى ولا تفعل ذلك في ليال أخرى ولقاءاتهما يتم عمل ترتيبات مسبقة لها حاليا وأصبحت تلتزم بالحذر الشديد عندما تجئ إلى غرفته في منتصف الليل، الاثارة التي هدتها الأسابيع الأولى قد ضعفت وهذا أمر طبيعي ولا شيء يتلاشى بسرعة مثل العاطفة واستيقظ ثم استيقظ مرة أخرى الضوء رمادى وبارد وغائم وأقرب إلى الليل منه إلى النهار وتغلغل ذلك الضوء من بين ستارة النافذة المسدلة وألواح زجاجها وستائرها وقام ريكاردو ريس بقياس حرارته مرة أخرى، إنه ما زال محموما واجتاحته الكحة لقد أصيبت بانفلونزا شديدة للغاية في هذه المرة ولا شك في ذلك النهار البطيئ للغاية في مجيئه قد وصل فجأة مثل باب يفتح على مصراعيه على نحو فجائي حيث ظهرت همهمة الفندق مختلطة مع الدمدمة المترامية من المدينة، كان اليوم هو يوم الاثنين وهو يوم آخر من أيام الكرنفال في أي غرفة أو قبر سيكون هيكل الموت مستيقظا أم نائما بل وربما لا يكون قد خلع ملابسه وذهب إلى سريره وهو مرتدٍ زيّ الموت الخاص به، إنه ينام بمفرده ياله من شخص مسكين، أي إمرأة على قيد الحياة ستصرخ في رعب لو أن دراعا كهذا ناتئ العظام راح يطوقها من تحت الملايات حتى ولو كان ذلك الذراع هو ذراع عشيقها «نحن لا نساوى أي شيء ونحن لا جدوى منا ولا طائل تحتنا» لدى هبوط تلك الأبيات من الشعر على ذهن ريكاردو ريس فأنه راح يرتلها في تمتمة ثم قال لنفسه في تفكير: يجب أن أنهض فالبرد أو الانفلونزا لا تتطلب سوى شيء من

الحذر والقليل من العلاج، لكنه استمر في الاغفاءات الخفيفة ثم فتح عينيه وقال لنفسه مرة أخرى: يجب أن أنهض وكان عليه أن يغتسل ويحلق ذقنه وشعر بالكراهية إزاء ذلك الشعر الأبيض الموجود في وجهه ولكن الوقت كان متأخرا أكثر مما كان يظن حيث لم يكن قد ألقى نظرة على ساعة الحائط.

كان هناك شخص ما يطرق على بابه إنها ليديا التي أحضرت له طعام الافطار فوضع الروب دى شامبر على كتفيه واتجه لكي يفتح الباب وهو ما زال شبه نائم واعتقدت ليديا عندما أدركت أنه لم يغتسل ولم يمشط شعره أنه رجع إلى الفندق في وقت متأخر وأنه قد ذهب إلى صالة للرقص من أجل اصطياد النساء وتساءلت: أتود أن أرجع إليك فيما بعد؟ ولدى ترنحه عائدا إلى سريره وقد تملكته رغبة فجائية في أن يعامل كطفل قال: إنني مريض وهي إجابة لم تكن بمثابة رد على تساؤلها فوضعت الصينية على المنضدة واقتربت من السرير وعلى نحو تلقائي وضعت يدها على جبهته وقالت: أنت مصاب بالحمى لم يكن ريكاردو ريس بحاجة لأن يقال له ذلك فهو كطبيب يعرف ذلك تماماً ولكن كلامها جعله يشعر بالأسف على نفسه.

ووضع يده على ليديا ثم أغلق عينيه وأمسك بيد ليديا وأدرك أن يدها خشنة بسبب كثيرة الأعمال اليدوية التي تقوم بها وبالتالي فهي مختلفة تماماً عن يدي كلويه ونيرا وعن يدي ليديا الأخرى وعن الأصابع المستدقة والأظافر المطلية وراحة اليد الناعمة لمارسيندا، ينبغي أن أقول: مختلفة عن اليد الواحدة المفعمة بالحياة لمارسيندا لأن يدها اليسرى هي موت متوقع وقال: من المؤكد أنها الانفلونزا ولكنني سأنهض فقالت: أوه، لا، لا يجب أن تنهض وإلا تعرضت للإصابة بمرض الرئة فقال: أنا الطبيب هنا يا ليديا وأنا أعرف ما ينبغي عليَّ أن

أفعله ولا حاجة بي لأن أبقى في السرير متظاهرا بالمرض في حين أن كل ما احتاجه هو شخص ما يذهب إلى الاجزخانة ليحضر لي نوعين أو ثلاثة أنواع من الأدوية فقالت: لا تقلق سأذهب بنفسي أو أرسل بيمنتا لكن عليك أنت ألا تغادر السرير وتناول طعام إفطارك قبل أن يبرد وبعدئذ يمكنني أن أرتب غرفتك وأدخل إليها الهواء المنعش.

ثم أجلست ريكاردو ريس في سريره وواءمت وسادته وأحضرت الصينية وصبت بعض اللبن على قهوته وأضافت السكر وقطعت شرائح التوست إلى النصف وناولته وتفجرت الدماء في وجهها بسبب السعادة فالمرأة يمكن أن تشعر بالسعادة لمجرد أن تشاهد الرجل الذي تحبه متمددا في سرير المعاناة وتنظر إليه بينما هذا التوهج يلمع في عينيها أو أيمكن أن يكون ذلك بمثابة قلق وجزع واهتمام وأنها هي نفسها يبدو عليها أنها محمومة وأن ذلك بمثابة مثال آخر على وجود ظاهرة مشتركة تدل على أن الأسباب المختلفة يمكن أن تنتج نفس التأثير وسمح ريكاردو ريس لنفسه بأن يثبت في سريره ويربت عليه برفق من خلال أصابع ليديا كما لو كانت تدهنه بمرهم ومن الصعب أن نقول ما إذا كان ذلك أول أو آخر دهان وبعد أن انتهي من تناول قهوته شعر بكسل لذيذ وقال: افتحى الدولاب لو سمحت توجد حقيبة سواء إلى الوراء على اليمين أحضريها إلى هنا واستخرج من الحقيبة دفتر روشتات مطبوع عليها اسمه: ريكاردو ريس طبيب ممارس عام شارع أوفيدور/ ريو دى جانيرو عندما اشترى ذلك الدفتر في بادئ الأمر لم يكن يتخيل أنه سيستخدمه وهو في هذا المكان البعيد للغاية تلك هي الحياة التي لا تعرف أي استقرار ثم كتب سطورا قليلة وأصدر تعليماته: عليك بعدم الذهاب إلى الصيدلية اللهم إلا إذا طلب منك ذلك عليك باعطاء هذه الروشتة للسينيور سلفادور لأن أية أوامر ينبغي أن تصدر عنه وبعد أن

حملت الروشتة والصينية غادرت الغرفة ولكن ليس قبل أن تقبله على جبينه يا لها من وقاحة إنها مجرد خادمة غرف بفندق هل تصدقوا ذلك ولكن ربما يكون لها الحق الطبيعي في ذلك والذي لن يجرؤ على انكاره لأن هذا موقف في النزع الأخير أو على عتبة الموت وابتسم ريكاردو ريس وقام بحركة غامضة واستدار نحو الحائط واستغرق في النوم دون أن يقلق بشأن شعره الخشن الرمادى الأشيب بينما بشرته رطبة وشاحبة بعد أن أمضى ليلة وهو غارق في الحمى، الإنسان يمكن أن يعانى من المرض أكثر من هذا ويظل يستمتع بلحظة سعادته حتى ولو لمجرد أن يتخيل أنه بمثابة جزيرة مهجورة يطير عليها الآن طائر مهاجر جلبته رياح متقبلة.

طول ذلك اليوم واليوم التالي لم يغادر ريكاردو ريس حجرته وقام بيمنتا بابلاغ سلفادور بالحالة المرضية لريس فسارع سلفادور إلى زيارته وقال له كافة العاملين يرغبون لك شفاء عاجلا يا دكتور، وكما لو كان من خلال موافقة ضمية صامتة وليس من خلال اتباع تعليمات رسمية قامت ليديا بكافة مهام ممرضة حيث راحت تحضر له فناجين الشاي المخلوط بعصير الليمون وتعطيه الحبوب أو تناوله ملعقة من مشروب معالجة الكحة في المواعيد المحددة علاوة على القيام بالأمور المزعجة التي تخفي عن الآخرين مثل تدليك الظهر ووضع كمادات الخردل على ربلة الساق ولم يندهش أحد من أن ليديا التي تقوم بواجبات التمريض تقضي كل وقتها في الغرفة رقم ٢٠١ وأي سؤال عن المكان الذي توجد فيه تكون اجابته جاهزة: إنها مع الدكتور.

الحقد لم يكشف بعد عن أشواكه إنه يحتفظ بمخالبه الحادة لحين مجيئ اللحظة المناسبة ومع ذلك لا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر براءة من ريكاردو ريس الذي يضطجع على وسادته بينما ليديا تصر أن

يتناول المزيد من حساء الدواجن لكنه يرفض ويشير إلى أنه ليس لديه شهية للطعام ولكنه يرغب أيضاً في أن يسمع صوتها وهي تتوصل إليه وحقيقة الأمر أن ريكاردو ريس ليس مريضا على نحو يجعله غير قادر على اطعام نفسه ولكن ليس لنا شأن بذلك وإذا حدث بطريق المصادفة تلامس وثيق بينهما مثل وضع يده على صدرها فأنهما لا يذهبان إلى ما هو أبعد من ذلك ربما لأنه يوجد هناك قدر من الوقار يتعلق بالمرض شيء ما يكاد يكون مقدسا رغم أن الهرطقات في الدين ليست غير شائعة، هذه تفاصيل في الرواية يمكن الاستغناء عنها بينما توجد تفاصيل أخرى لها صلة أكثر بالموضوع مثل الأمطار والعواصف التي ازدادت حدتها أثناء اليومين الأخيرين والتي تنزل الدمار على موكب ثلاثاء المرافع السابق على أربعاء الرماد الخاص بالفقراء ولكن التحدث عنها سيكون مثيراً لملل القاص مثلما هو مثير لسأم القارئ، كما توجد كافة تلك الأبيسودات الخارجية التي لا يوجد لها أي تأثير على قصتنا مثل تلك الخاصة بالرجل الذي أشارت التقارير عنه أنه مفقود في آخر ديسمبر والذي تم العثور على جثته في سنترا والذي يعرف باسم لويس أوسيدا أورينا وهي سر غامض في ملفات الجريمة ما زال باقياً بدون حل وسيظل كذلك حتى حلول يوم القيامة حيث لم يتقدم أي شخص لكي يدلي بشهادته ولذلك فأننا نترك مع هذين الشخصين: الضيف والخادمة على الأقل إلى أن يشفي من الانفلونزا أو البرد الذي أصابه، وبعدئذ سيعود ريكاردو ريس إلى العالم وتعود ليديا إلى أعمالها الروتينية ويعود كلاهما إلى العناق الذي ينشط ليلاً والذي يكون قصيرا أو مطولا وفقا لاحتياجهما ومتطلبات التحفظ والحذر، غدا الأربعاء تصل مارسيندا لم ينس ريكاردو هذا وإنما يكتشفه وإذا كان الاكتشاف يدهشه فأن ذلك يكون بنفس الطريقة المشتتة مما يدل على أن المرض قد جعل ذهنه

متبلدا وعلى كل حال فالحياة تزيد قليلا عن كونها مجرد استلقاء في سرير من أجل التماثل للشفاء من مرض غير قابل للشفاء ومتكرر مع وجود لحظات من الراحة نسميها الشفاء وينبغي أن نسميها باسم ما لكي نتمكن من التمييز ما بين الحالتين لسوف تجيئ مارسيندا بينما يدها متدلية إلى جوارها بحثا عن علاج مستحيل ـ مع والدها سامبيو الموثق العام الذي يأمل في العثور على عشيقة أكثر مما يأمل في العثور على شفاء لابنته ربما لأنه فقد الأمل في شفاء ابنته حتى أنه يجيئ لكي يتحرر من همومه على صدر يختلف تماماً عن ذلك الصدر الذي احتضنه ريكاردو ريس توا حيث أن ليديا أصبحت أقل احجاجا الآن بعد أن أدركت ـ وهي التي لا تعرف أي شيء عن الطب ـ أن الدكتور آخر في التحسن.

وفي صباح الأربعاء تلقى ريكاردو ريس استدعاء رسميا ونظرا لأهمية هذا الاستدعاء فأن الذي قدمه هو سلفادور نفسه بصفته مديرا للفندق أنها وثيقة مرسلة من أمن الدولة وهو كيان لم يذكر اسمه بالكامل حتى الآن لأنه لا توجد فرصة تدعو لذلك ولكن عدم التكلم عن أشياء معينة لا يعنى أن تلك الأشياء ليس لها وجود وها نحن لدينا هنا مثال على ذلك ففي ليلة وصول مارسيندا بدا أنه لا يوجد هناك أي شيء أكثر أهمية في العالم من الحقيقة التي مفادها أن يكون ريكاردو ريس مريضا وأن ليديا تقدم له الرعاية وفي تلك الأثناء وعلى نحو غير متوقع كان كاتب يحرر وثيقة الاستدعاء الرسمية فتلك هي الحياة أيها الرجل العجوز حيث لا يعرف ما سيجلبه الغد ويبدى سلفادور بعض التحفظ أنه لا يتجهم على وجه الدقة وإنما التعبير الذي ظهر على وجهه هو الحيرة والدهشة قال ريكاردو ريس وثيقة استدعاء رسمية موجهة لي أنه لديه كل الأسباب التي تدعوه للذعر، إن جريمته الوحيدة التي ارتكبها

وهي جريمة لا يعاقب عليها القانون عادة إذا كانت هذه تعتبر جريمة بالفعل هي أن استقبل امرأة في سريره في جوب الليل البهيم أنه لا ينزعج من هذه الوثيقة بقدر انزعاجه لدى مشاهدة وجه سلفادور ويد سلفادور المرتعشة من أن تجيء هذه الوثيقة فلا يرد عليه سلفادور هناك كلمات معينة لا ينبغي النطق بها بصوت مرتفع وإنما ينبغي أن يتم الهمس بها أو نقلها من خلال الاشارات أو تقرأ في صمت مثلما يفعل ريكاردو ريس الآن: أمن الدولة ما هو المفروض لي أن أفعله مع هذه الوثيقة أنه يتساءل في نغمة مليئة بالازدراء وفي شيء من الحيوية والابتهاج ثم يضيف في نوع من التهدئة: من المؤكد أنه توجد هناك غلطة من نوع ما وهو يقول هذا الكلام من أجل أن يخفف من الشكوك التي راودت سلفادور.

إنني سأوقع هنا على هذا السطر بما يفيد أنني استلمت الوثيقة وبما يؤكد أنني سأقدم نفسي في يوم ٢ مارس في العاشرة صباحا بشارع أنطونيو ماريا كاردوسو هذا المكان ليس بعيداً عن هنا عليك بالذهاب أولا إلى شارع الكريم إلى أن تصل إلى الكنيسة الموجودة عند الناصية ثم تستدير إلى اليمين ثم إلى اليمين مرة أخرى إلى أن تصل إلى سينما شيادو تراسي التي توجد في مواجهة مسرح سو لويس الذي سمى باسم ملك فرنسا وهذه أماكن رائعة من أجل الاستمتاع بفنون المسرح والسينما وبعدئذ ستجد المركز الرئيسي للشرطة على مسافة قصيرة إلى الأمام ولا يمكن لك أن تضل الطريق ولكن ربما هذا بسبب أنه كثيراً ما ضل الطريق في الماضي مما جعلهم يستدعونه.

وينسحب سلفادور في وقار لكي يسلم لمندوب الشرطة الضمان الرسمي الذي يفيد بأن وثيقة الاستدعاء الرسمية قد وصلت بالفعل في حين أن ريكاردو ريس كان قد ترك السرير بالفعل وكان يتكئ على

الأريكة ويقرأ التعليمات مرارا وتكرارا أنت قد استدعيت لكي تمثل أمام الاستجواب ولكن لماذا بحق الجحيم حيث لم ارتكب أية جريمة ولم أسرق ولم أقتبس من أشعار أحد كما أنني لا أتآمر بل وإنني أعارض تماماً مثل هذه الأمور أكثر من أي وقت مضى وذلك عقب قراءاتى لكتاب «المؤامرة» وهو كتاب أوصى كوامبرا بقراءته واستطيع سماع كلمات ماريليا وهي تقول: والدي العزيز يمكن أن يلقى القبض عليه وإذا كان هذا يمكن أن يحدث لأب فما الذي سيحدث لأولئك الذين ليس لديهم أطفال كافة العاملين بالفندق يعرفون الآن أن الضيف الموجود في الغرفة ٢٠١ ألا وهو الدكتور ريس وهو الجنتلمان الذي وصل قادما من البرازيل منذ شهرين قد تم استدعاؤه لكي يمثل أمام المسئولين في مركز الشرطة الرئيسي ومن المؤكد أنه ارتكب خطأ ما في البرازيل أو هنا ولو كانت هذه حالة تتطلب إيداعه السجن لجاءوا وألقوا القبض عليه على الفور.

في نفس المساء شعر ريكاردو ريس بالثبات الكافي لأن يجعله ينزل مبكرا من أجل تناول طعام العشاء ترى كيف ترقبه عيون العاملين بالفندق لكن ليديا لا تتصرف بمثل هذه الطريقة الفاترة المتسمة بعدم الثقة وما أن ينزل سلفادور إلى الدور الأول حتى تندفع إلى داخل الغرفة أنهم يقولون لي أن البوليس الدولى قد استدعاك الفتاة المسكينة تشعر بالذعر والخوف فقال ريس: هذا صحيح ووثيقة الاستدعاء الرسمية موجودة هنا ولكن لا حاجة للشعور بالهلع فربما يكون ذلك أمراً يتعلق بأوراقى الرسمية فقالت ليديا: آمل أن تكون على صواب مما اسمعه لا يمكن لك أن تتوقع أي شيء سوى المتاعب من جانب هؤلاء الناس ولقد سبق لأخي أن أخبرنى ببعض الأشياء فقال لك لم أكن أعرف أن لك أخاً فقالت: لم يكن هناك سبب يدعوني لأن أخبرك فأنا لا أتحدث

كثيراً عن الآخرين فقال: بل إنك لم تحدثينى عن نفسك فقالت: لأنك لم تسأل أبداً فقال: هذا صحيح وكل ما أعرفه عنك أنك تعيشين هنا بالفندق وأنك تخرجين من الفندق في أيام اجازتك وأنك غير متزوجة وغير مرتبطة بأي شخص فردت ليديا قائلة: وما هو أفضل من هذا ومع استخدام هذه الكلمات الأربعة اعتصرت قلب ريكاردو ريس، من الأمور العادية أن تقول هي تلك الكلمات الأربع لكنها أحدثت تأثيراً كبيرا على ريس واعتصرت قلبه وربما لم تكن مدركة لما قالته من كلام وربما كانت تعبر فقط عن استيائها ولماذا الاستياء فكلمة الاستياء تعتبر كلمة قوية للغاية وربما أرادت فقط أن تقرر حقيقة واقعة مثلما تقول: أوه انظر الدنيا تمطر ولكنها بدلا من ذلك عبرت عن التهكم المرير الذي يمكن العثور عليه في الروايات يا سيدي أنني خادمة بسيطة في فندق ولا أكاد أعرف القراءة والكتابة ولذلك إذ كانت لي حياة خاصة فكيف يمكن أن يثير هذا اهتماماتك ويمكننا أن نستمر في هذه الطريقة بحيث نضاعف الكلمات ونضيفها إلى الكلمات الأربع التي تم التحدث بها بالفعل وما هو أفضل من هذا.

لو كان هذا بمثابة مبارزة بالسيوف لأصبح ريكاردو ريس نازفا بالدماء بالفعل ليديا على وشك أن تغادر وهذا دليل واضح على انها لم تتكلم عشوائيا أو فيما اتفق عبارات معينة قد تبدو عفوية أو تلقائية وطبيعية أو تبدو مثل شيء وليد اللحظة الحاضرة ولكن الله وحده هو الذي يعرف نوعية حجر الرحى الذي يطحن تلك الكلمات ويعرف نوعية المنخل غير المرئي الذي يغربل وينقى تلك الكلمات حتى إذا تم النطق بها تبدو مثل أقوال سيدنا سليمان الحكيم.

أفضل شيء يأمل فيه الإنسان الآن هو الصمت أو أن يرحل أحد المحاورين إلا أن الناس عادة ما يستمرون في الكلام المتواصل إلى أن

يضيع تماماً ما كان محددا وواضحا وغير قابل للدحض والجدل على مدى لحظات وتساءل ريكاردو ريس: ماذا قال أخوك له وما هي الأعمال التي يقوم بها؟ فاستدارت ليديا وبدأت في الشرح فأشارت إلى أن أخاها يعمل في البحرية فقال: أي نوع من البحرية؟ ردت يعمل في بارجة حربية تسمى ألفونصو دى البوقيرق فقال: أهو أكبر أم أصغر منك؟ فقالت: عمره ٢٣ عاماويسمى دانييل فقال: إنني لا أعرف أسمك الأخير فقالت: اسم عائلتى هو: مارتنز، فقال من جهة والدك أو والدتك فقالت: من جانب والدتى فأنا لا أعرف اسم والدي ولم أكن أعرفه في أي وقت من الأوقات فقال: وماذا عن أخيك فقالت: أنه ليس شقيقا لي ولقد مات والده ودانييل يعارض نظام الحكم ولقد أخبرنى بذلك فقال: لا تقولى أي كلام آخر إلى أن تصبحى واثقة من أنك تثقين في فقالت: يا دكتور ولماذا لا ينبغي أن أثق فيك والآن هناك احتمالان: أما أن ريكاردو ريس مبارز أحمق يترك نفسه مكشوفا وإما أن ليديا هذه امرأة مسترجلة ومزودة بقوس وسهم وسيف عريض الحد وإذا لم نكن نرغب في النظر في احتمال ثالث غافل عن نواحى الضعف والقوة النسبية بينها فأن كلا منهما يتكلما في نهاية الأمر بصراحة حيث كان هو جالسا ومتماثلا للشفاء بينما هي واقفة رغم أنها أدنى منه من حيث الوضع الاجتماعي وربما كل منهما قد أصابته الدهشة بسبب الكلام الكثير الذي كان عليهما أن يقولاه لبعضهما البعض لأن هذه محادثة مطولة إذا قورنت مع قصر حواراتهما بالليل والتي لا تزيد قليلا عن الهمهمة البسيطة البدائية للأجساد ولقد اكتشف ريكاردو ريس أن المركز الرئيسي للشرطة الذي سيمثل أمامه في يوم الاثنين هو مكان له سمعة سيئة بل وإن عملياته أكثر سوءا من سمعته، كان الله في عون من يقع في قبضتهم لأن هذا المكان يعنى التعذيب والاستجواب في أي وقت

بالليل أو النهار، ويتساءل ريس: اذن في السلاح البحرى أيضاً يوجد أناس غير راضين عن نظام الحكم فتكتفي ليديا بهز كتفيها في لامبالاة فهذه الآراء الهدامة لم تكن آراءها وإنما هي آراء دانييل أخيها الشاب البحار الأصغر منها سنا الذي هو رجل لأن مثل هذه التصريحات الجريئة عادة ما يدلى بها الرجال.

ونزل ريكاردو ريس السلم لكي يذهب للعشاء قبل أن تعلن ساعة الحائط عن دقات الثامنة مساء ولم يكن السبب في ذلك هو شعوره بالجوع وإنما هي رغبة فجائية في معرفة ما إذا كان المزيد من الأسبان جاءوا إلى الفندق وما إذا كانت مارسيندا ووالدها وصلا إلى الفندق ونطق باسم مارسيندا بصوت منخفض ثم راح يرقب بكل اهتمام مثل كيميائي قام بخلط حامض مع قاعدة ثم راح يهز أنبوبة الاختبار لا يمكن مشاهدة الكثير بدون الاستعانة بالخيال فالملح الناجم كان على نحو ما هو متوقع لأننا على مدى آلاف السنين العديدة ظللنا نقوم بخلط العواطف وخلط الاحماض والقواعد وخلط الرجال والنساء وتذكر الافتتان المفعم بالشباب عندما ألقى عليها أول نظرة ثم اقنع نفسه بأنه كان متأثرا من خلال الشفقة عليها ومن خلال العاطفة إزاء تلك اليد المشلولة والوجه الشاحب الحزين وبينما كان ريس يهبط السلالم شعر برعشة خفيفة في ساقيه، شيء عجيب لأن الانفلونزا تحدث نفس هذا التأثير.

وعند مكتب الاستقبال كان سلفادور يرد على مكالمة تليفونية ويكتب ملاحظات بالقلم الرصاص ويقول: حسناً للغاية يا سيدي أنا تحت أمرك وألقى بإبتسامة خاطفة باردة ميكانيكية كان يقصد بها أنه منهمك في العمل للغاية أو أكانت نظرته متسمة بالحملقة الثابتة تماماً مثل حملقة بيمنتا الذي كان قد نسى تماماً البقشيشات السخية بل والزائدة عن

الوضع الطبيعي في بعض الأحيان وقال سلفادور: إذن فأنت تشعر يا دكتور بالتحسن بعض الشيء ولكن حمقلته كانت تقول: لقد تصورت أنه كان هناك شيء ما غامض ومثير للشبهة في حياتك.

تلك العينان سوف تستمران في قول هذا الكلام إلى أن يذهب ريكاردو إلى الشرطة ويعود منها لو قدر له العودة منها.

ولقد انتقل الآن الإرتياب إلى الصالون لأن المناقشات الدائرة باللغة الأسبانية كانت أعلى ضجيجا من المعتاد لقد أصبح الفندق شبيها بفندق قام بالشارع الرئيسي بمدريد ولم تكن مارسيندا موجودة في الصالون ولكن الدكتور سامبيو كان موجودا وكان منهمكا في المناقشة مع اثنين من الاسبان كانا يشرحان الأحداث السياسية الجارية في أسبانيا من خلال الاستعانة برسم توضيحى عن الأوديسا الخاصة بهم عقب هروبهم من ديارهم ومنازلهم، وانضم إليهم ريكاردو ريس حيث جلس عند طرف الأريكة الكبيرة بحيث أصبح على مسافة بعيدة من الدكتور سامبيو ولم يرغب في الدخول في هذه المناقشة الاسبانية / البرتغالية حيث كان كل ما يريده هو معرفة ما إذا كانت مارسيندا قد جاءت أم ظلت باقية في كوامبرا ولكن الدكتور سامبيو لم يظهر أية دلائل تشير إلى أنه قد لاحظ وجود ريس وراح يومئ برأسه في وقار وهو يستمع لشرح من جانب دون ألونصو وضاعف من اهتمامه عندما أشار دون لورينزو إلى مزيد من التفاصيل ولم يرفع بصره لأعلى ولو لمرة واحدة حتى بعد أن انفجر ريس في كحة شديدة حيث لا يزال يعانى من النتائج الناجمة عن الانفلونزا وامتلأت عيناه بالدموع وبعدئذ قام ريكاردو ريس بفتح جريدة وقرأ فيها أن اليابان .شهدت تمردا مسلحا من جانب ضباط الجيش الذين يطالبون بضرورة إعلان الحرب ضد روسيا وراح يقيم الموقف في مزيد

من العمق: لو أن مارسيندا موجودة هنا فأنها ستنزل خلال فترة قصيرة وبالتالي فأنت يا دكتور سامبيو ستضطر التكلم معي سواء أردت أم لم ترد فأنا متلهف لأن أرى ما إذا كانت عيناك مليئتين بمشاعر العداء مثل عينى بيمنتا لأنه لا شك أن سلفادور أخبرك أن الشرطة ترغب في استجوابي.

ودقت ساعة الحائط معلنة الثامنة مساء ونهض ضيوف عديدون وغادروا الصالون وهدأت المناقشات وبدا نفاد الصبر على الشخصين الأسبانيين لكن الدكتور سامبيو أخرهما قليلا لكي يؤكد لهما أنهما سيقدران على العيش في هدوء في البرتغال على مدى الفترة التي يرغبان فيها فالبرتغال هي واحة السلام والطبقات الفقيرة بها لا تهتم بالنواحى السياسية وهذا من شأنه تعزيز الوجود السلمى والهدوء الذي تشاهدانه في الشوارع هو بمثابة الهدوء الموجود في نفوس أفراد شعبنا، ولكن هذه ليست المرة الأولى التي يصغى فيها الأسبان لكلمات الترحيب والنوايا الحسنة كما أن المعدة الخاوية لا يمكنها أن تتغذى على الكلمات لذلك أستأذنا «إلى اللقاء قريباً» حيث كانت عائلتاهما في انتظار استدعائهما من غرفهما، وصاح الدكتور سامبيو بعد أن تلاقى وجهاً لوجه مع ريكاردو ريس قائلاً: لقد كنت هنا طوال الوقت ولم أشاهدك على أي نحو تسير الأمور؟

ولكن ريكاردو ريس كان يدرك تماماً أنه تتم مراقبته عن طريق بيمنتا أو أكان ذلك هو سلفادور فمن الصعب على المرء أن يعرف الفارق بين المدير والموثق العام والشيال فثلاثتهم يثيرون الريبة، وقال ريس: لقد شاهدتك لكنني لم أحب أن أتدخل وأقحم نفسي آمل أن تكون قد قمت

برحلة طيبة كيف حال ابنتك؟ قال سامبيو: إنها ليست أفضل أو اسوأ مما هي عليه فتلك هي المحنة التي نشارك فيها فقال ريس: سيجيئ يوم ترى فيه أن مثابرتك أتت بالنتيجة المرجوة وكل ما هنالك أن حالات الشفاء هذه تستغرق بعض الوقت.

وبعد تبادل هذه العبارات المقتضبة لاذ كلاهما بالصمت، إذا كان الدكتور سامبيو يشعر بشيء من الاضطراب والقلق بينما راح ريكاردو ريس يموج بالسخرية ثم ألقى ريس قطعة من الخشب على الجمرات الخابية، إذ قال: على فكرة لقد قرأت الكتاب الذي أوصيتني بقراءته، فقال سامبيو: أي كتاب؟ رد ريس: الكتاب الذي يدور عن المؤامرة ألا تتذكر، فقال سامبيو: آه نعم اعتقد أنه ترك انطباعا محدودا فقال ريس: على العكس من ذلك فلقد أعجبت بمصادقته على الوطنية واعجبت بلغته الرصينة وحججه القوية ودقة اختراقه وتغلغله في النواحى النفسية علاوة على الثناء المنصب على الطبيعة السخية للأنوثة فالإنسان عقب الانتهاء من قراءة ذلك الكتاب يشعر بالتطهر وأنني اعتقد أن هذا الكتاب سيكون بالنسبة للكثيرين من الناس في البرتغال بمثابة المعمودية الثانية أو الأردن الجديدة، واستكمل ريكاردو ريس هذا المديح بأن اتخذ التعبيرات التي تظهر على شخص ما قد تعرض لتحولات داخلية مما جعل الدكتور سامبيو يتعرض للتشويش من خلال التناقض ما بين هذه الكلمات ووثيقة الاستدعاء الرسمي التي تحدث عنها سلفادور بكل ثقة، وقرر الدكتور سامبيو أن يظل متحفظا وأن يقطع علاقاته على الأقل إلى أن يتم حسم هذا الموضوع مع الشرطة، ثم قال: ينبغي عليّ أن أذهب لأرى ما إذا كانت ابنتي جاهزة للنزول لكي تتناول طعام العشاء، ثم انصرف على وجه السرعة، فابتسم ريكاردو ريس وعاد إلى جريدته

وقرر أن يكون هو آخر شخص يدخل إلى صالة الطعام، والآن ترامى إلى سمعه صوت مارسيندا: هل سنتناول طعام العشاء مع الدكتور ريس؟ وعندئذ قال والدها: نحن لم نعمل أي ترتيبات واستمرت المناقشة عند الجانب الآخر من الأبواب الزجاجية وربما سارت على هذا النحو.

كما تريد فإنه غير موجود هنا لقد وصلتني بعض المعلومات عنه وبذلك فإنه من الأفضل ألا نشاهد معه أمام الجماهير، فقالت ابنته: ما هي تلك المعلومات يا والدي؟

رد: تم استدعاؤه للمثول أمام الشرطة للدفاع والأمن القومي هل يمكن أن تتخيلى ذلك لقد كان لدى شعور بأن هناك شيئاً ما خاطئ، قالت: ولكنه طبيب جاء من البرازيل منذ فترة قصيرة قال كل ما نعرفه أنه بيدي أنه طبيب ولكن يحتمل أن يكون هارباً، فقالت أحقا يا والدي؟ فقال: أنت صغيرة في السن وليست لك خبرة في الحياة، وأضاف: هيا بنا نجلس هنالك بجوار هذين الزوجين الاسبانيين حيث أنهما جذابان ولهما منظر حسن فقالت: أفضل أن أكون بمفردي معك يا والدي، فقال: كافة المناضد مشغولة علينا أن ننضم إلى شخص ما أو ننتظر وأنا أفضل الجلوس الآن والاستماع إلى آخر الأنباء الواردة من أسبانيا، فقالت: حسناً للغاية يا والدي، وغير ريكاردو ريس رأيه وقرر العودة إلى غرفته وإبلاغهم لاحضار طعام العشاء إلى غرفته، وقال لنفسه موضحا الأمور: فأنا مازلت أشعر ببعض الضعف، فوافق سلفادور على ذلك من خلال إيماءة من رأسه حيث كان حريصا على عدم تشجيع أي تقارب آخر بينهما، وفي نفس تلك الليلة قام ريكاردو ريس عقب العشاء

بكتابة بعض أبيات من الشعر «نحن نوضع من خلال القدر مثل الأحجار التي توضع لكي تحدد المساحات المزروعة بالأزهار، وهنالك نبقى ولا نكون أي شيء أكثر من أننا مجرد حجارة» وفيما بعد يمكنه أن يتوسع في هذا المطلع لكي يصبح قصيدة غنائية.

وبعد نصف ساعة أضاف أبياتا أخرى: «هيا بنا نستكمل كياننا الخاص فنحن لا نمتلك أي شيء أكثر من ذلك» ثم وضع قصاصة الورق على جانب وراح يتمتم لنفسه: لقد سبق لي على مدى مرات عديدة كتابة نفس هذه الفكرة ولكن بكلمات مختلفة، كان جالسا على الأريكة في مواجهة الباب بينما الصمت يثقل على كتفية مثل عفريت شرير عندما سمع حفيف أقدام في الصالة، يبدو أنها ليديا، أهكذا جاءت بهذه السرعة؟ لكنها لم تكن ليديا.

فمن تحت الباب ظهرت ورقة بيضاء مطوية، وأدرك ريس أنه من الخطأ أن يقوم بفتح الباب، لقد أدرك في اعتقاد راسخ من الذي كتب تلك الورقة ولم يسارع إلى النهوض وإنما جلس هنالك محملقا في تلك الورقة التي كانت شبه مفتوحة.

لقد طويت تلك الورقة على نحو ردئ وفي تسرع وكتبت في عصبية وبخط متسم بالانفعال ويشاهد الآن لأول مرة، كيف تتمكن من الكتابة، ربما بأن تضع شيئاً ثقيلا على الطرف العلوي للورقة لكي تجعلها ثابتة أو باستخدام يدها اليسرى كمثقلة أو باستخدام إحدى تلك المشابك التي توجد عادة في مكتب الموثق العام لضم الوثائق، مع بعضها، وهذه هي الكلمات التي كتبت في تلك الورقة؟.

«أشعر بالأسف لأنني لم أشاهدك، لكن كان من الأفضل أن يحدث

ذلك، والذي لا يهتم بشيء سوى أن يوجد مع الأسبان، عندما أخبروه لدى لحظة وصولنا عن متاعبك مع الشرطة قرر تجنب أن يشاهد معك، أنني متلهفة إلى الكلام معك ولن أنسى أبداً مساعدتك لي، غدا ما بين الساعة الثالثة والثالثة والنصف سأقوم بالنزهة في أرجاء ألتو دى سانتا كاتارينا وإذا لم يكن لديك مانع يمكننا أن نتقابل هناك ونتحادث قليلا» فتاة شابة من كوامبرا تكتب ورقة تشير فيها إلى أنها توافق على مقابلة طبيب في منتصف العمر وصل توا من البرازيل وربما يكون في حالة هروب ومن المؤكد أن الشكوك تنصب عليه، يا له من موضوع حب تراجيدي على وشك أن يحدث هنا.

وفي اليوم التالي تناول ريكاردو ريس طعام الغذاء في البايسكا، ولسبب غير محدد عاد إلى ايرموس يونيدوس ربما من خلال انجذابه نحو اسم ذلك هو الذي لم يكن له أبداً أي أخوة أو أخوات ويجد نفسه بدون أصدقاء يتعرض لهجوم من جانب مثل هذه الرغبات خاصة عندما يكون شاعرا بالضعف إذ ليست ساقاه هي فقط التي ترتعشان عقب الانفلونزا وإنما روحه أيضاً تموج بالارتعاد، النهار مليئ بالسحب التي تحجب السماء ويشعر ريكاردو ريس بالبرد، بعض الشيء وهو يصعد في شارع كارمو ويحملق في فاترينات العرض للمحلات حيث ما زال هناك متسع من الوقت قبل حلول موعد اللقاء، ويحاول أن يتذكر كما إذا كان قد مرّ بتجربة مثل هذه من قبل بحيث تأخذ فتاة زمام المبادرة من أجل عقد لقاء، ولا يستطيع تذكر تجربة مماثلة مر بها في مكان كهذا وفي وقت كهذا فالحياة عادة ما تكون مليئة بالمفاجآت، ولكن أكبر المفاجآت هي أنه لا يشعر بأي قدر من التوتر وكأن إعطاء كل هذا القدر من الحذر والسرية ليس سوى أمر طبيعي، لديه انطباع وكأنه واقع

في فخ في داخل سحابة وأنه غير قادر على تركيز أفكاره، ربما لأنه لا يصدق بالفعل أن مارسيندا على وشك أن تظهر في الأفق، ودخل إلى مقهي برازيليرا لكي يريح قدميه ولكي يتناول القهوة وأصغى لمناقشات تدور بين مجموعة من الرجال من الواضح أنهم من المهتمين بالكتابة والآداب والثقافة وكانوا يصبون الشتائم واللعنات على رجل ما أو وحش، ثم غادر ريس المقهي حيث بلغت الساعة الثالثة إلا الربع وهو الوقت الملائم لكي يمضى في سبيله، وعبر الميدان بجوار تمثال للشاعر فجميع الطرق في البرتغال تؤدى إلى كاموس، كاموس المتغير دائماً وفقا للمشاهد، في حياته كانت ذراعاه في حالة استعداد لخوض المعركة بينما كان ذهنه منصبا على موازين الشعر، سيفه الآن في غمده وكتابة مغلق وعيناه كفيفتان، كلتاهما كفيفتان حيث أصابتهما الجراح بسبب الحمام ونظرات اللامبالاة التي تصدر عن المارة إلى جواره، ولم يبلغ الوقت الساعة الثالثة، عندما وصل ريكاردو ريس إلى ألتو دى سانتا كاتارينا، يبدو على أشجار النخيل وكأنه طعنت بمعرفة النسيم القادم من البحر لكن أوراقها القوية لا تتحرك إلا بصعوبة إنه لا يتذكر ما إذا كانت هذه الأشجار قد وجدت هنا منذ ١٦ عاما عندما سافر إلى البرازيل لكن الشيء المؤكد أن هذه الكتلة الحجرية الضخمة المنحوتة في خشونة لم تكن هنا إنها تشبه طبقة بارزة من الصخر لكنها في الحقيقة عبارة عن أثر من الآثار القديمة الباقية.

إذا كان آداما ستور الغاضب موجودا هنا فمعنى ذلك أن رأس الرجاء الصالح لا يقع على مسافة بعيدة، وفي الأماكن السفلية توجد سفن شراعية حربية تتهادى في النهر، ويطأ ريكاردو ريس بقدمية على المماشى الضيقة المليئة بالحصباء الرطبة المبللة بينما يلتصق الوحل

بحذائه، لا يوجد أحد هنا في هذا المبنى المطل على منظر رائع باستثناء رجلين عجوزين صامتين يجلسان على نفس المقعد الطويل، ربما أنهم قد عرفا بعضهما البعض لفترة طويلة للغاية بحيث لم يعد لديهما اى كلام يمكن أن يتبادلاه وربما هما ينتظران لكي يعرفا من منهما سيموت أولا، ويشعر ريكاردو ريس بالبرودة، فيرفع ياقة معطف المطر الخاص به لأعلى ويقترب من الذي يحيط بالمنحدر الأول للتل، ويترامى صوت: ياريس هل أنت في انتظار شخص ما؟ كان الصوت مليئاً بالسخرية ولاذعا، أنه صوت فرناندو بسوا، فاستدار ريكاردو ريس نحو الرجل الذي يرتدى ملابس سوداء ويقف إلى جواره وقد أمسك بيديه البيضاء وقال ريس: ليس هذا ما توقعت مشاهدته عندما جئت هنا عبر موجات المحيط ولكن نعم أنني انتظر مجيئ شخص ما، فقال بسوا: أنت لا تبدو في صحة جيدة على الاطلاق، تمتم ريس: تعرضت لنوبة انفلونزا وكانت شديدة للغاية لكنها سرعان ما زالت، قال بسوا: هذا ليس أفضل مكان لشخص شفي توا من الانفلونزا فأنت في الأعالى هنا تكون معرضا للرياح القادمة من البحر المكشوف فقال ريس: أنه ليس سوى نسيم يهب من النهر ولا يسبب لي أية متاعب، سأل بسوا: أأنت في انتظار امرأة ما؟ قال ريس: نعم أنا في انتظار امرأة قال بسوا: برافو من الواضح أنك تخليت عن تلك الأمور الروحانية المتعلقة بالمرأة المثالية واستبدلت ليديا الأثيرية بليدية مادية تستطيع احتواءها بين ذراعيك مثلما شاهدت بعينى رأسي في الفندق وها أنت هنا في انتظار امرأة أخرى وهذا يعنى أنك تقوم بدور دونجوان وأنت في هذا العمر المتقدم، امرأتان في مثل هذه الفترة الزمنية القصيرة تقبل التهانى من جانبي فأنت وفق هذا المعدل سوف تصطاد ألف وثلاثة من النساء، فقال

ريس: أشكرك بدأت أدرك أن الموتى أسوأ من الناس العجائز لأنهم ما أن يبدأوا في التحدث لا يعرفون كيف يتوقفون عن الكلام، فقال بسوا: أنت على حق في ذلك فهم ربما يندمون على كل شيء لم يقولوه عندما كان لا يزال أمامهم متسع من الوقت، قال ريس: استمع إلى يا فرناندو أنني أفضل الا تشاهد الفتاة التي انتظرها، فقال بسوا: لا تقلق فأسوأ ما يمكن أن يحدث هو أنها سوف تشاهدك من على مسافة وأنت تتكلم مع نفسك وهذا شيء عادي لأن كل شخص واقع في الحب يتصرف على ذلك النحو، فقال ريس: لست واقعا في الحب، ردد بسوا: يؤسفنى أن أسمع ذلك ودعنى أقول لك أن دونجوان كان مخلصا صحيح أنه كان متقلب الأهواء ولكنه كان مخلصا وأما أنت فمثل الصحراء ويبدو أنك لا تلقى بظلال هتف ريس: أنت الذي لا تلقى بظلال فقال بسوا: لو سمحت أنا استطيع بكل تأكيد أن ألقى بظلال إذا أردت ذلك ولكن الذي لا استطيعه هو النظر إلى نفسي في المرآة فقال ريس: على فكرة.

هل أنت الذي كنت ترتدي هيكل الموت في موكب الكرنفال؟

فقال بسوا: يا ريس هل يمكنك أن تتصور أن أتجول هنا وهناك متنكرا في زيّ الموت مثل قصة رمزية منتمية للعصور الوسطى فالرجل الميت لا يرقص في مرح ويتصرف في حماقة فهو يمقت بشدة العرى الكامل لشكله الهيكلى ولذلك فإنه عندما يتجلى متجسدا فإنه أما أن يظهر مثلما أفعل أنا مرتديا أفضل ثيابه وهي الثياب التي كان يرتديها أثناء دفنه وأما أن يلف نفسه في كفنه إذا ظهر بهدف أن يخيف شخصاً ما ولكنه يظهر كشخص لديه ذوق وأنا لا أنزلق إلى مثل هذا المزاح السخيف، فقال ريس: كان لدى إحساس بأن تلك ستكون هي اجابتك

الآن يجب أن أطلب منك أن تغادر هذا المكان لأن الفتاة التي انتظرها تقترب الآن فقال بسوا: تلك الفتاة القادمة أنها جذابة للغاية لكنها وفقا لمزاجى الخاص تعتبر نحيله فقال ريس: هذه هي أول مرة اسمعك فيها تصدر تعليقا على فتاة، أنت شبق شهوانى تختلس النظرات مرة أخرى أتركك لكي تخطب ود هذه العذراء لقد تحولت إلى اغواء الخادمات ومطاردة واصطياد العذزوات، وجاءت مارسيندا متهادية بين الأزهار فاتجه إليها ريكاردو ريس لكي يقابلها، وقالت متسائلة: أكنت تكلم نفسك رد: نعم كنت أرتل بعض أبيات من الشعر الذي كتبه صديق لي مات منذ شهور قليلة لعلك سمعت باسمه فقالت: ما اسمه فقال: فرناندو بسوا، فقالت: هذا الاسم يبدو مألوفا لي ولكني لا أذكر أنني قرأت شيئاً من أشعاره، قال ريكاردو ريس مترنما: «ما بين ما أعيشه والحياة وما بين ما أبدو عليه وما أكون عليه أنام نوما خفيفا على منحدر صخرى لن أتركه أبدا» فقالت: أكان ذلك هو الشعر الذي كنت ترتله؟! أجاب نعم قالت: يبدو وكأنه كتبّ من أجلي إذا كانت قد فهمت المعنى على نحو سليم، فقال: أنه شعر بسيط للغاية ومع ذلك فقد احتاج لذلك الرجل لكي يكتبه، أنه يشبه كافة الأشياء من حيث أنه جيد ورديء في آن واحد، دعينا نترك الشعر ونتكلم عنك، كيف كانت أحوالك وهل يدك آخذة في التحسن، قالت: ليست أفضل من ذى قبل، إنها موضوعة هنا في جيبي مثل طائر ميت، فقال: عليك ألا تفقدى الأمل، قالت: أشعر أنني قد فقدت الأمل بالفعل وربما أقوم في يوم من تلك الأيام بالحج إلى سانت فاطيما لكي أرى ما إذا كان الايمان سينقذنى، سأل هل أنت مؤمنة؟ فقالت: أنا كاثوليكية، فقال: وهل تمارسين الصلاة؟، ردت: نعم أنا أذهب إلى القداس واذهب إلى الاعتراف وأتناول العشاء الربانى

وأفعل كافة الأشياء الطيبة التي يفترض أن يفعلها الكاثوليك، فقال: لا يبدو عليك أنك مكرسة للغاية، علقت: لا تهتم كثيراً لما أقوله، لم يحاول ريكاردو ريس أن يرد، الكلمات ما أن يتم النطق بها تبقى مفتوحة مثل الأبواب حيث ندخل دائماً تقريبا ولكننا في بعض الأحيان ننتظر بالخارج حيث نتوقع أن يفتح باب ما آخر ويتم النطق ببعض الكلمات الأخرى فقالت: أرجوك أن تتغاضى عن سلوك والدي فنتيجة الانتخابات في أسبانيا قد شوشت معتقداته مما جعله يتناقش طوال الوقت بالأمس مع اللاجئين ومما زاد الأمور سوءا أن سلفادور قال له أن الدكتور ريس قد أرسلت الشرطة إليه وثيقة استدعاء رسمية، فقال: نحن لا نكاد نعرف بعضنا البعض ووالدك لم يفعل شيئاً يتطلب مني أن أغفر له، وأظن أن موضوعى مع الشرطة بسيط للغاية وفي يوم الاثنين سأذهب إليهم وأرد على كافة أسئلتهم وبذلك تنتهي المشكلة تماماً.

فقالت: إنني مسرورة لأنك لا تجعل هذا الموضوع يسبب لك أي ازعاج، فقال: لا داعي لأن انزعج فأنا ليس لي أية علاقة بالنواحى السياسية، لقد عشت كل تلك السنوات الطويلة في البرازيل دون أن يطاردنى أي شخص ولا يوجد سبب لأن يطاردنى شخص هنا بالبرتغال، فقالت: إن شاء الله سيتم كل شيء على ما يرام، فقال: اشكرك على المجئ إلى هنا لكي تعتذرى لي عن سلوك والدك، فقالت: جئت لأنني أريد رؤيتك والتحدث معك ولسوف نرجع غدا إلى كوامبرا كنت أخشى ألا توجد أمامنا فرصة أخرى للقاء الرياح بدأت تهب في مزيد من العنف، أحكم غلق ملابسك.

قال: لا تقلقى عليّ، همست: أخشى أن أكون قد اخترت مكانا غير

ملائم من أجل لقائنا، كان ينبغي عليّ أن أتذكر أنك مازلت في حالة نقاهة من المرض فقال: كانت مجرد نوبة انفلونزا بل وربما كانت مجرد برد بسيط فقالت: سيمر شهر آخر قبل أن أرجع إلى لشبونة ولا توجد وسيلة لأن أعرف ما يحدث في يوم الاثنين ردد سوف أن قلت لك أن هذا الموضوع لا يشكل أية أهمية، فقالت: ورغم ذلك أود أن أعرف، تمتم سيكون من الصعب ابلاغك قالت: ولماذا لا ترسل إليَّ خطابا لسوف أترك لك عنوانى لكن لا الأفضل أن ترسل إليَّ خطابا وتكتب على المظروف عبارة «يحفظ في شباك البريد» لأن والدي قد يكون بالمنزل أثناء مجيء ساعى البريد فقال: أوافق على ذلك وإذا لم يصلك خطاب مني فإن ذلك يعنى أنني قد أدنت وتم إيداعى في زنزانة مظلمة، وفي هذه الحالة عليك بذل جهود من أجل انقاذى، فقالت: لا قدر الله، عليّ الآن أن أتركك لأنني وأبي لدينا موعد لكي نقابل الطبيب الاخصائي ثم ناورت إلى أن وضعت كلتا يديها في يدي ريكاردو ريس، وينظر الرجلان العجوزان ويفشلان في فهم حقيقة الموقف، وقال ريس: سأذهب إلى صالة الطعام في وقت العشاء ولسوف أكتفي بالايماء لوالدك من على مسافة لكي لا أسبب له الارتباك أمام أصدقائه الجدد الوافدين من أسبانيا، فقالت: كدت أن أطلب منك أن تتناول طعام العشاء بالمطعم حتى يمكنني أن أراك، فقال: يا مارسيندا لماذا تريدين أن ترانى؟ فقالت: لا أعرف السبب في ذلك ثم انطلقت وسارت صاعدة على المنحدر وتوقفت عند قمة التل لكي تريح يدها اليسرى في داخل جيبها ثم واصلت المسير دون أن تلتفت وراءها، ولاحظ ريس وجود باخرة كبيرة على وشك الدخول إلى القناة، لم تكن هي الباخرة التي تسمى «هايلاند بريجيد» كان الرجلان العجوزان يتحدثان في غير كلفة،

وقال أحدهما: أنه قد يكون والدها فقال الآخر: من المؤكد أن بينهما علاقة جنسية غير شرعية وأضاف: الشيء الذي لا أفهمه هو السبب في وجود ذلك الشخص المرتدى ثيابا سوداء طوال القوت: فقال الآخر: من هو ذلك الشخص قال زميله: ذلك الشخص المتكئ على الداربزين: أنت بحاجة إلى نظارة وقال زميله: وأنت مخمور، وكان الوضع هكذا دائماً مع هذين الرجلين العجوزين حيث يبدأن أولا في الدردشة ثم في المناقشة ثم ينتقلان إلى مقعدين منفصلين ثم ينسيان الشجار الذي حدث بينهما ثم يجلسان سويا على مقعد واحد مرة أخرى وابتعد ريكاردو ريس عن الدرابزين وطاف حول الازهار واتبع نفس الطريق الذي جاء منه، ومع القاء نظرة على يسارة بطريق المصادفة وقع بصره على منزل به نقوش بالدور العلوي.

وهزت هبة رياح أشجار النخيل فنهض الرجلان العجوزان واقفين، وبعدئذ لم يعد يوجد هناك أي شخص في ألتو دى سانتا كاتارينا.

(٩)

أي شخص يقول إن الطبيعة لا تبالى بهموم ومعاناة الجنس البشرى لا يعرف سوى القليل عن الطبيعة أو البشرية، فالأسف مهما كان متلاشيا والصداع مهما كان خفيفا يمزق مدار النجوم على الفور ويغير الجزر وتدفقات المياه الجارية ويتداخل مع صعود القمر ويثير التيارات الهوائية في الجو علاوة على إثارة السحب المتموجة، ودع سنت يفقد من الكمية التي جمعت في أخر دقيقة من أجل تسوية فاتورة وعندئذ ستغضب الرياح في عنف وتصبح السماء منذرة بالأمطار وتتعاطف الطبيعة كلها في مواساة مع المدين الذين يعانى من الكرب، والمتشككون الذين تنصب كل اهتماماتهم على التشكيك وعدم الايمان بأي شيء سواء أكان لديهم دليل على ذلك ام لا سيقولون بأن هذه النظرية لا ترتكز على أساس من الصحة وأنها بمثابة كلام فارغ ولكن ما هو التفسير الآخر الذي يبرر حدوث الطقس الردئ المستمر الذي دام على مدى شهور وربما على مدى سنوات لأنه كانت توجد هناك دائماً عواصف هنا ورياح هوجاء وفيضانات ولقد قيل الكثير عن شعب أمتنا مما يجعلنا نجد في محنتهم سببا كافيا لحدوث هذه العوامل الجوية الجامحة، وهل نحن بحاجة لأن نذكرك أيها القارئ بالغضب الجامح الذي اجتاح أهالى ألنتيجو أو بتفشى مرض الجدرى في ليبوكو وفي فتيلة أو انتشار التيفود في فالبوم، وماذا عن الـ ٢٠٠ شخص الذين يعيشون

في ثلاثة طوابق بمنى في ميراقيا / أبورتو بدون كهرباء وفي حالة بدائية حيث يستيقظون في كل صباح على الصياح والصراخ وحيث تصطف النساء في طابور من أجل إفراغ محتويات مبولة حجرة النوم الخاصة بهن والباقى نتركه لخيالك أيها القارئ الذي ينبغي استخدامه بعض الشيء، ولا عجب إذن من أن الطقس قد أطلق هذا الاعصار الذي اقتلع الأشجار من جذورها وأطاح بسقف البيوت وأعمدة التلجراف ريكاردو ريس متجه في طريقه إلى المركز الرئيسي للشرطة وهو يموج بالقلق وقد جذب قبعته لأسفل في أحكام لكي لاتتقاذفها الرياح، ووصل إلى الباب الرئيسي قبل أن تدق الساعة معلنة العاشرة صباحا، وأبرز لهم الورقة التي أرسلوها إليه فطلبوا منه الصعود إلى الدور الثاني، فراح يصعد على السلالم وهو ممسك بوثيقة الاستدعاء الرسمية في يده مثل مصباح ينير الطريق أمامه فبدونها لن يعرف أين يضع قدميه، وعندما طلب منه أن ينتظر جلس على مقعد خشبي طويل وهو يشعر أنه قد أصبح مجردا من الأمل لأنهم أخذوا منه وثيقة الاستدعاء الرسمي أنه يجلس مع أناس أخرين منتظرين، لو كانت هذه عيادة طبيب لكانوا قد انخرطوا في دردشة مع بعضهم البعض: شيء ما خاطئ في رئتى، متاعبي تتعلق بالكبد أو ربما بالكليتين ولكن لا أحد يعرف الأشياء التي يعانى منها هؤلاء الناس الجالسون في صمت مطبق، وإذا ما اتيحت لهم فرصة للتكلم فإنهم سيقولون: إنني أشعر بالتحسن الكبير على نحو فجائي هل لي أن انصرف الآن، سؤال سخيف لأن أفضل علاج لآلام الأسنان كما نعرف هو النفاذ من الباب عندما ينادى طبيب الأسنان قائلاً: لقد أنقضى نصف ساعة وكان ريكاردو ريس ما زال في انتظار النداء عليه، وفتحت أبواب وأغلقت أبواب وكان بالمستطاع سماع رنين جرس التليفونات ومر رجلان بجواره وضحك أحدهما بصوت مرتفع قائلاً إنه لا يعرف

ما يخبئه له القدر ثم اختفيا وراء ستارة وساءل ريكاردو ريس نفسه في توتر: أهما يشيران إليَّ بتلك العبارة.

في نهاية الأمر سوف نعرف طبيعة التهم الموجهة إليه.

ورفع يده نحو جيب صديريته لكي يستخرج ساعته ليعرف الفترة الزمنية التي قضاها منتظرا ولكن يده توقفت في منتصف المسافة إذ ينبغي عليه ألا يظهر أي نفاد للصبر، وأخيرا جذب رجل الستارة في خفة شديدة واستدعاه بايماءة من رأسه فاندفع ريكاردو ريس للأمام ثم أوقف نفسه وكبح جماح نفسه من خلال حاسة وقار غريزية إذا كان للوقار أية علاقة بالغريزة وسار وراء الرجل الذي كانت تفوح منه رائحة البصل في طرقة طويلة توجد أبواب على جانبيها مغلقة في إحكام ولدى الوصول إلى الطرف البعيد للطرقة راح مرشده يطرق بخفة على أحد الأبواب ثم فتحه، وقال رجل جالس إلى مكتب: انتظر معنا هنا فربما نحتاج إليك ثم استدار نحو ريكاردو ريس وأشار إلى كرسى وقال له: اجلس فأطاع ريس الأوامر بينما التوتر والاحباط يجتاحانه، ثم قال لنفسه في تفكير: إنهم يفعلون ذلك لمجرد إخافتى، وأخذ الرجل الجالس إلى المقعد وثيقة الاستدعاء الرسمية وقرأها في بطء كما لو لم يسبق له أبداً مشاهدة وثيقة كهذه من قبل، ثم وضعها في حرص وعناية على ورق النشاف الأخضر ونظر إليه نظرات ثاقبة مثل نظرات شخص ما يقوم بمراجعة نهائية من أجل تجنب الوقوع في أية غلطة، وكانت كلماته الافتتاحية هي: لو سمحت اعطني بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بك، وعبارة لو سمحت هدأت من التوتر الذي يجتاح ريس، فاستخرج ريس بطاقته من محفظة نقوده ورفع نفسه قليلا عن كرسيه لكي يناولها له وتسبب ذلك في وقوع قبعته على الأرض مما جعله يشعر بأنه مثير للضحك وبأنه يموج مرة أخرى بالتوتر العصبي، فراح الرجل يقرأ البطاقة سطرا وراء

سطر ثم قارن الصورة الفوتوغرافية مع وجه الرجل الماثل أمامه وكتب بعض الملاحظات ثم وضع البطاقة في حرص وعناية في الملف بجوار وثيقة الاستدعاء الرسمية، وقال ريس لنفسه في تفكير: ذلك رجل مخبول ولكنه أضاف بصوت مرتفع: أنا طبيب وأنا وصلت إلى هنا قادما من البرازيل من ريو دى جانيرو منذ شهرين: فتساءل الرجل: وأنت قد ظللت مقيما في فندق براجانسا طوال هذا الوقت، فقال ريس: نعم يا سيدي فقال الرجل على أية باخرة وصلت فقال ريس: على الباخرة هايلاند بريجيد التي تنتمى لخطوط البريد الملكية وأنا قد نزلت من هذه الباخرة في لشبونة في يوم ٢٩ ديسمبر فقال الرجل: هل سافرت بمفردك أو بصحبة آخرين، فقال ريس: بمفردي فقال الرجل: أأنت متزوج فقال ريس: لا ياسيدي أنا لست متزوجا وأود أن أعرف السبب في استدعائي إلى هنا ولماذا ترغب الشرطة في استجوابي فهذا هو آخر شيء كنت أتوقعه، فقال الرجل كم عدد السنوات التي أمضيتها مقيما في البرازيل، فقال ريس: لقد ذهبت إلى هناك في عام ١٩١٩ ولماذا تسأل كل هذه الأسئلة فقال الرجل: عليك فقط بالاجابة على اسئلتى وأترك الباقى عليّ فبتلك الطريقة ستسير الأمور على ما يرام بيننا، فقال ريس: وهو كذلك يا سيدي، فقال الرجل: أكان هناك سبب ما معين يدعو إلى هجرتك إلى البرازيل، فقال ريس: لقد قررت الهجرة وذلك هو كل ما في الأمر، فقال الرجل الأطباء لا يهاجرون عادة فقال ريس: ولكني هاجرت، فقال الرجل: لماذا ألم تستطع العثور على مرضى هنا بالبرتغال فقال ريس: كان لدى عدد من المرضى ولكني أردت أن أشاهد البرازيل وأن أعمال هناك وذلك هو كل ما في الأمر، فقال الرجل: والآن لقد رجعت فقال ريس: نعم لقد رجعت: فقال الرجل: رجعت من أجل ماذا إذا لم تكن قد رجعت من أجل مزاولة مهنة

الطب، فقال ريس: وكيف تسنى لك أن تقول أنني لا أمارس مهنة الطب، فقال الرجل: أنا أعرف ذلك فقال رس: صحيح أنني حاليا لا أمارس الطب ولكنني أفكر في فتح عيادة طبية وأن أضرب بجذورى مرة أخرى في وطني البرتغال، فقال الرجل: بكلمات أخرى يمكن القول أنك بعد أن أمضيت ١٦ عاما شعرت فجأة بالحنين إلى البرتغال موطنك الأصلى، فقال ريس: هذا صحيح ولكنني لا أعرف الهدف من وراء هذا الاستجواب فقال الرجل: هذا ليس استجوابا لأن العبارات التي تقولها ـ كما ترى ـ لا يتم تسجيلها فقال ريس: إذن ما السبب في استدعائي إلى هنا فقال الرجل: لقد كنت متهلفا على مقابلة هذا الطبيب البرتغالي الذي كان يحقق نجاحا كبيرا في البرازيل ثم عاد منها عقب مرور ١٦ عاما، ثم ظل مقيما بفندق على مدى شهرين ومبتعدا عن القيام بأي عمل.

فقال ريس: سبق لي أن قلت لك أنني بصدد استئناف مزاولتي لمهنة الطب، فقال الرجل: أين فقال ريس: لم أبدأ بعد في البحث عن مكان ملائم وهذا قرار مهم في حياتي، فقال الرجل: قل لي شيئاً ما أخر هل تعرفت على أناس كثيرين في ريو دى جانيرو أو بأي مكان آخر بالبرازيل، فقال ريس: أنني لم أسافر كثيراً في ارجاء البرازيل وجميع أصدقائي كانوا يعيشون في ريو دى جانيرو، فقال الرجل: ومن هم هؤلاء الأصدقاء فقال ريس: حياتي الخاصة هي أمر يتعلق بي فقط وأنا لست مرغما على أن أجيب على مثل هذه الأسئلة وإلا فإنه ينبغي على أن أصر على ضرورة وجود المحامى الخاص بي، فقال الرجل: هل لديك محام خاص بك، فقال ريس: لا ولكن لا شيء يمنعنى من استئجار محام، فقال الرجل: المحامون لا يسمح لهم بدخول هذا المبنى أو الأراضى التابعة له وعلاوة على ذلك يا دكتور فإنك غير متهم

بأي جريمة وإنما نحن نتجاذب أطراف الحديث معك في دردشة خفيفة، فقال ريس: ولكنها دردشة ليست نابعة من اختيار كما أن السيل الجارف من الاسئلة التي توجه لي يوحي بأن الأمر ليس مجرد دردشة ودية، فقال الرجل: أعود إلى سؤالى وأقول لك من هم هؤلاء الناس الذي كانوا أصدقاءك، فقال ريس: أرفض الاجابة على هذا السؤال، فقال الرجل: يا دكتور ريس لو كنت مكانك لكنت أكثر تعاونا فمن مصلحتك أن تجيب وذلك حتى يمكن لك أن تتجنب تعقيدات لا لزوم لها، فقال ريس: لي أصدقاء برتغاليون وبرازيليون وهم أناس جاءوا لي لكي يستشيرونى من الناحية المهنية وبالتالي أصبحوا أصدقائي وما الجدوى من وراء ذكر اسماء أناس لا تعرفهم أنت، فقال الرجل: أنت على خطأ بالنسبة لهذه النقطة فأنا أعرف أسماء عديدة للغاية، فقال ريس: وأنا لن اذكر لك أسماء، فقال الرجل: حسناً ستكون لدى وسائلى الخاصة لاكتشاف هذه الأسماء إذا اتضح أن ذلك أمر ضرورى، فقال ريس: تصرف على النحو الذي يروق لك فقال الرجل: أكان من بين أصدقائك شخصيات عسكرية أو سياسية فقال ريس: إنني لم أعمل في مثل الدوائر فقال الرجل: ألم يكن أحدهم على اتصال بالقوات المسلحة، أو منهمكا في النواحى السياسية، فقال ريس لا أضمن ان أناسا كهؤلاء لم يستشيرونى كطبيب، فقال الرجل ولكن ألم تصبح صديقا لأي واحد منهم فقال ريس: لا فقال الرجل لقد كنت تعيش في ريو دى جانيرو عندما تفجرت الثورة الأخيرة فهل تعتقد أنه من قبيل المصادفات أن ترجع إلى البرتغال عقب اكتشاف المؤامرة الثورية فقال ريس: إنه أمر وليد الصدفة تماماً مثل اكتشافي أن الفندق الذي أقيم فيه حاليا قد أصبح مليئاً باللاجئين الاسبان عقب اجراء الانتخابات الأخيرة في أسبانيا فقال الرجل: آه معنى كلامك هذا أنك تقول لي أنك قد هربت من البرازيل،

فقال ريس: أنني لم أقل ذلك، فقال الرجل: أنت قارنت الوضع الخاص بك بموقف الاسبان الذين جاءوا إلى البرتغال، فقال ريس: من أجل أن أوضح لك أن المصادفات لا تعنى أي شيء فأنا كما سبق أن قلت لك كنت أشعر بالحنين لوطني مرة أخرى، فقال الرجل: إذن أنت لم ترجع لأنك كنت خائفا، فقال ريس: خائفا من ماذا فقال الرجل: خائفا من أن تقوم السلطات هناك بمطاردتك على سبيل المثال، فقال ريس: لم يطاردنى أحد سواء قبل الثورة أو بعدها، فقال الرجل: هذه الأمور تستغرق أحيانا بعض الوقت، فنحن لم نقم باستدعائك إلا بعد مرور شهرين على وصولك، فقال ريس: مازلت أود أن أعرف السبب في استدعائي، فقال الرجل: قل لي شيئاً آخر، لو كان الثوار قد نجحوا أكنت ستظل مقيما في البرازيل فقال ريس: لقد سبق أن قلت لك أن سبب عودتى ليس له علاقة بالنواحى السياسية أو الثورات والتمردات وعلاوة على ذلك فهذه ليست أول ثورة تشهدها البرازيل خلال فترة أقامتى هناك فقال الرجل: هذه أجابة تدل على ذكائك حيث تحدث ثورات وتمردات ولا يكون الدافع وراءها هو نفس السبب، فقال ريس: أنا كطبيب لا أعرف ولا أرغب في أن أعرف اى شيء يتعلق بالثورات فأنا لا أهتم إلا بمعالجة الناس وشفائهم من أمراضهم فقال الرجل: من الواضح أنك غير مهتم بعلاج المرضى في هذه الأيام، فقال ريس: لسوف أستأنف ممارستي لمهنة الطب مرة أخرى فقال الرجل: أكنت تعانى من متاعب مع السلطات أثناء إقامتك في البرازيل فقال ريس: أنني رجل مسالم ومحب للسلام، فقال الرجل: وهنا في البرتغال هل قمت بتجديد أية صداقة منذ عودتك فقال ريس: فترة الستة عشر عاما يكفي لأن تجعلني أنسى الاصدقاء، وتجعل الاصدقاء ينسونني، فقال الرجل: أنت بذلك لم تجب على سؤالي.

فقال ريس: ليس لي أصدقاء هنا، فقال الرجل: هل فكرت في أي وقت من الأوقات في الحصول على الجنسية البرازيلية، وبحيث تصبح مواطنا برازيليا، فقال ريس: أبداً، فقال الرجل: هل اكتشفت أن البرتغال قد تغيرت كثيراً منذ أن تركتها وسافرت إلى البرازيل، فقال ريس: لا أستطيع الاجابة على هذا السؤال فأنا منذ أن جئت وأنا مقيم في لشبونة فقط ولم اذهب إلى أماكن أخرى خارجها، فقال الرجل: وما رأيك في لشبونة ذاتها، هل تجد أنها أصبحت مختلفة كثيراً عن ذي قبل، فقال ريس: من المؤكد أن الستة عشر عاما قد أحدثت الكثير من التغييرات، فقال الرجل: إلا تجد المزيد من الهدوء في الشوارع فقال ريس: نعم لقد لاحظت ذلك، فقال الرجل: الديكتاتورية الوطنية دفعت البلاد إلى العمل والجد والمثابرة، فقال ريس: لا شك في ذلك، فقال الرجل: يوجد احساس بحب الوطن وتدفق المشاعر الوطنية والرغبة في الكفاح من أجل الصالح العام، فقال ريس: أي تضحية في سبيل المصلحة القومية لا تكون تضحية كبيرة للغاية وأنا لن أرفض تسديد الضرائب المستحقة عليّ مادامت المنافع تكون متاحة مثل مطاعم الفقراء التي تقام من أجل اطعام الفقراء، فقال الرجل: من المؤكد أنك لست فقيرا يا دكتور، فقال ريس: قد أصبح فقيرا ذات يوم، فقال الرجل: لا قدر الله ولكن ما الذي ستفعله إذا أصبحت فقيرا فقال ريس: سأعود إلى البرازيل، فقال الرجل: هنا في البرتغال لا توجد سوى احتمالات ضئيلة لاندلاع ثورة وآخر تمرد قد حدث منذ عامين ثم انتهي على نحو مأساوى بالنسبة للمتورطين فيه فقال ريس: لا أعرف عما تتحدث وليس لدى ما أضيفه إلى الكلام الذي قلته لك توا، فقال الرجل: وأنا ليس لدى المزيد من الأسئلة فقال ريس: هل يمكن لي أن انصرف الآن، فقال الرجل: نعم، وها هي البطاقة الشخصية الخاصة بك أوه يا فيكتور

لو سمحت اصطحب الدكتور إلى الباب الخارجى، فاقترب فيكتور من ريس قائلاً له: أتبعنى بينما أنفاسه تفوح برائحة البصل الكريهة، وقال ريكاردو ريس لنفسه في تفكير: هذا لا شيء لا يصدقه العقل فنحن مازلنا في الصباح ومع ذلك تفجر هذه الرائحة الكريهة للغاية من المؤكد أن هذا الرجل يأكل البصل أثناء تناوله طعام الافطار، وما أن أصبحا في الطرقة حتى قال فيكتور له: أرى أنك كنت تثير غضب رئيس النيابة الخاص بنا لمجرد أنك وجدته في حالة نفسية طيبة فقال ريس: ماذا تعنى بكلمة أثير غضبه، فقال: أنت رفضت الاجابة على اسئلته وكنت تدور وتحوم حول الموضوع وهذه غلطة كبيرة ومن حسن حظك أن رئيس النيابة الخاص بنا لديه بعض الاحترام لمهنة الطب، فقال ريس: مازلت لا أعرف السبب في استدعائي إلى هنا، فقال فيكتور: لا داعي لأن تعرف وعليك فقط أن ترفع يديك إلى السماء وتشكر الله على أن الحكاية قد انتهت، فقال ريس: فلنأمل في أن المسألة قد انتهت للابد على نحو حاسم فقال فيكتور: ذلك شيء لا يعرفه أحد على الإطلاق ولكن ها نحن قد وصلنا إلى نهاية المبنى يا انتيونيس هذا الطبيب لديه تصريح بمغادرة المبنى وداعا يا دكتور وإذا أردت أي شيء مني فأنت تعرف أين تعثر عليّ وأسمى هو فيكتور، ووضع ريكاردو ريس بقشيشا في يد المرشد الممدودة مستخدما اطراف أصابعه حيث كان يخشى من أن يفوح هو الآخر، برائحة البصل الكريهة التي قد تجعله يصاب بالغثيان، ولكن الرياح العاتية ضربت وجهه ضربة عنيفة وبددت بوادر الغثيان الذي شعر به ووجد نفسه في أحضان الشارع بدون أن يعرف الكيفية التي تم بها ذلك وأغلق الباب الرئيسي للمبنى عقب خروجه، ويصل ريكاردو ريس إلى شارع انكرناسو ويحس بأن المطر الغزير بصدد الهطول ستطالعنا صحف الغد بأنباء وتقارير عن ذلك المطر،

ويحتمي جميع المشاة من الأمطار بالوقوف في مداخل العمارات والمنشآت وهم يهزون أنفسهم مثل كلاب مبللة بالماء، لا يوجد سوى رجل واحد موجود على الرصيف بجوار مسرح سولويس ومن الواضح أنه جاء متأخرا عن الموعد المحدد ويبدو عليه أنه يموج بالقلق على النحو الذي كان يعانى منه ريكاردو ريس وهو ما يفسر كل هذه الامطار المتدفقة فوق الرؤوس، كان يمكن للطبيعة أن تظهر تضامنها بطريقة ما أخرى وذلك على سبيل المثال بارسال زلزال قادر على دفن فيكتور ورئيس النيابة في الدبش تحت الانقاض وبحيث تدعهما يتعفنان إلى أن تتبخر رائحة البصل وغلى أن يتحولا إلى عظام نظيفة مرة أخرى.

عندما دخل ريكاردو ريس إلى الفندق كان المطر يتساقط من قبعته كما لو كان يسقط من مزراب، وكان معطف المطر الخاص به مبللا للغاية وكان خاليا من الهيبة والوقار الذي يتسم به أي طبيب واتجه إلى مكتب الاستقبال لكي يأخذ مفتاح غرفته، فصاح سلفادور قائلاً: أنت مبتل حتى العظام يا دكتور ولكن نغمة صوته المريبة قد كشفت عن أفكاره التي تقول: ما هي أحوالك في حقيقة الأمر وكيف تعاملت الشرطة معك أو في مزيد من الدرامية: لم أكن أتوقع أن تعود من الشرطة بمثل هذه السرعة الكبيرة، واكتفي ريكاردو ريس بأن قال في تمتمة يا له من طوفان من الأمطار الغامرة ثم سارع إلى الصعود على السلالم وهو يقطر بالماء على سجادة السلالم، سوف تتمكن ليديا من تتبع إثارة من خلال انطباعات أقدامه الواحدة تلو الأخرى ومن خلال غصن مكسوب وأعشاب مداس عليها ولكننا نمر بأحلام يقظة ونتكلم كما لو كنا في غابة من نوع ما في حين أن هذا ليس سوى طرقة بفندق تؤدى إلى الغرفة رقم ٢٠١ ولذلك فهي سوف تسأل: على أي نحو سارت الأمور وهل عاملوك معاملة سيئة ولسوف يرد ريكاردو ريس: لم

تكن توجد هناك أية مشكلة وكانت متحضرة للغاية ومؤدبة إلى أقصى حد بل وهم يدعونك للجلوس على كرسى وتقول: ولماذا استدعوك للذهاب إليهم هناك فيقول يبدو أن هذا هو الاجراء الطبيعي عندما يعود الناس عقب بقائهم بالخارج على مدى سنوات عديدة فهذه مراجعة روتينية ولا شيء أكثر من ذلك وذلك من أجل التأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام ولكي يروا ما إذا كان المرء بحاجة إلى أية مساعدة وتقول: أنت تمزح فذلك لم يكن هو ما قاله لي أخي، فيقول: نعم أنني أمزح ولكن لا تقلقى إذا لم تكن هناك مشكلة إذا كانوا يريدون فقط أن يعرفوا السبب في عودتى من البرازيل وما الذي كنت أفعله هناك وما هي الأمور التي سأفعلها هنا وفقا لمخططاتى وتقول: وهل هم لهم الحق في توجيه أية أسئلة كهذه، فيقول: في اعتقادى أن بمقدورهم توجيه أية أسئلة كهذه، كما يروق لهم والآن انصرفي حيث ينبغي عليّ أن أغير ملابسى من أجل الذهاب إلى صالة الطعام لتناول طعام الغداء، وفي صالة الطعام قام المتردى أوتيل الفونصو لأن هذا هو اسمه بإرشاد ريس إلى منضدته بالصالة، ولدى دخول ريكاردو ريس إلى صالة الطعام قام بتبادل التحية مع دون لورينزو ومع دون ألونصو وأيضاً مع دون كاميلو الذي وصل منذ ثلاثة أيام فقط ولكن دون كاميلو ظل متحفظا في أدب، وأية معلومات يعرفها ريكاردو ريس عن الأوضاع في أسبانيا تكون مما يسمعه من مناقشات الضيوف أثناء وجبة العشاء أو من خلال ما يقرأه في الصحف، مرتع للمعارضة والانشقاق من خلال موجة الدعاية التي يشنها الشيوعيون والفوضويون وأعضاء النقابات التجارية والتي تتغلغل في الطبقات العاملة بل والتي تحدث تأثيرات على أعضاء بالجيش والبحرية، ويمكن لنا الآن أن نفهم السبب في استدعاء قسم الشرطة للدفاع وأمن الدولة لريكاردو ريس.

إنه يحاول أن يتذكر ملامح رئيس النيابة الذي استجوبه ولكن كل ما يستطيع مشاهدته هو خاتم به حجر أسود يطوق الاصبع الصغير في يده اليسرى والصورة الغامضة لوجه شاحب مستدير شبيه بكعكة لم تخبر بالفرن على نحو سليم، ولا يستطيع تذكر شكل العينين ربما لم يكن للرجل عينان على الاطلاق وربما كان يتحدث إلى رجل أعمى، ويظهر سلفادور في غير تطفل في مدخل الصالة لكي يتأكد من أن كل شيء في حالة من الترتيب والنظام طالما أن الفندق قد أصبح دوليا وأثناء تفحصه السريع تقع عيناه على ريكاردو ريس، فيبتسم له من بعيد في حركة دبلوماسية فهو يريد أن يعرف ما حدث في مركز الشرطة، ويقرأ دون لورينزو بصوت مرتفع من أجل دون ألونصو من جريدة «لاجور La Jour» وهي جريدة فرنسية تصدر في باريس، ويقرأ مقالة يوصف فيها أوليفيرا سالازار رئيس الحكومة البرتغالية بأنه رجل نشيط ومتواضع وأن رؤياه وحكمه قد جلبا الازدهار وإحساسا بالفخر القوى ببلاده.

ويعلق دون كاميلو قائلاً: ذلك هو ما نحتاج إليه في أسبانيا ثم يرفع كأسه الملئ بالخمور الحمراء ويومئ برأسه في اتجاه ريكاردو ريس الذي يرد عليه بإيماءة مماثلة ولكنه كبح جماح نفسه عندما تذكر معركة الجبروتة الشهيرة التي أجتاح فيها الجيش الصغير للبرتغال القوات الاسبانية، ويشعر سلفادور بالارتياح والطمأنينة وينسحب من المكان الذي كان يقف فيه في مدخل الصالة ففيما بعد أو ربما غدا سيحكي له ريكاردو ريس عما حدث في شارع ماريا كاردوسو وإذا رفض أو أخفي حقائق معينة فإن سلفادور لديه وسائل أخرى لاكتشاف الأمور حيث يعمل صديق له هناك وهو ذلك الرجل الذي يسمى فيكتور وإذا كانت الأخبار لصالح ريكابردو وإذا اتضح أنه فوق الشبهات عندئذ سيعود الارتياح والسعادة إلى ما كانت عليه ولسوف يحذره سلفادور في لباقة

ودبلوماسية لكي يستخدم الحذر الشديد في تعاملاته مع ليديا حيث سيكتفي بأن يقول له: ذلك من أجل سمعة الفندق يا دكتور ولكي نحمى شهرتنا الممتازة، وبعد أن انتهي ريكاردو ريس من تناول الغداء أومأ برأسه تحية للمهاجرين ولوح بيده لسلفادور تاركا إياه يموج بالتوقعات بينما عيناه مثل عينى كلب مبللتين بالدموع من خلال توسلاته للحصول على عظمة، وصعد إلى غرفته وكان متشوقا لأن يكتب رسالة عاجلة لمارسيندا ويكتب على المظروف «يوضع في شباك البريد» في كوامبرا.

المطر يتدفق بالخارج في صوت يصم الآذان حتى أن الأمر يبدو وكأن المطر ينهمر في جميع أركان العالم في آن واحد «الزئير الشديد للمطر يملأ ذهني روحي هي منحنى غير مرئي مرسوم من خلال صوت الرياح التي تهب في قسوة، حصان مطلق له العنان يبتهج في حريته بينما حوافره تقعقع عبر هذه الأبواب والنوافذ بينما الستائر الرقيقة الموجودة في الداخل تتمايل في رفق شديد» رجل محاط بقطع أثاث طويلة يكتب خطابا ويؤلف النص الخاص به بحيث يبدو ما هو سخيف منطقياً وما هو غير متماسك واضحا وبحيث يصبح الضعف قوة ويصبح العار وقارا ويصبح الخوف شجاعة لأن ما نود أن نكون عليه له نفس قيمة ما كنا عليه، وتجتاح ريكاردو ريس الحيرة والتردد ويتناقش مع نفسه: ما هو أسلوب المخاطبة الذي استخدمه، إن تحرير أي خطاب يعتبر عملا محفوفا بالمخاطر للغاية، فالكلمة المكتوبة لا تفسح المجال أمام التردد أو الحيرة، والألفة وعدم الألفة هي التي تؤكد على النغمة التي تسود الخطاب، وأنت تنتهي بعلاقة تكاد تكون بمثابة خيال، والكثير من الارتباطات المنحوسة قد بدأت تنتهي بعلاقة تكاد تكون بمثابة خيال، والكثير من الارتباطات المنحوسة قد بدأت بهذه الطريقة، بل أن

ريكاردو ريس لم يفكر في إمكانية مخاطبة مارسيندا بعبارة: سيدتى الليدي الرائعة للغاية أو سيدتى المبجلة فاهتماماته بنواحى اللياقة والأدب لم تصل إلى هذا الحد البعيد ولكنه بعد أن استبعد هذه الأشكال التقليدية للمخاطبة والمتسمة بالطابع غير الشخصى لم يجد أمامه سوى مفردات تقترب من طابع الألفة والدفء مثل: عزيزتى مارسيندا على سبيل المثال ولماذا يستخدم كلمة عزيزتى، وصحيح أنه كان بمقدوره أن يستخدم عبارة: السنيوريتا مارسيندا ولكن بدا له أن كلمة سنيوريتا مثيرة للسخصرية والضحك، وبعد أن قام بتمزيق العديد من الورقات وجد نفسه يخاطبها باسمها فقط وهذه هي الطريقة التي ينبغي أن نخاطب بها كل شخص لأن ذلك هو السبب في أننا قد أعطيت لنا أسماء، يا مارسيندا أنني أكتب إليك خطابي هذا كما وعدتك لكي أبلغك بأخباري، ثم توقف لكي يفكر، وبعدئذ استانف وراح يؤلف العبارات ويربطها مع بعضها البعض ويملأ الثغرات وهو إذا لم يكن قد قال الحقيقة أو كل جوانب الحقيقة فهو قد قال حقيقة واحدة فالشيء المهم هو أن الخطاب يجعل الشخص الذي حرر الخطاب والشخص الذي تلقى الخطاب يشعران بالسعادة حيث يكتشف كل منهما وجود الصورة المثالية لنفسهما في داخل الخطاب، لم يكن هناك استجواب رسمي في المركز الرئيسي للشرطة ولا شيء يمكن استخدامه ضده في المحاكم وكل ما حدث هو أنه قد استدعى من أجل إجراء دردشة قصيرة معه وذلك وفقا لما أوضحه رئيس النيابة الذي أبدى روحا متسمة بالود، وصحيح أن فيكتور قد شهد بنفسه كل ما دار من كلام ولكني أعتقد أنه لم يعد يتذكر كافة التفاصيل وغدا سوف يتذكر قدرا أقل من ذى قبل لأن فيكتور لديه في ذهنه أشياء أخرى أكثر أهمية، ولا يوجد هناك أي شهود آخرين ولا يوجد سوى الخطاب الذي كتبه ريكاردو ريس وهذا الخطاب

سرعان ما سيضل الطريق وهذا أمر محتمل للغاية لأنه لا ينبغي الاحتفاظ بوثائق معينة، وقد تقفز إلى الضوء مصادر أخرى ولكنها ستكون محل الشكوك وستكون مشكوكا في صحتها إذا كانت معقولة ومحتملة وفي غياب أي دليل راسخ وقوى سنجد أنفسنا مضطرين لابتكار حقيقة وحوار وفيكتور ورئيس نيابة وصباح ممطر ومليئ بالرياح العاصفة وطبيعة تتعاطف وكلها أمور زائفة وحقيقة في آن واحد، وأنهي ريكاردو ريس خطابه بخالص التحيات وتمنى لها صحة جيدة وبعد أن قفز إلى ذهنه بعض التردد قال لها في تذييل إنه بدأ يشعر أن الحياة بالفندق أصبحت مثيرة للملل والسأم لأنها تسير على وتيرة واحدة، إنه ينبغي عليه أن يعثر على مسكن خاص به ويفتح عيادة طبية، إذ جاء الوقت لكي يرى مدى العمق الذي تصل إليه هذه الجذور الجديدة، وعندما أصبح على وشك أن أغادر الفندق سأكتب لك خطابا على نفس هذا العنوان في كوامبرا ثم أعاد قراءة الخطاب، وطوى الورقة وأغلق المظروف وأخفاه بين كتبه، غدا سوف يرسل هذا الخطاب، واليوم مبارك أولئك الذين لديهم سقف فوق رؤوسهم أثناء هذه العاصفة حتى ولو لم يكن ذلك السقف سوى فندق براجانسا، واتجه ريكاردو ريس إلى النافذة وفتح الستائر ولكن المطر كان يهطل في رقعة واحدة شاسعة من الماء وبالتالي لم يتمكن من مشاهدة سوى قدر ضئيل من الأشياء وليس هذا فقط وإنما أنفاسه تركت سحابة على لوح زجاج النافذة، وتحت حماية الشيش فتح النافذة، كانت كايس دو سودريه مليئة بالسيول كان الكشك الذي يبيع التبغ والأسبرين قد تحول إلى جزيرة وكأن العالم قد تحرر من الرصيف الخاص به وانجرف بعيدا، واحتمى رجلان في مدخل حانة تقع على الجانب الآخر من الشارع وراحا يدخنان السجائر.

لقد كانا يتناولان الخمور وراحا الآن يلفان السجائر في بطء متعمد

بينما كانا يتناقشان في مشكلة ما ميتافيزيقية وربما كانا يتناقشان في المطر الذي كان يمنعهم من إحراز النجاح في حياتهم وسرعان ما اختفيا في غياهب الظلام بالحانة فإذا كان عليهما أن ينتظرا فأنه يمكن لهما أيضاً انتهاز الفرصة والحصول على كأس آخر من الخمور، وظهر عند باب الحانة رجل آخر عارى الرأس ومرتدى ثيابا سوداء لكي يتأمل في السماء ثم اختفي في غياهبها أيضاً، وأغلق ريكاردو ريس النافذة وأطفأ الأنوار وتمدد في أعياء على الأريكة ونشر بطانية على ركبتيه، ومثل دودة حرير القز القابعة في شرنقتها راح يصغى للصوت الحزين للأمطار، وكان مستلقياً وقد فتح عينيه تماماً بعد أن تطاير النوم من عينيه، وراح يتمتم بأبيات من الشعر «أنت وحيد، ولا أحد يعرفك، إلتزم بالصمت والتظاهر» إنها كلمات كتبت في أزمنة أخرى وهو يحتقرها لأنها لم تعبر في صدق عن مشاعر الوحدة القاسية وإنما هي نطقت بألفاظ فقط.

وفي فترة لاحقة من بعد ظهر ذلك اليوم نزل إلى الدور الأول لكي يمنح الفرصة التي يهفو إليها سلفادور فهو سيضطر لأن يفتح هذا الموضوع إن عاجلا أو آجلا، ومن الأفضل أن يختار هو المكان والزمان، وقال ريكاردو ريس: لا ياسنيور سلفادور فقد سارت الأمور على خير ما يرام تماماً وكانوا متسمين بالذوق والمجاملة إلى أقصى حد، والسؤال عندما جاء كان مصاغا في دقة وذوق: والآن قل لي يا دكتور كيف أحرزت النجاح في هذا الصباح وهل ضيقوا عليك الخناق، وقال ريس: لا ياسنيور سلفادور لقد سارت الأمور على خير ما يرام وكانوا في غاية الذوق وكل ما كانوا يريدونه هو بعض المعلومات التي تتعلق بالقنصلية البرتغالية في ريو دى جانيرو حيث كان ينبغي عليّ أن أوقع على وثيقة هناك مجرد أعمال بيروقراطية محضة ولا شيء أكثر من ذلك، وبدا على سلفادور أنه مقتنع بهذا الكلام ولكنه ظل يموج

بالشكوك وهو ما يمكن أن يتوقعه المرء من شخصى رأى قدرا كبيرا من الحياة وخاصة من خلال عمله في فندق، لسوف يصل غدا إلى قاع هذا الموضوع ويسأل صديقه فيكتور حيث يقول له: يا فيكتور ينبغي عليّ أن أعرف جوانب شخصية الناس الذين يقيمون عندى في فندقى وعندئذ سيرد عليه فيكتور محذرا: يا صديقي سلفادور عليك بمراقبة ذلك الشخص إذ عقب الاستجواب قال رئيس النيابة: هذا الدكتور ريس ليس على النحو الذي يبدو عليه وبالتالي ينبغي وضعه تحت المراقبة، ونحن ليس لدينا الآن شكوك معينة ضده ولا يوجد لدينا سوى انطباع عليك بوضعه تحت المراقبة وعليك باخبارنا إذا تلقى خطابات، أنه حتى الآن لم يتسلم أية خطابات، وهذا أيضاً يعتبر أمرأ غريبا وينبغي علينا الذهاب إلى مكتب البريد لنعرف ما إذا كانت هناك خطابات محجوزة من أجله في داخل المكتب، وماذا عن اتصالاته، هل له أية اتصالات، هنا في داخل الفندق ليست له أية اتصالات حسناً إذا شاهدت أي شيء مثير للشكوك أخبرنى على الفور، وعقب هذه المحادثة الخصوصية فإن الجو بالفندق سيصبح مائجا بالتوتر مرة أخرى لأن كل عامل بالفندق سيوائم بصره لكي يتوافق مع الهدف الذي تتجه إليه بندقية سلفادور، فالحذر المستمر يمكن أن يسمى أيضاً بالمراقبة، ويقول فيليب في غمغمة: حتى رامون الطيب أصبح فاتر المشاعر ولا يوجد سوى استثناء واحد كما يعرف الجميع يتمثل في ليديا تلك الفتاة المسكينة، فهي يبدو عليها الهم والقلق، وقالت ليديا لريس: لو سمحت حدثني عن هذه الأمور التي تحدث ولن أفشى كلامك على الاطلاق، فقال لها ريس: لا يحدث هناك أيّ شيء وهذا مجرد كلام فارغ ابتكره أناس لا يفعلون أي شيء سوى التدخل في شئ الآخرين، وكل هذا كلام فارغ، فقال: ولكن هذا يمكن أن يحوّل حياة أيّ شخص إلى كابوس، فقال، لاتقلقى، ما أن

أغادر هذا الفندق سيتوقف هذا الكلام، فقالت: أأنت ستغادر الفندق، أنك لم تخبرنى بذلك من قبل، فقال: إنني سأغادر الفندق إن عاجلا أو آجلا فأنا لا أنوى تمضية بقية حياتي هنا، فقالت ليديا: هذا يعنى أنني لن أتمكن من رؤيتك مرة أخرى على الاطلاق بينما كان رأسها مستندا على كتفه مما جعله يشعر بالدمعة التي انسابت من عينيها، وقال: والآن لا ينبغي أن تنخرطى في البكاء فهذه هي الحياة فالناس يتقابلون ويفترقون ولسوف تتزوجين في يوم من الأيام، فقالت ليديا: باه Bah لقد فاتني قطار الزواج وأصبحت كبيرة في السن ولكن ماذا عنك وإلى أين ستذهب، فقال: سأبحث عن منزل سأبحث عن مكان ملائم فإذا كنت تريدين، فقالت: أريد ماذا وعلى كل حال أنا يمكن لي أن أذهب معك وأقضى أيامى معك فأنا ليس لديّ أيّ شيء آخر في الحياة، فقال: يا ليديا لماذا تشعرين بالحب نحوي، فقالت: لست أدرى وربما بسبب إنني ليس لديّ أي شيء آخر في الحياة، فقال: أنت لك أمك وأخوك ومن المؤكد أنه كانت لك علاقات مع رجال قبل هذا ومما لا شك فيه أنه سيكون لك علاقات مع آخرين فأنت جميلة للغاية ولسوف تتزوجين في يوم ما وتبدأين في تكوين أسرة فقالت: ربما ولكن حاليا أنت بمثابة كل ما أملكه في الدنيا، فقال: أنت فتاة جديرة بأن يحبها الناس.

فقالت: أنت لم تردّ على سؤالى حتى الآن، فقال: وما هو ذلك السؤال فقالت: أتريد لي أن أجئ وأمضى أيامى معك عندما تحصل على مسكن خاص بك، فقال: أتحبين ذلك، فقالت: بالطبع أحبّ ذلك، فقال: اذن ينبغي أن تجيئي معي لحين أن، فقالت: لحين أن تعثر على فتاة من نفس مركزك الاجتماعي، فقال: لم أكن أريد أن أقول ذلك، فقالت: عندما يحدث ذلك سيكون عليك فقط أن تقول لي: يا ليديا إنني لم أعد بحاجة إليك.

فقال: أحيانا أشعر أنني لا أعرف جوانب شخصيتك.

فقالت: أنا خادمة غرف بفندق، فقال: ولكن اسمك هو ليديا كما أن لك طريقة غريبة في قول الكلام، فقالت: عندما يبدأ الناس في التحدث عما يدور في أعماق قلوبهم مثلما أفعل الآن مع وضع رأسي على كتفك فأن الكلمات لا تكون هي نفس الكلمات، فقال: آمل أن تعثرى على زوج ممتاز في يوم ما، فقالت: وما هي مواصفات الزوج الممتاز من وجهة نظرك، فقال: لا أعرف وعلى كل حال فأنت تدققين كثيراً ومن الصعب ارضاؤك، فقالت: لست كذلك في حقيقة الأمر، فقال: أنت تضطجعين هنا بدون أيّ مستقبل،

فقالت: إنني سعيدة بما لديّ الآن، فقال: سأكون دائماً صديقا لك، فقالت: نحن لا نعرف ما سيجلبه الغد لنا،

فقال: وأنت ستكونين دائماً صديقة لي، فقالت: من أنا ذلك شيء ما آخر، فقال أوضحى لي الأمور، فقالت: لا أستطيع ولو كان بمقدورى لأصبحت قادرة على توضيح كل شيء.

فقال: أنت تتقنين توضيح الأمور، فقالت: لا تكن سخيفا فأنا فتاة غير متعلمة فقال: ولكنك تعرفين القراءة والكتابة، فقالت: ليس على نحو جيد للغاية فأنا أقرأ في صعوبة كما لا أستطيع الكتابة بدون الوقوع في أخطاء املائية، وهنا جذبها ريكاردو ريس إليه وعانقها حيث كان الحوار بينهما قد جلب لهما عاطفة يتعذر نفسيهما أو تعليلها وتتماثل مع الآلم حتى أن ما فعلاه بعد ذلك قد تم في رفق شديد ونحن جميعاً أيها القراء نعرف ذلك الشيء الذي حدث بينهما.

وطوال الأيام التي أعقبت ذلك انطلق ريكاردو ريس في البحث عن مسكن، كان يغادر الفندق مبكرا في كل صباح ويعود ليلاً بعد أن يكون

قد تناول غداءه وعشاءه بالخارج، ولقد كان قسم الاعلانات المبوبة بجريدة دياريو دى نوتكياس بمثابة الكتيب الارشادى له ولكنه لم يذهب لمسافات بعيدة عند مشارف المدينة لأن تلك الأماكن البعيدة لم تكن تتلاءم مع احتياجاته أو ميوله، وكان يبحث عن مسكن مفروش ومزود بالأثاث لكي يتجنب دوامة الدخول في شراء واختيار الأثاث والمفروشات والأطباق وبدون وجود إمرأة إلى جانبه لكي ترشده لأن أحدا لا يستطيع أن يتصور أن ليديا الفتاة المسكينة الفقيرة ستدخل معه إلى المتاجر التنويعية وتخرج منها وترشده عما ينبغي عليه أن يشتريه، أما بالنسبة لمارسيندا فإنه حتى لو كانت موجودة هنا وسماح والدها بذلك فما الذي ستعرفه عن هذه الأمور المتسمة بالطابع العملى خاصة وأن المسكن الوحيد الذي عرفته هو المسكن الخاص بها، وهاتان هما فقط الفتاتان اللتان عرفهما ريكاردو ريس ولا يوجد غيرهما، لقد بالغ فرناندو بسوا كثيراً عندما وصفه بأنه دون جوان، وعلى كل حال فإن مسألة ترك الحياة بالفندق ليست سهلة فكل حياة سواء بالفندق من جانب المراقب الخارجى ومن جانب الشخص الذي يتم مراقبته والتعليق عليه، وقصارى القول هيا بنا نكتفي بالأمور القليلة التي نفهمها من الآخرين فهم سيكونون ممتنين بل وربما يقدمون الشكر لنا، ولكن سلفادور لا يشعر بالارتياح لأن حالات الغياب، على فترات مطولة من جانب هذا النزيل بالفندق وعلى نحو مختلف تماماً عن النظام الذي كان يتبعه من قبل قد جعله يشعر بالتوتر.

بل وفكر سلفادور في التحدث في هذا الشأن مع فيكتور ولكن احساسا مفاجئاً بوخز الضمير جعله يغّير رأيه في اللحظة الأخيرة، ماذا لو أصبح ريس متورطاً في موقف ومن خلال المعالجة السيئة للموقف

يصبح هو كمدير للفندق متورطاً أيضاً بل وعلى نحو أسوأ من تورط ريس.

وتزايدت مراقبته لريس وانتشر هذا الاتجاه بين جميع العاملين بالفندق مما جعل الفندق كله يموج بالارتباك والقلق لأنهم كانوا غير واثقين من الطريقة التي يراقبون بها.

اغفر لي أيها القارئ بسبب هذه التفاصيل المملة التي أسوقها إليك ولكنها تفاصيل لها أهميتها أيضاً.

على هذا النحو تكون تناقضات الحياة، في الآونة الأخيرة أشارت التقارير إلى إلقاء القبض على لويس كارلوس بريستيس ودعونا نأمل ألا تصل الشرطة لكي تسأل ريكاردو ريس عما إذا كان قد عرف بريستيس في البرازيل أو ما إذا كان بريستيس أحد المرضى الذي عالجهم، وفي الآونة الأخيرة استنكرت ألمانيا تحالف لوكارنو وبعد التهديدات اللا نهائية احتلت أراضى الراين في نهاية الأمر، وفي الآونة الأخيرة تم في سانتا كلارا افتتاح ينبوع وسط موجة من الاثارة الجامحة من جانب السكان الذين كانوا يحصلون على المياه من قبل من خلال مضخات الحريق وكان احتفالا محببا للنفس حيث قام طفلان بريئان: ولد وبنت بملء إبريقين بالماء وسط التصفيق والهتافات العالية، وفي الآونة الأخيرة ظهر في لشبونة رجل رومانى شهير يسمى مانواليسكو ولدى وصوله أعلن أن «النظرية الجديدة التي تنتشر حاليا في جميع ارجاء البرتغال قد أغرتني على عبور هذه الحدود فأنا أجئ كتلميذ متسم بالاحترام وكمؤمن متهلل»، وفي الآونة الأخيرة ألقى تشرشل خطابا أعلن فيه أن ألمانيا هي الدولة الوحيدة في أوربا حاليا التي لا تخاف من

الحرب، وفي الآونة الأخيرة تم فرض حظر على الفالانج وهو الحزب الفاشستي في ألمانيا وتم إيداع رئيسه خوسيه أنطونيو بريمو في السجن.

وفي الآونة الأخيرة تم طبع ونشر كتاب «يأس الإنسان» بقلم كيركجارد، وفي الآونة الأخيرة تم عرض فيلم بوزامبو في سينما تيفولي وهو فيلم يصور الجهود النبيلة التي قام بها البيض من أجل القضاء على روح الصراع الشس للأجناس البدائية، وريكاردو ريس لم يفعل أي شيء بخلاف البحث لنفسه عن مسكن يوماً وراء يوم وهو مثبط الهمة وقريب من اليأس لدى قيامه بتصفح الجرائد التي تخبره بجميع الأشياء باستثناء الشيء الذي يريد أن يعرفه، فهي تخبره أن فنيزيلوس قد مات وأن أورتنز دى بتنكورت أشار إلى أن الشخص المؤمن بالدولية لا يمكن له أن يكون جنديا بدرجة أقل من الشخص البرتغالي وأن الدنيا كانت تمطر بغزارة بالأمس وأن الشيوعيين تزداد أعدادهم في أسبانيا وأنه يمكن لك شراء كتاب «خطابات راهبة برتغالية» بمبلغ سبعة ونصف اسكود فقط ولكن الجرائد لا ترشده إلى المكان الذي يمكن العثور فيه على شقة ملائمة وهذا هو الأمر الذي يحتاجه بفارغ الصبر، وعلى الرغم من العناية الشديدة التي يبذلها سلفادور فأنه متهلف على الهروب من الجو الخانق الموجود في فندق براجانسا خاصة وهو يعرف الآن أنه لن يفقد ليديا من خلال المغادرة، فهي قد أعطت وعدها وضمنت إشباع تلك الرغبات التي هي أمر مألوف لنا جميعاً، ويبدو على ريكاردو ريس أنه قد نسى فرناندو بسوا إذ خبت صورة الشاعر مثل صورة فوتوغرافية تعرضت لضوء الشمس أو مثل إكليل زهور جنائزية مصنوعة من البلاستيك فقدت لونها، الشاعر نفسه سبق له أن حذره قائلاً: إنها فترة تسعة شهور، وربما تكون المدة أقل من تسعة شهور، وها هوذا لم يعاود التجلي والظهور مرة أخرى وربما يكون هو في حالة نفسية سيئة

أو غاضباً أو ربما يكون هو في حالة موت فهو لا يستطيع الهروب من الالتزامات المتعلقة بحالته.

لا يمكن لمنا سوى التأمل في هذه الأمور وعلى كل حال فنحن لا نعرف أي شيء عن الحياة فيما وراء القبور ولقد نسى ريكاردو ريس أن يسأله عن ذلك الأمر عندما كانت لديه الفرصة فالأحياء يتسمون بالأنانية الشديدة وقسوة الفؤاد، الأيام تمر على وتيرة واحدة وتتسم باللون الرمادى، توجد أنباء عن حدوث المزيد من العواصف في الريبا تيجو Ribatejo حيث اجتاحت الفيضانات الماشية وتعرضت المنازل للانهيار والغوص في الطين علاوة على انغمار حقول القمح تحت الماء ريكاردو ريس لا يعانى من هذه الكوارث ولا يشاهدها وانما هو في التقارير الواردة بالصحف ويدرس الصور الفوتوغرافية المتعلقة بها.

وتقول العناوين الرئيسية: مشاهد مأساوية ويتأمل ريس في قسوة القدر الذي يواصل ضرباته المميتة في إصرار عنيف، فالقدر بمقدوره إزاحتنا عن هذا العالم بوسائل عديدة للغاية ولكنه يجد متعة منحرفة في اختيار الحديد والنار وهذا الطوفان اللانهائي، ونجد ريكاردو ريس متكئاً على أريكة في صالون الفندق ومستمتعا بدفء سخان الكيروسين وبالجو الدافئ إذ لم نكن مزودين بموهبة تعيننا على قراءة ما يدور في داخل القلب البشرى فأننا لن نعرف أبداً الأفكار الحزينة التي تجتاحه وبؤس جاره الموجود على مسافة خمسين أو ثمانين كيلوا مترا.

ها أنذا أتأمل في قسوة القدر وعدم مبالاة الآلهة بينما أسمع سلفادور يخبر بيمنتا بأن يذهب إلى الكشك لكي يشتري جريدة أسبانية وأسمع وقع أقدام ليديا وهي تصعد على السلالم إلى الدور الثاني، وفي تخبّل ألتقط الاعلانات المبوبة مرة أخرى والتي تستحوذ على ذهني باحثا عن

اعلانات «غرف للإيجار» واستعرض القائمة متتبعها بأصبع السبابة وفي شيء من العصبية والتوتر حيث لم أكن أرغب في أن يشاهدني سلفادور وأنا أفعل ذلك، وفجأة أصل إلى محطة أتوقف عندها، غرف مفروشة للإيجار بشارع سانتا كاتارينا ومطلوب سداد تأمين على سبيل الضمان، أستطيع مشاهدة المبنى بنفس الوضوح الذي أشاهد به الصور الفوتوغرافية للفيضان حيث يزدان طابقة العلوي بالنقوش فهو نفس المبنى الذي شاهدته بعد ظهر ذلك اليوم الذي تقابلت فيه مع مارسيندا ولسوف أذهب الآن إلى ذلك المبنى على الفور ولكن ينبغي عليّ ان أتحلى بالصبر وبحيث لا يظهر على وجهي دلائل الاثارة، ينبغي أن أتصرف على نحو طبيعي.

وبعد أن انتهيت من قراءة جريدة دياربو دى نوتيسياس أطويها الآن في حرص وعناية وأتركها في نفس المكان الذي عثرت عليه عليها ولا أفعل مثل بعض الناس الذين يبعثرون الصفحات هنا وهناك، وأنهض واقفا وأقول لسلفادور: أنني أذهب للنزهة فالمطر قد توقف وما هو التفسير الآخر الذي يمكن أن أقدمه إذا تم تضييق الخناق عليّ وعلى نحو فجائي يدرك ريكاردو ريس أن علاقته مع الفندق أو مع سلفادور هي علاقة التابع أو المرؤوس، وينظر إلى نفسه في المرأة ومرة أخرى يرى تلميذا للجزويت ويرى إنسانا ثائرا ضد مجموعة مبادئ النظام لأنها مجموعة مبادئ للنظام، ولكن هذا شيء أسوأ لأنه لا يستطيع أن يستجمع شجاعته ويقول: يا سلفادور لسوف أنطلق الآن لالقاء نظرة على شقة وإذا وجدتها ملائمة فإنني سأترك الفندق فأنا قد سئمت منك ومن بيمنتا ومن جميع العاملين هنا باستثناء ليديا بالطبع التي تستحق أن توجد في مكان أفضلٍ من هذا المكان، أنه لا يقول أيّ شيء من هذا الكلام وإنما يكتفي بالقول: أراك فيما بعد قليل كما لو كان يطلب أن

يسمح له بالخروج من الفندق، فالمرء يظهر الجبن والخوف ليس فقط في ميدان المعركة أو عندما يفاجأ بسكين مصوب نحو أمعائه، وهناك أناس تهتزّ شجاعتهم مثل الجيلى ولكن الغلطة ليست غلطتهم فهم قد وُلدوا ونشأوا على ذلك النحو.

وفي خلال دقائق قليلة كان ريكاردو ريس قد وصل إلى ألتو دى سانتا كاتارينا، وعلى نفس المقعد الخشبي الطويل كان يجلس نفس الرجلين العجوزين وكانا يحملقان في النهر، واستدارا حولهما عندما سمعا وقع أقدام وقال أحدهما للآخر: ذلك هو الشخص الذي كان موجودا هنا منذ ثلاثة أسابيع، فقال الآخر: تعنى الرجل الذي كان مع الفتاة، لأنه على الرغم من أن الكثيرين من الرجال والنساء قد جاءوا إلى هنا من أجل التنزه أو القاء نظرة على المنظر الطبيعي إلا أن الرجلين العجوزين كانا يعرفان على وجه الدقة الرجل الذي يتم التحدث عنه، من الخطأ أن نظن أن المرء يفقد ذاكرته عقب وصوله إلى الشيخوخة وأن الناس العجائز لا يحتفظون في ذاكرتهم إلا بالذكريات البعيدة التي تطفو على السطح تدريجيا مثل أوراق النبتة المغمورة تحت الماء لدى انحسار المياه الزائدة، فهناك ذاكرة قوية للغاية تجيئ مع التقدم في السن لأنها ذاكرة الأيام الأخيرة أو الصورة النهائية للعالم وللحياة، وعلى الباب الرئيسي للمبنى عشر ريكاردو ريس على ورقة مثبتة بالدبابيس وقد كُتب عليها: المشاهدون المحتمل مجيئهم ينبغي عليهم التقدم بطلباتهم للوكيل الموجود في بايسكا Baixa.

ما زال هناك وقت متبقٍ، فجرى ريس على طول المسافة إلى شارع كالهاريز ثم استقل تاكسيا وعاد ومعه جنتلمان قوى البنيان، نعم يا سيدي أنا الوكيل، لقد أحضر معه المفاتيح، وصعدا، ها هي الشقة وهي فسيحة وملائمة وتكفي أسرة كبيرة العدد والأثاث مصنوع من

خشب الماهوجنى الأسود اللون وهذا سرير ضخم وخزانة طويلة وهذه غرفة للطعام مزودة بالأثاث الكامل وهذا بوفيه للمائدة وهذا دولاب من أجل الفضيات أو الأوانى الصينية وهذه منضدة طويلة والمكتبة مزدانة بخشب القيقب والمكتب مغطى بالقماش الأخضر الذي تكسى به موائد البلياردو وهذاهو المطبخ والحمام الذي يعتبر غير متطور ولكنه يفي بالغرض المطلوب، وكانت كل قطعة أثاث عارية وخالية حيث لا توجد أية آنية أو أطباق أو زخارف أو ملايات أو مناشف، فالمستأجرة الأخيرة وهي أرملة عجوز قد ذهبت لكي تعيش مع أطفالها وأخذت معها كافة المتعلقات الخاصة بها وبالتالي فأن هذه الشقة ستؤجر بينما لا يوجد بها سوى هذا الأثاث فقط كما ترى، وأتجه ريكاردو ريس إلى إحدى النوافذ وأدرك أنه لا توجد أية ستائر وكان بمقدوره مشاهدة أشجار النخيل الموجودة بالميدان علاوة على مشاهدة تمثال آداما ستور ومشاهدة الرجلين العجوزين الجالسين على مقعد طويل خشبي وإلى ما وراءهما يوجد النهر الملوث بالطين والبواخر الحربية التي تتجه مقدمتها نحو الشاطئ ولا يمكن للمرء أن يعرف لدى مشاهدته لها ما إذا كان المدّ على وشك أن يرتفع أو يهبط، لو تلكأنا هنا لفترة أطول فأننا سنعرف، وقال رس: ما هي قيمة الايجار وما هو مقدار التأمين الذي سيتم سداده من أجل الأثاث، وفي خلال نصف ساعة كانا قد توصلا إلى اتفاق، وكان الوكيل يدرك أنه يتعامل مع جنتلمان متميز وقال: غدا يا سيدي يسعدنى أن تشرفني بالزيارة في مكتبي لكي توقع على العقد وها هو مفتاح الشقة يا دكتور فالشقة هي شقتك من الآن، فشكره ريكاردو ريس وأصرّ على ترك تأمين يزيد على النسبة المئوية الاعتيادية، فقام الوكيل بتحرير إيصال على الفور حيث جلس إلى المكتب واستخرج من جيبه قلم حبر، وتحت الصمت المطبق في الشقة لم

يُسمع أيّ صوت بخلاف صوت خربشة القلم الحبر على الورقة وصوت أنفاس الوكيل التي تحدث بعض الصفير مما يؤكد أنه كان مصابا بمرض الربو، وقال الوكيل.

ها هو الإيصال لا، لا تزعج نفسك يمكن لي أن استقل تاكسيا وأعتقد أنك بحاجة لأن تبقى في الشقة لبعض الوقت لكي تحصل على الإحساس الخاص بشقتك الجديدة، فقال ريس: إنني أدرك ذلك جيدا فالناس يصبحون مرتبطين مع بيوتهم.

فقال الوكيل: المرأة التي كانت تعيش هنا يا لها من فتاة مسكينة لقد بكت بكاء مريراً عندما تركت هذه الشقة وبدون أن تلقى المواساة من أحد، فقال ريس: نحن كثيراً ما نرغم من خلال الظروف أو المرض أو الترمل وكثيراً ما تكون هنا أمور اضطرارية، فقال الوكيل: في انتظارك بمكتبي غدا، والآن وبعد أن أصبح ريكاردو ريس بمفرده وممسكا بالمفتاح في يده راح يتفقد الغرف مرة أخرى بدون أن يفكر في أي شيء مع الاكتفاء بالقاء نظرة ثم ذهب إلى النافذة، لقد كانت مقدمة البواخر متجهة نحو أعلى النهر وهذا دليل على أن الفيضان ينحسر لقد ظل الرجلان العجوزان جالسين على المقعد الخشبي الطويل.

(١٠)

في نفس تلك الليلة قام ريكاردو ريس بابلاغ ليديا بأنه قد استأجر شقة، فانخرطت في البكاء قليلا واشتكت من أنها لن يعد بمقدورها أن تنظر إليه في كل لحظة، وهذه مبالغة من جانبها فهذه كلمات نابعة من العاطفة لأنها لم يكن بمقدورها أن تنظر إليه في كل لحظة عندا كانا يمضيان الليل سويا مع إطفاء الأنوار خشية أن يكون هناك شخص ما يتجسس عليهما كما أنه في أوقات النهار كانت ليديا تتجنبه أو تخاطبه بشكل رسمي للغاية وهو منظر كان يستمتع به المشاهدون الحاقدون الذين كانوا ينتهزون مجيئ الفرصة لكي يمارسوا انتقامهم، وراح يواسيها: لا تبكي لسوف نشاهد بعضنا البعض خلال أيام أجازتك بعيداً عن عيون الأخرين إذا كنت ترغبين في المجيئ إليّ، وهذا سؤال لا يتطلب أجابة، وقالت: بالطبع أريد المجيئ إليك، ولقد سبق أن قلت لك ذلك، ومتى ستذهب إلى شقتك، فقال: بمجرد أن تصبح الشقة جاهزة، إذ يوجد بالشقة بعض الأثاث ولكن لا توجد مفارش للسرير ولا أي أدوات للمطبخ وأنا لن أحتاج للكثير من الأشياء مجرد عدد قليل من المناشف والملايات والبطاطين في بادئ الأمر ثم اشترى الباقى تدريجيا، وإذا كانت هذه الشقة قد أغلقت لبعض الوقت فإنها ستحتاج لأعمال التنظيف، فقالت: إذن سأقوم أنا بتنظيفها، فقال يمكن لي الاستعانة بامرأة ما من تلك المنطقة، فقالت: يمكنك الاعتماد عليّ في

هذا الشأن ولماذا تذهب للبحث عن فتاة ما أخرى، فقال: أنت فتاة طيبة، فقالت أنا أكون على النحو الذي أنا عليه وتلك هي إحدى العبارات التي لا تتحمل أية أجابة، وكل واحد منا ينبغي عليه أن يعرف من يكون هو ومن المؤكد أنه لا يوجد هناك نقصان في النصائح المتعلقة بذلك الموضوع منذ أيام الاغريق والرومان أعرف نفسك.

وانطلق ريكاردو ريس في اليوم التالي واشترى مجموعتين كاملتين من بياضات السرير وكذلك مناشف من أحجام مختلفة، ومن حسن الحظ أن الماء والغاز والكهرباء لم تقطعها الشركات المعنية وبحيث تظل الحسابات والفواتير بنفس اسم المستأجرة السابقة أو هكذا اقترح الوكيل فوافق ريس على ذلك الوضع، كما اشترى أيضاً بعض الآنية والحلل المصنوعة من الخزف والألمونيوم علاوة على شراء كنكة للقهوة وفناجين وأطباق للفناجين وورق سفرة وشاي وبن وسكر وكافة الأشياء التي يمكن احتياجها لاعداد طعام الإفطار، أما وجبة الغداء والعشاء فيمكن له تناولهما بالخارج، واستمتع بهذه المهام الصغيرة التسويقية حيث ذكرته بأيامه الأولى عقب وصوله إلى ريو دى جانيرو، حيث أنجز كل شيء هناك بدون الحصول على مساعدة من أحد، وفي أوقات الفراغ ما بين جولاته بين الدكاكين والمحلات كتب خطابا مختصرا لمارسيندا ضمنه عنوانه الجديد الذي هو من خلال المصادفات الغريبة يقع بالقرب من المكان الذي سبق أن تقابلا فيه، واستأجر ريكاردو ريس تاكسيا وانتقل به من دكان لآخر لكي يأخذ الأشياء التي اشتراها ثم اشترى بعض الفطائر القليلة والفاكهة والبسكويت والشاي علاوة على مستحضرات تساعد على الهضم وبعض النشاء المغذى، ثم عاد إلى شارع سانتا كاتارينا ووصل إليه في نفس الوقت الذي كان فيه الرجلان العجوزان يهبطان للذهاب إلى منزليهما الواقعين في مكان ما بهذا الحى

السكني، وبينما كان ريكاردو ريس ينقل الطرود واللفائف من التاكسي ويصعد بها على السلالم في ثلاثة مشاوير متتالية توقف الرجلان العجوزان في سيرهما وراحا يرقبان ويشاهدان الأنوار التي توقد في الشقة الواقعة في الدور الثالث، فقال أحدهما: أنظر شخص ما يعيش في الشقة التي اعتادت دونا لويزا Dona Luisa أن تسكن فيها، ولم يواصلا المسير إلا عندما شاهدا المستأجر الجديد يظهر عند النافذة ويشاهدهما، حيث انطلقا وهما في حالة من الاثارة العصبية التي تحدث أحيانا والتي تكون بمثابة انكسار مرحب به رتابة الوجود، نحن نعتقد أننا قد وصلنا إلى نهاية الطريق ولكن هذا ليس سوى منحنى يفتح على أفق جديد وأعاجيب جديدة، فمن نافذته الخالية من الستائر شاهد ريكاردو ريس الامتداد الشاسع للنهر، ولكي يتمكن من الرؤية على نحو أفضل الأنوار بالشقة، فهبط ضوء رمادى بطبقة من الغبار من السماوات وأصبح ذلك الضوء أكثر إظلاما عقب استقراره، وكانت لمبات المراكب التي تعبر من وإلى كاسيلهاس قد أضيئت بالفعل حيث كانت تذكر المياه الداكنة جيئة وذهابا بجوار السفن الحربية ومراكز نقل البضائع الراسية، المنظر يذكرك برسومات الأطفال، المساء حزين النافذة ويحال بينه وبين العالم من خلال سحابة من التكاثف لدى تردد أنفاسه على السطح البارد الناعم فيشاهد الهيكل الملتوى المتحدى لأدا ماستور وهو يتفكك تدريجيا، وكان الجو قد أصبح مظلما بالفعل عندما خرج ريكاردو ريس من الشقة، وتناول طعام العشاء في مطعم بشارع كوريريوس وهو عبارة عن طابق مسروق[١] له سقف منخفض وكان وحيدا منفردا بين أناس فرادى منعزلين عن بعضهم البعض، ترى من هم هؤلاء الناس وما هي

(١) الطابق المسروق: هو طابق متوسط ما بين الطابق الأرضى والذي فوقه. المترجم.

نوعية الحياة التي يعيشونها وما الذي أحضرهم إلى هذا المكان لكي يأكلوا أنواع الأسماك المختلفة مثل سمك القدر وسمك النازلى علاوة على اللحوم المفرومة والبطاطس بينما كل واحد منهم تقريبا يتناول نفس الخمور الحمراء.

وهم متسمون بالطابع الرسمي في مظهرهم أكثر من اتسامهم بالطابع الرسمي في بروتوكول المائدة حيث كانوا يطرقون بشدة على كئوسهم مستخدمين سكاكينهم من أجل استدعاء الجرسون، كما كانوا ينظفون أسنانهم الواحدة تلو الأخرى من خلال استخدام أصبع الابهام وأصبع السبابة مثل الكماشة كما كانوا يتجشأون ويفكون أحزمتهم قليلا ويفكون أزرار الصديرية ويفكون حمالات البنطلونات، وقال ريكاردو ريس لنفسه في تفكير: ذلك هو النحو الذي ستكون عليه وجباتى من الآن فصاعدا وبحيث يتم سماع هذه القعقعة وسماع أصوات الجرسونات وهم يصيحون في المطبخ: واحد حساء علاوة على سماع الأصوات المكتومة لهؤلاء الناس المنهمكين في تناول الطعام بالإضافة إلى وجود ذلك الضوء الكئيب وتلك الشحوم المتجلطة على الأطباق البادرة وعدم نقل الأطباق الشاغرة من المناضد الخالية من الزبائن ووجود قطرات من الخمور على المفارش علاوة على فتات الخبز وإقماع السجائر التي ما زالت تحترق.

كما أن الحياة مختلفة في فندق براجانسا رغم أنه ليس فندقا من الدرجة الأولى، وعلى نحو فجائي يشعر ريكاردو ريس بأنه محروم من وجود رامون رغم أنه سيشاهده مرة أخرى غدا لأن اليوم هو فقط الثلاثاء ولسوف يغادر الفندق في يوم السبت، ومع ذلك فهو يدرك أن لحظات الحنين المشابهة لهذه تميل لأن تكون قصيرة الأمد وأن المسألة ليست سوى عادة أو تعود فأنت تفقد عادة لكي تكتسب عادة أخرى، وهو قد

أمضى في لشبونة فترة تقل عن ثلاثة شهور وها هي ريو دى جانيرو تبدو له مثل ذكريات بعيدة عن حياة شخص ما آخر وليس عن حياته هو ذكريات عن إحدى تلك الحيوات التي لا حصر لها، نعم ففي نفس هذه اللحظة ربما ريكاردو ريس آخر يكون منهمكا في تناول طعام العشاء في أوبورتو أو طعام الغذاء في ريو دى جانيرو، المطر لم يتساقط طوال اليوم مما جعله يتمكن من انجاز مشترياته في هدوء شديد للغاية، وهو الآن يشق طريقه عائدا إلى الفندق وهناك سيخبر سلفادور بأنه بصدد أن يغادر الفندق في يوم السبت.

ويدخل ريكاردو ريس إلى الفندق ويلقى التحية على كل شخص ويسائل نفسه في تعجب عمَّ إذا كان ينبغي عليه أن يأخذ سلفادور على جانب لكي يتحدث معه عن قراره بمغادرة الفندق ولكنه رأى أن هذه السرية ستكون سخيفة لأنه سيقول في تمتمة وهذا على سبيل المثال: استمع إليّ يا سينيور سلفادور إنني لم أهدف أساسا إلى ذلك ولكنك تعرف الكيفية التي تكون عليها هذه الأمور فظروف المرء تتغير بينما الحياة تواصل سيرها والموضوع هو أنني قررت أن أترك فندقك المثير للإعجاب حيث عثرت على شقة وأرجوك ألا تشعر بالإساءة فأنا آمل أن نستمر في صداقتنا، وفجأة يجد نفسه يتصبب بالعرق كما لو كان قد أصبح مرة أخرى تلميذا في الجزويت يركع أمام كرسى الاعتراف ويقول: لقد كذبت ولقد كنت حقودا ولقد كانت لدى أفكار غير نقية ولقد مارست العادة السرية، لقد رد سلفادور الجالس إلى مكتب الاستقبال على تحيته واستدار لكي يلتقط المفتاح من الخطاف، ينبغي على ريكاردو ريس أن ينطق بهذه الكلمات التحريرية على الفور قبل أن يقوم سلفادور بعرقلته أو اعتراض سبيله.

يا سينيور سلفادور أيمكن أن تجهز الفاتورة الخاصة بي حيث سأغادر

الفندق في يوم السبت القادم، وما أن نطق بهذه الكلمات الجافة حتى اجتاحته مشاعر الندم لأن سلفادور الواقف هنالك بينما المفتاح في يديه ظهرت عليه الدهشة الجريحة وأصبح مثل ضحية لعمل من أعمال الخيانة.

فهذه ليست هي الطريقة التي يعامل بها مدير فندق أظهر كل الدلائل التي تشير إلى أنه صديق مخلص، وفي حركة يشوبها التردد يقوم سلفادور بأعطائه المفتاح ويتخذ طابع الوقار ويخاطبه في نغمة أبوية وقوة: آمل أن نكون قد حققنا لك رغباتك أثناء اقامتك هنا يا دكتور، هذه الكلمات المتواضعة التي صيغت في طابع مهني بما فيها من لمحة تهكم قد يساء فهمها من حيث الاشارة إلى ليديا ولكن لا لأن سلفادور في هذه اللحظة لا يحاول سوى نقل شعوره بالاحباط ونقل مشاعره الجريحة، وقال ريكارو ريس في تأكيد وفي حرارة: يا سينيور سلفادور كل ما حدث بكل بساطة هو أنني عثرت على شقة فقررت الإقامة بصفة دائمة في لشبونة نهائيا وإلى الأبد والمرء منا يحتاج إلى ما يمكن أن يقول عنه أنه مكانه.

فقال سلفادور: آه، حسناً، ربما أطلب من بيمنتا أن يساعدك في نقل الحقائب الخاصة بك إذا كانت الشقة هنا في لشبونة، فقال ريس: نعم الشقة في لشبونة ولكني أستطيع تدبرّ أموري حيث سأستأجر شيالا وكان بيمنتا يرغب في نقل الحقائب لكي يعرف عنوان مسكن ريس وبالتالي ينقل هذه المعلومة لسلفادور فقال بيمنتا: ولماذا تستأجر شيالا يا دكتور بينما استطيع أنا القيام بهذه المهمة، فقال ريس: شكرا جزيلا يا بيمنتا حيث أستطيع بسهولة الحصول على شيال، ولكي يتجنب ريس المزيد من الالحاح ألقى كلمات التوديع مقدما حيث قال: أؤكد لك يا سينيور سلفادور أنني أحتفظ بأجمل الذكريات عن فندقك حيث كانت الخدمة

ممتازة وحيث شعرت كأنني موجود في منزلي وحيث عُوملت بكل الرعاية والاحترام الشديد، كما أود أن أعبر عن امتنانى لجميع العاملين بدون استثناء للمودة التي أبدوها لي عقب عودتى إلى أرض الوطن البرتغال التي أنوى الإقامة بها والبقاء فيها للأبد لكم جميعاً جزيل الشكر من كل قلبي، وأضاف: تصبحوا على خير جميعاً ثم صعد إلى غرفته وهو واثق من أنهم كانوا يتحدثون عنه من وراء ظهره وينطقون باسم ليديا، والشيء الذي لا يشك فيه أبداً هو أن النقاش استمر على هذا النحو: ينبغي عليك أن تعرف اسم الشيّال الذي سيستأجره فأنا أريد أن أعرف عنوان السكن الذي سينتقل إليه.

ساعة الحائط لديها ساعات معينة تكون شاغرة تماماً من المعنى حيث تبدو العقارب وكأنها تزحف نحو اللانهائية ويبدو الصباح وكأنه يمضى في تثاقل شديد وفترة ما بعد الظهر وكأنها لا نهاية لها والليل وكأنه سرمدى، تلك هي الطريقة التي أمضى بها ريكاردو ريس يومه الأخير بالفندق.

وكانت تجتاحه بعض الشكوك في اللاشعور فقرر أنه ينبغي عليه أن يكون مرئيا طوال الوقت، ربما لأنه لم يكن يرغب في أن يبدو غير ممتن أو غير مبالٍ.

وكان رحيله أمراً مسلما به من جانب رامون إذ قال لدى وضعه الحساء في طبقه: إذن فأنت بصدد أن تتركنا يا دكتور، وهي كلمات تحمل الحزن العميق عندما يتم النطق بها حيث أن الخدم المتواضعين هم فقط الذين يعرفون كيفية النطق بها، كما أن اسم ليديا لم يغادر شفتى سلفادور أبداً حيث كان يستدعيها من أجل كل شيء ومن أجل لا شيء ويأمرها بأن تفعل شيئاً ما ثم يأمرها بأن تفعل العكس وكان يرقبها في كل لحظة ويرقب التعبيرات التي تظهر عليها وعلى عينها باحثا عن

دلائل التعاسة والدموع التي تكون أمراً طبيعياً لدى امرأة على وشك أن يتركها عشيقها ومع ذلك فأنها كانت تبدو هادئة للغاية وعلى نحو لم تكن عليه من قبل في أيّ وقت من الأوقات مما يجعل المرء يعتقد أنها لم يكن لديها خطاب وفقا لما يمليه عليها عقلها ولا يوجد ضعف من جانب الجسد أو دعارة متعمدة، وراح سلفادور يؤنب نفسه على عدم معاقبتها على مثل ذلك السلوك غير الأخلاقي في نفس الوقت الذي شك فيه في سلوكها أو عندما أصبح ذلك الأمر معروفا للجميع ابتداء من الشائعات التي ظهرت في المطبخ ومخزن الأطعمة، والآن لقد فات الأوان لأن الضيف بصدد مغادرة الفندق ولم يعد هناك داع لأهالة التراب وتوجيه الانتقادات الشديدة خاصة وأن ضميره يقول له أنه هو نفسه يقع اللوم عليه أيضاً لأنه كان يعرف ما يحدث ومع ذلك لم يقل أيّ كلام وبالتالي فهو يعتبر شريكا في الجريمة ويقول لنفسه في تفكير: أنني فقط شعرت بالأسف من أجله فهو قد وصل قادما من البرازيل من الأراضى البرية القفار وبدون أن تكون له أية عائلة لكي تستقبله لدى عودته لذلك عاملته كما لو كان شخصاً يمتّ بصلة القرابة لي، ويواسي سلفادور نفسه بهذه الفكرة مرات عديدة ثم تكلم بصوت مرتفع: عندما يتم اخلاء الغرفة رقم ٢٠١ أريد أن تنظف تماماً حيث قد حُجزت من أجل عائلة متميزة قادمة من جرانادا.

ولدى انصراف ليديا عقب حصولها على تلك التعليمات راح سلفادور يحملق في منحنى شفتيها، لقد كان حتى اليوم بمثابة مدير نموذجي يُحتذى به حيث كان مستقيم الأخلاق ولا يفكر أبداً في الجمع ما بين الشغل بالفندق والمتعة مع الخادمات ولكنه الآن ينبغي عليه أن ينتقم منها من خلال إرغامها على مضاجعته فأما أن توافق وأما أن يطردها إلى الشارع.

ونحن نشعر أن هذا الغضب لن يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فمعظم الرجال يفقدون شجاعتهم في اللحظة الأخيرة.

وعقب تناول طعام الغداء في يوم السبت ذهب ريكاردو ريس إلى الشيادو Chiado حيث تعاقد مع اثنين من الشيّالين ولكي لا يجعلهما يمشيان في تثاقل خلفه في شارع الكريم مثل حرس الشرف أخبرهما بالوقت الذي يجيئان فيه إليه بالفندق، وانتظرهما في داخل غرفته بالفندق، انه بمفرده وجالس على الأريكة ولن تجيء إليه ليديا لأن ذلك هو ما اتفقا سويا عليه، قعقعة من وقع أقدام ثقيلة مترامية من الطرقة تعلن عن وصول الشيالين ومعهما بيمنتا، في هذه المرة لن يضطر بيمنتا لأن يتعب نفسه، أقصى ما سيفعله هو أنه سيقوم بنفس الحركة التي قام بها كل من ريكاردو ريس وسلفادور عندما قام لأول مرة بحمل الحقيقة الكبيرة حيث اكتفيا بوضع يد أسفل الحقيبة مع ذلك كلمة تحذير على السلالم وهي كلمة نصيحة لا لزوم لها بالنسبة لهؤلاء الذين لديهم خبرة كبيرة في حمل الحقائب، ويذهب ريكاردو ريس لكي يوّدع سلفادور ويترك بقشيشا سخيا من أجل العاملين بالفندق، وزِّع هذا البقشيش عليكم على النحو الذي تراه ملائما، فيشكره المدير، ويبتسم بعض الضيوف الذين تصادف وجودهم موافقين على هذه الصداقات الحميمة التي تكونت في هذا الفندق.

ويشعر الأسبان بالتأثر الشديد لدى رؤية مثل هذه المشاعر الودية، ولا عجب في أن بلادهم المقسّمة تقفز إلى الأذهان فهذه هي تناقضات شبه الجزيرة، وفي أسفل بالشارع كان بيمنتا قد سأل الشيالين بالفعل عن العنوان الذي سينقلان إليه الحقائب، ولكن الجنتلمان لم يذكر لهما العنوان ويعتقد أحدهما أن المكان الذي سيذهبان إليه ليس بعيداً والآخر غير متأكد من ذلك، ولكن لا داعي للقلق لأن بيمنتا يعرف هذين

الشيالين بل وكان أحدهما يعمل لصالح الفندق ودائما ما يمكن العثور عليهما موجودين في الشيادو Chiado ولذلك عندما يرغب في معرفة هذا السرّ فأنه لن يذهب إلى مكان بعيد، ويقول له ريكاردو ريس: لقد تركت لك مبلغا صغيراً من المال كعرفان للجميل، فيردّ بيمنتا: شكرا جزيلا يا دكتور إذا احتجت لأي مساعدة في أيّ وقت يمكن لك الاعتماد عليَّ، أنها كلمات شاغرة أنها كلمات نفاق خاوية والرجل الفرنسي الذي قال أن الإنسان قد مُنح الكلمات لكي يستخدمها في اخفاء أفكاره كان على حقّ، ولذلك لا ينبغي علينا أن نتوصل إلى أحكام متسرعة لأن الشيء المؤكد هو أن الكلمات هي أفضل وسيلة تأمل فيها في محاولاتنا الرامية إلى التعبير عما يفتعل في داخل أذهاننا من أفكار ورغم ذلك فهي دائماً ما تصيبنا بالاحباط، والآن يعرف الشيالان المكان الذي سينقلان إليه الحقائب لأن ريكاردو ريس يذكر لهما العنوان بمجرد أن انسحب بيمنتا، وينطلقان صاعدين في الشارع، انهما يستخدمان الرصيف الذي به كسور أقلّ.

هذا ليس حملا ثقيلا بالنسبة لشيالين معتادين على نقل البيانوهات وغيرها من الأشياء الأخرى الرهيبة الحجم مع استخدام الرافعات والحبال، ويسير ريكاردو ريس أمامهما على مسافة كافية لكي يتجنب أعطاء انطباع بأنه يقود هذه الحملة ولكن ليس على مسافة بعيدة للغاية مما يجعل الشيالين يشعران أنهما لا يسيران برفقة أحد، لا شيء يمكن أن يكون أكثر دقة ورقة من هذه العلاقات التي تتم بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، فالتوافق الاجتماعي هو مسألة ذوق ولباقة ورقة وذكاء وسيكولوجية، وفي منتصف المسافة بالشارع يضطر الشيالان إلى التحرك إلى جانب واحد فينتهزان هذه الفرصة للاستراحة قليلا واستعادة أنفاسهم المتقطعة لأن موكبا من عربات الترام المليئة بأناس لهم شعر

أشقر وبشرة وردية يعبر الطريق فهم سياح ألمان وعمال ينتمون لجبهة العمل الألمانية، وكلهم تقريبا يرتدون الزيّ البافارى والبنطلونات القصيرة والقمصان وحمالة الكتف والقبعة التي لها حافة ضيقة، وبعض عربات الترام مفتوحة مثل أقفاص بحيث يمكن للمطر أن يتساقط على الركاب كما يشاء لأن المظلة المصنوعة من قماش القنب توفر حماية ضئيلة، تُرى ما الذي يقوله هؤلاء العال الآريين عن حضارتنا البرتغالية وما هو رأى أبناء الجنس الآرى عن هؤلاء الناس الريفيين السُذَّج الذين يتوقفون الآن في مشيتهم لكي يرقبوا الآريين وهم يمرّون، أنظرو إلى ذلك الجنتلمان ذى الشعر الأسود المرتدى معطف مطر وإلى هذين الرجلين غير حليقى الذقن المرتدين ملابس مثل المتشردين واللذين يرفعان الأحمال على أكتافهما ويستأنفان سيرهما على الطريق، ويمرّ الترام الأخير كان العدد الاجمالى للترامات ٢٣ تراما تتجه إلى تورى بيليم وإلى موستيرو دوس جيرونيموس وغيرها من المعالم الأخرى في لشبونة مثل ألجيس Alge's ودافوندو Dafundo وكروز كويبرادا Cruz Quebrada.

وفي رأسين منحنيين بسبب حملهما بدون شك عبر الشيالان الميدان الذي يقف فيه تمثال الشاعر الملحمى، وتبعهما الآن ريكاردو ريس وهو يشعر بالخجل لأنه لا يحمل أيّ شيء ويضع يديه في جيبه، وفي أسفل هذا الطريق يمكن لك مشاهدة أشجار النخيل الخاصة بألتو دى سانتا كاتارينا بين الجبال عند الشاطئ المقابل، وتظهر سحب ثقيلة مثل نساء مفعمات بالصحة على نحو جذاب متجليات عند نوافذهن، وهذه استعارة من شأنها أن تجعل ريكاردو ريس وهو شاعر نادرا ما توجد السحب من أجله. يهزّ كتفيه في احتقار، فالسحب الناعمة كالصوف تكون متسابقة ومتكررة إلى درجة الابتذال، وإذا كانت ممطرة فأن ذلك

يعني أن أبوللو قد أخفي وجهه، هذا هو المدخل المؤدى إلى شقتى وهذا هو المكان الذي سأعيش فيه، لم تُفتح نوافذ الجيران لدى وصولنا ولم تترك أبواب مفتوحة أو مواربة، يبدو أن أقل الناس حباً للاستطلاع بلشبونة يسكنون في هذا المبنى أو ربما يكونون منخرطين في التجسس من خلال ثقب الباب حيث يومض انسان عيونهم في بريق، ونخطوا الآن إلى داخل الشقة ومعنا حقيبتان صغيرتان وحقيبة واحدة كبيرة ويتم سداد النقود المتفق عليها علاوة على تقديم البقشيش المتوقع، توجد رائحة عرق لاذعة وخَريفة، وقالا: إذا احتجت إلى أيّ مساعدة يا سيدي فنحن تحت أمرك دائما، وقالا كلمة: دائماً في حماس شديد حتى أن ريكاردو ريس صدَّقهما ولكنه لم يردّ عليهما.

فالإنسان في حالة قيامه بالدراسة يتعلم كيف يكون متشككا، ولدى انصراف الشيالين أغلق ريكاردو ريس باب الشقة، وبدون أن يضئ الأنوار راح يتفقد الشقة كلها بينما وقع أقدامه يحدث صدى على الأرضية العارية الخالية من السجاد، الأثاث خال من المفارش وتنبعث منه رائحة كرات النفتالين وفروخ باليه من ورق رقيق شبه شفاف ما زالت تصطف في بعض الأدراج بينما الزغب متجمع في الأركان، وبالقرب من المطبخ والحمام تنبعث رائحة قوية صادرة عن المجارى لأن الماء كان منخفضا في صهريج الماء، وقام ريكاردو ريس بفتح الحنفيات وشد سيفون التواليت عدة مرات، فامتلأت الشقة بأصوات: صوت المياه الجارية وصوت ذبذبة الأنابيب وصت طرق صادر عن العداد ثم ساد الصمت المطبق مرة أخرى، وفي خلف المبنى كان يوجد فناء به ملابس معلقة لكي تجف علاوة على وجود مساحات صغيرة من الأرض المزروعة بالخضروات التي لها لون الرماد بالإضافة إلى معلف وأوعية الراقود الضخمة المصنوعة من الأسمنت ومربي للكلاب وأكواخ

للأرانب وحظائر للدجاج، وعاد ريس إلى الجزء الأمامى بالشقة لكي ينظر من نافذة غرفة النوم إلى الشارع المهجور، هنالك كان يقف آداماستور شاحبا في مواجهة السحب المعتمة، إنه عملاق يموج بالغضب في صمت، بعض الناس يرقبون البواخر وينظرون لأعلى من وقت لآخر كما لو كانوا يتوقعون هطول الأمطار، وعلى نفس المقعد الخشبي الطويل كان الرجلان العجوزان مستغرقين في مناقشة، وابتسم ريكاردو ريس وقال لنفسه: هذا أمر حسن أنهما منهمكان للغاية في الكلام لدرجة أنهما لم يلحظها وصول الحقائب، إنه لم يكن ابن نكتة أبداً ولكنه شعر بالتسلية كما لو كان قد خدعهما في لعبة غير ضارة ومتسمة بروح الصداقة، كان لايزال يرتدى معطف المطر الخاص به، كما لو كان قد رجع توا من زيارة أو من زيارة طبية كما يقول المثل المأثور في سخرية لكي يتفحص على وجه السرعة المكان الذي قد يشتريه ذات يوم، وأخيرا قال بصوت مرتفع: مثل رسالة لا ينبغي عليه أن ينساها إنني أعيش هنا وهذا هو المكان الذي أعيش فيه وهذا هو منزلي إنه هذا وليس لي منزل سواه، وفجأة شعر بالخوف، شعر بالرعب الذي يحس به رجل يجد نفسه موجودا في كهف عميق ثم يفتح باباً فيجده يؤدي إلى ظلام خاص بكهف آخر أكثر عمقا أو يؤدي إلى فراغ وانعدام ولا وجود علاوة على الانزلاق إلى اللاكونية NONBEING، ثم قام بخلع معطفة وجاكتته وعندئذ أدرك أن الشقة باردة، وكما لو كان يقوم بحركات قد تم الاتيان بها بالفعل في حياة أخرى راح يخرج محتويات الحقائب بطريقة منهجية منظمة: ملابسه وأحذيته وأوراقه وكتبه وكافة تلك الأشياء الصغيرة سواء أكانت جوهرية ومهمة أو غير والتي ننقلها معنا من مسكن لآخر والتي تشبه الخيوط المتقاطعة المتشابكة في شرنقة، وعثر على الروب دى شامبر الخاص

به، فارتداه أنه الآن رجل قابع في استقرار في داخل منزله، وأضاء المصباح المتدلى من السقف، هذا المصباح يحتاج إلى لمبة على شكر زهرة التوليب، من أجل تخفيض الوهج الضوئي الذي يؤذى عينيه، وبسبب انهماكه في وضع الأشياء في أماكنه المألوفة فأنه لم يلحظ في بادئ الأمر أن المطر قد بدأ يتساقط ولكن هبة رياح قوية جعلت الأمطار تطرق على زجاج النافذة يا له من طقس عجيب، ثم اتجه إلى النافذة، الرجلان العجوزان اللذان يشبهان حشرتين داكنتين منجذبتين من خلال الضوء كانا يقفان على رصيف المشاة في مواجهة بعضهما البعض حيث كان أحدهما طويل القامة والآخر قصير وقد احتمى كل منهما تحت مظلته بينما رأساهما يتجهان لأعلى مثل حشرة فرسة النبي التي تصلي في تضرع إلى الله، في هذه المرة لم يشعرا بالخوف من الوجه الذي ظهر متجليا وما أن أصبح المطر أشد قوة شرعا في السير في الشارع، وعندما وصلا إلى منزليهما فأن زوجتيهما ـ إذا كان متزوجين ـ ستنفجران فيهما في تأنيب وتوبيخ، مبتل حتى النخاع عليك فقط بالنظر إلى نفسك في المرآة من الممكن أن يتسبب ذلك في أصابتك بمرض السل وعندئذ سأعانى في مشقة تمريضك، وعندئذ سيقول الرجلان العجوزان لهما: شخص ما قد نقل أمتعته إلى شقة دونا لويزا وهو رجل يبدو عليه أنه أعزب حيث لم يشاهد أي شخص آخر معه على الإطلاق تصورى مكان ضخم كهذا ولا يسكن فيه سوى شخص أعزب، ياله من تبديد لمكان ممتاز كهذا، وأنت أيها القارئ قد تسأل عن الكيفية التي عرفت بها هاتان المرأتان أن الشقة كبيرة وشاسعة ونقول أنه ربما في أيام دونا لويزا كانت تلك المرأتان تخدمان في ذلك المنزل وتقومان بأعمال النظافة وغسل الثياب، فالنساء المنتميات لتك الطبقة الاجتماعية المنخفضة يمددن أيديهن نحو أي يجئ في طريقهن إذا كان أزواجهن يحصلون

على أجور ومرتبات منخفضة أو يضعون بعض هذه النقود في جيوبهم من أجل انفاقها على تناول الخمور والاضطجاع مع المومسات، وبالتالي فإن هؤلاء الزوجات التعيسات يجدن أنفسهن مضطرات لمسح السلالم وغسل الملابس وبحيث لا يفعلن أي شيء بخلاف ذلك مما يجعلهن بمثابة أستاذات متخصصات في هذا المجال، ويكون لهن الطرائق الخاصة بهن في الحياة حيث يفتخرن على سبيل المثال بالملايات الناصعة البياض التي قمن بغسلها وحكها بالصابون المشبع بحامض الكاربوليك والتي تصلح لأن تكون كسوة لمذبح الكنيسة ولكن إلى أين ـ أيها القارئ ـ يجرنا هذا الاستطراد في الكلام، والآن نقول أن السماء أصبحت معتمة ومظلمة وسرعان ما سيخيم الليل هنا، عندما كان الرجلان العجوزان يقفان على الرصيف وينظران لأعلى فقد بدا عليهما وكأنهما يستدفئان في الضوء الكامل للنهار إلا أن هذا بكل بساطة كان بمثابة التأثير الناجم عن اللون الأبيض لذقنيهما عقب مرور ثمانية أيام بدون حلاقة، ولا حتى في هذا اليوم وهو يوم الأحد جلسا على كرسى الحلاق أو استخدما موس الحلاقة الخاص بهما ولكن غدا إذا تحسن الجو سيكونان حليقى الذقن وستكون بشرتهما مليئة بخيوط وتجاعيد، وعندما نقول أن شعرهما أبيض فأننا نعنى أنه أبيض في الأماكن السفلية فقط لأنه في القمة لا يوجد لديهما سوى كتلة صغيرة حزينة من الشعر الموجود فوق أذنيهما، ولكن علينا أن نعود إلى النقطة التي كنا قد وقفنا عندها، عندما كانا واقفين هنالك على الرصيف كان ضوء النهار ما زال موجودا رغم أنه كان أخذا في التلاشى السريع ولذلك فهما عقب مشاهدة المستأجر بالدور الثالث لدى ازدياد سقوط الأمطار فأنهما شرعا في النزول من فوق التل وواصلا المير لدى تزايد الظلام على نحو مستمر وما أن وصلا إلى الناصية حتى خيم الليل تماماً، ومن الأمور

الملائمة أن لمبات الشارع كانت مضاءة وكانت تلقى بلآلئ على زجاج النوافذ، وينبغي أن يقال أن لمبات الشارع هذه لا تشبه على الاطلاق تلك اللمبات التي ظهرت في المستقبل حيث ستصل العصا السحرية للكهرباء إلى ألتو دى سانتا كاتارينا والأماكن المحيطة بها حيث ستضاء اللمبات في لحظة واحدة مجيدة، أما اليوم فالأمر يتطلب منا الانتظار إلى أن يجيئ شخص ما ليوقدها الواحدة تلو الأخرى.

لقد عاد ريكاردو ريس إلى عمله الروتينى المنزلي لكي يضع حلله وقمصانه ومناديله وجواربه في المكان المألوف الخاص بها الواحدة تلو الأخرى كما لو كان يؤلف قصيدة غنائية، وكان لون رباط العنق الذي علقه توا يتطلب شراء حلة متلائمة مع ذلك اللون، وعلى المرتبة التي كانت تخص دونا لويزا وهي بالتاكيد ليست هي نفس المرتبة التي فقدت عذريتها عليها منذ سنوات عديدة وإنما هي المرتبة التي نزفت بالدماء عليها أثناء انجابها طفلها الأخير والتي عانى عليها ومات زوجها الحبيب الذي كان يعمل قاضيا في المحكمة العليا على نفس هذه المرتبة راح ريكاردو ريس ينشر الملاءات الجديدة علاوة على اثنتين من البطاطين الصوفية الجديدة، ووضع المساند في أكياسها الجديدة مع بذله أقصى الجهد ولكنه فعل ذلك في غير اتقان شأنه في ذلك شأن أي رجل غير خبير بالشئون المنزلية، ولسوف تظهر ليديا في نهاية الأمر وربما غدا بيديها السحريتين لكي تنظم كل هذه الفوضى وتعيد ترتيب الأشياء التي نظمت على نحو ردئ، وقام ريس بحمل الحقائب ووضعها في المطبخ وقام بتعليق الفوط والمناشف في غرفة الحمام الباردة كالثلج ووضع أدوات الزينة والحلاقة في الكابينة الحائطية الصغيرة التي كانت تنبعث منها رائحة عفن فطرى بشكل قاطع، وكما رأينا فهو رجل أنيق ومدقق فيما يتعلق بمظهره لأن هذه مسألة افتخار شخصى، وكل ما تبقى الآن

هو أن يقوم بترتيب كتبه فوق أرفف الكتب السوداء اللون الموجودة بغرفة المكتبة مع وضع أوراقه في أدراج المكتب الأسود غير المثبت على الأرض في إحكام والآن فهو يشعر بأنه في بيته المريح، لقد اهتدى إلى طريقة بعد أن كان ضالا، البوصلة تظهر للعيان الجهات الرئيسية: الشمال والجنوب والشرق والغرب اللهم إلا إذا هبت عاصفة مغناطيسية ودفعت هذه البوصلة إلى نوبة من الجنون.

في الساعة السابعة والنصف لم يكن المطر قد توقف، ريكاردو ريس يجلس على حافة السرير العالى ويتفحص الغرفة الحزينة الكئيبة، النافذة خالية تماماً من الستائر أو الشباك، ويخطر على ذهنه أن الجيران عبر الطرقة ربما يتجسسون عليه ويهمسون بالكلمات مع بعضهم البعض، يمكن لك مشاهدة أي شيء يدور في الداخل هنالك، أنهم يتطلعون في شغف لمشاهدة مناظر مثيرة أكثر من مجرد هذا المنظر الذي يجلس فيه رجل بمفرده على حافة سرير من طراز قديم بينما وجهه مغلف ومتوار في سحابة، ينهض ريكاردو ريس ويغلق الشيش الداخلي، أصبحت الغرفة الآن بمثابة زنزانة بها أربعة حوائط صماء وبها باب لو قام بفتحه لأدى إلى باب آخر أو إلى كهف مظلم فاغر فاه في تثاؤب، لقد سبق لناأن استخدمنا تلك الصورة ولا داعي لتكرارها مرة أخرى أيها القارئ، ولسنا بحاجة لأن نندهش إذا كان ريكاردو ريس يشعر أن بطنه تقعقع لأن وقت تناول طعام العشاء قد حان، وحتى مع غلق الشيش يمكن لك سماع المياه تطرطش على الرصيف هابطة من الطنف والافريز، ومن الذي يجسر على الخروج في هذا الجو الرهيب إلا إذا كان مضطرا لمواجهة التزام ملح مثل أن ينقذ المرء والده من المقصلة إذا كان والده ما زال على قيد الحياة، صالة الطعام بفندق براجانسا هي جنة مفقودة، وهي كأية جنة مفقودة يشتاق إليها كثيراً ريكاردو ريس الذي يود العودة

للفندق ولكن ليس ليبقى به، ويذهب ليحضر لفائفه وفطائره وفواكهه المكسوة بحبيبات من السكر من أجل تناول الطعام حيث يشعر بالجوع الشديد.

بالنسبة للشرب لا يوجد سوى ماء الحنفية الذي له مذاق حامض الكربوليك، من المؤكد أن آدم وحواء قد شعرا بالحرمان الشديد خلال تلك الليلة الأولى عقب طردهما من جنة عدن ومن الواضح أن المطر كان يهطل مدرارا آنئذ أيضاً، وبينما كانا يقفان في المدخل قالت حواء لآدم: اتحب أن تتناول البسكويت ونظرا لأنها لم يكن لديها سوى بسكويتة واحدة فإنها كسرتها إلى نصفين وأعطته الجزء الكبر، فراح آدم يمضغ ويطحن بأسنانه في بطء بينما يرقب حواء وهي تأكل في رفق قطعتها الصغيرة مثل طائر صغير فضولى ومحب للاستطلاع، وعلى الجانب الآخر من الباب الذي أغلق في وجههما للأبد بدون وجود أي هدف شرير أو أي تحريض من جانب الحية فأنها كانت قد قدمت له تفاحة، ويقال أن آدم لم يتنبه إلى العرى الخاص بها إلا بعد أن قضم قطعة من التفاحة وأن حواء التي لم يكن لديها الوقت الكافي لكي ترتدي ملابس ظلت شبيهة بزنبقة الحقل التيلا تدور أو تتلوى، وليس بعيداً عن عتبة جنة عدن أمضيا الاثنان الليل في راحة بعد أن تناولا البسكويت في وجبة العشاء. ريكاردو ريس موجود في شقته بمفرده، ثمرة الكمثرى المكسوة بحبيبات من السكر جعلته يشعر بالغثيان لدى تناول جزء منها، فذهب إلى الحمام لكي ينظف يديه اللزجتين علاوة على تنظيف فمه وأسنانه لأنه لا يستطيع تحمل هذه الدلكيزا Dolceza وهي كلمة ليست برتغالية أو إسبانية ولكنها مأخوذة عن الايطالية لأنها الكلمة الوحيدة التي تتلاءم على ما يبدو في هذه الحالة، العزلة تثقل على كاهله مثل الليل والليل يلتهمه مثل طعم، من خلال الدهليز الضيق

الطويل الواقع تحت الضوء الأخضر الهابط من السقف فأنه يبدو مثل حيوان بحرى له حركات بطيئة كسولة ومثل سلحفاة لا حول لها ولا قوة بدون صدافة أنه يبحث في دقة في المكتب بين مسودات قصائده الشعرية التي يسميها قصائد غنائية ولذلك ظلت محتفظة بذلك الاسم لأن كل شيء ينبغي أن يحصل على اسم، ويقرأ على نحو عشوائي ويسائل نفسه عما إذا كان هو المؤلف لأنه لا يتعرف على نفسه في هذه الأشياء المكتوبة، ويستغرق في التفكير على نحو غامض، أنه ينبغي عليه أن ينظم حياته ووقته ويحدد الطريقة التي يقضى بها فتراته الصباحية وفترات ما بعد الظهر والفترات المسائية وبحيث ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا ويعثر على مطعم واحد أو اثنين من تلك المطاعم التي تقدم وجبات سهلة الهضم وصحية كما ينبغي عليه أن يعيد قراءة قصائده ويراجعها من أجل المقتطفات الأدبية المختارة التي يخطط لكي يطبعها وينشرها في وقت ما مستقبلا، كما ينبغي عليه العثور على المقدمات المنطقية اللازمة لمهنته كطبيب، علاوة على التعرف على الناس والسفر إلى أجزاء أخرى من البلاد وزيارة أوبورتو وكوامبرا وزيارة الدكتور سامبيو والالتقاء بطريق المصادفة مع مارسيندا، أنه لم يعد يفكر في خططه وأهدافه، أنه يشعر بالتعاطف مع المرضى والعجائز ثم يشعر بالعطف على نفسه وتتحول عاطفته إلى الاشفاق على الذات والرثاء لها وبينما هو جالس هنالك يشرع في كتابة قصيدة ثم يتذكر فجأة أنه قد كتب ذات يوم ما يلي: «إنني أصر في حزم على أساس القصائد إنني وضعت الشكل والصياغة» أى شخص وضع ميثاقا كهذا لا يستطيع الآن أن يقول عكس ذلك.

ويذهب ريكاردو ريس إلى السرير قبل أن تدق ساعة الحائط معلنة العاشرة مساء، المطر ما زال يتدفق، لقد أحضر كتابا إلى السرير، كان قد اختار كتابين ولكنه قرر أن يترك كتاب «إله المتاهة»، وبعد عشر

صفحات من خطبة يوم الأحد الأول في الصوم الكبير Lent أصبحت يداه غير الموضوعتين في قفاز في حالة تجمد بسبب شدة البرودة، تلك الكلمات المتحمسة المتوهجة لم تكن كافية لتدفئتها.

«فتش في داخل منزلك وأبحث عن أتفه الأشياء به وعندئذ سنكتشف أن أتفه الأشياء هي الروح الخاصةِ بك» فوضع الكتاب على الكومودينو، وجثم رابضا في ارتعاد فجائي ورفع الملاءة لكي تصل إلى فمه ثم أغلق عينيه، وأدرك أنه كان ينبغي له أن يطفئ الأنوار ولكنه إذا فعل ذلك سيشعر أنه مضطر للاستغراق في النوم وهو لم يكن على استعداد لاستقبال النوم بعد، في الأيام البادرة كهذه كانت ليديا تضع له زجاجة ماء ساخن بين الملايات فهل هي بصدد أن تفعل ذلك الآن من أجل دوق مادينا سيللى الذي شغل غرفته بالفندق، هدئ نفسك أيها القلب الغيور فالدوق قد جاء برفقة الدوقة، لقد هبط النوم على ريكاردو ريس، فهو قد أدرك ذلك عندما استيقظ في ذعر لدى سماعه طرقا على الباب، أيمكن أن يكون الطارق هي ليديا التي انزلقت متسللة وخارجة من الفندق وجاءت تحت هذا الوابل من الأمطار لكي تمضى الليل معي يالها من فتاة عبيطة، ثم قال لنفسه في تفكير: لقد كنت مستغرقا في حلم، وهكذا بدا الأمر لأنه لم يسمع أي طرق آخر على الباب في الثوانى التي أعقبت الطرق الأول، ربما توجد أشباح في هذه الشقة وربما هذا هو السبب في أنهم لم يستطيعوا تأجيرها على مدى فترة طويلة رغم أنها فسيحة للغاية وواقعة في مكان مركزى بالمدينة، إلا أن الطرق ترامى مرة أخرى، تات/ تات/ تات/ تات في ضربات مكتومة ومتحفظة بهدف عدم ازعاج الجيران، فنهض ريكاردو ريس من السرير ووضع قديمه في الشبشب ولف الروب دى شامبر حول جسده واتجه من الغرفة إلى الصالة وهو يرتعد من البرد ثم نظل إلى باب الشقة كما لو

كان ينذره بالتهديد، ووقال ريس: من الطارق، فجاء صوته خشنا ومتلعثما، فكرر نفس السؤال بعد أن سلك صوته، فترامى الرد في تمتمة وهمهمة قائلاً: أنه أنا، أنه لم يكن شبحا أنه فرناندو بسوا، ففتح ريس الباب فوجد أمامه بالفعل، وكان مرتديا حلته السوداء وكان بدون معطف وبدون قبعة، ورغم أنه قد جاء من الشارع توا لم يكن يوجد عليه قطرة واحدة من الماء، وتساءل: هل لي أن أدخل، فقال ريس: لم يسبق لك من قبل أن طلبت مني إذنا بالدخول فلماذا هذا التردد والحيرة، فقال بسوا: الأمور قد تغيرت وأنت الآن في المنزل الخاص بك والمثل الانجليزي الذي تعلمته عندما كنت تلميذا بالمدرسة يشير إلى أن بيت الرجل هو قلعته، فقال ريس: «تفضل بالدخول لقد كنت في سريري»، فقال بسوا: أكنت نائماً، فقال ريس: اعتقد أنني كنت في سنة من النوم فقال بسوا: لا داعي لتوخى الرسميات معي إرجع إلى سريرك، إنني سأزورك لمدة دقائق قليلة، فانزلق ريكاردو ريس تحت الملايات بينما أسنانه تصطك بسبب البرد وبسبب بقايا الخوف، ولم يخلع الروب دى شامبر الخاص به، وجلس فرناندو بسوا في كرسى ووضع ساقا على ساق وشابك يديه على ركبته ونظر فيما حوله في تفحص، وقال: إذن هذا هو المكان الذي تقيم فيه أرى أنه كئيبا وموحشا، فقال ريس: الأماكن التي تظل شاغرة لبعض الوقت تعطي دائماً ذلك الانطباع، فقال بسوا أتهدف إلى أن تعيش هنا بمفردك فقال ريس: من الواضح أنني لن أعيش بمفرد، فأنا قد جئت إلى هذه الشقة منذ اليوم وها أنذا استقبل زائرا بالفعل فقال بسوا: أنا لا أدخل في الحسبان فأنا نادرا ما أكون مرافقا لأي شخص فقال ريس: أنت تهمنى بصفة خاصة ولسوف أعطيك مفتاحا لهذه الشقة، فقال بسوا: وماذا سأفعل بالمفتاح إذا كان بمقدورى اختراق الحوائط فأنا أوفر عليك هذه

المتاعب فقال ريس: لا تستاء من كلامي وأنا أقول لك بكل صراحة إنني سعيد بمشاهدتك فهذه الليلة الأولى ليست سهلة، فقال بسوا: أأنت خائف، فقال ريس: لقد شعرت بشيء من التوتر عندما سمعت الطرق على الباب حيث نسيت أنه من المحتمل أن تكون أنت الذي يطرق ولكن شعورى لم يكن هو شعور بالخوف وإنما كان شعورا بالوحدة القاسية، فقال بسوا: مازال أمامك فترة طويلة لكي تعرف جوهر الشعور بالوحدة القاسية، فقال ريس: لقد عشت دائماً بمفردي، فقال بسوا: وأنا أيضاً وليس الشعور بالوحدة القاسية مرادفا للعيش بمفردك، فالوحدة القاسية Loneliness هي عدم المقدرة على الابقاء على شخص ما أو شيء ما ليكون برفقتنا، وتساءل ريكاردو ريس: هل تنوي البقاء جالسا هكذا الفترة طويلة، فقال بسوا: ولماذا تسأل؟ فقال ريس: لأنني أشعر بالارهاق، فقال بسوا: لا تقلق ويمكن لك أن تخلد إلى النوم اللهم إلا إذا كنت تجد أن وجودى هنا مثيراً للازعاج فقال ريس ما يزعجنى هو أن أراك جالسا هنا في البرد، فقال بسوا: هذا البرد لا يسبب لي أي ازعاج، فأنا بمقدورى الجلوس هنا وأنا مرتدٍ قميصا خفيفا وعلى كل حال فأنا سأذهب الآن، وعليك الآن بالخلود إلى النوم، فقال ريس: أرجوك أن تطفئ الأنوار ثم أغلق ريكادرو ريس عينيه وتمتم: تصبح على خير يا فرناندو وبدا له أنه قد انقضى وقت طويل قبل أن يسمع الرد: تصبح على خير يا ريكاردو، وبعد أن قام ريس بالعد حتى الرقم مائة فتح عينيه بصعوبة فأدرك أن فرناندو بسوا كان لا يزال جالسا في نفس الكرسي وقد تشابكت يداه على ركبته وهو منظر يدل على أقصى درجات الوحدة القاسية، واستيقظ ريس في منتصف الليل، كان المطر قد توقف وكان العالم يسير عبر فضاء صامت، ولم يكن فرناندو بسوا قد غير من جلسته وكان ينظر في اتجاه السرير بدون أن تظهر أية

تعبيرات على وجهه مثل تمثال له عينان شاغرتان، وبعد ذلك بفترة طويلة استيقظ ريكاردو ريس مرة أخرى لدى سماعه صوت الباب ينغلق بصوت مرتفع، لم يعد فرناندو بسوا موجودا بالشقة، لقد غادرها مع ظهور أول ضوء للصباح.

(١١)

مثلما شاهد المرء في أزمنة أخرى وأماكن أخرى فإن الحياة تكون لها التكديرات والمنغصات الخاصة بها، فعندما استيقظ ريكاردو ريس متأخرا في صباح اليوم التالي أحس بوجود طيف من نوع ما بالغرفة، ربما لم يكن ذلك بمثابة شعور بالوحدة القاسية على وجه الدقة وإنما كان بمثابة صمت الذي هو أخ غير شقيق للوحدة القاسية، وعلى مدى دقائق عديدة راح يرقب شجاعته وهي تتخلى عنه، كان الأمر أشبه بمشاهدة رمال تتحرك في داخل ساعة رملية وهذه استعارة مستنفذة ومع ذلك تظل تتكرر من وقت لآخر، وذات يوم عندما نعيش مائتى سنة ونصبح أنفسنا الساعة الرملية التي تقرب الرمال في داخلها لن نكون بحاجة لاستخدام هذه الاستعارة ولكن الحياة قصيرة للغاية بحيث يتعذر الاستغراق في مثل هذه الأفكار، لقد كنا نتكلم عن تكديرات الحياة ومنغصاتها، عندما استيقظ ريكاردو ريس اتجه إلى المطبخ لكي يشعل السخان والموقد فاكتشف أنه قد نسى شراء الكبريت بل واكتشف أيضاً أنه قد نسى أن يشتري مصفاة للقهوة، إن المثل القائل بأن الإنسان لا يستطيع أن يشق طريقه في الحياة بدون مساعدة من الآخرين يعتبر صادقا تماماً، وراح يفكر: أن أسهل الحلول هي أن يطرق على باب أحد الجيران: معذرة يا سينيورا أنني المستأجر الجديد بالدور الثالث وقد انتقلت إلى شقتى هذه منذ الأمس فقط وكنت آمل أن أعد لنفسي بعض

القهوة واستحم وأحلق ذقنى ولكني اكتشفت أنه ليس عندى كبريت ولا مصفاة للقهوة ولكن هذه لا تهمنى فأنا لدي شاي والمشكلة الرئيسية الآن هي المياه الساخنة من أجل الاستحمام ولذلك لو اعطيتني كبريتا أكون شاكرا لك للغاية وسامحينى على ازعاجك، ونظرا لأن جميع الناس أشقاء أو شبه أشقاء فأن هذا الاجراء يعتبر طبيعياً للغاية بل ولم يكن هو بحاجة إلى الخروج إلى السلالم البادرة إذا جاءوا إليه لكي يسألوه: أأنت بحاجة إلى أي شيء لقد شاهدتك وأنت تنقل حقائبك إلى هنا بالأمس وكل الناس يعرفون أن الانتقال إلى مسكن جديد يكون على هذا النحو فإذا لم يكن قد تم نسيان الكبريت يكون قد تم نسيان الملح وإذا اتضح وجود الصابون تكون فرشاة التنظيف والحك قد ضاعت وهنا تظهر أهمية الجار لجاره، ولكن ريكاردو ريس لم يخرج من أجل طلب يد العون والمساعدة كما لم يطرق أحد على بابه لكي يسأله عما إذا كان يريد أي شيء، لم يكن أمامه أختيار سوى أن يرتدى ملابسه وحذاءه ويلف كوفيه حول رقبته لكي يخفي ذقنه التي لم يحلقها ويجذب قبعته لاسفل على عينيه، وكان متضايقا من حالة النسيان التي أصابته ومتضايقا أكثر من خروجه في هذه الحالة المؤسفة من أجل شراء الكبريت، واتجه إلى النافذة أولا لكي يعرف حالة الجو، لقد كانت السماء مظلمة ولا توجد أمطار وكان آداماستور يقف بمفرده إذ كان الوقت مبكرا للغاية بالنسبة للرجلين العجوزين لكي يجيئا ويرقبا البواخر فهما في هذا الوقت موجودان بكل تأكيد في منزليهما ويقومان بحلق ذقنهما باستخدام مياه باردة أو ربما زوجتاهما المليئتان بالهموم تقومان بتسخين ماء في أبريق معدنى لكي يصبح الماء فاترا وليس ساخنا للغاية لأن الرجل البرتغالي الذي لا يضاهيه أحد في العالم من حيث الذكورة والفحولة والرجولة لا يتحمل أن يدلل بالطفل، ودعونا نتذكرنا دائماً أننا السلالات المباشرة

المنحدرة عن أولئك الأبطال اللوزيتانيين Lusitanians الذن كانوا يستحمون في البحيرات المتجمدة في سيرادا استريلا Serra da Estrela والذين ما أن يخرجوا من البحيرات حتى ينطلقوا لتخصيب العذراوات اللوزيتانيات، ومن تاجر فحم يدير حانة في الجزء السفلى من الحى اشترى ريكاردو ريس نصف دستة من علب الكبريت لكي لا يظن الرجل أن عملية البيع الصباحية هذه غير كافية، وحقيقة الأمر أن تاجر الفحم لا يذكر أنه باع كبريتا بمثل هذه الصفقة الواحدة الرابحة، لأن الناس هنا مازالوا معتادين على استعارة كبريت من جيرانهم، ولأن النشاط دب في جسد ريكاردو ريس من خلال الجو البارد ولأنه كان يشعر بالارتياح من خلال الدفء المنبعث من الكوفية ولأنه لا يوجد أناس بالشارع فقد واصل السير لكي يلقى نظرة على النهر وعلى الجبال الواقعة على الجانب الآخر، من هنا كانت الجبال جاثمة في قرفصاء، وانعكاسات الشمس على صفحة الماء كانت تظهر وتختفي لدى مرور السحب المنخفضة، وسار حول التمثال محاولا العثور على اسم النحات، التاريخ محفور هنالك، لقد صنع هذا التمثال في عام ١٩٢٧، ريكاردو ريس لديه عقلية تجعله يبحث دائماً عن نماذج السيمترية والتناغم بين الفوضى، إن تمثال أداما ستور قد شيد عقب رحيلى إلى المنفي بثمانى سنوات وبذلك فقد ظل هذا التمثال موجودا هنا على مدى ثمانى سنوات عندما عدت إلى أرض أجدادى وأرض آبائي إنها أصوات الماضي المجيد التي استدعتني للعودة إلى هنا، ويظهر الرجلان العجوزان على الرصيف بينما التجاعيد وآثار حجر الشب تظهران على وجهيهما، وقد أمسك كل منهم بمظلة، إنهما لم يغلقا الرداء الخارجى الذي بدون كمين والذي يطرح على الكتفين بالأزرار ولا يرتديان رباط عنق ولكن قميصيهما مغلقان بالأزرار حتى الرقبة ليس لأن اليوم هو يوم

الأحد ويوم احترام ولكن بسبب الاحساس بما هو ملائم ووقور مهما كانت ملابسهم الفاخرة بالية، ومن خلال الارتياب في هذا التسكع عند التمثال فإنهما اقتربا وجهاً لوجه من ريس إنهما واثقان من وجود شى ما شاذ في هذا الرجل، ترى من يكون هو وما الذي يفعله وكيف يكسب رزقه، وقبل أن يجلسا يقومان بوضع قطعة من الخيش، المطوية على المقعد الخشبي الطويل الرطب ثم يجلسان في هدوء وارتياح ويسلكان صوتهما بصوت مرتفع، ويستخرج الرجل الممتلئ جريدة من الجيب الداخلى لردائه، إنها جريدة «أوه سيكيولو O Seculo» وهي الجريدة التي تنظم توزيع الصدقات على الفقراء، إنهما يشتريان دائماً هذه الجريدة في يوم الأحد بحيث يشتريها الرجل الممتلئ في أحد الأسابيع ثم يشتريها الرجل النحيل في الأسبوع التالي وهكذا، ويدور ريكاردو ريس حول تمثال آداما ستور مرة ثانية وثالثة، ويرى أن الرجلين أصبحا يموجان بالقلق ونفاد الصبر حيث إن وجوده المتسم بالتململ والضجر يجعل من الصعب عليهما استيعاب الأنباء التي يقرأها الرجل المتلئ بصوت مرتفع لكي يدعم الفهم الخاص به ولكي يكون في صالح الرجل النحيل الذي لا يعرف القراءة والكتابة، ويتوقف عند الكلمات الصعبة ولكن لا يوجد الكثير منها لأن الصحفيين والكتاب لا ينسون أبداً أنهم يكتبون من أجل جماهير الناس، واتجه ريكاردو ريس إلى الدرابزين حيث تظاهر بأنه يتجاهل الرجلين العجوزين حيث يقرأ أحدهما ويصغى الآخر ويعلق، في حافظة نقود لويس أوسيدا تم العثور على صورة ملونة لسالازار، هذه الدولة ابتلاها الله بالجريمة التي ليس لها حل، رجل يعثر عليه ميتا في الطريق المؤدى إلى سينترا ويقولون إنه قد خنق عقب تخديره بمادة الأتير وأنه قد اختطف وحرم من الطعام وأن الجريمة كانت دنيئة وكلمة دنيئة توضح لنا على الفور عدم موافقتنا على الجرائم وها نحن الآن

نعرف أن الشخص المقتول كان يحمل معه صورة الديكتاتور البالغ الحكمة المتسم بالروح الأبوية وفقا لما يقوله الكاتب الفرنسي الذي يسمى تشارلز أو لمونت، وفيما بعد ستؤكد التحريات أن لويس أوسيدا كان بالفعل شديد الأعجاب برجل الدولة البارز ولسوف يتضح أن المحفظة الجلدية الخاصة بالمذكور آنفا قد نقش عليها دليل آخر يدل على الروح الوطنية التي يتحلى بها أوسيدا وهي نقوش شعار الجمهورية والمحلقة[١] بما فيها من القلاع والدروع المنقوش عليها شعار النبالة علاوة على النقش التالي: اشترى البضائع والمنتجات البرتغالية، وينسحب ريكاردو ريس في حذر تاركا الرجلين العجوزين في سلام، وكانا مستغرقين للغاية في هذا اللغز حتى أنهما لم يلحظا رحيله.

لا شيء له أهمية حدث في ذلك الصباح، كانت هناك بعض المتاعب القليلة مع السخان غير القابل للاستخدام على نحو مريح والذي لم يسبق له أن استخدم على مدى أسابيع إذ راح يشعل عود ثقاب وراء آخر قبل أن يتمكن من جعل الشعلة تستمر في التوقد، ولا داعي لأن نسهب في الكلام عن طعامه الكئيب الذي كان يشتمل على كوب من الشاي وثلاث كعكات صغيرات متبقيات من عشاء الليلة السابقة، كما لا داعي لأن نسهب في الكلام عن الاستحمام الذي قام به وسط سحابة من البخار في حوض الاستحمام الذي كان مليئاً بالبقع إلى حد ما، وفي تدقيق شديد حلق ذقنه مرة ومرتين كما لو كان يستعد للذهاب في موعد غرامي مع فتاة ما تتوارى شخصيتها خلف ياقة عالية وحجاب على الوجه، على أي نحو يود استنشاق رائحة صابونها وماء الكولونيا

---

(١) آلة فلكية قديمة مؤلفة من حلقات تمثل مواقع الدوائر الرئيسية في الكرة السماوية (المترجم).

الخاص بها إلى أن يختلط ذلك مع الروائح اللاذعة والروائح الطبيعية والروائح المفروضة بالقوة للحم البشرى والتي تستنشقها فتحات الأنف والتي تترك الصدر لاهثا كما لو كان عقب مطاردة عنيفة، أذهان الشعراء أيضاً تطوف بهذه الطريقة الدنيوية وتربت على أجساد النساء بل وحتى النساء البعيدات وما يكتب هنا هو شيء وليد اللحظة الجارية ووليد الخيال الذي يتسم بالنفوذ والسخاء الشديدين، أصبح ريكاردو ريس على استعداد لأن يغادر الشقة، لا يوجد أحد في انتظاره كما أنه ليس بصدد الذهاب إلى قداس الساعة الحادية عشرة لكي يقدم المياه المقدسة للمتخفي تحت اسم مستعار للأبد Eternal Incognita، الشيء المعقول هو ان يبقى في شقته لحين حلول فترة تناول طعام الغداء، فهو لديه أوراق تتطلب الترتيب وكتب تتطلب القراءة وقرارات ينبغي اتخاذها فما هو نوع المستقبل الذي يرغب فيه وما هو نوع الوظيفة التي يرغب فيها وأين يمكنه العثور على الدافع الذي يحثه على أن يعيش ويعمل وما هي الحكمة أو السبب، إنه لم يكن ينوى الخروج في هذا الصباح ولكنه الآن ينبغي عليه أن يخرج، إنه من السخف أن يخلع ملابس الخروج مرة أخرى لكي يعترف لنفسه بأنه قد ارتدى تلك الملابس بدون أن يكون على وعي كامل بما كان يفعله، وكثيراً ما يحدث هذا، فنحن نتخذ الخطوتين الأوليين لأننا نكون في حالة من حلم اليقظة أو نكون مشتتى الذهن وبعدئذ لا يكون أمامنا خيار سوى أن نتخذ الخطوة الثالثة حتى ولو كنا نعرف أن تلك الخطوة الثالثة خاطئة أو مثيرة للسخرية، فالإنسان في التحليل النهائي هو مخلوق غير عاقل، وعاد ريكاردو ريس إلى غرفته معتقدا أنه ربما ينبغي عليه أن يرتب سريره أولا قبل مغادرة الشقة، فهو لا ينبغي عليه أن يسمح لنفسه بأن يصبح كسولا في عاداته ولكن الموقف لم يكن يتطلب ذلك حيث إنه لم يكن يتوقع مجيء أي

زائرين، لذلك فأنه جلس في الكرسي الذي أمضى فيه فرناندو بسوا ليلته ووضع ساقا على ساقا مثلما فعل فرناندو ووضع يديه في تشابك على ركبته مثلما فعل فرناندو وحاول أن يتخيل نفسه ميتا وراح يتأمل السرير الشاغر بعينى تمثال خاليتين من الحياة، ولكن كان هناك عرق ينبض في صدغه الأيسر كما ارتعش جفن عينه اليسرى فقال لنفسه في تمتمة: إنني على قيد الحياة ثم قال بصوت مرتفع وجهورى في تكرار: إنني على قيد الحياة، ولأنه لم يكن يوجد هناك أحد لكي يكذبه فأنه قد اقتنع بأنه على قيد الحياة بالفعل، فارتدى قبعته وخرج، لقد انضم إلى الرجلين العجوزين أطفال يلعبون لعبة الحجلة ويقفزون من مربع محدد بالطباشير إلى مربع آخر محدد أيضاً بالطباشير وكان لكل مربع رقم خاص به، وهذه اللعبة قد حصلت على أسماء عديدة للغاية، فالبعض يسمونها لعبة القرود وآخرون يسمونها لعبة الطائرة أو لعبة الجنة والجحيم أو لعبة الروليت أو لعبة المجد، ولكن أفضلها جميعاً هو اسم: لعبة الرجل لأنها تبدو على ذلك النحو حيث يكون الجسد منتصبا في خط مستقيم ويكون الذراعان ممتدين وحيث تشكل الدائرة العلوية الرأس أو الذهن، الرجل يرقد على أحجار رصيف الشارع ناظرا لأعلى نحو السحب بينما الأطفال يقفزون فوقه بدون أن يدركوا مدى القسوة التي يتسمون بها فهم سيعرفون هذا المعنى عندما يحين الوقت الملائم لهم، كما يوجد أيضاً بعض الجنود الذين وصلوا أيضاً مبكرين للغاية لأن خادمات المنازل يجئن إلى هنا في فترة ما بعد الظهر من أجل التنزه إذا كان الجو ملائما وإلا ستقول سيداتهم: أنظري يا ماريا المطر شديد للغاية يستحسن أن تمكثي هنا اليوم وتقومي بكيّ الملابس ولسوف أمنحك ساعة إضافية في يوم إجازتك الذي سيبدأ بعد أسبوعين وهذه التفاصيل تستحق أن نشير إليها من أجل أولئك الذين لم يشهدوا مثل هذه الامتيازات مباشرة أو

الذين لا يعرفون أي شيء عن الفترات الماضية والعادات والتقاليد المتعلقة بها، واستند ريكاردو ريس على الدرابزين العلوي، لقد أصبحت السماء صافية بعض الشيء، وعند البوتوغاز كان يوجد شريط هائل من السماء الزرقاء، وإذا كانت هناك أية بواخر متوقع وصولها اليوم من ريو دى جانيرو فأنها ستدخل إلى الميناء في ظروف ملائمة للغاية، وبعد أن وثق في دلائل تحسن الجو بدأ يسير في شارع كالهاريز ونزل هابطاً إلى أن وصل إلى «كاموئيس Camoes» وهنا أحس برغبة شديدة فجائية في زيارة فندق براجانسا مثل أولئك الطلبة الجبناء الذين تخرجوا من المدرسة ولم يعودوا مضطرين إلى الذهاب إلى المدرسة الذين شعروا بالكراهية نحوها في مناسبات عديدة للغاية ولكنهم يستمرون في زيارة مدرسيهم وزملائهم السابقة إلى أن يصبح كل شيء يشعر بالملل من هذا الحج الذي هو عديم الجدوى شأنه في ذلك شأن كل أنواع الحج حتى أن المؤسسة ذاتها تبدأ في تجاهلهم، وما الذي سيفعله بالفندق، هل يقوم بالقاء التحية على سلفادور وبيمنتا، إذن فأنت لم تنسنا يا دكتور أتريد أن تتحدث مع ليديا، وفي نوع من الحقد والخبث يتم استدعاء ليديا: الدكتور ريس يرغب في التحدث معك، ويقول ريس: لم يكن هناك سبب محدد يدعوني إلى زيارتكم وكل ما أردته هو أن أقدم لكم الشكر على معاملتى على نحو جيد للغاية وعلى اعطائي مثل هذا التثقيف والتعليم الممتاز على المستوى الابتدائي والثانوى وإذا كنت قد فشلت في تعلم المزيد فأن اللوم يقع على غبائي فقط، وعلى الرصيف وفي مواجهة أجريجا دون مارتيرس يستطيع ريكاردو ريس شم رائحة عطرية، إنه الزفير الغالى الصادر عن النساء الورعات الخاشعات اللاتي يقمن الصلاةِ في الداخل، لقد بدأ القداس توا بالنسبة لتلك الأرواح المختارة التي تنتمى لعالم أكثر سموا، هنا يمكن لك ـ إذا كانت

لديك حاسة استكشاف غريزية قوية ـ أن تتعرف على الأرواح المتميزة الجديرة بالتبجيل والاجلال، ومن تلك الرائحة الذكية العطرة يدرك المرء أن الغطاء الموجود فوق مذبح الكنيسة يكون مزدانا بكرات صوفية وشرَّابات مغطاة بمسحوق الطلق المعطر وأن صانع الشموع قد أضاف إلى الشموع المنفق عليها بسخاء كميات كبيرة من أعشاب البتشول العطرية، وما أن تُسخن وتحرق من الكمية الكافية من البخور فأن هذا يبهج الروح على نحو لا يمكن مقاومته كما يبهج الحواس إلى أقصى حدّ وعندئذ يصبح الجسد هزيلا ويصبح الوجه خاليا من أيّ انفعال إذا يحدث الانجذاب الصوفي والغبطة العامرة في نهاية الأمر، ويهبط ريكاردو ريس إلى قلب المدينة في خط رحلة مألوفة حيث يجد المكان هادئاً مثل يوم أحد في الأقاليم، بعد تناول وجبة الغذاء سيجئ سكان الأحياء المجاورة لإلقاء نظرة على فاترينات المحلات التجارية.

انهم يكابدون طوال الأسبوع في انتظار مجئ هذا اليوم، تجئ عائلات بأكملها حيث يكون الأطفال محمولين بين الأذرع أو مقادين بالأيدي بينما كعوب أقدامهم تؤلمهم بسبب الحذاء الضيق وبعدئذ يطلبون تناول كعكة الأرز وإذا كان والدهم في حالة نفسية جيدة ويودّ أن يظهر ازدهاره المالى فأن الأسرة كلها تذهب إلى محلّ للألبان وتتناول كميات كبيرة من أكواب اللبن وذلك حتى يمكنهم توفير وجبة العشاء، عندما يجئ وقت الغذاء سيذهب ريكاردو ريس لكي يتناول طعام الغداء في محل شافي دى أورو حيث يمكن له تناول اللحوم هناك ويخلص نفسه من المذاق الردئ لذلك السكر ثم قبل حلول الليل يشتري تذكرة للذهاب للسينما من أجل مشاهدة فيلم «مراكبيه نهر الفولجا» وهو فيلم فرنسي من إخراج بيير بلانشارد، تُرى ما طبيعة نهر الفولجا الذي ابتكروه في فرنسا، والأفلام ـ شأنها شأن الشعر ـ هي فن الوهم والخيال

فمن خلال مواءمة مرآة يمكن لك أن تحوّل مستنقعا إلى محيط، وما أن غادرا دار السينما حتى بدت السماء وكأنها على وشك أن تمطر لذلك قرّر أن يستقلّ تاكسيا، وكان ذلك تصرفا حسناً لأنه ما أن دخل إلى شقته وعلق معطفه وقبعته حتى سمع طرقتين على الباب الخارجى للمبنى شيء عجيب لأن فرناندو بسوا إذا ظهر في وقت النهار محدثا كل هذه الضجة قد تجيء جارة إلى نافذتها وتسأل: مَنْ هناك ثم تشرع في الصراخ: النجدة النجدة يوجد شبح قادم من العالم الآخر، وفتح ريس النافذة ونظر إلى الخارج لقد كانت ليديا وكانت وكانت على وشك أن تفتح مظلتها لدى تساقط القطرات الأولى من الأمطار، تُرى ما الذي جعلها تجيء إلى هنا، منذ لحظات كان يفكر قائلاً لنفسه إنه لا يوجد شيء أسوأ من الحياة المنعزلة ولكنه الآن شعر بالضيق لأن هذه المرأة تسبب له الضيق رغم أنه كان بمقدوره ـ إذا أراد ـ أن ينتهز الفرصة ويدخل معها في معركة جنسية مما يؤدي إلى إراحة أعصابه وتهدئة أفكاره.

وعندما ذهب إلى بئر السلم لكي يجذب الحبْل شاهد ليديا وهي تصعد على السلالم بالفعل وهي متهلفة ومتيقظة لصد أيّ هجوم عليها، وإذا كان هناك تناقض بين هاتين الحالتين للذهن فأنها قد حسمت ذلك التناقض، وقال لدى دخولها إلى شقته: لم أكن أتوقع مجيئك وكيف تسير الأمور، واتخذت ليديا خطوة للأمام لكي تتلقى أحضانه فاحتضنها وقبَّلها على رقبتها، أنه يرى أنه ما زال من غير الملائم أن يقبّلها على شفتيها كما لو كانت متساوية معه اجتماعيا اللهم إلا إذا كان يضاجعها في السرير ثم تقترب لحظة النشوة الكبرى مما يجعله ينسى كل شيء، وتقول ليديا: إنني جئت اليوم فقط من أجل أن أعرف ما إذا كنت قد أصبحت مستقرا في هذا المكان وهو تعبير قد التقطته من خلال عملها

بالفندق، وحاول أن يقودها إلى غرفة النوم ولكنها حررَّت نفسها وقالت: لا ينبغي عليَّ أن أفعل ذلك الآن، وكان صوتها متلعثما ولكن ذهنها كان قد اتخذ قرارا، وبكلمات أخرى فأنها كانت تودّ من كل قلبها أن تضطجع معه في ذلك السرير وتستقبل بجسدها ذلك الرجل وتشعر برأسه الموجود على كتفيها وتربت بيدها على شعر راسه ولكن خلف مكتب الاستقبال بفندق براجانسيا يتساءل سلفادور: تُرى بحق الجحيم أين توجد ليديا، وتجوب الشقة كلها على وجه السرعة كما لو كان بمقدورها سماع صوته، بينما عيناها الخبيرتان تعرفان الأشياء المحتاج إليها فتقول: لا توجد فرشاة للحك والتنظيف ولا جرادل ولا ممسحة ولا منفضة ولا صابون مُجزَّع كالرخام ولا صابون تواليت ولا مسحوق التبييض ولا حجر خفاف ولا مقشّأت ولا فرشاة ناشفة ولا ورق تواليت، الرجال يتسمون بالأهمال مثل الأطفال، وتقول له ليديا إنها ستجئ للقيام بأعمال النظافة في يوم الجمعة ولسوف تحضر معها كل الأشياء المطلوبة فيوم الجمعة هو يوم إجازتها الأسبوعية ويقول ريس: ولكنك تذهبين لزيارة والدتك في يوم الجمعة فتقول: لسوف أبعث إليها برسالة ثم أرى ما يمكن عمله ولسوف أتصل تليفونيا بمتجر قريب، فيقول ريس: لسوف تحتاجين للنقود من أجل شراء تلك الأشياء، فتقول: لسوف أشتري من نقودي الخاصة وأنت تسدد لي القيمة فيما بعد، فيقول ريس: ولماذا خذى هذه النقود ومن المؤكد أنها تكفي للشراء، فتقول ليديا: أيها السيد المسيح، إن مائة اسكود تعتبر ثروة صغيرة، فقال: أنني في انتظارك في يوم الجمعة ولكنني لا أشعر بالارتياح لأنك بصدد المجئ من أجل أعمال النظافة، فقالت: لا يمكن لك أن تعيش في هذا المكان وهو على هذا النحو الذي يبدو عليه الآن فقال: فيما بعد سأقدم لك هدية بسيطة، فقالت: لا أريد أية هدايا

وعليك فقط بمعاملتى كما لو كنت الخادمة النهارية الخاصة بك، فقال: كل شخص ينبغي أن يحصل على أجور عادلة فقالت: أجورى هي أن أعامل معاملة متسمة بالشفقة والرفق، فقال ريكاردو ريس: هذه الكلمات من جانبك تستحق قبلة، ثم قبّلها في هذه المرة على شفتيها، ويضع يده على أكرة الباب يبدو أنه لا يوجد هناك كلام يقال، فالعقد قد تم التوقيع عليه وختمه بالخاتم، ولكن على نحو فجائي تفشى ليديا كلاماً من غير تفكير كما لو كانت غير قادرة على السيطرة على نفسها، إذ تقول: السينيوريتا مارسيندا سوف تجئ غدا إذ اتصلوا تليفونيا من كوامبرا فهل تودّ أن أعطيها عنوانك، فيردّ ريكاردو ريس بسرعة كما لو كان قد تمرّن على هذا الردّ: لا شكرا، لا داعي لأن تعطيها العنوان وتظاهرى بأنك لا تعرفين العنوان الذي أسكن فيه، فتقول: يسعدنى أن أكون أنا الإنسانة الوحيدة التي تعرف هذا السرّ، وتغادر ليديا المكان بعد أن خدعت تماماً، وتهبط على السلالم بسرعة ويتلاحظ لها أن باباً بالدور الثاني قد تُرك مواربا ولأن السكان الآخرين بالمبنى سيرغبون في إشباع حبّ الاستطلاع لديهم فأنها تقول بأعلى صوتها لكي يسمع الجميع: لسوف أجئ إليك يوم الجمعة يادكتور لكي أقوم بأعمال النظافة، كما لو كانت تريد أن تقول للجيران: استمعوا أيها الأعزاء أنني الخادمة النهارية للمستأجر الجديد فلا تظنون الظنون ثم تلقى التحية في أدب على جارة واقفة:

صباح الخير يا سينيورا ولكن المرأة لا تردّ على التحية إلا بصعوبة وتنظر إليها نظرة خالية من الثقة، لأن الخادمات النهاريات عادة لا يكن متألقات ومبتهجات على هذا النحو وإنما يملْن إلى التجهّم وجرّ سيقانهن التي تخشبت بسبب الاصابة بالروماتيزم ودوالى الشرايين، وترقب تلك الجارة وتسدّد نظرات معادية لليديا، ولقد أغلق ريكاردو

ريس باب شقته وهو يدرك أنه منافق ويفكر في هذا النفاق الذي اتسم به، لو كان يتسم بالاخلاص والأمانة لكن قد قال لليديا: لقد سبق أن أعطيت عنوانى لمارسيندا حيث أرسلت لها خطابا على شباك البريد هناك لكي لا يصبح والدها متشككا في الأمر، ولكان قد أضاف كاشفا عما يدور في سريرة نفسه: ومن الآن فصاعدا فسوف أكون مقيما في داخل شقتى وبحيث لا أتركها إلا من أجل تناول وجباتى بالخارج ثم أعود إليها مباشرة ولسوف أكون في حالة تيقظ في جميع الأوقات وذلك خلال الفترة التي تقضيها مارسيندا في لشبونة، وهي بكل تأكيد لن تجئ غدا الاثنين لأن القطار يصل في وقت متأخر للغاية ولكنها ربما تجئ الثلاثاء أو الاربعاء أو الخميس أو الجمعة، لا ليس يوم الجمعة لأن ليديا ستكون موجودة هنا من أجل القيام بأعمال النظافة، ولكن لا توجد مشكلة لأن هذه الخادمة وهذه الفتاة التي هي من عائلة طيبة ستكون كل منهما ملتزمة بالمكانة الخاصة بها ولا توجد هناك مخاطر من وراء اختلاطهما مع بعضها البعض وعلاوة على ذلك فأن مارسيندا لا تبقى لفترة طويلة في لشبونة فهي تجئ فقط من أجل استشارة الأخصائي وبالطبع يوجد هناك أيضاً ذلك الموضوع الخاص بوالدها، عظيم ولكن ما الذي تتوقع حدوثه إذا جاءت إلى شقتك، أنني لا أتوقع أيّ شيء وكل ما أريده هو إنني أتمنى أن تجئ إلى شقتى، هل تعتقد حقاً أن فتاة شابة مثل مارسيندا مع التربية الحازمة التي تلقتها ومع القوانين الأخلاقية الصارمة التي أنشأها عليها أبوها وهو رجل له مهنة تتعلق بالقوانين الأخلاقية الصارمة التي أنشأها عليها أبوها وهو رجل له مهنة تتعلق بالقوانين ستقوم بمفردها بزيارة رجل أعزب في شقته وهل تعتقد أن مثل هذه الأمور تحدث في الحياة الواقعية، لقد سألتها ذات يوم عن السبب الذي يجعلها ترغب في مشاهدتي فأجابت عليّ بما يفيد أنها لا تعرف

السبب وأنا أرى أن هذا الردّ هو أكثر الاجابات المفعمة بالآمال، أحد الطرفين لا يعرف والطرف الآخر يبررّ تصرفاته من خلال الجهل، اذن قد يبدو الموقف وكأنه شبيه بآدم وحواء أثناء وجودهما في جنة عدن ولكن ليست هي بمثابة حواء أو أنا بمثابة آدم، فكما تعرف فآدم كان أكبر من حواء بفارق ضئيل في العمر وهو فارق يصل إلى بضعة ساعات أو أيام فأنا لا أتذكر ذلك على وجه الدقة، وآدم هو جميع الرجال وحواء هي جميع النساء والكل متساوى ومختلف وجوهرى وكل واحد منا هو الرجل الأول والمرأة الأولى، ولو أنه من حسن الحظ ـ إذا لم أكن مخطئاً ـ أن النساء مستمرات في الاتسام بطابع حواء على نحو يفوق اتسام الرجل بطابع آدم، هل أنت تؤسس كلامك هذا على تجربتك الشخصية، لا إنني أقول هذا لأن الأمر ينبغي أن يكون كذلك بالنسبة لنا جميعاً، ما كنت ترغب فيه يا فرناندو هو الرجوع إلى البداية، اسمي ليس هو فرناندو، آه.

لم يحرك ريكاردو ريس لكي يتناول طعام العشاء، إذ كان لديه بعض الشاي والكعك على المنضدة الكبيرة بغرفة المعيشة المحاطة بسبعة كراسي شاغرة وتحت النجفة التي بها سبعة فروع ومصباحان أكل ثلاث كعكات صغيرات تاركا واحدة في طبقه، وراح يحصى مرة أخرى فاكتشف أن رقم ٤ ورقم ٥ مفقودان وسرعان ما عثر على رقم أربعة وهي أركان الغرفة المربعة الشكل ولكن بالنسبة لرقم ستة اضطر لأن ينهض واقفا وينظر فيما حوله فنتج عن ذلك رقم ثمانية وهي جميع الكراسي الشاغرة، وأخيرا قرّر أنه هو نفسه هو رقم ستة لأنه يمكن أن يتخذ أيّ رقم إذا كان هو بمثابة كيانات لا تُعد ولا تُحصى، وفي ابتسامة معبرة عن السخرية والأسف هزّ رأسه واتجه إلى غرفة النوم وهو يتمتم لنفسه قائلاً: أعتقد أنني بصدد التعرض للجنون، ومن الشارع أسفله

ترامت الهمهمة الدائمة للمطر المتساقط من المزاريب على الأحياء المنخفضة مثل حيّ بوفيستا وحيّ كوندى بارو، وراح يبحث بين كومات الكتب التي لم يتم تصنيفها ووضعها في الأرفف إلى أن استخرج كتاب «إله المتاهة» فجلس على الكرسي الذي سبق أن جلس عليه فرناندو بسوا والتقط إحدى البطاطين الموجودة على السرير وغطى بها ركبتيه، وأخذ يقرأ من جديد من الصفحة الأولى، الجسد المكتشف بمعرفة لاعب الشطرنج الأول كان يحتل المربعات الخاصة بالملكة والملك والشخصين التابعين لهما وكان ذراع الجسد ممتدا في اتجاه معسكر العدوّ، واستمر في القراءة ولكن حتى قبل أن يصل إلى المكان الذي كان قد توقف عنده في المرة الأخيرة بدأ يشعر بالرغبة في النوم.

فاستلقى على السرير وقرأ في صعوبة صفحتين أخريين، ثم استغرق في النوم ما بين الحركة ٣٧ والحركة ٣٨ عندما كان لاعب الشطرنج الثاني يفكر في مصير الفيل، ولم يتذكر أنه قام بإطفاء الأنوار، ولكن الأنوار كانت منطفئة بالفعل عندما استيقظ في منتصف الليل، ومن المؤكد أنه كان قد نهض وأطفأ الأنوار، فهذه أشياء نفعلها بطريقة تلقائية لأن جسدنا الذي يتصرف من تلقاء نفسه يحاول أن يتجنب الأمور غير المريحة كلما كان ذلك باستطاعته وذلك هو السبب في أننا ننام في الليلة السابقة على المعركة أو تنفيذ حكم الاعدام والسبب في أننا في نهاية الأمر نموت عندما لا نعد نتحمل الضوء المزعج للوجود.

ونظراً لأنه كان قد نسى أن يغلق الشيش فإن الضوء الرمادى للصباح ملأ الحجرة، كان لديه نهار طويل أمامه وأسبوع طويل وكان يرغب بشدة في البقاء في السرير وتحت هذه البطاطين الدافئة وبحيث يدع لحيته تنمو وتتحول إلى طحلب إلى أن يجئ شخص ما ويطرق على الباب من الطارق، إنني مارسيندا، فيصيح في إثارة: لحظة واحدة،

وفي ثوان يجهز نفسه ويحلق شعر ذقنه ويمشط شعره ويخرج منتعشا من الحمام ويرتدى ملابسه الأنيقة النظيفة ويصبح على استعداد لاستقبال الزائرة، ويقول: تفضلى بالدخول يالها من مفاجأة سعيدة، لقد جاءوا لكي يطرقوا على الباب ليس مرة واحدة ولكن مرتين، أولا جاء بائع اللبن الحليب لكي يعرف ما إذا كان الجنتلمان يرغب في الحصول على اللبن في كل صباح، ثم جاء الخباز ليعرف عما إذا كان الجنتلمان يحتاج للخبز في كل يوم ورد على كل منهما: نعم، في هذه الحالة يا سيدي ضع ابريق اللبن بالخارج عند ممسحة الأرجل في كل مساء، في هذه الحالة يا سيدي علق حقيبة الخبز في أكرة الباب في الليلة السابقة، فقال ريس: ولكن من الذي قال لكما إنني انتقلت إلى هذه الشقة فقالا: المرأة الموجودة في الدور الثاني، فقال ريس: أدرك ذلك، وعلى أي نحو تريدان تسديد الحساب لكما، فقالا: إما أسبوعيا أو شهريا، فقال ريس: إذن فليكن أسبوعيا، فقالا: وهو كذلك يا دكتور، فلم يسألهما ريكاردو ريس عن الكيفية التي عرفا بها أنه دكتور، لم يكن هناك داع للسؤال، ولكننا سمعنا ليديا تخاطبه بقولها يا دكتور لدى مغادرتها شقته والمرأة الموجودة بالدور الثاني كانت هناك وسمعت كلمة: يا دكتور ومع وجود اللبن والخبز الطازج استمتع ريكاردو ريس بإفطار صحى، صحيح لم يكن لديه زبد أو مربى ولكن مثل هذا الخبز له مذاق جميل للغاية بحيث يمكن الاستغناء عن الزبد أو المربى لو كانت الملكة مارى انطوانيت قد أكلت خبزا جميلا كهذا لما اجتاحت أن تعيش على خبز البربوش المحلى والذي يعد مع قليل من الزبد والبيض، والآن كل ما ينقصه هو الحصول على جريدة ولكن حتى هذا سيتم تقديمه حالا، إذ يسمع ريكاردو ريس أثناء وجوده في غرفة النوم صيحات بائع الصحف: أوه سيكيولو أوه نوتيكياس فيسرع إلى النافذة لكي يفتحها فتطير إليه

الجريدة في الهواء وقد طويت مثل رسالة خطية سرية وقد تبللت من الحبر الذي لم يسمح له الجو أن يجف، فتظهر في أصابعه تلوثات وتلطخات سوداء دهنية، والآن في كل صباح سيطرق هذا الحمام الزاجل على زجاج نافذته إلى أن تفتح النافذة من الداخل، فصيحات بائع الصحف والجرائد يمكن أن تسمع من الطرف البعيد للشارع وإذا حدث تباطؤ في فتح النافذة وهو أمر دائماً ما يحدث تقريبا تلقى الجريدة في الهواء بحيث تدور مثل قرص معدنى وإذا لم تصل إلى هدفها يلقى بها مرة أخرى، لقد فتح ريكاردو ريس بالفعل النافذة على مصراعيها وتلقى في يديه الرسول الذي يجلب له أخبار العالم، وينحنى على عتبة النافذة ويقول: شكرا جزيلا يا سينيور مانويل، ويرد بائع الصحف: أي خدمة ولسوف تتم المحاسبة شهرياً.

والآن فإن المسألة هي مسألة انتظار، في هذا اليوم الأول يمكن أن يمضى الوقت في قراءة الجرائد علاوة على قراءة الطبعات المسائية للصحف، ويمكن له أن يعيد القراءة ويقوم بالتحليل والتأمل والتفكير ثم يقوم بتنقيح قصائده الغنائية أو يستأنف قراءة كتاب «إله المتاهة» ويتأمل في السماء من خلال نافذته ويستمع لكلام المرأة التي تسكن في الدور الثاني وهي تدردش على السلالم مع المرأة التي تقيم في الدور الرابع، وهو يدرك أنه سوف يستمع لتلك الأصوات الحادة العالية كثيراً، ولسوف ينام ويروح في إغفاءه ويستيقظ ولا يترك الشقة إلا من أجل الخروج لتناول طعام الغذاء وبحيث يتناول طعاما سريعا في مطعم قريب بشارع كالهاريز ثم يرجع إلى الصحف التي سبق أن قرأها بالفعل ثم يعود إلى قصائده الغنائية الفاترة وإلى الافتراضات الستة التي تتعلق بنتيجة الحركة التاسعة والأربعين ثم يمر من أمام المرآة وينظر خلفه ليرى ما إذا كان الشخص الذي يمر ما زال موجودا هناك، ولسوف يرى أن

هذا الصمت هو أمر لا يطاق بدون الاستماع لنغمات موسيقية وبذلك ينبغي عليه أن يشتري جراموفون في يوم من هذه الأيام، ولكي يرى الموديل الذي يتلاءم معه أكثر فإنه يتصفح الاعلانات التي تشير إلى ماركات محددة: بلمونت، فيليبس، RCA، فيلكو، ستيوارت / وارنر، ويكتب ملاحظات ويكتب عبارة: جهاز استقبال بالفعل المتغاير الفوقي Superhetrodyne ولا يفهم من هذه الكلمة سوى المقطع الأول منها وهو Super بل وفهمه لهذا المقطع لا يكون متسما بأي يقين، ياله من مخلوق انطوائي مسكين منعزل عن الناس، إنه يصاب بالذهول عندما يفاجأ بإعلان يعد النساء بأن يكون لهن ثديان في حالة ملائمة في خلال ثلاثة أو خمسة أسابيع عن طريق استخدام الطريقة الباريسية التي تسمى إكسوبر Exuber أو الطريقة التي تزود بالحيوية والتي تشتمل على ثلاث رغبات أساسية هي: تثبيت الثديين على ما هما عليه Bust Raffermer تكبير الثديين Bust Developer، تصغير الثديين Bust Reducer، ويتم الحصول على نتائج محددة وواضحة تحت إشراف مدام هلين ديوروى بشارع ميروميسنيل الذي يقع في باريس بالطبع حيث الفاتنات الساحرات يقمن بثبيت وتنمية وانقاص الثديين على التوالى أو في آن واحد، ويقوم ريكاردو ريس بتفحص اعلانات مذهلة أخرى: الخمور الشافية المقوية ماركة باناكو فهي خمور مليئة بمقومات الغذاء الطبيعية، سيارات جويت، غسول الفم ماركة براجيل، صابون سيلفر نايت، خمور ايفيل، خطابات راهبة برتغالية، مكتبة بلاسكو ايبانيز، فرشاة الاسنان ماركة تيك، قاتل الآلام ماركة فيرامون، صبغة الشعر ماركة نوافا، ديسودورول مزيل رائحة العرق، ثم يتنهد ويعود إلى الفقر الأخبارية التي سبق أن قرأها وتأملها واستوعبها: وفاة الكساندر جلازونوف مؤلف ستينكا رازين، سالازار المتسم بالجنو الأبوى قد أنشأ مطاعم مجانية في

المؤسسة القومية لكي يجعل العاملين يشعرون بالسعادة، ألمانيا تؤكد أنها لن تسحب قواتها من أراضى الراين، العواصف الأخيرة سببت خرابا ودمارا في ريباتيجو، اعلان حالة حرب في البرازيل وتم إلقاء القبض على مئات من الناس، هتلر يقول: إما أن ننتصر على القدر الخاص بنا أو نهلك، إيفاد قوات حربية إلى مقاطعة باداجوز حيث قام الآلاف من العمال بغزو العزب والضيعات الريفية، في مجلس العموم البريطاني يشير الكثيرون من المتحدثين إلى أن الرايخ يجب أن يمنح حقوقا متساوية، توجد تطورات جديدة ومثيرة في قضية أوسيدا، لقد تم البدء في تصوير فيلم «ثورة مايو» الذى يحكي قصة لاجئ يصل إلى البرتغال لكي يفجر ثورة ليست هي الثورة ولكن ثورة أخرى ويتم كسبه لصالح القضية الوطنية بمعرفة ابنة صاحب البنسيون الذي يقيم فيه تحت اسم مستعار، وهذا الخبر الأخير قرأه ريكاردو ريس مرة ومرتين وثلاثة مرات في مجهود لتلخيص نفسه من أصداء خفيفة تحوم في أزيز في داخل ذاكرته ولكن ذاكرته تخونه في المرات الثلاث ولكن ما أن انتقل إلى حكاية اخبارية أخرى وهي الاضراب العام في كورونا حتى أصبحت تلك الفكرة الغامضة واضحة ومحددة، إذ لم تكن شيئاً بعيدا، إذ كانت «المؤامرة» ذلك الكتاب وتلك الماريليا وهي تلك القصة التي تدور عن تحول آخر إلى الوطنية ومثلها العليا ومن الواضح أن هذه القصة لها متحمسات من النساء مما أدى إلى نتائج هامة من بينها أن الأدب والفن السابع يقدم الكثير من الثناء على ملائكة الكتاب والتضحية اللائي يناشدن الأرواح الجامحة إن لم تكن المفقودة للرجال، لا أحد بمقدوره مقاومتهن عندما يضعن يدا على كتف أو إلقاء نظرة طاهرة محتشمة تحت دمعة معلقة، أنهن لسن بحاجة إلى اصدار أمر قضائي وإجراء استجوابات، النساء المقدسات ملائكة الرحمة الراهبات البرتغاليات

ابنات مريم والأخوات التقيات سواء وجدن في أديرة أو مواخير في قصور أو أكواخ أبنات صاحبة بنسيون أو سيناتور فما هي الرسائل النجمية والتليباثية التي يتم تبادلها بينهن حتى أن مثل هذه الظروف المختلفة تحدث مثل هذه النتيجة المتناغمة والتي هي ليست سوى تخليص رجل من أخطار فقدان روحه، وكمكافأة عظمى تقدم هؤلاء النساء له صداقة أخوية أو أحيانا تقدمن حبهن بل وحتى أجسادهن وغيرها من المنافع الأخرى التي يمكن أن تقدمها زوجة محبوبة وهذا يدعم أمل الرجل في السعادة التي ستجيء إذا جاءت أية سعادة في أعقاب الملاك الطيب الهابط من المذابح الكنسية لأنه في النهاية ودعونا نعترف بذلك هذا ليس سوى تجل ثان للعقيدة المريمية، وهكذا نرى أن ماريليا وابنة صاحبة البنسيون هما بمثابة تجسدات للعذراء البالغة التقديس حيث تلقيان بنظرات مليئة بالشفقة وتضعان أيديهما على التقرحات الجسدية والمعنوية علاوة على تحقيق معجزة الصحة والتحول السياسي، الإنسانية سوف تحقق خطوة عظيمة للأمام عندما تبدأ مثل هذه النساء الصالحات في ممارسة الحكم في العالم، وابتسم ريكاردو ريس لدى تامله في هذه الأعمال الحزينة المتسمة بالاحترام والتوفير، يوجد هناك شيء ما غير مستحب يتعلق بمشاهدة رجل يبتسم لنفسه وخاصة إذا ابتسم لنفسه في المرآة الخاصة به ومن الأمور الملائمة أنه يوجد باب مغلق بينه وبين باقى أرجاء العالم، وبعدئذ ساءل نفسه: وماذا عن مارسيندا ترى ما هي نوعية مارسيندا من حيث هي امرأة، هذا التساؤل لا صلة له بالموضوع، إنه مجرد لعبة ذهنية لشخص ليس لديه اى إنسان لكي يتحدث معه، أولا ينبغي له أن يدرس ما إذا كان لديها الشجاعة التي تدفعها إلى زيارته في شقة وبعدئذ سيكون عليها أن توضح

السبب الذي جعله تجئ إلى هذا المكان المغلق بالمنعزل الذي يشبه بيت عنكبوت توجد في منتصفه العنكبوتة البذيئة الجريحة.

اليوم هو اليوم الأخير من الفترة المحددة التي لم يوافق أحد عليها، يلقى ريكاردو ريس نظرة على ساعة الحائط، الوقت قد تجاوز الرابعة توا، النافذة مغلقة السحب القليلة الموجودة بالسماء عاليه، في حالة عدم مجئ مارسيندا لن يكون لديها العذر الذي يقال عادة: لقد كنت أود من كل قلبي الحضور ولكن المطر كان شديداً للغاية، وعلى الرغم من أن والدي كان موجودا بالخارج ومنطلقا وراء إحدى مغامراته الغرامية كان سلفادور بكل تأكيد سيقول لي: من المؤكد أنك لست بصدد الخروج ياسينيوريتا مارسيندا في هذا الجو الرهيب، وينظر ريكاردو ريس إلى ساعة يده، لقد أصبح الوقت يشير إلى الرابعة والنصف، ومارسيندا لم تحضر ولن تجئ، والضوء في داخل الشقة آخذ في التلاشى بسرعة والأثاث يختفي وراء ظلال مرتعشة يمكن للمرء الآن أن يعرف السبب في معاناة آداماستور، الترقب المتسم بالقلق يصبح أمراً لا يُطاق إلى حدّ كبير وعلى نحو فجائي يترامى طرق من أكرة الباب الخارجى، المبنى يبدو عليه وكأنه يرتعد من القمة إلى القاع كما لو كان هناك زلزال يهز الأساسات، لا يندفع ريكاردو ريس متجها إلى النافذة لذلك لا تكون لديه فكرة عن الشخص الذي سيظهر عندما يذهب إلى بسطة السلم لكي يجذب الحبل، ويسمع المرأة الموجودة بالدور الرابع وهي تفتح الباب الخارجى الرئيسي وتقول: أوه إنني آسفة لقد اعتقدتُ أن ذلك الطرق كان من أجلي، وهذه عبارة مألوفة تتداول عبر الأجيال بمعرفة النساء الفضوليات المحبات للاستطلاع أنها مارسيندا، ويشاهدها ريكاردو ريس وهي تستند على الدرابزين، وبعد أن تقطع نصف المسافة صاعدة على السلالم تنظر لأعلى لكي تتأكد من أن الشخص الذي

تسعى لمقابلته يعيش هنا بالفعل، ثم تبتسم، أنها ابتسامة لها مستقبل وليست شبيهة بتلك الابتسامات المنعكسة في مرآة وذلك هو الفارق، ويرجع ريكاردو ريس إلى باب شقته ومارسيندا تصعد على مجموعة السلالم الأخيرة ويتنبه ريس إلى أن الضوء مقطوع في بئر السلم وبذلك فإنه على وشك أن يستقبلها بين طيات الظلام تقريبا وبينما يتذبذب على مستوى آخر من التفكير يسائل نفسه في دهشة: كيف أمكن لابتسامتها أن تكون مشعة ومضيئة إلى هذه الدرجة الكبيرة، وعندما تقف ماثلة أمامى ما الذي سأقوله لها، لا يمكن لي أن أسألها: كيف كانت أحوالك، ولا يمكن له أن يصيح بطريقة سوقية مبتذلة: لم يخطر على ذهني أن أشاهدك هنا، ولا يمكن له أن يقول بطريقة رومانتيكية: لقد كنت على وشك أن أفقد الأمل ولقد كنت أشعر باليأس المرير ولماذا تأخرت كثيراً في المجئ، وتدخل إلى الشقة وأقوم أنا بغلق الباب، ولم يقل أي منا كلمة واحدة، ويمسك ريكاردو ريس بيدها اليمنى لكي يرشدها فقط إلى الدخول في المتاهة المنزلية، لن يكون من الملائم أن يصطحبها إلى غرفة النوم وسيكون من السخف اصطحابها إلى غرفة الطعام حيث يجلسان على الكراسي المحيطة بالمنضدة الطويلة ويجلسان بجوار بعضهما البعض أو في مواجهة بعضهما البعض، وكم عدد الذين سيجلسون هناك نظرا لأنه متعدّد الكيانات على نحو لا يحصى ولا يُعدّ وهي أيضاً بالتأكيد بمثابة أكثر من إنسانة واحدة إذن فليتم الجلوس في غرفة المكتبة بحيث تجلس مارسيندا على أريكة واحدة وأنا أجلس على أريكة أخرى، لقد دخلا الآن مصباح السقف مضاء وكذلك المصباح الموجود فوق المكتب مضاء، وتنظر مارسيندا فيما حولها نحو الأثاث الثقيل وإلى خزانتى الكتب بما فيهما من كتب قليلة وإلى ورقة النشاف الخضراء، ثم يقول لها ريكاردو ريس: أنني سوف أقبّلك، أنها ملتزمة

بالصمت، وفي بطء تسند بيدها اليمنى مرفق ذراعها الأيسر، أهذه حركة احتجاج ومناشدة من أجل الرحمة أو استسلام، ثم تضع ذراعها عبر جسدها مثل حاجز، ويتخذ ريكاردو ريس خطوة للأمام ولكنها لا تتحرك، وعندما يكاد يتلامس معها يحرّر مارسيندا مرفق ذراعها الأيسر وتسمح ليدها اليمنى بالسقوط فتتدلى ميتة مثل يدها الأخرى وإذا ما كانت هناك حياة متبقية في كيانها فإنها تكون موزعة ما بين قلبها النابض وركبتيها المرتعشتين لدى مشاهدتها هذا الرجل وهو يقترب منها، وتشعر بنشيج يتكون في داخل حلقها وتتلامس شفتاهما، وتسائل نفسها في تعجب: أهذه قبلة ولكنها ليست سوى بداية قبلة إذ يضغط بفمه على شفتيها وتفتح شفتاه شفتيها، هذا هو مصير الجسد وقدره، وقدره هو أن يُفتح، والآن تلتف ذراعا ريكاردو ريس حول خصرها وكتفيها ولأول مرة يتلامس ثدياها مع صدر رجل، وهي تدرك أن القبلة لم تنته بعد وهي قبلة لا يمكن أن يتخيل أحد أنها يمكن أن تنتهي ويود العالم إلى براءته البدائية وهي تدرك أيضاً أنها ينبغي عليها أن تفعل شيئاً بخلاف الوقوف هنالك مع إسدال ذراعيها لأسفل، وتتحرك يدها اليمنى لأعلى لتصل إلى كتفي ريكاردو ريس بينما يدها اليسرى ميتة أو نائمة، اليد اليسرى تحلم وتتذكر الحركات التي سبق أن قامت بها ذات مرة مع تصغير الأصابع والعبور بها خلف رقبة الرجل، وتردّ على ريكاردو ريس قبلة بقبلة بينما يداها في يديه، لقد كنت أتوقع ذلك عندما قررت المجئ إليه، لقد كنت أدرك ذلك عندما غادرت الفندق وكنت أتوقع ذلك عندما تسلقت تلك السلالم وشاهدته وهو مستند على الدرابزين، لقد أدركت أنه سيُقبلنى وتترك يدها اليمنى كتفه وتنزلق لأسفل في اعياء بينما يدها اليسرى لم تكن هناك على الإطلاق، هذه هي اللحظة التي يتراجع فيها الجسد ويكاد يترنح عندما وصلت القبلة إلى المرحلة التي لم تعد فيها

كافية، هيا بنا نفصل ما بينهما قبل أن ترغمنا القوى المتصاعدة على التقدم نحو المرحلة التالية وهي تفجر جديد من القبلات واندفاع متهور ورغم أن الشفاه لم تعد قانعة ببعضها البعض إلا أنه يتم الرجوع إليها باستمرار، وأي شخص لديه أية تجربة من هذا القبيل يعرف هذه النتيجة ولكن مارسيندا لا تعرف لأنها يتم تقبيلها واحتضانها بمعرفة رجل لأول مرة في حياتها فتكتشف على نحو فجائي أنه كلما طالت مدة القبلة ازدادت الحاجة إلى تكرارها، أنه تصعيد للاحتياج يبدو وكأنه لا نهائي، هروبها يقع في مكان آخر، يقع في هذا النشيج الموجود في حلقها والذى لا يتزايد أو يتفجر في انطلاق، إنه مجرد صوت ضعيف يتوسل: دعنى أذهب، ثم تضيف خشية أن تكون قد أساءت إليه، دعنى أجلس، فيقودها ريكاردو ريس إلى الأريكة وهو لا يعرف ما الذي يفعله معها بعد ذلك ولا يعرف ما إذا كان ينبغي عليه أن يتخذ قرارا بممارسة الحب معها أو يطلب منها العفو والغفران ولا يعرف ما إذا كان ينبغي عليه أن يركع عند قدميها أو يظل ملتزما بالصمت منتظرا إياها لكي تتكلم أولا، كل هذا يفاجأ به كأمور زائفة، فالشيء الحقيقي الوحيد كان عندما قال: إنني سأقوم بتقبيلك ثم قبلها بالفعل، وتكون مارسيندا جالسة وقد وضعت يدها اليسرى في حجرها في منظر كامل مثل شاهد على الحقائق، ويكون ريكاردو ريس جالسا هو الآخر وينظران إلى بعضهما البعض وهما على وعي بجسديهما كما لو كان كل منهما بمثابة صدفة هامسة كبيرة، وتقول له مارسيندا: ربما ما كان ينبغي لي أن أقول هذا ولكنني كنت أدرك أنك ستقوم بتقبيلى، ويميل ريكاردو ريس للأمام ويرفع يدها اليمنى إلى شفتيه ثم يتكلم أخيرا: لا أعرف ما إذا كنت قد قبلتك بسبب الحب أم بسبب اليأس، فتجيب قائلة: لم يسبق لأحد أن قبلنى من قبل على الإطلاق وذلك لا أستطيع أن أعرف الفارق ما بين

الحب واليأس ولكن من المؤكد أنك تعرف على الأقل ما شعرت به، فقال ريس: لقد شعرتُ بقبلتك مثلما يشعر البحر بالموجة إذا كانت لهذه الكلمات أيّ معنى، ولقد ظللتُ منتظرا إياك طوال هذه الأيام ومسائلا نفسي عما يمكن أن يحدث إذا جئت ولم أعتقد أبداً أن الأمور ستصبح على هذا النحو ولكنك عندما جئت إلى هنا أدركت أن تقبيلى لك هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن أفعله معك، وأنا عندما قلت منذ لحظات إنني لا أعرف ما إذا كنت قد قبلتك بدافع من الحب أم بدافع من اليأس وإذا كنت أدرك آنئذ ما أعني فإنني لم أعد أدرك ما أعني، فقالت: إذن فأنت لا تشعر باليأس كما لا تشعر بالحب نحوي، فقال: كل رجل يشعر بالحب إزاء المرأة التي يقبلها حتى ولو كانت القبلة متسمة باليأس،

فقالت: ما هي الأسباب التي تدعوك للشعور باليأس؟ فقال: إنه سبب واحد وهو الشعور بالخواء وعدم الجدوى، فقالت: كيف يمكن لرجل أن يشتكي بينما يستطيع استخدام يديه الاثنتين؟ فقال ريس: إنني لا أشتكي وإنما أقول بكل بساطة إن المرء ينبغي عليه أن يمر بتجربة اليأس قبل أن يقول لإمرأة ـ مثلما قلت لك توا ـ: إنني سأقوم بتقبيلك، فقالت: ربما تكون قد قلت هذه العبارة بدافع من الحب، فقال: لو كان ذلك حبا لكنت قد قبلتك على الفور وبدون أن أخبرك مقدما، فقالت: إذن فأنت لا تحبنى، فقال: إنني مغرم بك ومعجب بك للغاية، فقالت: ولكن ذلك ليس هو السبب في قيامنا بتقبيل بعضنا البعض، فقال: حسناً لا، فقالت: وما الذي سنفعله الآن بعد هذا الذي حدث فها أنذا موجودة في شقة رجل لم أتحدث معه سوى ثلاث مرات في حياتي كلها فلقد جئت إلى هنا لكي أراك وأتحدث معك ولكي يتم تقبيلى ولا أرغب في التفكير في الباقى، ولربما في يوم ما نفكر في الباقى، ربما

في يوم ما ولكن ليس اليوم فقال: لسوف أحضر لك فنجانا من الشاي وبعض الكعك، فقالت: دعني أساعدك ولكن بعدئذ ينبغي عليَّ أن أنصرف فقد يعود والدي إلى الفندق ويسأل عني، فقال: خذي راحتك، ولماذا لا تخلعي جاكتتك، فقالت: إنني مرتاحة على هذا الوضع.

وأثناء تناولهما للشاي بالمطبخ اصطحبها ريكاردو ريس في جميع أرجاء الشقة وألقيا نظرة خاطفة على غرفة النوم ثم عادا إلى غرفة المكتبة، وهنا تساءلت مارسيندا: هل بدأت في الكشف على المرضى، فقال: لم أبدأ وربما أحاول إنشاء عيادة ولو لممارسة الطب على مدى ساعات قليلة فقط في كل يوم، فالمسألة تتوقف على إعادة تنظيم نفسي، ولسوف يكون ذلك بمثابة بداية فقالت: ذلك هو كل ما نحتاجه، فنحن لا نريد سوى بداية، وهل سببت لك الشرطة أية متاعب أخرى، فقال: لا بل ولا تعرف الشرطة حاليا المكان الذي أقيم فيه هنا في هذه الشقة فقالت: إذ أرادوا أن يعرفوا فأنهم سيعرفون مكانك بكل سهولة وقال: وماذا عن ذراعك فقالت: لم يعد لدى أي أمل في الشفاء ووالدي يعتقد أنه ينبغي عليَّ الذهاب إلى القديسة سانت فاطيما ويقول والدي إنه إذا كان لديّ إيمان فقد تظهر معجزة مثلما حدث للآخرين الذين تم شفاؤهم من خلال المعجزات، فقال: عندما يبدأ المرء في الإيمان بالمعجزات لا يكون هناك أمل، وأنا أشك في أن هذه المغامرات الغرامية بصدد أن تنتهي وإنما ستستمر لبعض الوقت، قولى لي يا مارسيندا ما الذي تؤمنين به فقال: في نفس هذه اللحظة، فقال: نعم فقالت: في نفس هذه اللحظة لا أؤمن إلا بالقبلة التي منحتني إياها، فقال: يمكن لنا أن نحصل على قبلة أخرى، فقالت: لا، فقال: ولم لا: فقالت أنني غير متأكدة من أنني سأشعر بنفس الشعور الناجم عن القبلة الأولى والآن ينبغي على أن أنصرف فنحن سنغادر في الصباح

الباكر غدا، وعند الباب مدت يدها وقالت: أكتب إلى خطابات وأنا سأرد عليك بالخطابات لحين حلول الشهر التالي إذا كان والدي ما زال يرغب في العودة إلى لشبونة فقال: إذا لم تجئ إلى لشبونة سأذهب إلى كوامبرا، فقالت دعنى اذهب يا ريكاردو قبل أن أبدأ في طلب قبلة أخرى منك، فقال: يا مارسيندا أرجوك أن تبقى لفترة أطول فقالت: لا ثم نزلت على السلالم بسرعة بدون أن تنظر لأعلى على الإطلاق، وانغلق الباب الرئيسي للعمارة بصوت مرتفع وعندما دخل ريكاردو ريس إلى غرفة نومه سمع وقع أقدام فوقه ثم سمع صوت نافذة تفتح، أنها الجارة التي تقطن في الدور الرابع والتي تريد أن ترى بنفسها نوعية تلك المرأة التي كانت في زيارة للمستأجر الجديد وتريد أن ترى ما إذا كانت تهز فخذيها دائماً أم أن هناك شيئاً ما مشكوكا فيه ولكي ترى ما إذا كانت هذه العمارة السكينة متسمة بالهدوء والسلام والاحترام.

(١٢)

حوارت وأحكام عابرة، إذ تقول الجارة التي تسكن في الدور الرابع: بالأمس جاءت فتاة وأخرى جاءت اليوم، فتقول الجارة التي تسكن في الدور الثاني، أنا لم أشاهد الفتاة التي جاءت بالأمس ولكني شاهدت الفتاة التي جاءت هنا اليوم لكي تنظف الشقة وهي لا تبدو لي شبيهة بخادمة، فتقول امرأة الدور الرابع: أنت على حق في هذا الرأى فأنا كنت بصدد الاعتقاد بأنها ربة منزل منتمية لأسرة ميسورة الحال لو لم تجئ محملة باللفائف والحاجيات والصابون المنزلي حيث عرفته من رائحته علاوة على أنها كانت تحمل الفرشاة حيث كنت موجودة هنا على السلالم لكي أنفض ممسحة الأرجل عندما جاءت، فتقول امرأة الدور الثاني: الفتاة التي جاءت بالأمس كانت صغيرة في السن وترتدي قبعة من الطراز الحديث ولكنها لم تمكث لفترة طويلة فما معنى هذا، فقالت امرأة الدور الرابع: صراحة لا أعرف ماذا أقول فهو لم يجئ إلى هنا إلا منذ أسبوع ومع ذلك فقد زارته فتاتان بالفعل وهذه الفتاة التي جاءت من أجل التنظيف لا تثير الشكوك فهذا أمر طبيعي فالرجل الذي يعيش بمفرده يحتاج للاستعانة بفتاة لكي تنظف له شقته، أما الفتاة الأخرى فإنها يمكن أن تكون إحدى قريباته فمن المؤكد أن له أقارب: فقالت امراة الدور الثاني: ولكنني أرى أن الأمر غريب للغاية هل لاحظت أنه طوال هذا الأسبوع لم يغادر الشقة أبداً إلا في فترة تناول

طعام الغداء، فقالت امرأة الدور الرابع: هل تعتقدين أنه دكتور في الطب أم دكتور في المحاماه، فقالت امرأة الدور الثاني: لا أستطيع أن أعرف ولكن لا تقلقى فأنا عندما أذهب لتسديد قيمة الايجار سوف أسأل لأن الوكيل يعرف كل شيء بكل تأكيد، ومن المفيد دائماً أن يكون هناك طبيب مقيم في نفس المبنى فالمرء قد يحتاج للطبيب على نحو فجائي، فقالت امرأة الدور الرابع: طالما أنه إنسان يمكن الاعتماد عليه فإنني سأرى ماذا كان بمقدورى أن أمسك بهذه الخادمة التابعة له وأذكرها بأن تغسل مجموعة السلالم الخاصة بها مرة واحدة أسبوعيا فهذه السلالم كانت تظل دائماً نظيفة للغاية.

فقالت امرأة الدور الثاني: نعم قولى لها ذلك ولا تدعيها تعتقد أن بمقدورها أن تعاملنا مثل اثنتين من الكلاب فقالت امرأة الدور الرابع منهية الحوار والأحكام: ينبغي عليها أن تعرف مع من تتعامل، والشيء الوحيد المتبقى لكي نذكره هو المشهد الصامت لصعودها في بطء على السلالم وهي مرتدية شبشبها المصنوع من نسيج متشابك حيث تتوقف عند باب ريكاردو ريس وتصغى في عناية مع وضع أذنها على ثقب المفتاح، باستطاعتها سماع المياه الجارية وسماع صوت الخادمة وهي تغنى بصوت منخفض.

لقد كان يوماً مليئاً بالعمل الكثير بالنسبة لليديا، إذ ارتدت السمق أو الثوب الخارجى الفضفاض الذي كانت قد أحضرته معها وربطت شعرها وغطته بمنديل وشمرت كميها وشرعت في العمل في حماس وتجنبت مداعبات ريكاردو ريس لأنها لا تسعى إلى تحقيق أية متعة بخلاف متعة التنظيف وغسل الملابس ومسح الأرضية، وهي معتادة للغاية على انجاز هذه الأشياء لدرجة أنه لا يوجد هناك مجهود حقيقي يبذل ومن ثم فهي تغنى ولكن بصوت منخفض لكي لا يعتقد الجيران أن الخادمة تأخذ

حريتها خلال يوم العمل الأول لها في شقة الدكتور، وعندما حان موعد الغداء فإن ريكاردو ريس الذي ظل طوال فترة الصباح يطرد من غرفة النوم لكي يذهب إلى المكتبة ومنها إلى غرفة الطعام ومنها إلى المطبخ ومنه إلى الحمام ثم البزوغ من الحمام ليبدأ مرة أخرى في ترتيب عكسي مع قضاء فترة راحة قصيرة في الغرفتين الشاغرتين أدرك أن ليديا لا تظهر أية دلائل تشير إلى موافقتها على مقاطعتها أثناء العمل، لذلك قال لها في شيء من الارتباك، كما تعرفين فأنا ليس لدى أي طعام بالمنزل، هذا تعبير عن أفكاره متسم بالارتباك: وبدون اخفاء فإن هذه العبارة يمكن أن تبدو على هذا النحو: أنني سأخرج لكي أتناول طعام الغداء ولكني لا أستطيع أن أخذك معي إلى المطعم لأن ذلك قد يبدو غير ملائم فماذا ستفعلين؟ فتجيب: اذهب لتتناول غداءك، وأنا قد أحضرت معي من الفندق حساء وبعض اللحوم ولسوف أتناولهما وهذا سيكفينى ويمكن لك أيضاً أن تتأخر بالخارج لبعض الوقت لكي لا تعرقلنى أثناء العمل، وكانت تضحك أثناء تكلمها وتمسح العرق عن وجهها باستخدام ظهر يدها اليسرى بينما يدها اليمنى تثبت المنديل الذي كان قد أنزلق بعض الشيء عن رأسها فوضع ريكاردو ريس يده على كتفها وقال: حسناً وداعا مؤقتا، ثم غادر الشقة، وبينما كان عند منتصف المسافة على السلالم سمع صوت أبواب تفتح بالطابق الثاني والطابق الرابع، كانت الجارتان تخرجان من أجل تنبيه ليديا في آن واحد، والآن يا عزيزتى لا تنسى أن تغسلى مجموعة السلالم الخاصة بسيدك ولكن لدى مشاهدتهما الدكتور سارعتا إلى التراجع إلى الداخل، ما أن يسير ريكاردو ريس على الرصيف بالشارع فإن المرأة بالدور الرابع ستنزل إلى المرأة بالدور الثاني من أجل أن تنخرطا في حديث هامس، لقد أصيبت بالذهول، هل سبق لك أن شاهدت مستأجرا يخرج ويترك الخادمة في شقته، فقالت

الأخرى: ينبغي أن أقول إن هذه ثقة كبيرة وربما هي التي كانت تنظف في مسكنه السابق، وترد زميلتها: ربما ياسينيورا ربما فأنا لا استنكر هذا الوضع ولكن ربما يكون بينهما أيضاً علاقة جنسية فالرجال أشرار ويتسمون بالخبث ولا تفوتهم أية فرصة على الاطلاق، فتقول الأخرى: أغربي عن وجهي، إنه دكتور في الطب، فتقول زميلتها: يمكن للدكتور أن يكون خبيثاً وشريراً فالرجال أشراب، فتقول الأخرى: زوجي ليس رديئاً على هذا النحو، فتقول زميلتها: وكذلك زوجي ليس رديئاً وإلى واللقاء مرة أخرى ياسينيور ولا تنسى أن تنبهي الخادمة، فتقول الأخرى القاطنة بالدور الثاني: لا تقلقى لن تمر من أمام بابي إلا بعد أن أصدر الأوامر إليها واتضح أنه لم يكن هناك داع لتنبيهها، ففي منتصف فترة ما بعد الظهر خرجت ليديا إلى بسطة السلم ومعها فرشاة وممسحة وجردل، وراحت المرأة الموجودة بالدور الرابع ترقب في هدوء من على بينما السلالم الخشبية تضج بضربات الفرشاة الثقيلة وكان يتم التخلص من المياه القذرة من خلال عصرها في الجردل وتم تغيير مياه الجردل ثلاث مرات بينما المبنى كله قد امتلأ بالرائحة النظيفة للصابون القوى، وتقول امرأة الدور الثاني: لا يمكن انكار هذا المجهود الكبير فالخادمة تتقن عملها تماماً ثم تستعد لتنظيف مجموعة السلالم الخاصة بها لدى وصول ليديا إلى بسطة السلم الخاصة بها وتقول لليديا: أقول لك صراحة أيتها الفتاة أنك قد نظفت تلك السلالم على نحو رائع ومن المريح أن نعرف أننا لدينا مستأجر بالدور الثالث يمكن الثقة فيه والاعتماد عليه، فتقول ليديا: الدكتور يصر على أن يكون كل شيء في حالة نظافة ونظام ويجب أن يرى الأشياء وهي تنجز في اتقان لأن المنظر عندئذ يدخل السرور على النفس، فتقول المرأة القاطنة بالدور الرابع وهي تنحنى مستندة على الدرابزين: المنظر جميل بكل تأكيد، ثم

تمنت ليديا لهما قضاء وقت سعيد في فترة ما بعد الظهر، وصعدت على السلالم حاملة معها الجردل والفرشاة والخيشة والصابون، ثم أغلقت الباب في إحكام وراءها وقالت لنفسها في تمتمة: كلبتان عجوزتان متكبرتان وراغبتان في مجرد اصدار الأوامر، لقد انتهت من أعمالها وكل شيء أصبح أنيقا تماماً يمكن الآن لريكاردو ريس أن يرجع ويمر بإصبعه على سطح الأثاث مثلما تفعل دائماً ربات البيوت من أجل محاولة اكتشاف غلطة واحدة علاوة على تفحص كل صغيرة وكبيرة، وعلى نحو فجائي تجتاح ليديا موجة من الحزن الهائل أو احساس بالكآبة في النفس والبؤس ليس بسبب أنها تشعر بالارهاق ولكن لأنها تدرك ـ وإن كانت غير قادرة على التعبير بالكلمات ـ أنها قد أوفت بالغرض المطلوب منها وكل ما تبقى لكي تفعله هو أن تنتظر وصول سيدها وهو سوف يشكرها وسوف يرغب في تقديم تعويض لها في مقابل مثابرتها واجتهادها وهي سوف تصغى إليه في ابتسامة جامدة وتتسلم أو لا تتسلم الأجر ثم تعود إلى الفندق، بل أنها اليوم لم تقم بزيارة والدتها لكي تعرف منها ما إذا كانت هناك أية أخبار واردة عن أخيها بل ولا هي تشعر بالندم على هذا ولكن الأمر يبدو وكأنها لا تمتلك أي شيء خاص بها، والآن تغير ملابسها وترتدي البلوزة والجونلة، وبينما يبرد العرق على جسدها تجلس على مقعد خشبي بالمطبخ وقد طوت يديها في حجرها ولاذت بالانتظار، وتسمع صوت أقدام على السلالم وصوت المفتاح وهو يدخل في الكالون، أنه ريكاردو ريس، ويقول مازحا وهو في الممر: هذا يشبه الدخول إلى مسكن الملائكة، فتنهض ليديا واقفة على قدميها وتبتسم لدى سماع مثل هذا التملق ولكن على نحو فجائي تشعر بالقناعة والرضا ثم تشعر بالتأثر الشديد لدى اقترابه منها وقد مدّ يديه وفتح ذراعيه، وتقول: أوه لا تلمسني فأنا مغطاة بالعرق وكنت بصدد مغادرة

المكان فيقول: لا تذهبي الآن، مازال الوقت مبكرا، تناول قدحا من القهوة، ولقد اشتريت بعض الكعك المخلوط بالكريمة، ولماذا لا تأخذى حماما ولا لكي تشعرى بالانتعاش، فتقول: يا لها من فكرة أنا آخذ حماما في شقتك من الذي سمع من قبل عن مثل هذا الإجراء، فيقول: لم يسمع أحد من قبل عن هذا ولكن دائماً ما يكون هناك ما يسمى بالمرة الأولى افعلى كما أقول لك.

فلم تعترض مرة أخرى، لم يكن بمقدورها أن تعترض حتى لو كانت التقاليد الاجتماعية لاتنص على ذلك، لأن ذلك كان من أسعد لحظات حياتها حيث تفتح المياه الساخنة الجارية وتخلع ملابسها وتنزل نفسها في بطء في حوض الاستحمام وتشعر بأطرافها المرهقة وهي تسترخى في الدفء المحسوس للماء مع استخدام الصابون والاسفنج لكي تغطى جسدها برغوة الصابون بما في ذلك ساقاها وفخذاها وذراعاها وبطنها وثدياها مع الادراك في نفس الوقت أن هناك رجلا على الجانب الآخر من الباب في انتظارها وتقول لنفسها في تفكير:

استطيع أن أتخيل ما يفعله وما يفكر فيه ولكن إذا كان عليه أن يجئ إلى هنا وإذا كان عليه أن يرانى ويرقبنى بينما أنا عارية هنا سيكون الأمر مثير للخجل والخزى، أيمكن أن يكون الخجل هو الذي يجعل قلبها يدق بسرعة هائلة أم أن السبب في ذلك هو الخوف، وتأخذ خطوة خارجة من الحمام، دائماً ما يبدو الجسد البشرى جميلا عندما يخرج من الماء لامعا ومتلألئاً، ذلك هو ما خطر على ذهن ريكاردو ريس وهو يفتح الباب، ليديا عارية تماماً وتغطى ثدييها وما بين ساقيها بيديها، وتقول في توسل: لا تنظر إليّ هذه هي أول مرة تواجهه على هذا النحو، وتضيف: أرجوك أن تبتعد وتدعنى ارتدى ملابسى وقالت تلك العبارة بصوت منخفض ملئ بالخجل ولكنه يبتسم لها ابتسامة مليئة

بالرقة والرغبة بل والنزوع إلى الأذى ويقول لها: لا ترتدي ملابسك ولكن اكتفي بتجفيف جسدك، ويقدم لها فوطة كبيرة ويلفها حولها ثم يذهب إلى غرفة نومه ويخلع ملابسه، كان السرير قد تم ترتيبه توا وكانت الملايات جديدة ولها رائحة جميلة، وتدخل ليديا إلى غرفة النوم ممسكة الفوطة بإحكام لكي تخفي جسدها ولا تمسك بها مثل حجاب شفاف ولكنها تسقطها لدى اقترابها من السرير حيث تشعر بالشجاعة في نهاية الأمر، ليس هذا يوماً تشعر فيه بالبرد لأن جسدها كان يحترق بالسخونة في الداخل والخارج أما الثاني وضعت الجارة كرسيى مطبخ بدون مسند فوق بعضهما وجلست قابعة فوقهما معرضة نفسها لأخطار السقوط على الأرض وخلع كتفها حيث كانت تحاول فك شفرة ومعرفة معانى الأصوات التي تصل إليها مخترقة السقف، وجهها قرمزى اللون مع حب الاستطلاع والإثارة وعيناها تلمعان مع الفسوق المكبوت هذه هي الطريقة التي تحيا وتموت عليها هؤلاء النساء ترى في أي شيء ينهمك الدكتور وتلك الفتاة الوقحة على ما تعتقد، ولكن من يدرى ربما هما منهمكان فقط في العمل الشريف المتعلق بقلب المراتب والطرق عليها وعندما رحلت ليديا بعد ذلك بنصف ساعة لم تجرؤ الجارة بالدور الثاني على فتح بابها وأن كان للتجاسر الحدود الخاصة به واكتفت بالنظر من خلال ثقب الباب الذي يختلس منه النظر وراحت ترقب بعين شبيهة بعين الصقر الهيكل الرشيق الذي مر بسرعة وهو مغلف برائحة رجل وكما لو كانت هذه الرائحة بمثابة درع، وفي سريره يغلق ريكاردو ريس عينيه فما دام أنه قد تم إشباع رغبات جسده فإنه يمكن له البدء في إضافة المتعة الرقيقة المحيرة المتعلقة بالشعور بالوحدة، ويتدحرج على المساحة التي كانت تشغلها ليديا فيشم الرائحة الغريبة الخاصة بحيوان غريب ولكنها رائحة مشتركة لا تتعلق بأحدهما ولكن بكليهما، نكتفي

بهذا القدر من الكلام وهيا بنا نلتزم بالصمت فالخوض في هذه النوعية من المعرفة ليس من اختصاصنا.

اليوم يبدأ بالصبح والأسبوع يبدأ بيوم الأحد، ومع ظهور الضوء الأول للنهار بدأ ريكاردو ريس في كتابة خطاب مطول لمارسيندا مع الانهماك في تفكير عميق ما الذي نكتبه لأمرأة قمنا بتقبيلها بدون الاعلان عن حبنا، إذا تم التماس العفو منها سيكون ذلك سيئاً خاصاً وأنها قد تبادلت القبلة بقبلة من جانبها مليئة بالعاطفة، ومن ناحية أخرى إذا لم نقل أثناء تقبيلها: أنني أحبك فلماذا نلفق هذه الكلمات الآن وندخل في مخاطر عدم تصديق تلك الكلمات، الرومان يؤكدون لنا باللغة اللاتينية أن الأعمال تتحدث بصوت أعلى من الكلمات، فدعونا ننظر بعين الاهتمام إلى الأعمال على النحو الذي تمت عليه ونغفل الكلمات لأن الكلمات تكون زائدة عن الحاجة ولا لزوم لها، فالكلمات هي الطبقة الأولى من الشرنقة، وينبغي علينا أن نستخدم الكلمات التي لا تعطي وعدا والتي لا تسعى إلى تحقيق أي شيء بل والتي لا توحي بأي شيء ولندع الكلمات تحمى مؤختنا لدى تراجع الجبن الخاص بنا تماماً مثل هذه العبارات المتشظية العامة الملتبسة، وذهب ريكاردو ريس للبحث عن وظيفة طبيب يحل محل طبيب في إجازة وبحيث يعمل ساعتين في اليوم ولمدة ثلاثة أيام أسبوعيا أو حتى لمرة واحدة أسبوعيا حتى ولو أدى الأمر إلى أن يعمل في عيادة تطل على فناء خلفي إذ تكفي أية غرفة صغيرة من أجل الكشف على المرضى مع وجود أثاث بها من طراز قديم علاوة على سرير يقع خلف ستارة من أجل الفحص والكشف الروتينى بالاضافة إلى مصباح مكتب من أجل فحص بشرة المريض في مزيد من الدقة ووعاء للبصق من أجل الذين يعانون من الالتهاب الشعبي واثنتان من المطبوعات تعلقان على الحائط واطار من

أجل أن توضع به شهادة الدبلوما الخاصة به ونتيجة حائط للأيام تبين لنا عدد الأيام التي ما زال علينا أن نعيشها، وبدأ بالبحث في الأماكن البعيدة بعض الشيء مثل: القنطرة والبامبولها ربما لأنه قد سبق له المرور عند هذه الأماكن عندما دخل إلى البوغاز، وسأل عما إذا كانت هناك أية أماكن شاغرة وتحدث مع أطباء لم يكن يعرفهم ولم يكونوا يعرفونه وشعر بأنه سخيف عندما كان يخاطبهم بعبارة: أيها الزميل العزيز وعندما كانوا يخاطبونه بنفس الطريقة، وقال أحدهم: لدينا مكان شاغر هنا ولكنه بصفة مؤقتة حيث يوجد زميل في إجازة ونتوقع له أن يعود في الأسبوع القادم، فراح يبحث في الحى السكني عند كوندي بارو ثم عند روسيو ولكنه لم يعثر على أماكن شاغرة، وهناك شيء حسن أيضاً وهو أنه لا يوجد عجز في عدد الأطباء لأننا في البرتغال لدينا أكثر من ٦٠٠ ألف حالة إصابة بمرض الزهرى كما أن معدلات الوفيات بين الأطفال مرتفعة للغاية فمن بين ألف طفل يولدون يموت ١٥٠ طفلا، وبعدئذ تخيل حجم الكارثة لو لم يكن لدينا تحت تصرفنا مثل هذا العدد من الأطباء الممارسين الممتازين، وأخيرا وفي يوم الأربعاء اكتشف وجود مكان شاغر قريب من مسكنه ويقع في براسا كاموس ومن حسن حظه أنه وجد نفسه متمركزا في عيادة لها نافذة تطل على الميدان، وهي عيادة تخص طبيبا متخصصا في أمراض القلب والرئتين ولكنه هو نفسه أصيب بمرض القلب فاضطر للحصول على إجازة وحل محله ريكاردو ريس بصفة مؤقتة، وحالته ليست خطيرة ولكن تماثله للشفاء يستغرق حوالى ثلاثة أشهر، ولم يكن ريكاردو ريس بارزا في هذا التخصص ولعلنا نتذكر أنه قال إنه غير متخصص في أمراض القلب مما يجعله لا يستطيع إبداء أي رأى بشأن حالة مرض القلب الذي تعانى منه مارسيندا ولكن القدر لا يكتفي بتحريك الأمور

وإنما هو قادر أيضاً على ممارسة السخرية ولذلك فأن ريس وجد نفسه مرغما على أن يطوف بسرعة بالمكتبات بحثا عن مراجع طبية قد تعينه على إنعاش ذاكرته وتزويده بأحدث التقنيات والوسائل في مجال الطب العلاجي والطب الوقائي، وقام بزيارة الطبيب صاحب العيادة والذي يقضى فترة النقاهة وأكد له أنه سيبذل جهده في العمل في هذا المجال الجليل المحترم وسوف يستشيره من وقت لآخر من أجل الاستفادة من خبرته وعلمه الوفير، وتناقشا في الشئون الإدارية للعيادة ومرتب الممرضة والمصاريف الجارية والمبلغة الذي سيحصل عليه صاحب العيادة، ولم يكن من المتوقع أن يجعل المبلغ المتبقى من ريكاردو ريس رجلا غنيا ولكنه لا يزال لديه مبلغ كبير بالعملة البرازيلية مدخر لوقت الحاجة إليه، ونظرا لأنه لم يكن لديه شيء آخر يمكنه أن يفعله فأنه يذهب إلى العيادة في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة ويواظب على هذه المواعيد الثابتة وفي بادئ الأمر ينتظر المرضى الذين لا يجيئون وبعدئذ عندما يجيئون يحرص تماماً على ألا يهربوا منه وبعدئذ تفقد هذه البدعة الجدية الاثارة المتعلقة بها ويبدأ في ممارسة العمل الروتينى الخاص بتفحص الرئتين المصابتين المنهارتين والقلوب المصابة بالتليف الموضعى مع الرجوع إلى الكتب من أجل شفاء الحالات التي لا يمكن شفاءها ونادرا ما يتصل تليفونيا لاستشارة زميله صاحب العيادة رغم وعوده بزيارته بانتظام لكي يستشيره نحن جميعاً نستفيد من حياتنا بأقصى درجة ممكنة ونستعد من أجل ملاقاة الموت، وعلاوة على ذلك فإنه من المحرج والمربك أن يسأل: ما هو رأيك أيها الزميل أنا شخصيا لدى انطباع بأن قلب هذا المريض يتعلق من خلال شعرة خيط فهل لديك أي مخرج أو حل بخلاف الحل الذي يقود المرء إلى العالم الآخر فالأمر

هنا أشبه ما يكون بالتحدث عن حبل موجود في منزل رجل قد حكم عليه بالإعدام شنقاً.

حتى الآن لم يصل خطاب من مارسيندا كرد على الخطاب الذي أرسله إليها ريس، فأرسل ريس لها خطابا ثانيا حدثها فيه عن حياته الجديدة وعن أنه بدأ يمارس مهنة الطب مرة أخرى وفقا لأوراق الاعتماد المستعارة لأخصائي مشهور، وأضاف: فأنا استقبل مرضاى بالعيادة التي تقع في براسا دى لو كاموس وهي على مسافة قريبة للغاية من شقتى وبجوار فندقك، أن الإنسانة التي قبلها والذكرى التي لا يزال يحتفظ بها عن تلك القبلة تذبل وتتوارى خلف ضباب الزمن، وفي محلات بيع الكتب لا يستطيع العثور على كتاب قادر على انعاش ذاكرته، وبدلا من ذلك يجد معلومات عن آفات متعلقة بالقلب والرئتين بل وكثيراً ما يقال إنه لا توجد هناك أمراض ولا يوجد فقط سوى أشخاص مرضى، فهل هذا يعنى أنه لا توجد هناك قبلات وإنما فقط أشخاص مقبلون.

حالة الطقس تتحسن ومع ذلك فالعالم يسير من سيئ لأسوأ، فالربيع وفقا للتقويم قد حل بالفعل ويمكن مشاهدة البراعم والأوراق الصغيرة التي تنبت على أغصان الأشجار ولكن الشتاء يغزو هذه الأجزاء من وقت لآخر، وتهطل أمطار هائلة فتكتسح الأوراق والبراعم في الفيضان إلى أن تعاود الشمس الظهور مرة أخرى مما يساعدنا على نسيان كوارث المحصول الأخير والثور الغارق المنتفخ المتعفن المنجرف مع تيار الماء والكوخ الذي تداعت حوائطه والاغراق الفجائي الذي يجذب جثتى رجلين إلى شبكة المجارى الخاصة بالمدينة بين البراز والغائط والحشرات الطفيلية، الموت ينبغي أن يكون بمثابة انسحاب بسيط مثل الممثل المساعد الذي يخرج في تحفظ وحذر، فهو يحرم من حق إلقاء

كلمة نهائية عندما لا تصبح هناك حاجة لوجوده، ولكن نظرا لأن العالم شاسع للغاية ويحتوي على أحداث أكثر درامية فأنه يتجاهل هذه الشكاوى التي نتمتم بها بين أسنان مطبقة عن عدم توفر اللحوم في لشبونة، هذه أنباء لا ينبغي على المرء أن يذيعها أو يسربها إلى الخارج فلنترك ذلك للأمم الأخرى التي تنقصها حاسة الخصوصية اللوزيتانية Lusitanian الخاصة بنا، عليك بالنظر بعين الاعتبار في الانتخابات الأخيرة في ألمانيا والتي تمت في برونسفيك حيث سار الفيلق الاشتراكي/ الوطني في موكب بالشوارع مع ثور يحمل لافتة كتب عليها: هذا الثور لا يدلي بصوته في الانتخابات، لو كان هذا في البرتغال لكنا قد أخذنا الثور لكي يدلي بصوته وعندئذ نأكل شرائحه الطرية وأعضاءه التناسلية ونستخدم ذيله في أعداد الحساء، من الواضح أن الجنس الألماني يختلف كثيراً عن الجنس الخاص بنا هنا الجماهير تصفق بأيديها وتندفع من أجل مشاهدة المواكب وتلقى التحية بالطريقة الرومانية وتحلم بوجود زيّ رسمي للمدنيين ومع ذلك فهي تلعب دورا متواضعا على المسرح الكبير للعالم، وكل ما نأمل فيه هو أن يتم استئجارنا لكي نقوم بدور الكومبارس وهذا يوضح لنا السبب في أننا لا نعرف أبداً أين نضع أقدامنا أو ماذا نفعله بأيدينا عندما نقف في طوابير بالشوارع من أجل تكريم الشباب الذي يمر، الطفل البرئ بين ذراعي أمه لا يأخذ حماسنا الوطني بجدية فيقوم بجذب أصبعنا الوسطى الذي يمكن له الوصول إليه، ومع أمة مثل أمتنا من المستحيل أن نكون معتدين بأنفسنا ومتسمين بالوقار أو يقدم المرء منا حياته على محراب وطن الأسلاف والأجداد، وينبغي علينا أن نتعظ ونأخذ الدروس ونرى كيف أن الألمان سالفي الذكر يطالبون بأن يكون هتلر رئيسا في الويلهيلمزبلاتز ونرى كيف أنهم يلتمسون في حماس قائلين: نحن نريد

الفوهرير نحن نتضرع إليك يا فوهرير نحن نريد مشاهدتك يا فوهرير ويظلون يصيحون إلى أن تبح أصواتهم ويتصبب العرق من وجوههم بينما النساء العجائز بشعرهن الأبيض يناشدن في دموع والنساء الحوامل يرتجفن مع أرحامهن المتورمة وصدورهن المتنهدة والرجال مزودون بعضلاتهم القوة وإراداتهم الحديدية والكل يهتف ويصفق بالأيدي إلى أن يتجلى الفوهرير عند النافذة وعندئذ تتفجر الهستيريا بغير حدود ويصيح الجميع في صوت واحد: هايل Heil هتلر، لو كنت فقط قد ولدت ألمانيا، ولكن لا داعي لأن يكون المرء طموحا للغاية إلى هذه الدرجة لا داعي لأن تعقد مقارنة مع الألمان يكفي أن ننظر إلى الطليان الذين يحققون حاليا الانتصارات في حروبهم فمنذ أيام قليلة انطلقت طائراتهم على طول المساحة حتى مدينة هارار Harar وحولت كل شيء بها إلى رماد فإذا كانت دولة مثل إيطاليا تقوم بهذه المخاطر فلماذا ينبغي أن نعاق نحن من خلال الأغانى الشعبية الحزينة Fado البرتغالية، أن سوء حظنا يكمن في عدم توفر الفرص لدينا، صحيح نحن لدينا امبراطورية تعتبر من أعظم الامبراطوريات بل وتزيد مساحتها على مساحة أوروبا كلها ومع ذلك فنحن عاجزون عن إلحاق الهزيمة بجيراننا المباشرين بل ولا نستطيع استرداد أوليفينسا Olivenca، ولكن إلى أين تقودنا مثل هذه المبادرة الجريئة، دعونا ننظر ونرى ما ستسفر عنه الأمور عند الحدود وفي تلك الأثناء هيا بنا نستمر في أن نستقبل في بيوتنا وفنادقنا أولئك الأسبان المتدفقين الذين هربوا من الاضطرابات الكبيرة فهذا هو كرم الضيافة التقليدي البرتغالي وإذا أعلن عنهم في يوم ما أنهم أعداء لإسبانيا فإننا سنقوم بتسليمهم للسلطات التي ستتعامل معهم على النحو الذي يروق لها. فالقانون قد وضع من أجل أن ينفذ، وتوجد بين البرتغاليين رغبة قوية نحو الاستشهاد أو الموت في سبيل المبدأ أو

الرغبة الشديدة في التضحية وإنكار الذات ومنذ أيام قليلة قال أحد زعمائنا: لا يمكن لأم أن ترشد ابنها لمصير أسمى وأنبل من مصير الاستشهاد دفاعا عن لوطن الأم، ابن الزنا، يمكن لنا تخيله وهو يزور عنابر الولادة ويتفحص بطون النساء الحوامل ويسألهن عن موعد الولادة بالنسبة لهن ويخبرهن بأن الخنادق بحاجة إلى جنود، ولكن أية خنادق، لا يهم، لسوف تكون هناك خنادق على كل حال وكما نرى من هذه النذائر بالنحس والشؤم فإن العالم لا يوحي بظهور أي قدر كبير من السعادة، ولقد تمت الآن تنحية ألكالا زامورا من رئاسة الجمهورية وتشير الشائعات إلى احتمال حدوث انقلاب عسكرى في أسبانيا، فإذا حدث ذلك ستحدث أوقات عصيبة وحزينة بالنسبة للكثيرين من الناس، ولكن ليس هذا هو السبب الذي يجعل الناس يهاجرون، فالبرتغاليون لا يهمهم ما إذا كانوا يعيشون في الوطن الأم في العالم الخارجى فأهم شيء هو العثور على مكان يمكن لنا فيه أن نأكل وندخر بعض الأموال سواء أكان هذا المكان هو البرازيل التي هاجر إليها في شهر مارس ٦٠٦ برتغالي أو الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية التي هاجر إليها ٥٩ برتغاليا أو الارجنتين التي هاجر إليها ما يزيد على ٦٥ برتغاليا ولكن بالنسبة لكل دول العالم الأخرى فقد هاجر إليها اثنان فقط من البرتغاليين، وفرنسا لا تصلح بالنسبة للأجلاف الريفيين البرتغاليين حيث يوجد بها نوع آخر من الحضارة.

والآن حل عيد الفصح، وتقوم الحكومة بتوزيع الصدقات والمواد الغذائية في جميع أرجاء البلاد وبالتالي فهي توحد ما بين إحياء الذكرى الكاثوليكية الرومانية لمعاناة وانتصارات السيد المسيح وبين الاشباع المؤقت للبطون المحتجة، والفقراء الذين لا يكونون دائماً متسمين بالنظام يقفون في صفوف عند أبواب مجالس الأبرشيات وبيوت الصدقة

بل وتوجد حاليا شائعات تشير إلى أنه في نهاية مايو ستتم إقامة مأدبة فاخرة في نادى جوكي لصالح أولئك الذين تشردوا نتيجة للفيضانات التي حدثت في ريباتيجو وهم أولئك التعساء الذين ظلوا يحومون هنا وهنا بينما بنطلوناتهم مبللة على مدى شهور عديدة، واللجنة المنظمة لتلك المأدبة قد حرصت على أن يحضرها عدد من أبرز الشخصيات بالمجتمع الارستقراطى البرتغالي سواء من الناحية الأدبية أو الثروات المادية ولذلك فإن أهالى ريباتيجو محظوظون للغاية بشرط أن يصبروا على الجوع حتى شهر مايو، وهناك اعلانات عن دواء مغذ يسمى بوفريل Bovril ويشير الإعلان إلى أنه يمكن القضاء على المجاعة في ارجاء البلاد لو تم تزويد كل مواطن بزجاجة بوفريل فهو غذاء وطني وطعام وطني وعالمي وفيه الشفاء من جميع الأمراض، لو كنا قد تناولنا البوفريل منذ البداية لما كنا قد أصبحنا الآن جلدا على عظم.

ويقوم ريكاردو ريس بجمع المعلومات عن الاعلانات المماثلة ويكتب ملاحظاته عن هذه الأدوية المفيدة، إنه ليس مثل الحكومة التي تصر على تدمير بصرها من خلال القراءة ما بين السطور مع اغفال الحقائق والتركيز على النظريات، فإذا كان الصباح مشرقا وجميلا فإنه يخرج لكي يقرأ الصحف وهو جالس تحت أشعة الشمس وتحت الحملقة الواقية لتمثل آداماستور، وعلى المقد الخشبي الطويل الآخر يتحدث الرجلان العجوزان في دردشة في انتظار أن يفرغ ريكاردو ريس من قراءة جريدته لأنه عادة ما يتركها على المقعد الخشبي عقب الانتهاء من قراءتها، الرجلان العجوزان يجيئان إلى هنا في كل يوم على أمل أن يظهر الجنتلمان في المنتزه، الحياة منجم من المفاجآت لا ينضب، ونحن نصل إلى مرجلة من العمر لا يكون لدينا فيها أي عمل نفعله سوى أن نرقب البواخر القادمة من ألتوسانتا كاتارينا ونكافأ على نحو

فجائي بجريدة على مدى يومين متتالين في بعض الأحيان حيث يتوقف ذلك على الطقس.

وذات مرة شاهد ريكاردو ريس أحد الرجلين العجوزين وهو يهرول في عصبية نحو المقعد الذي كان يجلس عليه ولذلك قام بالعمل الأخير وقدم له الجريدة بنفسه قائلاً له: ها هي الجريدة، وهما قد تقبلا الجريدة منه بالطبع ولكنهما يشعران الآن بشيء من الاستياء بعد أن أصبحا يدينان له بالجميل، ويجلس ريكاردو ريس في ارتياح على المقعد الخشبي وقد وضع ساقا على ساق مع الاستمتاع بالدفء الجميل للشمس الواقع على جفنى عينيه شبه المغلقتين ويتلقى الأخبار من جميع أرجاء العالم، ويعرف أن موسولينى قد وعد بسرعة إبادة القوات العسكرية الأثيوبية وأن السلاح الروسى قد أرسل إلى اللاجئين البرتغاليين الموجودين في إسبانيا علاوة على اعتمادات وأموال أخرى يراد بها إنشاء اتحاد الجمهوريات السوفيتية / الأيبيرية المستلقة وأن البرتغال هي هبة الله من خلال أجيال متلاحقة ومتعاقبة من القديسين والأبطال وأنه من المتوقع أن يشارك ٤٥٠٠ من العمال في موكب تنظمه الحركة التعاونية بشمل البرتغال من بينهم ٢٠٠٠ من العمال الذين يعملون في شحن وتفريغ السفن + ١٦٥٠ من صناع البراميل + ٢٠٠ من العمال الذين يملأوون الزجاجات بالمواد + ٤٠٠ من عمال المناجم القادمين من سو بيدرو داكوفا + ٤٠٠ من العمال القادمين من مصانع المعلبات بماتوسينيوس + ٥٠٠ من الأعضاء المساعدين المنتمين لمنظمات الاتحاد في لشبونة ويقرأ أيضاً أن القارب البخارى الفاخر الذي يسمى ألفونصو دى ألبوقيرق سيتجه إلى لايكوس من أجل حضور احتفالات العمل التي تقام هناك، وأن الوقت سيتم تقديمه بمقدار ساعة وأنه يوجد هناك اضراب عام في مدريد وأن جريدة أوه كريم معروضة

للبيع اليوم وأن أعضاء من الحكومة أشرفوا على توزيع الطعام على ٣٢٠٠ من الفقراء في أوبورتو وأن الموسيقار أوتورينو مؤلف سيمفونية نافورات رما قد انتقل إلى رحمة الله، ومن حسن الحظ أن العالم لديه شيء ما من أجل كل شخص، ولا يستمتع ريكاردو ريس بكل شيء يقرؤه ولكنه لا يستطيع اختيار الأنباء وينبغي عليه تقبلها مهما كانت، وموقفه يختلف تماماً عن موقف رجل أمريكي عجوز يتلقى في صباح كل يوم نسخة من جريدة النيويورك تايمز التي هي جريدته المفضلة، وهي طبعة خاصة تصدر من أجله حيث تراعى الصحة الضعيفة لهذا القارئ المتخاذل الذهن الذي وصل عمره إلى ٩٧ عاما حيث تحرص هذه النسخة الخاصة على عدم تقديم أي شيء سوى الأخبار السارة والمقالات المليئة بالتفاؤل وذلك لكي لا ينزعج هذا الرجل العجوز من الكوارث التي تسود العالم والتي تتزايد حدتها يوماً بعد يوم، وهذه النسخة التي تطبع من أجله توضح وتبرهن على أن الأزمة العالمية الاقتصادية بصدد الزوال السريع وأنه لم تعد توجد هناك بطالة وأن النظام الشيوعى الموجود في روسيا بدأ يميل إلى الاتجاهات الأمريكية وأن البلاشفة قد ارغموا على الاعتراف بفضائل أسلوب الحياة الامريكية، وكانت هذه الأنباء الجميلة تقرأ على مسامع جون روكفلر أثناء تناوله طعام الإفطار وحتى بعد أن طرد سكرتيره فإنه يمكن له من خلال بصره الضعيف أن يقرأ كل هذه الأنباء السارة، فأخيرا وبعد طول انتظار يسود السلام ربوع الكرة الأرضية ولا تشن أية حرب إلا إذا كانت نافعة والربحية أصبحت مستقرة ومعدلات الفائدة أصبحت مضمونة، إنه لم يعد لديه وقت كثير متبق في حياته ولكن عندما تحين ساعة وفاته فإنه سيموت في سعادة، وبعد أن انبهر ريكاردو ريس من هذا الخبر الذي قرأه توا عن روكفلر وضع الجريدة في حجره وراح يفكر: كيف سمح

روكفلر وهو رجل غنى وصاحب نفوذ بأن يخدع على هذا النحو، ويتظاهر الرجلان العجوزان بالانهماك في الدردشة ولكنهما ينظران بزاوية من العين في انتظار حصولهما على نسختهما من النيويورك تايمز وينهض ريكاردو ريس واقفا على قدميه ويشير للرجلين العجوزين اللذين يقولان: أوه شكر جزيلا يا سيدي، ويتقدم الرجل الممتلئ مبتسما ويرفع الجريدة المطوية كما لو كانت موضوعة على صينية من الفضة الجريدة في حالة جيدة وكأنها جديدة تماماً، هذه ميزة أن يكون للمرء يدان ماهرتان لطبيب ممارس، يدان في نعومة أيدي السيدات، ثم يعود إلى مقعده ويستقر مرة أخرى إلى جوار الرجل النحيل العجوز ولا تبدأ قراءتهما من الصفحة الأولى، إذ ينبغي علينا أن نتفحص أولا لنرى ما إذا كانت هناك تقارير تتعلق بالتمردات وتفجرات العنف والكوارث وحالات الوفيات والجرائم وخاصة الجريمة التي ترتعد لها الأبدان والتي تتعلق بالوفاة الغامضة للويس أوسيدا Luis Uceda والتي لم تتم معرفة معلومات كافية عنها.

وعندما يعود ريكاردو ريس إلى شقته يكتشف وجود ظرف على ممسحة الأرجل، الظرف له لون بنفسجى فاتح ولا يوجد عليه اسم المرسل، وبصعوبة قرأ خاتم البريد الملطخ المكتوبة عليه كلمة: كوامبرا، وأمسك الخطاب المغلق في يده ووضعه على الكومودينو فوق كتاب «إله المتاهة» كان يفضل أن يتركه هنالك لبعض الوقت ربما لأنه قد عاد من الخارج توا وهو يشعر بالأرهاق عقب تمضيه ساعات من الاستماع إلى خشخشة الرئات المريضة أو المصابة بالسل للبرتغاليين، ثم جلس على حافة السرير وشرع في القراءة، صديقي العزيز: لقد تلقيت خطاباتك بسرور عظيم وخاصة الخطاب الثاني الذي قلت فيه إنك بدأت في استقبال المرضى والكشف عليهم، كما أنني استمتعت

بخطابك الأول أيضاً ولكنني لم أفهم تماماً كل الكلام الذي كتبته أو ربما أنا خائفة من الفهم، صدقنى إنى لا أرغب في أن أبدو غير ممتنة، ولكن لا يسعنى إلا أن أسأل نفسي عما يكون هذا وما هو المستقبل الموجود هناك وأنا لا أعني المستقبل بالنسبة لنا ولكن المستقبل بالنسبة لي، بل إنني لا أعرف ما تريده أنت أو ما أريده أنا، لو أن حياة المرء كلها يمكن أن تتكون من لحظات معينة ولا حتى هذا لم يكن لي به خبرة كبيرة ولكن الآن كانت لدى هذه الخبرة الواحدة وهي خبرة لحظة وكيف أنني أرغب لو كانت هي حياتي ولكن حياتي هي ذراعي اليسرى التي هي ميتة والتي ستظل ميتة، وحياتي هي أيضاً بمثابة السنوات التي تفصل بيننا حيث ولد واحد منا في وقت متأخر للغاية أو ولد الآخر في وقت مبكر للغاية، ما كنت بحاجة لأن تتكبد كل تلك المشاق وتقطع كل تلك

الكيلومترات قادما من البرازيل، والمسافة لا تهم ولكن الزمن هو الذي يفرق بيننا، إلا أنني لا أريد أن أفقد صداقتك التي هي في حد ذاتها بمثابة كنز غال وعلاوة على ذلك لا توجد جدوى من وراء أن أطلب المزيد، ولسوف أجئ في يوم من تلك الأيام إلى لشبونة كالمعتاد وعندئذ سأقوم بزيارتك في العيادة الخاصة بك حيث يمكن لنا أن نتجاذب أطراف الحديث وأعدك بألا أضيع الكثير من وقتك ومن المحتمل أيضاً ألا أجئ لأن والدي أصبح مثبط الهمة ويعترف بأنه ربما لا يوجد أي علاج لحالتي وأنا أعتقد أنه يقول الحقيقة على كل حال وهو لم يعد بحاجة إلى هذه الحجة لكي يزور لشبونة كما يحلو له وكان آخر اقتراح قاله لي هو أن نذهب للحج إلى سانت فاطيما في شهر مايو وهو الذي لديه هذا الإيمان ولست أنا ولكن ربما إيمانه هو يكون كافيا من وجهة النظر الآلهية، وانتهي الخطاب بكلمات الصداقة: وإلى أن

نلتقي يا صديقي العزيز سأتصل بك تليفونيا عقب وصولى مباشرة، ثم أغلق ريكاردو ريس عينيه وقال لنفسه في تفكير: إنني أرغب في النوم ثم قال لنفسه بصوت منخفض: عليك بالنوم كما لو كان يقوم بتنويم نفسه مغناطيسيا، عليك بالنوم الآن عليك بالنوم الآن إلا أنه كان لا يزال ممسكا بالخطاب بأصابع مهتزة مترنحة، ويسقط الخطاب من يده ثم يستعيده ويضعه في ظرفه ويخفيه بين اثنين من كتبه، ولكن ينبغي له ألا ينسى العثور على مكان أكثر أمنا لاخفاء ذلك الخطاب لأن ليديا ستجئ في يوم من تلك الأيام، من أجل تنظيف الشقة ثم تكتشف وجود هذا الخطاب، ثم ماذا بعدئذ، أنها ليست لديها أية حقوق بالطبع في هذا الشأن فهي إذا كانت تجئ إلى هنا فلانها ترغب في ذلك وليس بسبب أنني أطلب منها ذلك ولكن دعونا نأمل في ألا تتوقف عن المجئ، فما الذي يريده ريكاردو ريس أكثر من ذلك، ذلك الرجل العاق، امرأة تضطجع معه في السرير بارادتها الحرة مما لا يجعله بحاجة لأن يطوف خلسة من أجل اصطياد امرأة والدخول في مخاطر الاصابة بأمراض تناسلية، بعض الرجال لهم حظ سعيد للغاية ولكن ريكاردو ريس ما زال غير قانع ومستاء لأنه لم يتلق خطاب حب وغرام من مارسيندا، كل الخطابات الغرامية تعتبر سخيفة، ومن السخف كتابة خطاب عرام بينما الموت يصعد على السلالم بالفعل، ويقف ريكاردو ريس امام المرآة الكاملة الطول بالحجرة الصغيرة ويقول لنفسه: أنني لم أتلق أبداً أي خطاب غرام لا يتناول سوى الحب فقط بل ولم أكتب في حياتي خطاب غرام موجها إلى أحد فهذه الكيانات التي لا حصر لها الموجودة في داخلى ترقبنى لدى شروعى في الكتابة وعندئذ تتخاذل يدي وتصبح هامدة وفي نهاية الأمر أتوقف عن الكتابة، وأخذ حقيبته السوداء التي توجد بها الأدوات الطبية واتجه إلى المكتب وعلى مدى نصف الساعة

التالية راح يكتب التاريخ المرضى للعديد من المرضى الجدد ثم ذهب لكي يغسل يديه، وراح ينظر في تمعن لنفسه في المرآة ثم جفف يديه في بطء كما لو كان قد انتهي توا من الكشف على مريض وتفحص عينات البلغم، وقال لنفسه في تفكير: أنني يبدو عليّ الارهاق، ثم رجع إلى غرفة النوم، وفتح الشيش الخشبي للنافذة فتحه غير كاملة، لقد قالت ليديا إنها ستحضر ستائر النافذة مع زيارتها التالية، أنه في أشد الحاجة لهذه الستائر لأن غرفة النوم مكشوفة للغاية.

كان الظلام قد بدأ يطبق على المكان، وبعد دقائق قليلة خرج ريكاردو ريس لكي يتناول طعام العشاء.

ذات يوم ربما يسأل شخص فضولى عن الكيفية التي يوجه بها ريكاردو ريس نفسه أثناء جلوسه إلى مائدة الطعام وما إذا كان يحدث صوتا أثناء تناوله الحساء وما إذا كان ينقل الشوكة والسكين من يد لأخرى أثناء استخدامهما وما إذا كان يمسح فمه قبل أن يشرب أو ما إذا كان يترك تلطخات على كوبه عقب الشرب وما إذا كان يستخدم كثيراً عيدان الخلة لتنظيف أسنانه وما إذا كان يفك أزرار صديريته عقب الانتهاء من تناول الطعام وما إذا كان يراجع على فاتورة الحساب بندا بندا، ربما سيقول الجرسونات البرتغاليون / الغاليون أنهم لم ينتبهو .أبداً إلى مثل هذه التفاصيل، وكما تعرف يا سيدي فإن الجرسون منا يقابل جميع أنواع الناس وعقب مرور بعض الوقت لا نعد نلحظ أي شيء، فالرجل يأكل على النحو الذي تعلمه ولكن الانطباع الذي تركه الدكتور هو انطباع عن شخص مهذب فهو يدخل إلى صالة الطعام ويلقى بتحية ما بعد الظهر أو تحية المساء على كل شخص ثم يطلب على الفور نوع الطعام الذي يريده وبعدئذ يبدو الأمر وكأنه غير موجود على الاطلاق، هل هو يأكل دائماً بمفرده، نعم دائماً يأكل بمفرده ولكنه لديه بالفعل

عادة غريبة، وما هي تلك العادة، في كل مرة كنا نبدأ فيها في إزالة الأدوات من الجانب المقابل بالمائدة كان دائماً ما يطلب منا أن نتركها في مكانها ويشير إلى أن المائدة المعدة لشخصين تبدو أكثر جاذبية، وفي إحدى المرات عندما كنت أقوم بالتخديم عليه حدث شيء غريب للغاية، ما هو ذلك الشيء، عندما كنت أصب الخمور ملأت الكأسين بطريق الخطأ: كأسه وكأس الضيف غير الموجود هل تفهم ما أعني، نعم أفهم وماذا حدث بعد ذلك، قال إن ملء الكأسين يعتبر عملا ممتازا ومنذ ذلك الوقت فصاعدا كان يصر دائماً على ضرورة ملء الكأس الأخرى وفي نهاية الوجبة كان يشربها في جرعة واحدة مع إغلاق عينيه أثناء الشرب، يا له من شيء عجيب، كما تعرف يا سيدي فإننا نحن معشر الجرسونات نشاهد بعض المناظر العجيبة، هل هو فعل ذلك في جميع المطاعم الأخرى التي تردد عليها، آه ذلك لا أستطيع الاجابة،عليه فالأمر يتطلب منك أن تسأل في المطاعم الأخرى، هل يمكن لك أن تتذكر ما إذا كان قد تقابل في أي وقت من الأوقات مع صديق له أو مع أحد المعارف ولو لم يجلسا إلى نفس المنضدة، على الاطلاق فهو دائماً ما كان يعطي الانطباع بأنه شخص قد عاد لتوه من الخارج هل تريد أن تسأل شخصا آخر يا سيدي حيث ينبغي عليّ أن أذهب الآن لكي أخدّم على الزبون الموجود هناك في الركن، لا أريد توجيه أية أسئلة أخرى وأشكرك شكرا جزيلا على هذه المعلومات، ثم انتهي ريكاردو ريس من تناول قهوته التي سمح لها بأن تبرد وطلب موافاته بالفاتورة، وأثناء انتظاره رفع الكأس الثانية التي كانت ممتلئة بين يديه الاثنتين كما لو كان يشرب نخب شخص ما جالس في مواجهته على نفس المنضدة وبعدئذ تناول الخمور وهو يغلق عينيه في بطء وبدون أن

يراجع على فاتورة الحساب سدد المبلغ مع دفع بقشيش ملائم وتمنى للجميع مساء طيبا وغادر المكان.

هل شاهدت ذلك يا سيدي تلك هي الطريقة التي يتصرف بها، ويتوقف ريكاردو ريس عند حافة رصيف الشارع ويبدو عليه التردد، ويقترب ترام وعلى اللافتة المضيئة التي تبين الجهة التي ينطلق إليها كتبت كلمة استريلا Estrela ويتصادف أن تكون المحطة في نفس تلك البقعة التي يقف فيها ريكاردو ريس فيشاهد سائق الترام الجنتلمان الواقف عند حافة الرصيف، وصحيح أن الجنتلمان لم تبدر عنه دلائل تشير إلى رغبته في توقف الترام ولكن السائق صاحب الخبرة يستطيع أن يدرك أن الجنتلمان قد ظل منتظرا، فيدخل ريكاردو ريس إلى الترام، في مثل هذه الساعة المتأخرة يكون الترام شاغرا ويقوم الكمسارى بدق الجرس: بينج بينج، الرحلة تستغرق بعض الوقت ويتجه الترام إلى افينيدا دا ليباردادى وعلى طول شارع اليكساندر هيركولانوا ومنه عبر البراكا دو براسيل ومنها إلى شارع أموريراس، وما أن يصل إلى المكان العلوي فأنه يتابع الانطلاق إلى شارع سيلفا كارفالهو وعبر كامبو دى أوريق ومنه إلى شارع فريرا بورجيس وهنالك عند التقاطع مع شارع دومينجوس سيكويرا ينزر ريكاردو ريس من الترام، ونظرا لأن الوقت قد تجاوز الساعة العاشرة ليلاً فأنه لا يوجد هناك أناس كثيرون كما لا تشاهد سوى أنوار قليلة في الواجهات الطويلة للمباني، وهذا أمر متوقع لأن السكان يميلون لقضاء معظم أوقاتهم في الجزء الخلفي من المبنى مع وجود النساء في المطبخ لغسل آخر أطباقهن بينما الأطفال يكونون قد ذهبوا للنوم في السرير بالفعل في حين يتثاءب الرجال أمام جرائدهم أو يحاولون ـ على الزغم من الاستقبال الردئ الناجم عن سوء الأحوال الجوية ـ فتح الراديو على محطة سيرفي Serville لسبب ما غير محدد

ربما لأنهم لم يسبق لهم أن اتيحت لهم الفرصة للذهاب هناك، ويسير ريكاردو ريس في شارع سارائيفا دى كارفاليو في اتجاه المقابر، ولدى اقترابه من المقابر يتناقض عدد الناس الذين يتقابل معهم تدريجيا إلى أن أصبح الطريق مهجورا بالفعل، ويختفي في الامتداد المظلم ما بين عمودى إنارة ثم يبزغ مرة أخرى إلى الضوء الكهرمانى الأصفر الضارب إلى الحمرة، وإلى الأمام وتحت الظلال يكون بمقدوره سماع صوت مفاتيح الحارس الليلى المحلى الذي يبدأ في جولاته، ويعبر ريكاردو ريس الميدان متجها نحو البوابة الرئيسية التي تكون مغلقة، وينظر الحارس إليه من على مسافة ثم يستأنف السير حيث يعتقد أن شخصاً ما يرغب في تخفيف أحزانه من خلال البكاء في الليل ولربما يكون قد فقد زوجة أو طفلا يا له من رجل مسكين ولربما يكون قد فقد أمه لأن الأمهات دائماً ما ينتقلن إلى رحمة الله، امرأة ضئيلة ضعيفة عجوز على نحو متزايد أغلقت عينيها للمرة الأخيرة بدون أن تشاهد ابنها وتقول لنفسها أثناء سكرات الموت: ترى إلى أين ذهب بحق الجحيم ثم تلفظ أنفاسها الأخيرة وتلك هي الطريقة التي يموت بها الناس، وربما لأن الحارس الليلى هو المسئول عن هدوء هذه الشوارع فأن مثل هذه الأفكار الرقيقة تخطر على باله، أنه شخصيا ليست لديه ذكريات عن أمه الخاصة به، كيف أن هذا كثيراً ما يحدث: وهو أننا نشعر بالاسف من أجل الآخرين ولا نشعر أبداً بالأسف من أجل أنفسنا، ويذهب ريكاردو ريس إلى البوابة ذات القضبان الحديدية ويلمس القضبان بيديه، ومن الداخل وعلى نحو يكاد يكون غير مسموع يترامى همس، فالنسيم يدور حول أغصان أشجار السرو الصنوبرية المسكينة الخالية من الأوراق، ولكن الحواس تخدع، فالصوت الذي نسمعه ليس سوى شخير وغطيط أولئك الناس النائمين في تلك المباني الطويلة وفي تلك المباني

المنخفضة وراء الحوائط توجد توترات من الموسيقى وطنين من الكلمات والمرأة التي تقول في تمتمة: أشعر بالأرهاق الشديد أنني ذاهبة للاستلقاء في فراشى، وذلك هو ما يقوله ريكاردو ريس لنفسه: أشعر بالارهاق الشديد، ويمد يده من خلال القضبان الحديدية ولكن لا تبزغ يد أخرى لكي تصافح يده، هؤلاء الناس الذين تحولوا إلى جثث لا يستطيعون عمل أي شيء ولا حتى مجرد رفع ذراع.

(١٣)

وظهر فرناندو بسوا عقب مرور ليلتين، كان ريكاردو ريس بصدد العودة عقب تناول طعام العشاء المكون من حساء وسمك وخبز وفاكهة وقهوة، ويوجد كأسان على المنضدة، وهو كما نعرف ينهي كل وجبة بتناول كأس من الخمور، ومع ذلك فلا يوجد جرسون واحد يمكن أن يقول عن هذا الزبون: أنه كان معتادا على تناول كميات كبيرة من الخمور حيث كان ينهض تاركا المنضدة وهو يكاد يسقط عليها، ولكن في كل مرة ظهر فيها فرناندو بسوا كان ريكاردو ريس صافي الذهن وحاد الادراك دائما، وهو صافي الذهن الآن بينما يرقب الشاعر الذي ظهره مدار نحوه والذي يجلس على المقعد الخشبي الطويل القريب للغاية من تمثال آداماستور، تلك الرقبة الطويلة النحيلة واضحة للغاية وكذلك الشعر الخفيف المتناثر الموجود أعلى الرأس، وعلاوة على ذلك لا يوجد أناس كثيرون يتجولون بدون قبعة أو معطف مطر، الطقس قد أصبح بكل تأكيد أكثر اعتدالا ولكن الجو يتحول إلى البرودة الشديدة ليلا، وجلس ريكاردو ريس بجوار فرناندو بسوا وفي الظلام تأكد امتقاع بشرة الشاعر وبياض قميصه ولكن الباقى كان قاتما بل وكان من الصعب تمييز حلته السوداء عن الظلال الملقاة من جانب التمثال، ولا يوجد أي شخص آخر في المنتزه، وهناك عند الشاطئ الآخر للنهر يمكن مشاهدة صف من الأنوار المرفرفة على صفحة الماء ولكنها تشبه

النجوم حيث تتلألأ وترتعش كما لو كانت على وشك أن تنطفئ ولكنها تستمر في عناد، وقال ريس: لقد اعتقد أنك لن ترجع أبداً، فقال بسوا: لقد جئت منذ أيام قليلة لزيارتك ولكن عند الباب أدركت أنك مشغول مع ليديا ولذلك غادرت المكان، وأضاف: إنني لم أكن مغرما أبداً بالتابلوهات واللوحات الحية Tableau Vivantes، وكان بمقدور المرء أن يفهم معنى ابتسامته الناتئه وكانت يداه متشابكتين فوق ركبته واستطرد بسوا: وماذا عن الفتاة الجذابة المهذبة للغاية والتي لها ذراع مشلول وهل سبق لك أن ذكرت لي اسمها، فقال ريس: إنها تسمى مارسيندا، فقال بسوا: إنه اسم جميل قل لي: هل شاهدتها مؤخرا، فقال ريس: لقد شاهدتها عندما جاءت إلى لشبونة في آخر مرة أي منذ حوالى شهر، فقال بسوا: وماذا عن ليديا هل أنت تحبها، فقال ريس: ذلك وضع مختلف، فقال بسوا: ولكن هل أنت تحبها أم لا، فقال ريس: إنها لا تحرمني من جسدها، فقال بسوا: وما الذي نستنتجه من ذلك فقال ريس: لا شيء ولكن أرجوك أن تتوقف عن توجيه أسئلة إليّ تتعلق بشئوني الخاصة فأنا مهتم للغاية بأن أعرف السبب في عدم مجيئك إلى منذ فترة فقال بسوا: لأنني بكل صراحة كنت متضايقا، فقال ريس: متضايقاً مني، فقال بسوا: نعم ليس بسبب أنك على النحو الذي أنت عليه ولكن بسبب أنك تقف على ذلك الجانب، فقال ريس: أي جانب فقال بسوا: جانب الأحياء، أنه من الصعب على الشخص الذي ما زال على قيد الحياة أن يفهم الأحياء، فقال بسوا: الرجل الميت لديه ميزة أنه كان ذات يوم على قيد الحياة ولذلك فإن الأشياء المتعلقة بالحياة الدنيا تكون مألوفة له مثلما أن الأشياء المتعلقة بالعالم الآخر تكون مألوفة له أيضاً في حين أن الأحياء يكونون عاجزين عن تعلم الحقيقة الجوهرية الوحيدة والاستفادة منها، فقال ريس: وما هي تلك الحقيقة

الجوهرية، فقال بسوا: هي أن المرء ينبغي عليه أن يموت، فقال ريس: أولئك الذين هم على قيد الحياة يدركون مثلما أنني كنت لا أعرف هذه الحقيقة عندما كنت على قيد الحياة فالذي نعرفه بكل تأكيد وبدون أدنى شك هو أن آخرين يموتون، فقال ريس: هذه فلسفة تافهة إلى حد ما، فقال بسوا: بالطبع إنها تافهة، فأنت ليست لديك فكرة عن كيف أن كل شيء يصبح تافها عندما يشاهد من هذا الجانب للموت: فقال ريس: ولكنني أتواجد عند جانب الحياة، فقال بسوا: اذن ينبغي عليك أن تعرف الأشياء المهمة الموجودة على ذلك الجانب، فقال ريس: تكون على قيد الحياة يعتبر أمراً مهما، فقال بسوا: يا عزيزي ريس، عليك باختيار كلماتك في دقة، فليديا الخاصة بك على قيد الحياة ومارسيندا الخاصة بك على قيد الحياة ومع ذلك فأنت لا تعرف أي شيء عنهما ولن تعرف حتى لو حاولتا إخبارك لأن الحائط الذي يفصل الأحياء عن بعضهم البعض ليس أقل إبهاما واعتاما من الحائط الذي يفصل الأحياء عن الموتى، وكل شخص يؤمن بهذا فإن الموت بالنسبة له يصبح عزاء برغم كل شيء.

ونظر ريكاردو ريس عبر النهر، لقد انطفأت بعض الأنوار بينما أ صبحت أنوار أخرى مرئية بصعوبة بل وصارت أكثر اعتاما لدى تجمع شبورة ضبابية فوق الماء، وقال ريس: لقد قلت إن السبب في عدم مجيئك هو أنك كنت متضايقا، فقال بسوا: هذا صحيح، فقال ريس: متضايقاً مني، فقال بسوا: لست متضايقا كثيراً منك، فالذي ضايقنى وجعلنى أشعر بالاعياء هو كل هذه الحركة جيئة وذهابا وكل هذا الصراع العنيف ما بين الذاكرة التي تجذب والنسيان الذي يدفع فهذا صراع عديم الجدوى لأن النسيان والإهمال يكسب دائماً في نهاية الأمر، فقال ريس: أنا لم أنسك، فقال بسوا: يا عزيز ريس العالم ينسى كما سبق أن

قلت لك فالعالم ينسى كل شيء، فقال ريس: هل تعتقد أنك قد نسيت، فقال بسوا: العالم مهمل وكثير النسيان للغاية حتى أنه يفشل في ملاحظة عدم وجود الشيء الذي قد نسيه، فقال ريس: يوجد قدر كبير من الغرور في هذه الكلمات، فقال بسوا: بالطبع لا يوجد شاعر أكثر غرورا من شاعر صغير، فقال ريس: في هذه الحالة فأنا بالتأكيد أكثر غرورا منك، فقال بسوا: اسمح لي أن أقول لك وبدون أي رغبة في تملقك إنك لست شاعرا رديئاً، فقال ريس: ولكن شعرى ليس في مثل جودة شعرك، فقال بسوا: أعتقد أنك على نفس القدر من الجودة، وقام ريكاردو ريس بجذب معطفة حوله وقال: الجو يزداد برودة وإذا كنت ترغب في المجئ معي إلى منزلي فإنه يمكن لنا عندئذ أن نتناقش لفترة أطول، فقال بسوا: ألا تتوقع مجئ أحد لزيارتك اليوم، فقال ريس: لا وأنا أرحب بأن تبقى طوال الليل مثلما فعلت في المرة الأخيرة، فقال بسوا: هل تشعر بالوحدة في هذه الليلة، فقال ريس: ليس لدرجة أن أكون متهلفا للغاية لأن يرافقنى أحد ولكن لأنه قد خطر على ذهني أن الرجل الميت قد يرغب من وقت لآخر في أن يجلس على كرسى وتحت سقف في راحة وارتياح، فقال بسوا: لا أتذكر أنك فكة ومرح للغاية يا ريكاردو، فقال ريكاردو ريس: إنني لا أحاول أن أكون مرحا، ثم نهض واقفا على قدميه وتساءل: حسناً هل ستجئ معي، فسار فرناندو بسوا وراءه ثم لحق به عند أول عمود للإنارة، وعند المدخل تقابلا بالمصادفة مع رجل قد اتجه بأنفة لأعلى في الهواء ولكن عندما اقترب ريكاردو ريس أكثر منه هجمت على أنفه رائحة البصل، فأدرك على الفور أنه مخبر الشرطة، توجد هناك روائح تستحق كل منها مائة كلمة سواء أكانت روائح ذكية أم رديئة، فالروائح تكشف عن الأشياء شأنها في ذلك شأن الصورة الكاملة الطول، فما الذي يجعل هذا الرجل

يجيء ويطوف خلسة في هذا المكان، وربما لأن ريكاردو ريس لم يرغب في أن يلحق بنفسه الخزى والعار أثناء وجود فرناندو بسوا فإنه أخذ زمام المبادرة وتكلم أولا: لماذا تجيء إلى هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل يا سنيور فيكتور، فبذل مجهودا لكي يقدم اجابة معقولة حيث لم يكن لديه تبرير عن هذه المرحلة المبكرة من المراقبة إذ قال: إنني قد جئت إلى هنا بطريق المصادفة يا عزيزي الدكتور من قبيل المصادفات البحتة، حيث كنت أزور امرأة قريبة لي وهي امرأة مسكينة تسكن في شارع كوندى بارو ومصابة بمرض السل، ثم أضاف فيكتور في جرأة: اذن فأنت يا دكتور لم تعد مقيما بالفندق، فقال ريس إنني أسكن هناك في هذه العمارة بالدور الثالث، ثم استأذن فيكتور مطلقا هبة من أنفاس رديئة للغاية وهو يقول: إلى اللقاء وأتمنى لك حظا سعيدا يا دكتور وإذا كنت بحاجة لأي شيء عليك بالمجيء للتحدث مع فيكتور ولقد قال رئيس النيابة منذ أيام قليلة إنه لو كان كل شخص في نفس أمانة وأخلاق ريكاردو ريس لأصبحت مهنتنا بمثابة متعة كبيرة ولسوف يبتهج كثيراً عندما أقول له إنني تقابلت معك بطريق المصادفة، فقال ريس: طابت ليلتك يا سنيو فيكتور، وبينما كان ريكاردو ريس يعبر الشارع بينما فرناندو بسوا يسير وراءه خيل لمخبر الشرطة أنه شاهد ظلين على الأرض، هذه هي تأثيرات الضوء المنعكس وهي مجرد وهم فالعينان بعد مرحلة معينة من العمر تصبحان غير قادرتين على التمييز ما بين المرئي وغير المرئي واستمر فيكتور في التسكع على رصيف الشارع منتظرا لحين اشعال الضوء في الدور الثالث فهذا مجرد روتين من أجل التأكيد تماماً من أن ريكاردو ريس كان يعيش هناك، لم يكن الأمر يتطلب الكثير من الكلام والاستفسارات أو المشى هنا وهناك، فبمساعدة من جانب سلفادور تتبع خطى الشيالين وبمساعدة الشيالين حدد موقع

المبنى، الناس على حق عندما يقولون إن أي شخص له لسان في رأسه باستطاعته أن يسافر إلى روما بينما المسافة من المدينة الخالدة إلى ألتو سانتا كاتارينا ليست كبير.

وفي ارتياح جلس فرناندو بسوا على الأريكة بغرفة المكتبة وتساءل وهو يضع ساقا على ساق: من كان صديقك هذا، فقال ريس: إنه ليس صديقا لي، فقال بسوا: شكر لله، لأن رائحته الكريهة تصل إلى عنان السماء فأنا قد ظللت مرتديا نفس البدلة ونفس القميص على مدى الشهور الخمسة الأخيرة بل ولم أغير ملابسي الداخلية ومع ذلك فرائحتى ليست على ذلك النحو الشنيع ولكن إذا لم يكن هو صديقك فمن يكون هو إذن ومن يكون رئيس النيابة الذي يمتدح أخلاقك، فقال ريس: كلاهما عضوان في مركز الشرطة وقد تم استدعائي منذ فترة قصيرة لاستجوابي، فقال بسوا: لقد كنت أعتقد أنك إنسان مطيع للقوانين وغير قادر على ازعاج السلطات، فقال ريس: وأنا بالفعل رجل مطيع للقوانين، فقال بسوا: من المؤكد أنك فعلت شيئاً ما مما أدى إلى استدعائك واستجوابك، فقال ريس: لقد وصلت قادما من البرازيل وذلك هو كل ما في الأمر، فقال بسوا: أراهن على أن ليديا كانت عذراء ثم ذهبت وهي ملتاعة ومنزوعة الشرف لكي تقدم شكوا رسمية، فقال ريس: حتى لو كانت ليديا عذراء وأنا سلبت شرفها فلن تكون إدارة الدفاع وأمن الدولة هي جهة الاختصاص التي تتلقى منها الشكوى، فقال بسوا: أتلك هي الإدارة التي قامت باستدعائك، فقال ريس: نعم فقال بسوا: وهنا يخطر على بالى أن ذلك الذي حدث كان بمثابة اساءة موجهة ضد الأخلاق العامة، فقال ريس: لا توجد هناك أمور خاطئة تتعلق بأخلاقي ومن المؤكد أن أخلاقي ليست أسوأ من أخلاق الناس الذين أشاهدهم فيما حولي، فقال بسوا: أنت لم تحدثني

أبداً عن هذه المناوشة التي تمت بينك وبين رجال الشرطة، فقال ريس: لم تتح لي الفرصة لأنك توقفت عن المجئ لزيارتى، فقال بسوا: هل ألحقوا بك أي أذى أو ضرر وهل ألقوا القبض عليك ووجهوا إليك الاتهامات، فقال ريس: لا، لم يوجهوا إلى سوى بعض الأسئلة القليلة مثل: من هم أصدقائي بالبرازيل ولماذا رجعت من البرازيل إلى البرتغال وما هي الاتصالات التي قمت بها بالبرتغال منذ عودتى إليها، فقال بسوا يا لها من نكتة إذا كنت قد حدثتهم عني، فقال ريس: يمكن لي أن أتخيل التعبيرات التي تظهر على وجوههم إذا كنت قد قلت لهم إنني أتقابل من وقت لآخر مع شبح الشاعر المشهور فرناندو بسوا، فقال بسوا: معذرة يا عزيزي ريس ولكنني لست شبحا، فقال ريس: فمن تكون إذن فقال بسوا: لا أستطيع أن أخبرك فالشبح يجئ من العالم الآخر ولكني بكل بساطة أجئ من الجبانة الموجودة في برازيريس فقال ريس: عندئذ فهل فرناندو بسوا الميت هو نفس فرناندو بسو الذي كان على قيد الحياة ذات يوم، فقال بسوا: بمعنى ما واحد نعم، فقال ريس: على كل حال كان سيصبح من الصعب للغاية توضيح هذه الاجتماعات التي تتم بيننا لرجل الشرطة، قال بسوا: أكنت تعرف أنني قد كتبت ذات مرة بعض أبيات من الشعر من أجل مهاجمة سالازار، فقال ريس: وهل هو أدرك أنه الهدف الذي ينصب الهجاء اللاذاع عليه، فقال بسوا: لا أعتقد أنه أدرك ذلك، فقال ريس: قل لي يا فرناندو من يكون ذلك السالازار الذي ألقاه القدر علينا، فقال بسوا: إنه ديكتاتور البرتغال وحاميها ومرشدها الأبوى وأستاذها ومعلمها والعاهل الدمث الأخلاق وهو إنسان متوازن في سيميترية، فقال ريس: يا عزيزي فرناندو إن حب السيميترية والتوازن ينبع من رغبة حقيقية لدينا في التوازن لأن التوازن يحمينا من السقوط ولكن من الملاحظ أن الصحافة

الأجنبية تمتدح سالازار كثيراً، فقال بسوا: تلك المقالات تكون موجهة ومدفوعة الأجر وذلك هو ما سمعته من الناس، فقال ريس: ولكن الصحافة المحلية تتغنى بسالازار ويكفي أن تقرأ في جريدة محلية واحدة لكي تعرف منها أن البرتغال هي أكثر الدول ازدهار وقناعة على سطح الكرة الأرضية وأن أية دولة أخرى إذا حذت حذونا فسوف تزدهر أيضاً، فقال بسوا: تلك هي الطريقة التي تهب بها الرياح، فقال ريس: أرى أنك ليست لديك ثقة كبيرة بالصحف والجرائد، فقال بسوا: لقد اعتدت أن أقرأها، فقال ريس: أنت تقول ذلك بنغمة توحي بأنك تحاول الاذعان وترويض نفسك فقال بسوا: بنغمة توحي بالإرهاق: وأنت تعرف ماذا أعني، فالإنسان بعد أن يبذل مجهودا جسمانيا كبيرا تصبح عضلاته مرتخية وضعيفة وعندئذ يصبح المرء راغبا في اغلاق عينية والخلود إلى النوم فقال ريس: بوادر النوم ظاهرة على وجهك، فقال ريس: مازلت أشعر بالارهاق الذي عشت تجربته في الحياة، فقال ريس: الموت شيء عجيب، فقال بسوا: بل الموت أكثر غرابة عندما تشاهده من الشاطئ الذي أقف عليه ثم تدرك على نحو فجائي أنه لا توجد حالتان من الموت متشابهتان فأن تكون ميتا ليس هو نفس الشيء بالنسبة لكل شخص، ففي بعض الأحيان يأخذ المرء معه كل أعباء الحياة، ثم أغلق فرناندو ريس عينيه وألقى بظهره إلى الوراء على الأريكة، وخيل لريكاردو ريس أنه شاهد دموعا بين رموش عينيه ولكنها ربما تكون مثل الظلين اللذين شاهدهما فيكتور أي بمثابة تأثيرات الضوء المنعكس لأن ـ كما يعرف كل شخص ـ الموتى لا يبكون أبداً، ذلك الوجه المكشوف بدون نظارة والذي به شارب رفيع ولأن الشعر على وجه المرء وجسده يعيش لفترة أطول كان يعبر عن أسف وحزن عميقين، أسف لا سبيل إلى علاجه مثل الجراح التي يصاب بها المرء

في فترة الطفولة، ثم فتح فرناندو بسوا عينيه وابتسم قائلاً: لقد حلمت بأنني مازلت على قيد الحياة، فقال ريس: إنه وهم وخداع مثير، فقال بسوا: الشيء المثير لا يكمن في أن يحلم رجل ميت بأنه على قيد الحياة لأنه برغم كل ذلك قد عاش تجربة الحياة ذات يوم وبالتالي أصبح لديه شيء ما يحلم به، ولكن الأغرب من ذلك هو أن يحلم رجل على قيد الحياة بأنه أصبح ميتا لأنه لم يسبق له أن شاهد في حياته تجربة الموت: فقال ريس: سرعان ما ستقول لي إن الحياة والموت هما نفس الشيء، فقال بسوا: تماماً يا عزيزي ريس، فقال ريس: في خلال يوم واحد قلت لي ثلاثة أشياء مختلفة تماماً وهي: أنه لا يوجد هناك موت، أنه يوجد هناك موت، أن الحياة والموت هما نفس الشيء، فقال بسوا: لم يكن هناك سبيل آخر لحسم التناقض ما بين العبارتين الأولى والثانية وبعد أن قال ذلك ابتسم ابتسامة تشير إلى الاطلاع على بواطن الأمور، ونهض ريكاردو ريس واقفا على قدميه وقال: إنني ذاهب لإعداد بعض القهوة ولسوف أرجع إليك حالا، فقال بسوا: استمع إلى يا ريكاردو طالما كنا نتناقش في أمور الصحافة فإنني أود أن أسمع آخر وأحدث الأنباء، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي نختتم بها سهرتنا هذه، فقال ريس: الصحف موجودة في غرفة نومى ولسوف أذهب لأحضرها، ثم ذهب إلى المطبخ وعاد ومعه أبريق قهوة صغيرة مصنوع من الخزف الصينى وفنجان وملعقة وسلطانية سكر ووضع كل ذلك على المنضدة المنخفضة الموجودة بين الأرائك، ثم خرج مرة أخرى وعاد ومعه الصحف، ثم صب القهوة في الفنجان وقام بتحريك بعض السكر وقال: من الواضح أنك لم تعد قادرا على أن تشرب أي شيء، فقال بسوا: لو كانت قد تبقت لدى ساعة زمنية من الوجود على قيد الحياة لكنت قد قايضتها من أجل الحصول على نفس هذه الدقيقة التي أتناول فيها قدحا

من القهوة الساخنة، فقال ريس: أنت تقدم أكثر مما قدمه هنرى ملك انجلترا الذي قايض مملكته في سبيل الحصول على حصان، فقال بسوا: لكي لا يفقد مملكته ولكن دعك من تاريخ انجلترا وحدثني عما يحدث حاليا في عالم الأحياء، فتناول ريكاردو ريس نصف فنجان القهوة ثم فتح إحدى الصحف وتساءل: أتعرف أن اليوم هو عيد ميلاد هتلر حيث يبلغ الآن من العمر ٤٧ عاما، فقال بسوا: لا أعتبر ذلك خبرا مهما، فقال ريس: ذلك لأنك لست ألمانيا ولو كنت ألمانيا لأصبحت أقل ازدراءً له، وقال بسوا: وما هو مضمون ذلك الخبر، فقال ريس: يشير الخبر إلى أن هتلر استعرض موكبا يضم ٣٣ ألف جندى في جو من التبجيل والمهابة التي تصل إلى درجة التقديس وهذه هي نفس الكلمات المستخدمة هنا ولكي أعطيك فكرة عليك فقط بالاستماع إلى هذا الاقتباس المأخوذ عن الخطاب الذي ألقاه جوبلز في تلك المناسبة، فقال بسوا: اقرأ لي ذلك الاقتباس، فقال ريس: عندما يتكلم هتلر يبدو الأمر وكأن قبة معبد قد رفعت فوق رؤوس الشعب الألمانى، فقال بسوا: يا لها من لغة شبيهة بلغة الشعر، فقال ريس: بل ولقد قال بالدور فون شيراخ زعيم حركة شباب الرايخ إن هتلر هو هبة الله لألمانيا وعبادة الفوهرر تتخطى كافة أنواع العقائد والولاءات، فقال بسوا: الشيطان نفسه لا تخطر على ذهنه هذه الفكرة التي تنصب على ضرورة أن تتم عبادة الرجل الذي قام بتوحيد الأشياء التي تقسمت من خلال عبادة الله، وهذا يجعل الاشتراكية الوطنية بمثابة مشروع مقدس، اقرأ لي أخبارا أخرى، فقال ريس: وفقا لبيان مقدس صادر عن الأسقف الخاص بمنطقة متيلين فأن البرتغال هي السيد المسيح والسيد المسيح هو البرتغال فقال بسوا: هل هذا مكتوب في الجريدة، فقال ريس: هذا مكتوب بالحرف الواحد: البرتغال هي السيد المسيح والسيد المسيح هو

البرتغال، فقال بسوا: تماماً ثم راح يفكر للحظات وأخيرا صدرت عنه ضحكة جافة مكتومة شبيهة بالكحة لا تنم عن سرور ثم قال: فلنرث لحال هذه البلاد ولنرث لحال هذا الشعب وكرر تلك العبارة مرتين بينما دموع حقيقية تتجمع في عينيه وهو ما زال يضحك في كحة، ثم قال: أعتقد أنني قد تماديت في كلامي عندما قلت إن البرتغال مقدسة في قصيدتى المشهورة الصادرة تحت عنوان: «المنساجم» وصب ريكاردو ريس لنفسه قدحا آخر من القهوة، فقال له فرناندو بسوا محذرا: لو شربت قهوة وراء أخرى فستصاب بالأرق، فقال ريس: لا يهم فالليل الخالى من النوم لم يسبب أبداً أي ضرر لأي أحد بل وأحيانا يكون من الأمور المفيدة المساعدة، فقال بسوا: إقرأ لي المزيد من الأخبار ولكن قل لي أولا باختصار هل ترى أن هذه البدعة أو الهرطقة الأخيرة التي ظهرت في البرتغال وفي ألمانيا أمر مثير للازعاج لأنه يستخدم الله في الشئون السياسية، فقال ريس: قد يكون ذلك مثيراً للازعاج ولكن لا يمكن اعتباره بدعة أو هرطقة، إذ نجد أن العبرانيين قد رقوا الله إلى رتبة الجنرال كما نجد أن العرف قد غزوا أوربا تحت صياحات: الله أكبر وتلك مشيئة الله كما أن الانجليز قد استخدموا الله وجندوه من أجل أن يحرس ملكهم، كما يقسم الفرنسيون بأن الله فرنسي الجنسية، ولقد أقسم جيل فيسينتى الخاص بنا أن الله برتغالي الجنسية، فقال بسوا: من المؤكد أنه على صواب إذا كان السيد المسيح هو البرتغال ذاتها والآن اقرأ لي بعض الأنباء قبل أن أستاذن وأتركك في رعاية الله، فقال ريس: ألن تبقى لحين حلول الصباح هنا، فقال بسوا: لا والآن إقرأ لي الأنباء، فقال ريس: البابا بيوس الأول يشجب عدم أخلاقية بعض الأفلام السينمائية، لقد أعلن ماكسيمينو كوريبا أن أنجولا تتسم بالطابع البرتغالي أكثر من البرتغال ذاتها، في أولهايو Olhao تم توزيع

الخبر على الفقراء في ميدان الثكنات التابع للحرس الجمهورى الوطني، تشير بعض الاشاعات إلى أن حزبا سريا قد تشكل على أيدي الجيش في إسبانيا، طبقا لما جاء بجريدة بيبلو جاليجو فإن خمسة آلاف من الإسبان قد لجأوا إلى البرتغال، في تافيرنيس يباع السلمون بـ ٣٦ اسكود للكيلو، وتلك هي كل الاخبار اللهم إلا إذا كنت تريد سماع أنباء عن التمردات وأعمال الشغب والعنف، فقال بسوا: كم الساعة الآن، فقال ريس: تقريبا في منتصف الليل، فقال بسوا: الوقت يمر بسرعة كبيرة.

فقال ريس: هل أنت بصدد الذهاب الآن، فقال بسوا: نعم فقال ريس: أتود لي أن اصطحبك، فقال، بسوا: لا ثم نهض من الأريكدة واقفا وقال بغلق جاكتته بالأزرار وواءم العقدة في رباط عنق ثم قال: حسناً إنني منطلق الآن ولسوف أراك ولسوف أراك في أية فرصة قادمة وشكرا على صبرك الجميل معي والعالم أسوأ حاليا مما كان عليه عندما تركته وإسبانيا تتجه على نحو أكيد إلى حرب أهلية، وقال ريس: حاول ألا تحدث أي صوت لدى هبوطك على السلالم لكي لا يلحظك الجيران، فقال بسوا: لسوف أهبط مثل الريش، فقال ريس: ولا تغلق الباب الخارجى للعمارة في عنف، فقال بسوا: لا تقلق ولا تهتم فإن غطاء المقبرة لا يحدث أي صدى للصوت، فقال ريس: طابت ليلتك يا فرناندو، فقال بسوا: إحرصي على أن تنام نوما جيدا يا ريكاردو.

ولم ينم ريكارد ريس نوما مريحا ربما بسبب تأثير هذه المحادثة الكئيبة عليه وربما بسبب تناوله كميات كبيرة من القهوة إذا استيقظ مرات عديدة أثناء النوم، وهو أثناء نومه خيل إليه أنه بمقدوره سماع ضربات قلبه منبعثة من داخل وسادته، وعندما استيقظ استلقى على ظهره لكن يوقف ذلك الصوت ولكنه بدأ يسمعه مرة أخرى متراميا من داخل صدره أو في داخل قفص الضلوع وتذكر عمليات تشريح الجثث التي سبق أن

شاهدها وكان بمقدوره رؤية قلبه النابض الحى وهو يخفق في كرب عظيم كما لو كان كل انقباض هو آخر انقباض له، وعاد إليه النوم المتقطع الصعب وأخيرا استقر في نوم عميق لدى بزوغ تباشير الفجر، وعندما جاء بائع الجرائد وألقى بالجرائد في نافذته لم يبذل محاولة للنهوض، كما سمع بائع اللبن وهو يترك له الكمية المعتادة عند الباب وسمع أيضاً بائع الخبز وهو يعلق له حقيبة الخبز في أكرة الباب، لسوف تحضر ليديا كل هذه الأشياء إلى داخل الشقة عندما تصل إليه عقب الساعة الحادية عشرة لأن هذا اليوم هو يوم إجازتها، وهي ليس بمقدورها المجئ إليه في وفت مبكر أكثر من هذا لأن سلفادور أمرها بتنظيف وتجهيز ثلاث غرف أخرى، كما أنها لن تبقى لديه لفترة طويلة، إذ ينبغي عليها أن تزور والدتها التي تعيش بمفردها ولكي تعرف ما إذا كانت هناك أخبار عن أخيها الذي سافر إلى أوبورتو على متن الباخرة الفونصو دى ألبوقريق ثم عاد، وسمعها ريكاردو ريس وهي تدخل إلى شقته فنادى عليها بصوت مليء بالنعاس، فظهرت عند المدخل وهي مازالت ممسكة بالمفتاح والخبز واللبن والجريدة بين ذراعيها وقالت: صباح الخير يا دكتور، فرد عليها: صباح الخير يا ليديا، تلك هي الطريقة التي تمت بها التحية بينهما منذ اليوم الأول الذي تلاقيا فيه وتلك هي الطريقة التي ستستمر على ذلك النحو، فهي لن تقول له أبدا: صباح الخير يا ريكاردو حتى ولو طلب منها ذلك خاصة وأنه قد رفع الكلفة بينهما بحيث يستقبلها وهو في هذه الحالة بدون أن يكون ذقنه حليقا وبدون أن يغتسل أو يمشط شعره بينما تنبعث بعض الروائح غير المستحبة من فمه، واتجهت ليديا إلى المطبخ لكي تضع اللبن والخبز ورجعت ومعها الجريدة ثم انطلقت إلى المطبخ مرة أخرى لكي تقوم بإعداد طعام الافطار بينما يقوم ريكاردو ريس بفتح صفحات الجريدة مع

الامساك بها من عند الحواف لكي لا يوسّخ أصابعه بأحبار الطباعة مع رفع الجريدة لأعلى لكي لا توسّخ الملاية، ومن المطبخ تترامى الرائحة المثيرة للشهية الصادرة عن الخبز المحمّص كما تترامى الأصوات المكتومة للآنية البخارية وعندئذ يظهر وقع أقدام ليديا في الدهليز، وفي هدوء ورباطة جأش تماماً في هذه المرة تحمل الصينية وتقوم بنفس الروتين المهني باستثناء أنها ليست بحاجة للطرق لأن الباب مفتوح، وقالت: أرى أنك مازلت قابعا في السرير في هذا الصباح، فقال: لم أنم نوما مريحا ولم أستطع النوم إلا بعد مرور فترة طويلة للغاية، فقالت: هل ظللت بالخارج لفترة متأخرة بالليل، فقال: يا ليتني فعلتُ ذلك، فالذي حدث هو أنني آويت إلى الفراش قبل منتصف الليل بل أنني لم أغادر الشقة وسواء أكانت ليديا تصدقه أم لا فنحن نعرف أنه يقول الصدق، الصينية تقبع على حجر الضيف بالغرفة رقم ٢٠١ وتقوم الخادمة بصبّ القهوة واللبن وتقرّب التوست والمربى من يديه وتوائم وضع ورق السفرة ثم تقول له: لا أستطيع البقاء اليوم لسوف أقوم بتنظيف المكان على وجه السرعة ثم أنطلق لأنني أرغب في زيارة والدتى لأنها بدأت تشتكي من أنها أصبحت لا ترانى في هذه الأيام إلا نادرا بل وسألتني عما إذا كنت قد عثرت لنفسي على رجل وعما إذا كنت أفكر في الزواج، فيبتسم ريكاردو ريس في ارتباك وقلق ولا يعرف كيف يتصرّف، نحن بالتأكيد لا نتوقع منه أن يقول: أنت لديك رجل بالفعل أما بالنسبة للزواج فمن الملائم أنك أثرت هذا الموضوع فقد حان الوقت لنناقش مستقبلنا، لا أنه يكتفي بالابتسام وينظر إليها في تعبير أصبح متسما بالطابع الأبوى على نحو فجائي، واتجهت ليديا إلى المطبخ بدون أن تأخذ معها أيّ ردّ إذا كانت قد توقعت سماع أيّ ردّ، وهي قد قالت تلك الكلمات بدون تفكير، فأمها لم تذكر أبداً في أيّ

مرة الرجال أو الزواج وانتهي ريكاردو ريس من تناول الطعام ودفع بالصينية أسفل السرير واستند بظهره للوراء لكي يقرأ الجريدة، الموكب الكبير الذي نظمته المنظمات التعاونية قد أظهر أنه ليس من المتعذر التوصل إلى اتفاقية عادلة ومعقولة بين أصحاب العمل والعمال، واستمر في القراءة في هدوء بدون أن يعطي اهتماما كبيرا بالمناقشة فهو في أعماق قلبه لم يكن بمقدوره أن يقرّر ما إذا كان يوافق أو لا يوافق على ما جاء بتلك المقالة الافتتاحية، ثم تحول إلى الأنباء الأجنبية، في فرنسا سيعقد غدا أول اقتراح سرّى في الانتخابات التشريعية، القوات الحربية تحت قيادة بادو حليو تستعد لاستئناف الزحف نحو أديس أبابا، وفي نفس هذه اللحظة ظهرت ليديا عند باب غرفة النوم وقد شمّرت عن كميها وتساءلت في لهفة: هل شاهدت المنطاد بالأمس، فقال ريس: أيّ منطاد فقالت: منطاد زبلين، لقد مرَّ هنا من فوق الفندق، فقال: لم أشاهده، ولكنه كان يشاهده في نفس هذه الدقيقة على الصفحة المفتوحة للجريدة، إنه منطاد عملاق يحمل اسم الرجل الذي شيده وهو جراف زبلين وهو ملاح جوى وجنرال وكونت ألمانى، وهنالك يطير فوق مدينة لشبونة وفوق النهر والبيوت ويتوقف الناس على أرصفة الشوارع ويبزغون من الدكاكين والمحلات وينظرون من نوافذ الترام ويظهرون في بلكوناتهم ويصيحون مع بعضهم البعض لكي يشاركوا في مشاهدة ذلك المنظر العجيب، وقال ريكاردو ريس: توجد صورة للمنطاد هنا بالجريدة، فاقتربت ليديا من السرير وأصبحت قريبة للغاية حتى بدا من العار عدم احتضان ردفيها بذراعه الشاغرة، فضحكت وقالت له: تأدَّب وأضافت: أنه ضخم بل أنه بالجريدة يبدو أضخم من حجمه الطبيعي وماذا عن ذلك الصليب المثبت هناك في المؤخرة، فقال ريس: أنهم يسمونه الصليب المعقوف الذي هو شارة الحزب النازى الألمانى

والرايخ الثالث، فقالت: أنه قبيح المنظر، فقال: أؤكد لك أن الكثيرين من الناس يعتقدون أنه أجمل صليب فقالت: أنه يذكرنى بالعنكبوت فقال: ذات يوم كانت هناك ديانات في الشرق يمثل فيها هذا الصليب السعادة والخلاص، فقالت: أحقا فقال: نعم إنني لا أمزح فقالت: إذن لماذا يوضع الصليب المعقوف على ذيل زبلن، فقال: لأن هذا المنطاد ألمانى والصليب المعقوف قد أصبح الآن شعارا لألمانيا فقالت: شعار النازيين، فقال: ماذا تعرفينه عن النازيين، فقالت: لا أعرف سوى ما قاله لي أخي، فقال: أخوك الذي هو في البحرية، فقالت: نعم أخي دانييل أنه الأخ الوحيد لي، فقال: هل هو قد رجع من أوبورتو، فقالت: أنني لم أتقابل معه ولكنه قد عاد، فقال: كيف تعرفين أنه قد عاد، فقالت: لأن باخرته قد رست أمام تيرايرو دو باكو، فقال: ألا تودّين الاضطجاع معي في السرير، فقالت: لقد وعدت والدتى بأن أجئ إليها في فترة الغداء، فقال: لمجرد وقت ضئيل وبعدئذ يمكن لك الذهاب إلى والدتك، ثم أنزل ريكاردو ريس يده لكي يُربِّت على ساقها ثم رفع جونلتها ووصل إلى ما فوق رباط الجورب وتلامس مع بشرتها العارية، فقالت ليديا: لا، لا ولكنها بدأت تُصاب بالتفكك والتخاذل وراحت ركبتاها ترتعشان، وفي نفس هذه اللحظة أدرك ريكاردو ريس لأول مرة في حياته أنه في حالة عدم انتصاب، وفي ذعر وهلع سحب يده وقال في تمتمة: شغّلى المياه من أجلي فأنا أريد أن أخذ حماما، ولم تدرك حقيقة الوضع وبينما كانت تفكّ حزام الوسط بجونلتها وتفك بلوزتها كرّر قوله بصوت عال فجائي: ينبغي لي أن آخذ حماما شغَّلى المياه من أجلي، ثم ألقى بالجريدة على الأرض وانزلق تحت الملايات وأدار وجهه نحو الحائط وكاد يقلب صينية الافطار، وراحت ليديا ترقبه في دهشة، وقالت لنفسها في تعجب: تُرى ما الذي فعلته أنا، وكانت

يداه المختفيتان عن أنظارها تحاولان إيقاظ عضوه الرخو وكافحتا في هذا الشأن ولكن بدون جدوى فاجتاحه الغضب الشديد واليأس المرير في نوبات متلاحقة على التوالى، فانسحبت ليديا في حزن وأخذت معها الصينية وذهبت لتغسل الأطباق إلى أن أصبحت تتلألأ مثل شمس الصباح ولكنها أشعلت السخان في بادئ الأمر وجعلت المياه تجرى في حوض الاستحمام وتفحصت درجة حرارة الماء لدى تدفقها من الحنفية ومرَّت بأصابعها المبللة على عينيها المبللتين بالدموع، وقالت لنفسها: تُرى ما الذي فعلته مما أدى إلى ازعاجه في اللحظة التي كنت أنا فيها على استعداد للنوم في السرير معه، حالات سوء الفهم من هذه النوعية يتعذّر تفاديها، فهو لو كان قد قال لها: أنني لا أستطيع حاليا لأنني لست في حالة نفسية ملائمة لكانت قد تفهمت الموقف بكل بساطة حيث يحدث ذلك كثيراً للرجال بل أنها كانت على استعداد للاضطجاع معه في السرير في صمت بدون أية ممارسة مع العمل على مواساته والتهدئة من مشاعره إلى أن يتغلب على الذعر الذي أصابه وحيث تقول له: توقف عن ذلك الذعر فليس هذا هو نهاية العالم، بل ويمكن لكليهما أن يناما معا في سلام وهدوء وبحيث تنسى هي أن والدتها كانت تتوقع لها الحضور مع وضع طعام الغداء على المنضدة وعندئذ تقول والدتها لابنها البحار: هيا بنا نتناول معا طعام غدائنا فأنت لم يعد بمقدورك الاعتماد على أختك إذ لا يبدو عليها أنها نفس الفتاة في هذه الأيام، تناقضات الحياة وحالات الظلم بها تكون على ذلك النحو.

ظهرت ليديا عند باب غرفة النوم، وقالت: لسوف أقابلك بعد أسبوع، وانصرفت وهي تموج بالبؤس تاركة إياه في حالة ليست أقل بؤسا، فهي لا تعرف نوعية الخطأ الذي ارتكبته وهو يعرف جيدا نوعة الكارثة التي حلّت به، صوت المياه الجارية ورائحة البخار تسود في

جميع أرجاء الشقة ويظل ريكاردو ريس مستلقياً بالسرير على مدى دقائق أخرى قليلة، وهو يعرف أن حوض الاستحمام ضخم ولدى امتلائه بالمياه يصبح شبيها بالبحر الأبيض المتوسط، وأخيرا ينهض واقفا ويتجه إلى الحمام، ومن حسن الحظ أنه لا يستطيع مشاهدة نفسه في المرآة المعتمة من خلال البخار من المؤكد أن هذا هو العطف والشفقة الذي تبديه المرايا في لحظات حرجة معينة، وبعدئذ يقول لنفسه في تفكير: هذا ليس هو نهاية العالم وهذا يمكن أن يحدث لأي شخص والدور سيجيء عليّ أن عاجلا أن آجلا، ما الذي تظنه يا دكتور لا تقلق ولا تهتم، لسوف أكتب لك روشتة بها اسم حبوب جديدة من أجل معالجة هذه المشكلة الصغيرة والشيء المهم في هذا الموضوع هو ألا تقلق وعليك بالخروج للنزهة أو الذهاب لمشاهدة فيلم وإذا كانت هذه هي أول مرة يحدث فيها ذلك فيمكن أن تعتبر نفسك رجلا محظوظا، وخلع ريكاردو ريس ملابسه ودخل إلى بحيرة الماء تدريجيا ثم غمر نفسه في الماء كما لو كان يتخلّى عن عالم الهواء، ومع الاسترخاء دُفعت أطرافه نحو سطح الماء لكي تطفو بين طبقتين من الماء مما جعل النشاط يدبّ في عضوه مرة أخرى، فراح ريكاردو ريس يرقب في حزن واكتئاب عضوه كما لو كان ذلك الشيء لا ينتمي إليه، هل هذا العضو خاص بي أم أنا الذي أنتمى إليه ولم يكن يسعى للحصول على أجابة، فالسؤال في حدّ ذاته يسبب له قدرا كبيرا من الكرب العظيم.

وبعد مرور ثلاثة أيام ظهرت مارسيندا في العيادة، وقالت لموظفة الاستقبال إنها ترغب في أن تكون آخر مَنْ يقابل الطبيب لأنها لم تحضر إلى العيادة من حيث هي مريضة، وقالت: عندما ينصرف جميع المرضى الآخرين قولى للطبيب إن مارسيندا سامبو موجودة هنا، ثم وضعت في جيب موظفة الاستقبال ورقة مالية من فئة العشرين إسكود،

وبُلغت الرسالة في اللحظة الملائمة أي في اللحظة التي خلع فيها ريكاردو ريس معطفه الأبيض الذي يكاد يشبه رداء الكاهن والذي لا يكاد يصل إلى ٣/ ٤ الطول العادي مما يوضح السبب في أنه لم يكن ولن يكون أبداً الكاهن الكبير لهذه الديانة المتعلقة بالشئون الصحية وإنما مجرد حافظ لغرفة المقدسات ومسئول عن تفريغ وغسل أوعية الخمور المقدسة ومسئول عن اشعال واطفاء الشموع وعن كتابة الشهادات بما في ذلك شهادة الوفاة، في بعض الأوقات كان يشعر بالأسف والندم لأنه لم يتخصص في مجال توليد النساء ليس بسبب أن ذلك المجال يتعلق بأغلى الأعضاء وأكثر خصوصية للنساء ولكن سبب أن ذلك كان يعنى إحضار أطفال إلى العالم أطفال أناس أخرين يكونون بمثابة عزاء لنا عندما لا يكون لنا أطفال من صلبنا أو على الأقل يكون لنا أطفال من صلبنا ولكننا لا نعرفهم لأننا اختلطنا مع نساء عديدات بدون زواج رسمي، فهو كطبيب يولّد النساء كان سيشعر بالقلوب الجديدة وهي تدقّ في عنف لدى مجيئها إلى العالم ومن وقت لآخر يمسك في يديه تلك المخلوقات النحيلة اللزجة المغطاة بالدماء والمخاط والدموع والعرق ويسمع الصرخة الأولى التي ليس لها أيّ معنى أو لها معنى يعزب عن فهمنا، وارتدى الروب دى شامبر بسرعة وحاول أن يقرّر ما إذا كان ينبغي عليه أن يستقبلها عند الباب أو ينتظرها خلف مكتبه مع وضع إحدى يديه بطريقة مهنية على كتابة «الرفيق الملازم الطبي» الذى يُعتبر ينبوع المعرفة الطبية وانجيل الأحزان، ومع الاقتراب من النافذة التي تطل على الميدان وأشجار الزيزفون المزهرة وتمثال الفارس فأنه اختار ذلك الميدان ليكون مكانا يستقبل فيه مارسيندا إذا أمكن أن يقول لها بدون أن يبدو سخيفا: أنه فصل الربيع انظري كيف تبدو الطبيعة ممتعة وبهيجة بينما ذلك الحمام قابع على رأس كاموس في حين حمام آخر

قابع على كتفيه، السبب الحقيقي الوحيد لإقامة التماثيل هو تقديم مجثم للطيور ولكن التقاليد الاجتماعية هي التي سادت، وظهرت مارسيندا عند بابه وقالت لها موظفة الاستقبال: تفضلي بالدخول، وموظفة الاستقبال لديها حُسنَ الادراك السليم ولديها خبرة في فن التمييز ما بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، ونسى ريكاردو ريس أشجار الدردار والزيزفون ولاذ الحمام بالفرار محلقا في الجو مما يؤكد أن شيئاً ما قد سبب له الازعاج، الصيد بالبنادق ممنوع طوال العام في لويس دى كاموس، لو كانت هذه المرأة بمثابة حمامة فإنها لن تتمكن من الطيران بذلك الجناح الجريح، وقال ريس: كيف كانت أحوالك يا مارسيندا أنني مسرور لمشاهدتك وكيف حال والدك هل هو على ما يرام، فقالت: أنه على ما يرام شكرا جزيلا يا دكتور كان غير قادر على المجئ ولكنه يرسل إليك تحياته، وتنفيذا للأوامر الصادرة إليها انسحبت موظفة الاستقبال وأغلقت الباب وراءها، واستمر ريكاردو ريس في الامساك بيدْ مارسيندا وظلا على هذا النحو في صمت إلى أن أشار إلى كرسى، فجلست بينما يدها اليسرى مازالت في جيبها، وحتى موظفة الاستقبال التي لا يغيب عنها أيّ شيء على استعداد لأن تُقسم بأن تلك الفتاة الموجودة الآن في غرفة الكشف لا توجد بها أية دلائل تشير إلى تعب جسمانى بل وهي في حقيقة الأمر جذابة للغاية وربما تكون نحيلة بعض الشيء ولكنها صغيرة في السن للغاية كما أن النحافة متلائمة معها.

وقال ريكاردو ريس: والآن كيف صحتك في هذه الأيام فقالت مارسيندا: على نفس المنوال ولم يحدث تغيّر وأنا أشك في أنني سأعود إلى الاخصائي أو على الأقل الاخصائي الموجود هنا في لشبونة، فقال ريس: لا توجد دلائل للتحسن ولا أيّ شيء يدلّ على بوادر حركة أو يدل على أنك تستردّين بعض الاحساس فقالت: لا يوجد شيء من ذلك

القبيل فقال ريس: وماذا عن قلبك فقالت: أنه يعمل في اتقان، هل ترغب في فحصه، فقال ريس: أنني لستُ الطبيب الخاص بك، فقالت: ولكنك الآن طبيب أخصائي في القلب ومن المؤكد أنك اكتسبت بعض العلم والمعرفة مما يجعلنى استشيرك فقال: أنني أحلّ محل زميل مؤقتا كما أوضحت لك في خطابي، فقالت: هل تشعر بالأسف لأنك أرسلت لي ذلك الخطاب، فقال ريس: الأسف هو أكثر الأمور في العالم المتسمة بعدم الجدوى والناس الذين يبدون أسفهم لا يريدون سوى الغفران لهم وبعدئذ يرجعون مرة أخرى إلى الضعف الخاص بهم لأن كل واحد منا في أعمق أعماقه يستمر في الافتخار بضعفه، فقالت: إنني لم أشعر بالأسف بسبب ذهابي إلى شقتك بل وحاليا لا أشعر بالأسف على ذلك وإذا كان سماحى لك بأن تقبلنى علاوة على قيامي بتقبيلك يعتبر غلطة فأنا مازلتُ أفتخر بهذه الغلطة، فقال: ما تم بيننا لم يكن سوى قبلة واحدة وليس خطيئة مميتة، فقالت: لقد كانت تلك هي أول قبلة أتلقّاها في حياتي ولهذا السبب فإنني لا أشعر بالندم فقال ريس: ألم يقم أيّ شخص بتقبيلك من قبل فقالت: تلك كانت هي أول قبلة أتلقاها، فقال: لقد حان موعد إغلاق العيادة، أتودين المجئ إلى الشقة حيث يمكن لنا التحدث في مزيد من الخصوصية، فقالت: لا أفضل ذلك، فقال: يمكن أن ندخل العمارة على انفراد بحيث يكون هناك فاصل زمنى، إنني لا أريد أن أعرضك للخزى والعار، فقالت: لا، أنني أفضل البقاء هنا بالعيادة لفترة أطول إذا كان ذلك ملائما، فقال: صدقينى، أنني لن أسبب لك أيّ أذى، فأنا في حقيقة أمرى إنسان مُسالم للغاية، فقالت: نحن مختلفان كثيراً في حياتنا كما يوجد بيننا ذلك الفارق الكبير في العمر وفي مصائرنا، فقال: أنت تكرّرين نفس الكلام الذي قمت بكتابته في خطابك، فقالت:

حقيقة الأمر أنني معجبة بك يا ريكاردو وكل ما هنالك أنني لا أستطيع تحديد حجم هذا الاعجاب، فقال ريس: عندما يصبح رجل في نفس سنى فأنه يبدو سخيفا إذا بدأ في الاعلان عن حبه وغراغمه فقالت: ولكنني استمتعت بقراءة تلك التصريحات عن الحب والتي أقوم بسماعها الآن، فقال: أنني لا أصدر أيّ كلام عن الحب فقالت: لا، فقال: نحن نتبادل التحيات والأزهار وصحيح أن الأزهار جميلة ولكنها تُقطف وسرعان ما تذبل والزهور غير مدركة لهذا المصير الذي نحن نتظاهر بأننا لا نلحظه، فقالت: أنني أضع أزهارى في الماء ولسوف أرقبها إلى أن تذبل الألوان، فقال: إذن فأنت لن ترقبيها لفترة طويلة، فقالت: أنا أرقبك الآن، فقال: أنا لستُ زهرة، فقالت: أنت رجل وأنا قادرة على معرفة الفارق ثم اتجه ريكاردو ريس إلى النافذة وجذب الستارة، لم يكن هناك حمام قابع على التمثال وبدلا من ذلك كان يطير بسرعة في حلقات فوق التمثال على شكل دوّامة هوائية، فاقتربت منه مارسيندا وقالت: أثناء مجيئي إلى هنا شاهدت حمامة قابعة على ذراع التمثال بمكان قريب من قلبه، فقال: ذلك شيء طبيعي تماماً لأن الحمام يفضل البقعة المحمية التي تشبه المأوى وقالت: لا يمكن لك مشاهدة التمثال من هنا فهو يواجه الجهة الأخرى، ثم أُسدلتْ الستارة مرة أخرى، وتحركا في ابتعاد عن النافذة، ثم قالت مارسيندا: ينبغي لي أن أذهب الآن، فأمسك ريكاردو ريس بيدها اليسرى ورفعها إلى شفتيه ثم راح يُرّبت عليها في رفق وبطء كما لو كان يبث الحياة أو يعيد الحياة لطائر فاقد الاحساس ومُخدَر بسبب البرد، وفي اللحظة التالية شرع في تقبيل مارسيندا على شفتيها فتبادلت معه القبلات وعندئذ شعر بتدفق الحياة إلى عضوه مرة أخرى، إذن فلم يكن ذلك العضو قد مات إلى الأبد، وأخيرا قالت في تدهور: ينبغي لي أن أذهب الآن، لقد خارت قواها

وتداعت وألقت بنفسها في كرسى، وقال ريكاردو ريس في توسل: أرجو أن توافقى على الزواج مني، فنظرت إليه في شحوب وقالت: لا وقالت كلمة لا في بطء شديد للغاية وأضافت: لأننا عندئذ لن نكون سعداء، وظلا ملتزمين بالصمت الشديد على مدى دقائق عديدة، وللمرة الثالثة قالت مارسيندا: ينبغي لي أن أذهب الآن ولكنها في هذه المرة نهضت واقفة واتجهت بالفعل نحو البا، فسار وراءها وحاول تعطيلها ولكنها أصبحت موجودة بالفعل في الصالة وظهرت فتاة الاستقبال عند الطرف البعيد بالصالة في حين قال ريكاردو ريس بصوت مرتفع: لسوف اصطحبك قليلا إلى الخارج، وقام بذلك بالفعل، وقام بذلك بالفعل، وتبادلا تحية «إلى اللقاء» وتصافحا بالأيدي، وقال: بلغى سلامي لوالدك فقالت: ذات يوم ولكنها لم تستكمل عبارتها وربما شخص ما آخر سوف يستكمل لها هذه العبارة ومن يعرف متى يحدث ذلك ولأي سبب يحدث ذلك ولكن حاليا لا يوجد سوى هذا، «ذات يوم» ويغلق الباب وتتساءل موظفة الاستقبال: أأنت بحاجة إلى يا دكتور، فقال: لا فقالت: حسناً بعد إذنك سوف أنطلق خارجة، كل شخص بالمكان قد انطلق الآن بما في ذلك الأطباء الآخرون وقال ريس: لسوف أمكث لدقائق قليلة أخرى إذ ينبغي أن أقوم بفرز وتصنيف بعض الأوراق فقالت: طابت ليلتك يا دكتور فقال لها: طابت ليلتك يا كارلوتا لأن ذلك كان هو اسمها.

وعاد ريكاردو ريس إلى مكتبه وفتح الستارة، لم تكن مارسيندا قد وصلت إلى أسفل السلالم، كانت خلال الشفق الأحمر تتغلغل في الميدان، وكان الحمام قابعا على الأغصان العلوية لأشجار الدردار وصامتا للغاية مثل مجموعة أشباح أو كان هذا ظلال الحمام الذي كان قد قبع على نفس تلك الأغصان في سنوات ماضية أو كان قد قبع على

الأطلال التي توجد هنا ذات يوم قبل تسوية الأرض من أجل تشييد الميدان وإقامة التمثال، والآن وبعد أن عبرت مارسيندا الميدان متجهة نحو شارع الكريم فإنها تستدير حولها لكي تعرف ما إذا كانت الحمامة مازالت قابعة على ذراع كاموس بين الأغصان المزهرة لأشجار الزيزفون فيقع بصرها في لمحة خاطفة على وجه أبيض خلف زجاج نافذة لو أن أي أحد شاهد هذه الحركات لما فهم معناها ولا حتى كارلوتا التي خبأت نفسها تحت السلالم لكي تتجسس حيث شكت في أن الزائرة ستعود إلى العيادة لكي تتكلم مع الدكتور حبيب قلبها، هذه فكرة ليست رديئة على الاطلاق ولكنها لم تخطر أبداً على ذهن مارسيندا كما أن ريكاردو ريس لم يخطر على باله أن يسأل نفسه عما إذا كان ذلك هو السبب الذي جعله يبقى بالعيادة لبعض الوقت.

(١٤)

وبعد أيام قليلة وصل خطاب له نفس اللون البنفسجى الشاحب، وبه نفس خاتم البريد الأسود وعليه نفس خط اليد الواضح المكتوب في زاوية لأن الورقة غير مثبتة في مكانها بمساعدة من اليد الأخرى، يوجد نفس التردد لفترة طويلة قبل أن يقوم ريكاردو ريس في نهاية الأمر بفتح الظرف ليجد نفس الوجه المغناج المنهك ونفس الكلمات: كم كنت مغفلة عندما قمت بزيارتك، لن يحدث ذلك مرة أخرى ولن نشاهد بعضنا البعض مرة أخرى ولكن صدقنى عندما أقول لك إنني لن أنساك أبداً طالما أنا باقية على قيد الحياة حتى لو أصبحت الأمور مختلفة وأصبحت كبيرة في السن وأصبحت غير قابلة للشفاء تماماً، نعم فالأخصائي اعترف أخيراً أنه لا يوجد علاج وأن العلاج باستخدام الأشعة فوق البنفسجية والصدمات الكهربائية والتدليك هو مضيعة للوقت وأنا كان لي نفس هذا الرأى تقريبا ولكني لم انخرط في البكاء إنني لا أشفق على نفسي وإنما أشفق على ذراعي التي أتعهدها بالرعاية كما لو كانت طفلا صغيراً لن يترك فراشة أبداً وأقوم بالتربيت عليها كما لو كانت حيوانا ضالا صغيراً عثر عليه بالشارع يا ذراعي المسكين ما الذي سيحل بذراعي بدونى، ولذلك أقول لك وداعا يا صديقتى العزيزة ووالدي ما زال يصر على أنه ينبغي على الذهاب إلى سانت فاطيما ولذلك قررت أن أذهب لمجرد أن أدخل السرور عليه وألبي رغبته إذا

كان هذا هو ما يحتاج إليه من أجل ارضاء ضميره واقناعه بأن تلك هي مشيئة الله لأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً يتعارض ويتناقض مع مشيئة الله وارادته وبالتالي ينبغي علينا أن نتوقف عن ذلك، أنني لا أطلب منك أن تنساني يا صديقي وإنما على العكس من ذلك حيث آمل أن تفكر في كل يوم ولكن لا تكتب لي خطابات لأنني لن أذهب مرة أخرى إلى شباك مكتب البريد والآن ينبغي على أن أغلق هذا الخطاب بعد أن قلت كل ما كان لي أن أقوله، مارسيندا لا تكتب بهذه الطريقة فهي تراعى كل قواعد الإعراب والترقيم وإنما ريكاردو ريس هو الذي يقفز من سطر لآخر بحثا عن ماهو جوهرى مع تجاهل أسلوبها في التعبير، ولكن على الرغم من أنه قرأ الخطاب مرة ثانية وثالثة إلا أنه لم يستخلص منه المزيد من المعلومات لأنه كان قد قرأ كل شيء تماماً مثلما أن مارسيندا قد قالت كل شيء رجل يتلقى خطابا محكم الإغلاق لدى مغادرة باخرته الميناء فيقوم بفتحه وهو في منتصف المحيط، ولا يوجد شيء سوى البحر والسماء وظهر المركب الذي يقف عليه والخطاب يقول إنه من الآن فصاعدا لن يكون هناك المزيد من الموانئ التي يمكن اللجوء إليها بالنسبة له ولا المزيد من الأراضى المجهولة التي يمكن اكتشافها ولا يوجد مكان مقصود تنتهي عنده الرحلة ولا شى قد ترك له سوى الابحار مثل الهولندى الطائر مع رفع الأشرعة ولفها وتزويد المضخة بالرجال وممارسة أعمال الاصلاح والخياطة وإزالة الصدأ والانتظار، ومع الاستمرار في الامساك بالخطاب يتجه إلى النافذة ويشاهد آداماستور علاوة على مشاهدة الرجلين العجوزين الجالسين في ظل العملاق آداماستور، ويسائل نفسه عما إذا كان شعوره بالاحباط هو شعور حقيقي وليس مجرد انتحال وتمثيل وعما إذا كان يعتقد حقاً أنه في حالة حب مع مارسيندا وأنه في أعمق أعماقه لم يكن يرغب على الاطلاق في

الزواج منها أو ما إذا كان كل ذلك هو التأثير الردئ الذي ينجم عن الشعور بالوحدة القاسية وعن الحاجة إلى الاعتقاد بأنه توجد هناك أشياء ممتازة في الحياة مثل الحب على سبيل المثال وعن السعادة التي يتحدث عنها الناس التعساء دائماً إذا كانت السعادة والحب أمرين ممكنين بالنسبة لصاحبنا ريكاردو ريس أو بالنسبة لفرناندو بسوا إذا افترضنا أنه ليس ميتا، لا يوجد شك في أن مارسيندا توجد على قيد الحياة فمن الواضح أنها هي التي كتبت هذا الخطاب ولكن من هي مارسيندا وما هو الشيء المشترك بين الفتاة التي شوهدت لأول مرة في صالة الطعام بفندق براجانسا عندما كانت غير معروفة له وبين هذه المارسيندا التي يملأ اسمها وشخصيتها أفكار ومشاعر وكلمات ريكاردو ريس، مارسيندا هي مكان للرسو أو هي المرسى والمرفأ والملاذ ووسيلة الأمان فماذا كانت عليه آنئذ وماذا أصبحت عليه الآن إنها الأثر الذي تخلفه السفينة الجارية في الماء والذي يظهر على السطح ويختفي عقب مرور السفينة، لا يزال يوجد بعض الرذاذ الناجم عن ممخضة الدفة، لقد مررت من خلال الرذاذ فما هو الشيء الذي مر من خلالى ويقوم ريكارو ريس بقراءة الخطاب مرة أخرى، الفقرة الأخيرة التي تكتبها تقول فيها: لا تكتب خطابات من أجل إرسالها إلى فيقول لنفسه بأنه سيكتب بالطبع وإذا أوفت هي بوعدها فأن الخطاب سيظل قابعا في شباك مكتب البريد لأن الشيء المهم هو أن يكتب، ولكنه بعدئذ يتذكر أن الدكتور سامبيو يعتبر شخصية مشهورة للغاية في مدينة كوامبرا، لأن الذي يشغل منصب الموثق العام يكون دائماً شخصية مرموقة بالمجتمع وكما نعرف فأن مكاتب البريد تكون مليئة بالموظفين المخلصين ولذلك فمن الممكن أن يشق ذلك الخطاب السرى طريقه إلى عنوان مسكنه أو عنوان مكتبه مما قد يثير غضباً شديداً، أنه لن يكتب، في هذا الخطاب

سيتحدث عن كل الأمور التي لم يتحدث عنها ليس على أمل تغيير مجرى الأحداث ولكن لكي يؤكد على أن تلك الأحداث عديدة للغاية لدرجة أن قول كل شيء عنها لن يغير مجراها، ومع ذلك فهو كان يود على الأقل أن يجعل مارسيندا تعرف أن الدكتور ريس وهو الرجل الذي قام بتقبيلها وطلب الزواج منها هو شاعر وليس مجرد طبيب ممارس عادي يعمل بشكل مؤقت مكان طبيب آخر هو أخصائي في أمراض القلب والرئة وأنه ليس طبيباً بديلاً رديئاً على الرغم من النقصان في تدريبه العلمى حيث لا يوجد دليل يشير إلى ارتفاع معدل الفضيلة منذ أن شرع في ممارسة الطب، تخيلوا دهشة مارسيندا لو كان قد قال لها منذ البداية: أكنت تعرفين يا مارسيندا أنني شاعر وبحيث يقولها بالنغمة العادية لا يعطي أهمية كبيرة لموهبته الفنية، كانت ستدرك بالطبع أنه إنسان متواضع وكانت ستشعر أنه يتملقها لأنه أفضى إليها بشيء سرى وكانت ستنظر إليه في رقة رومانتيكية وتقول: يا له من أمر رائع وكم أنا سعيدة الحظ ويمكن لي الآن معرفة الفارق عندما أحب على أيدي شاعر وينبغي على أن أطلب منه أن يقرأ لي أشعاره وقصائده وأنا واثقة من أنه سيخصنى ببعض أشعاره ويهدى لي بعض قصائده لأن هذه عادة شائعة بين الشعراء، ولكي يتجنب ريكاردو ريس أية تفجرات ناجمة عن الحقد والغيرة فإنه سيوضح قائلاً إن النساء اللاتي تجدهن مارسيندا مشارا إليهن في قصائده لسن نساء حقيقيات وإنما هن مجرد لوحات تجريدية غنائية مجرد خيال فنى ومجرد محاورات خيالية إذا كان بمقدور المرء أن يعطي اسم محاورة لإنسانة ليس لها صوت، الشاعر لا يطلب من الموزيات أو الإلاهات الشعر الخاصة به أن تتكلم وإنما يطلب منهن الحضور فقط فهو يريد أن تحضر كل من نييرا Neaera وليديا Lydia وشلواه Chloe وهناك صدفة بالنسبة لك فبعد كتابة قصائد على مدى

سنوات عديدة للغاية باسم ليديا الأثيرية اتقابل بطريق المصادفة مع خادمة غرف بفندق لها نفس الاسم فقط ولكن لا يوجد أي تشابه على الاطلاق في كل النواحى الأخرى، ويوضح ريكاردو ريس الأمور ثم يوضحها مرة أخرى ليس لأن الأمر بالغ التعقيد والصعوبة ولكن لأنه قلق إزاء الخطوة التالية وإزاء القصيدة التي سيختارها وماذا ستقوله مارسيندا عندما تسمعها وما هو التعبير الذي سيظهر على وجهها وهي ربما قد تطلب أن تشاهد بعينيها الأشياء التي سمعته وهو يقرأها وبعدئذ تقرأ القصيدة بنفسها بصوت منخفض: في مجمع بحرين متغير ومتقلب حيث يتشكل النهر من خلال أمواجه عليك بتأمل أيامك فإذا وجدت نفسك تبدو مثل آخر التزم بالصمت، ويقرأ هو هذه القصيدة ثم يقرؤها مرة أخرى ويدرك من خلال النظر إلى وجهها أنها تدرك المعنى وربما ساعدها على الفهم تذكرها لتلك الكلمات التي قالها في غرفة الكشف الطبي في آخر مرة كنا فيها معا والتي كانت عن رجل يجلس على حافة شاطئ النهر ويرقب المياه وهي مرت وينتظر لأن يشاهد نفسه وهو يمر أيضاً منجرفا مع التيار، من الواضح أنه يوجد اختلاف كبير ما بين النثر والشعر وذلك هو السبب في أنني فهمت الكلام على نحو جيد للغاية في المرة الأولى ثم أجد نفسي الآن أكافح من أجل فهم المعنى فيسألها ريكاردو ريس: هل تحبين هذا فتقول: أوه أحبه كثيراً للغاية، وهذه اجابة سارة ومرضية تماماً ولكن الشعراء يكونون دائماً غير راضين عن انتاجهم ولذلك نجد ريكاردو ريس يبدو حزيناً ومكتبئاً مثل آداماستور الذي لا يستطيع تخليص نفسه من الرخام الذي حبس فيه من خلال الاختيال والخداع بعد أن تحول جسده وعظامه وكذلك لسانه إلى حجر وتتساءل مارسيندا: لماذا أصبحت صامتاً وهادئاً للغاية، ولكنه لا يجيب عليها.

إذا كانت هذه هموم شخصية فأن البرتغال إذا نظرنا إليها ككل لا تخلو من أفراحها ومباهجها فقد تم الاحتفال بعيدين سنويين: العيد الأول هو دخول البرفسور أنطونيو دى أوليفيرا سالازار في الحياة العامة منذ ثمانى سنوات، يبدو ذلك وكأنه قد تم بالأمس فالزمن يتطاير بسرعة وذلك من أجل انقاذ بلاده وبلادنا من جحيم الهاوية واستعادة ثرواتها ووضع نظرية سياسية جديدة وغرس الإيمان والحماس والثقة في المستقبل وفقا لما تشير إليه الصحف، أما العيد الثاني فهو يتعلق أيضاً بالأستاذ المبجل وأن كان الحدث من المباهج الشخصية مباهجه ومباهجنا ألا وهو الاحتفال بعيد ميلاده السابع والأربعين، فهو قد ولد في نفس العام الذي ولد فيه هتلر ولكن قبل مولد هتلر بأيام قليلة، وهذا يعتبر أمراً من قبيل المصادفات، كما نحن بصدد الاحتفال بيوم العمل الوطني من خلال موكب يضم الآلاف من العمال في برشلونة حيث يمدون جميعاً أذرعهم بالطريقة الرومانية فقد ظلت هذه الحركة باقية منذ أيام براجا Braga التي سمى فيها باسم براسار أوجاستا.

ريكاردو ريس موجود في السرير بينما رأس ليديا مستلق على ذراعه الأيمن في حين جسداهما المفرزان للعرق لا يغطيهما سوى ملاية، إنه عار تماماً بينما قميص النوم الخاص بها الفضفاض مرفوع فوق خصرها، إنهما قد نسيا أو تناسيا ذلك الصباح الذي شعر فيه بالعجز الجنسي ولم تعرف هي ما الذي فعلته لكي يرفض النوم عليها، الجارات في بلكوناتهن بالأماكن الخلفية من العمارة يتجاذبن أطراف الحديث مع تبادل الكلمات التي لها مغزى علاوة على تبادل الحركات التأكيدية مثل الايماء بالرأس والغمز بالعين: لقد عادا إلى الممارسة مرة أخرى، العالم منحرف وفاسد. وفاسق، من كان يصدق أن يحدث هذا في هذه العمارة، إنهما لا يخجلان من نفسيهما، وليديا تشعر بالسعادة، فالمرأة

التي تذهب في للنوم في السرير بإرادتها الحرة مع رجل لا يهمها كثيراً ما يقوله الناس عنها في دردشتهم، حالا سيكون عليها أن تنهض من السرير وتغسل الأطباق المتسخة التي تراكمت وتقوم بكيّ ملايات السرير بالمكواة علاوة على كي القمصان التي يرتديها ذلك الرجل المستلقى إلى جوارها، وتقول لنفسها في تفكير: على أي نحو أصف نفسي هل أنا عشيقته إنني لست عشيقته وذلك بسبب وجود الفارق الاجتماعي وكل ما سيقوله الناس هو أن ريكاردو ريس لديه خادمة ممتازة لأنها تفعل له كل شيء، وتمدد ليديا ساقيها وتقترب منه في حركة أخيرة من المتعة الهادئة فيقول ريكاردو ريس: الجو حار فتبتعد عنه قليلا وتحرر ذراعه ثم تجلس معتدلة القامة في السرير وتبحث عن جونلتها، لقد حان الوقت لكي تنجز بعض الأعمال، وفي نفس تلك اللحظة يقول لها: أنا ذاهب غدا إلى سانت فاطيما، فاعتقدت أنها اساءت الفهم فقالت: إلى أين أنت ذاهب، فقال: إلى فاطيما، فقالت: لقد كنت أعتقد أنك لا توافق على مثل هذه الأشياء فقال: إنني ذاهب بدافع من حب الاستطلاع فأنا شخصيا لم يسبق لي الذهاب من قبل إلى فاطيما فقالت: أسرتي لا تهتم بالدين والدين ليس هو الموضوع الذي يشغل اهتماماتهم، فقال ريس: أنني مندهش من كلامك هذا وما كان يعنيه ريكاردو ريس هو أن الناس المنتمين عادة للطبقات السفلية الفقيرة هم الذين يؤمنون بهذه العبادات والتكريسات ولكن ليديا لم ترد على كلامه، وراحت ترتدي ثيابها على وجه السرعة حتى أنها لم تنتبه كثيراً عندما أضاف ريس قائلاً: هذه الرحلة ستكون مفيدة بالنسبة لأنها ستجدد نشاطى بعد أن ظللت قابعا هنا لفترة طويلة ومحبوسا في مكان ضيق: فقالت: هل ستظل هناك لفترة طويلة، فقال: لا سأذهب إلى هناك ثم أعود على الفور، فقالت: وأين ستنام هناك فالمكان هناك مزدحم للغاية بل ويضطر

الناس للنوم في العراء والأماكن المكشوفة فقال: سأبحث في ذلك الأمر عندما أصل إلى هناك وعلى كل حال لم يمت أحد أبداً بسبب قضاء ليلة في العراء، فقالت: وربما تتقابل بطريق المصادفة مع السينيوريتا مارسيندا، فقال: من فقالت: السينيوريتا مارسيندا إذ سبق لها أن قالت لي إنها تأمل في زيارة فاطيما في وقت ما في خلال هذا الشهر، فقال: أوه، فقالت: وقالت لي أيضاً إنها لم تعد تزور الأخصائي الموجود في لشبونة وأنهم قد قالوا لها إنه لا أمل على الاطلاق في الشفاء يا لها من فتاة مسكينة، فقال: يبدو أنك تعرفين معلومات كثيرة عن السينيوريتا مارسيندا، فقالت: معلومات قليلة للغاية ولا شيء سوى أنها بصدد الذهاب إلى فاطيما وأنها لن تجيء مرة أخرى إلى لشبونة فقال: هل تأسفين لذلك، فقالت: لقد كانت دائماً شفوقة على للغاية، فقال: وأنا لا أعتقد أنه من المحتمل أن أتقابل معها مرة أخرى بين هذا الحشد الكبير من جماهيرالناس، فقالت: في بعض الأحيان تحدث هذه الأشياء، أنظر إلى هنا في شقتك من كان يصدق أن يحدث هذا وأنت عندما وصلت قادما من البرازيل كان هناك احتمال بأن تذهب إلى فندق آخر فتلك هي مصادفات الحياة أنه القدر، الذي يلعب دوره فقال: هل تؤمنين بالقدر، فقالت: والموت أيضاً هو جزء من القدر ولكن ينبغي على الآن أن أكوى قمصانك وأغسل الأطباق وإذا تبقى بعض الوقت سأذهب لكي أزور والدتى فهي دائماً ما تشتكي وتقول إنها لا تشاهدني كثيراً في هذه الأيام.

ومع الاستناد بظهره على وسائده فتح ريكاردو ريس كتابا تحت عنون «أوه ديسبرسيدو» بقلم كارلوس كويروس وبعد دقيقة أدرك أنه لم يكن يقرأ وإنما كانت عيناه مثبتتين على الصفحة فقط وعلى بيت من الشعر أصبح معناه غامضا على نحو فجائي، وقال لنفسه في تفكير: هذه لبنت

ليديا هي فتاة غير عادية فهي تقول الأشياء البسيطة للغاية كما لو كانت تستخلص زبد الكلمات الأكثر عمقا والتي لا تستطيع ولن تستطيع النطق بها، لو لم أقل لها إنني بصدد الذهاب إلى فاطيما لكانت قد أخفت عني معلوماتها عن مارسيندا بسبب الاستياء أو الغيرة ولكانت قد أخفت عني أنها تدردش من وقت لآخر مع مارسيندا، وهاتان المرأتان: الضيفة وخادمة الفندق الفتاة الغنية والخادمة الفقيرة ماذا يكون لديهما لكي تتناقشا فيه معا وماذا لو أنهما دخلتا في مناقشة تتعلق بي وبدون أن تشك إحداهما في الأخرى أو حتى مجرد العكس من ذلك وبحيث تلعبان دور حواء في مواجهة حواء مع الدخول في الكثير من أعمال سبر الأغوار واللف والدوران واللجوء إلى الحركات الدفاعية علاوة على أعمال الدس والتلميحات وفترات الصمت المليئة بالدهاء والخبث، وليس من المستبعد أن تكون مارسيندا قد قالت لها في بساطة ذات يوم: لقد قبلني الدكتور ريس في فمي ولكننا لم نذهب إلى ما هو أعمق من ذلك، وعندئذ ردت ليديا قائلة: أنني أنام معه في السرير بل ونمت معه قبل أن يقبلني، بل وراحتا تتناقشان بعد ذلك في أهمية هذه الفوارق، فتقول ليديا: أنه يقبلني فقط قبل الممارسة بالسرير وأثناءها ولكن ليس بعد الانتهاء من الممارسة، وتقول مارسيندا: بالنسبة لي فقد قال لي إنني سوف أقبلك ولكنه لم يفعل معي ما يفعله الرجال بالنساء وأنا لا أعرف هذا الموضوع لأن الرجال لم يفعلوا ذلك معي على الإطلاق، فتقول ليديا: لا تقلقي يا سينيوريتا مارسيندا فأنت سوف تتزوجين ذات يوم وعندئذ ستعرفين مذاق الممارسة وتقول مارسيندا: أنت قد عشت تجربة الممارسة فهل هي ممتعة، وتقول ليديا: تكون الممارسة ممتعة عندما تشعرين بالاعجاب نحو الشخص الآخر، وتقول مارسيندا: وهل أنت معجبة بالشخص الآخر، فتقول ليديا: نعم، وتقول مارسيندا: وأنا

معجبة به أيضاً ولكنني لن أراه مرة أخرى على الإطلاق، فتقول ليديا: يمكن لك أن تتزوجيه، فتقول مارسيندا: لو تزوجنا ربما أصبح غير معجبة به، فتقول ليديا: أما بالنسبة لي فإننا أعتقد أنني سأكون معجبة به باستمرار وإلى الأبد، ولم تنته المحادثة عند تلك النقطة ولكن أصواتهما انخفضت وأصبحت هامسة ربما لأنهما انخرطتا في التحدث عن الأسرار الشخصية وحالات الضعف والانهيار التي تنتاب النساء حيث أصبح الكلام صادقا تماماً ما بين حواء وحواء، انصرف يا آدم أنت غير مطلوب هنا، وريكاردو ريس الذي يقرأ ولا يقرأ وقع بصره بالمصادفة على كلمة امرأة بذيئة Fishwife مكتوبة على الصفحة بحروف كبيرة: أوه أيتها المرأة البذيئة، ارحلى، أرجوك أن ترحلى يا زهرة الجنس، الرب لا يغفر لهن لأنهن يدركن تماماً ما يفعلن، وتصبح المناقشة الشعرية حادة ما بين هذا العم وابن الأخ، أنت فاسد لا سبيل إلى تقويمك يا بسوا، وأنت أيضاً فاسد يا كوايروس، وهنا يغلق ريكاردو ريس الكتاب وينهض واقفا ويرتدى الروب دى شامبر ويضع قدميه في الشبشب ويذهب للبحث عن ليديا، فوجدها بالمطبخ حيث كانت تقوم بكيّ الملابس بعد أن خلعت بلوزتها لكي تشعر بالمزيد من البرودة، وعندما شاهدها ريكاردو ريس على هذا النحو ببشرتها البيضاء اعتقد أنه مدين لها بقبلة فأمسكها برفق من كتفيها العاريتين وجذبها نحوه ثم قبلها في قبلة بطيئة ممتدة مما جعل ليديا لاهثة ومتقطعة الأنفاس، إنه لم يقبلها بنفس هذه الطريقة من قبل على الإطلاق، والآن ستكون قادرة على أن تقول لمارسيندا إذا قدر لها أن تراها مرة أخرى: إنه لم يقل لي: أنا سوف أقبلك وإنما فاجأني بقبلة عميقة ومطولة ومستمرة لفترة طويلة.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي سافر ريكاردو ريس إلى سانت فاطيما، وتحرك القطار من محطة روسيو في الساعة الخامسة وخمسة

وخمسين دقيقة ولكن قبل أن يصل القطار بنصف ساعة كان الرصيف بالمحطة مزدحما للغاية بالمسافرين وبأناس من كل الأعمال يحملون معهم السلال والزكائب والبطاطين والزجاجات الضخمة الواسعة الجوف الضيقة العنق المكسوة بقضبان مجدولة والكل يتحدث مع بعضهم البعض وينادون بصوت مرتفع على بعضهم البعض، وكان ريكاردو ريس قد حرص على شراء تذكرة سفر بالدرجة الأولى بالقطار مع حجز مقعد ولم يكن يحمل أية أمتعة تقريبا سوى حقيبة صغيرة حيث تجاهل تحذيرات ليديا من أن الناس في سانت فاطيما ينامون في العراء وقال لنفسه بأنه سيدرس الموقف عقب وصوله إلى سانت فاطيما لأنه من المؤكد أنه توجد أماكن للإقامة والإعاشة من أجل السياح والحجاج الذين لهم مكانة اجتماعية عالية، وجلس ريكاردو في ارتياح بجوار النافذة وراح يتأمل المناظر الطبيعية المتلاحقة وفي نهر تاجوس العظيم والأراضى السبخة التي ما زالت مغمورة بالماء في أماكن متفرقة هنا وهناك علاوة على التأمل في الثيران التي تحملق على نحو عشوائي بالإضافة إلى النظر إلى الفرقاطات والسفن الحربية المبحرة في أعالى النهر فوق مياه متألقة في لمعان، عقب غياب دام ستة عشر عاما كان قد نسى هذا المنظر والآن طبعت صور جديدة ذاتها إلى جوار تلك الصور المستعادة من خلال الذاكرة كما لو كان قد قام بهذه الرحلة منذ الأمس فقط، وعند المحطات ونقاط الإشارة بالطريق يصعد إلى القطار المزيد والمزيد من الركاب، القطار هو قطار ماشية حقيقي، ولا يمكن أن يكون هناك مقعد واحد شاغر بالدرجة الثالثة منذ أن غادر القطار محطة روسيو Rossio والمسافرون محشورون في الطرقات بالقطار، ومما لا شك فيه أنه قد تم غزو الدرجة الثانية بالفعل حاليا وسرعان ما سيبدأ الغزو هنا بالدرجة الأولى ولكن لا جدوى من وراء التذمر وإبداء

الشكوى لأن أي شخص يرغب في السلام والهدوء ينبغي عليه أن يسافر بالسيارة وليس القطار، وبعد محطة سانتاريم وعلى طول الصعود حتى وادى فيجويرا يتحرك القطار مطلقا دخانا متقطعا علاوة على إطلاق هبات من البخار ويئن تحت حمله الثقيل ويتحرك في بطء شديد حتى يمكن للمرء بسهولة أن يقفز من القطار ويلتقط بعض الازهار ثم يقفز عائدا إلى القطار مرة أخرى، ومع الإصغاء يعرف ريكاردو ريس أن المسافرين في هذه المقصورة بالقطار سينزلون كلهم في محطة سانت فاطيما باستثناء شخصين فقط، والحجاج يتحدثون عن النذر الخاص بهم ويتناقشون في من قام بأكبر عدد من الحجات إلى سانت فاطيما، ويدعى واحد منهم ربما في صدق وربما في كذب أنه على مدى السنوات الخمس الأخيرة لم يتخلف عن الحج ولو مرة واحدة، ويقول آخر إنه قد حقق ثمانى حجات بما في ذلك هذه الحجة، ولكن لم يفاخر أحد منهم بأنه يعرف الأخت لوسيا Lucia معرفة شخصية، ولدى سماع ريكاردو ريس هذه المناقشات بين الناس فأنه يتذكر الكلام الذي تم في غرفة الانتظار في عيادته ويتذكر تلك الافضاءات بالأمور السرية المثيرة للحزن والكآبة والتي تدور حول فتحات وثقوب الجسد البشرى حيث يمارس كل نوع من أنواع المتعة وحيث يمكن للحظ العاثر أن يسدد ضرباته في هجوم، وعند محطة مالتو دى ميراندا وعلى الرغم من عدم صعود مسافرين إلى القطار توقف القطار قليلا، ففتح ريكاردو ريس النافذة لكي ينظر إلى الخارج، فشاهد امرأة عجوزا حافية القدمين ومرتديه ملابس سوداء تحتضن ولدا نحيلا يبلغ من العمر حوالى ١٣ عاما وتقول له: يا عزيزي، وكان كلاهما في انتظار تحرك القطار حتى يمكن لهما العبور على القضبان الحديدية، وهذان الشخصان لم يكونا مسافرين إلى سانت فاطيما، فالمرأة العجوز قد جاءت لكي تقابل

حفيدها الذي يعيش في لشبونة، وأخيرا نفخ ناظر المحطة في صفارته فبدأ القطار في التحرك في بطء شديد ولكنه زاد من سرعته تدريجيا، والآن يصبح الطريق ممتدا في خط مستقيم فيصبح بمقدور المرء أن يعتقد أن ذلك قطار سريع، الصياح يعطي شهية لريكاردو ريس وعلى الرغم من أن الوقت مازلا مبكرا بالنسبة لموعد تناول الغداء إلا أن الناس يبدأون في فك لفائف الطعام الموجودة معهم، فيغلق ريكاردو ريس عينيه ويروح في اغفاءة من النوم من خلال اهتزازات العربة التي تهدهده كما لو كان مستلقياً في سرير للأطفال، ويشهد أحلاما واضحة ومفعمة بالحياة إلا أنه لا يستطيع تذكرها لدى استيقاظه، ويتذكر أنه لم تتح له الفرصة لكي يخبر فرناندو بسوا بأنه بصدد الذهاب إلى سانت فاطيما، فما الذي سيظنه إذا جاء إلى الشقة ولم يجدنى هناك وربما يظن أنني قد رجعت إلى البرازيل بدون كلمة وداع وبدون توديعى الأخير له، وبعدئذ يتخيل مشهدا مع مارسيندا من حيث هو مشهد رئيسي ومركزى فيشاهدها وهي راكعة بينما أصابع يدها اليمنى متشابكة مع أصابع يدها اليسرى مع الرفع لأعلى الثقل الميت ليدها المشلولة، وتمر صورة مجسمة لسيدتنا المباركة ولكن لا تحدث أي معجزة وهذا أمر غير مدهش إذا وضعنا في الاعتبار نقصان الإيمان لدى مارسيندا، وتنهض مارسيندا على قدميها في استسلام واذعان فيشاهد ريكاردو ريس نفسه وهو يقترب منها ويلمسها بأصبعيه الأوسط والسبابة على صدرها وبالقرب من قلبها ولا شيء يحتاج إليه أكثر من ذلك، فيصيح الحجاج قائلين: المعجزة المعجزة وقد نسوا الكروب والمحن الخاصة بهم على نحو فجائي لأن كل ما يريدونه هو مشاهدة معجزة أخرى، والآن يجيئون في قطعان وفي تدافع من خلال الجماهير أو يجيئون وهم يجرون أنفسهم فيحدق الناس المعوقون والمشلولون والمصابون بالسل

والمطحونون تحت وطأة الأمراض المختلفة والمصابون بالعمى والمعتوهون والمخبولون حول ريكاردو ريس لكي يتضرعوا ويتوسلوا إليه من أجل أن يقوم بعمل آخر من أعمال الرحمة، وخلف هذه الغابة من الحجاج المنتحبين في بكاء وعويل تلوح مارسيندا وقد رفعت لأعلى كلتا ذراعيها ثم تختفي عن الأنظار في غياهب الزحام، يا لها من مخلوقه عقوقه وغير معترفة بالجميل فهي قد شفيت ثم رحلت، وفتح ريكاردو ريس عينيه وهو غير متأكد مما إذا كان قد استغرق في النوم أم لا ثم سأل المسافر الموجود إلى جواره: ما هي المسافة المتبقية لكي نصل إلى هناك فقال جاره: نحن نكاد نكون قد وصلنا بالفعل، إذن فهو قد نام واستغرق في النوم على مدى فترة طويلة.

وأفرغ القطار كل ما في جوفه لدى توقفه عند محطة سانت فاطيما، وشعر الحجاج بالإثارة من خلال رائحة القداسة والطهارة المنتشرة في الجو فتدافعوا بالمناكب وساد الذعر والفوضى عندما وجدت العائلات نفسها مقسمة ومتباعدة عن بعضها البعض، وكان المكان المكشوف الشاسع شبيها بمعسكر حربي يستعد من أجل الدخول في معركة، ولسوف يقطع معظم الحجاج مسافة عشرين كيلو مترا سيرا على الأقدام من أجل الوصول إلى كوفا دا إيريا إلا أن البعض يسارعون للانضمام إلى صفوف الناس الذين سيستقلون الاتوبيسات وهؤلاء هم الحجاج الذين يعانون من السيقان الضعيفة ومن القدرة المحدودة على الاحتمال والذين يشعرون بالارهاق لدى بذل أدنى مجهود، كانت السماء صافية كما كانت الشمس ساطعة ودافئة، وانطلق ريكاردو ريس لكي يبحث عن مكان يتناول فيه طعاما، وكان يوجد الكثير من الباعة الجائلين بالشوارع الذين يبيعون الفطائر المحلاة والفطائر المحشوة بالجبن وأنواع البسكويت المختلفة والتين المجفف وأباريق الماء وفواكه الموسم

وأكاليل الزهور والفول السودانى والترمس، ولكن لا يوجد مطعم واحد يمكن أن يستأهل كلمة مطعم، وكانت بيوت الطعام القليلة ممتلئة بالناس كما كانت الحانات مكتظة بالناس حتى الباب، أنه سيكون بحاجة للتحلى بالصبر قبل أن يجد نفسه جلسا أمام شوكة وسكينة وطبق به طعام، ومع ذلك فهو قد استفاد من الروح المسيحية التي تتغلغل في هذا المكان لأنهم عندما أدركوا أنه أنيق الملبس سمح له الكثير من الناس الواقفين في الطابور بأن يقف أمامهم وبذلك تمكن ريكاردو ريس من تناول طعام الغداء بأسرع مما كان يتصور حيث تناول سمكة مقلية صغيرة وبطاطس مهروسة مع الزيت والخل واثنتين من البيض المقلى الممزوج صفاره مع بياض، وتناول خمورا شبيهة بخمور المحراب وأكل خبزا ريفيا رائعا، وبعد أن قدم الشكر لأصحاب المطعم ذهب لكي يبحث عن وسيلة للانتقال، لقد أصبح الميدان أقل ازدحاما وأصبح على استعداد لاستقبال حمولة قطار آخر قادما من الجنوب إلى الشمال ولكن الحجاج استمروا في الوصول سيرا على الأقدام سيرا على الأقدام قادمين من أماكن كثيرة بعيدة، وصدر صوت شبيه بصياح الأوز عن أتوبيس يطوف باحثا عن مسافرين بهدف ملء المقاعد القليلة المتبقية، فجرى ريكاردو يس في هرولة مرتطما بالسلال ولفائف من الحصير والبطاطين وتمكن من الحصول على مقعد بالأتوبيس، أنه كفاح عظيم من جانب رجل يحاول أن يهضم طعامه فيشعر بالإرهاق بسبب حرارة الجو، ثم تحرك الأتوبيس في قعقعة عالية مثيراً سحباً من التراب الصادر عن الطريق المرصوف على نحو ردئ، وكان السائق يطلق صوت الأتوبيس الشبيه بصياح الأوز على نحو متواصل وبدون إمهال مما كان يجعل مجموعات الحجاج تتبعثر في داخل الحفرات الموجودة على جانب الطريق وكان يقود الأتوبيس في حدة لكي يتجنب المطبات

والحفر الموجودة على الطريق كما كان يبصق بصوت مرتفع من وقت لآخر ملقياً بالبصاق من النافذة.

وكان الطريق يعج بطابور لا نهائي من الحجاج السائرين على الأقدام ولكن كانت توجد أيضاً عربات تجرها الثيران ومركبات حيث تتقدم كل منها وفقا للإيقاع الخاص بها، ومن وقت لآخر كانت سيارة ليموزين غالية الثمن يقودها سائق يرتدى الزى الرسمي الخاص بالسائقين ويطلق بوق سيارته من وقت لآخر وقد حمل في داخل السيارة نساء طاعنات في السن مرتديات ثيابا لها لون أسود أو رمادى أو أزرق داكن ورجالا ممتلئين ومرتدين حللا ذاكنة ولهم نفس وعي أولئك الذين انتهو توا من عد نقودهم لكي يجدوا أنها قد تضاعفت، ويمكن مشاهدة هؤلاء القابعين في داخل سيارات الليموزين عندما تهدئ السيارات من سرعتها بسبب وجود موكب كبير من الحجاج يسير تحت توجيه قسيسة الأبرشى، فالقسيس هنا يعمل كمرشد روحانى وسياحى في آن واحد، والغالبية العظمى من المؤمنين يمشون حفاة الأقدام، والبعض منهم يحملون مظلات مفتوحة لحماية أنفسهم من حرارة الشمس وهؤلاء هم الناس الذين لهم رؤوس ضعيفة والذين قد يتعرضون لنوبات من الإغماء والدوخة.

الترانيم التي يتغنون بها غير متوافقة النغمات، والأصوات العالية للنساء تبدو شبيهة بالتفجع والنواح اللانهائي الذي على هيئة بكاء ولكن بدون دموع، والرجال الذين ينسون دائماً الكلمات لا يتغنون إلا بالمقاطع الايقاعية على سبيل المسايرة في نوع من الصوت العميق المنخفض، ولا يطلب منهم شيء أكثر من ذلك، لا يطلب منهم سوى مداومة الحفاظ على المظهر الخارجى، ومن وقت لآخر يمكّن أن يشاهد الناس جالسين على طول سياج من الشجيرات تحت ظلال

الأشجار من أجل استجماع قواهم لمواجهة المرحلة الأخيرة من الرحلة ومنتهزين فرصة هذا التوقف لكي يتناولوا كسرة خبز وسجق وفطائر مقلية وسردين مقلى منذ ثلاثة أيام في داخل قريتهم النائية المنعزلة، وبعدئذ يعودون إلى السير على الطريق وقد استعادوا قوتهم، النساء يحملن سلال الطعام فوق رؤوسن بل ويقوم بعضهن بإرضاع أطفالهن أثناء السير ويهبط الغبار والتراب عليهم جميعاً في سحب كثيفة إذا مر أتوبيس بجوارهم ولكنهم لا يأبهون لذلك ولا يشعرون بأي شيء فهذا يبين ما يمكن أن تفعله العادات والتقاليد، والعرق يتصبب من جباه الرهبان والنساك والحجاج ويشكل قنوات صغيرة في التراب وهم يجففون عرقهم باستخدام ظهور أيديهم والحرارة تسود وجوههم ومع ذلك لا ترفع النساء مناديلهن عن رؤوسهن كما يظل الرجال مرتدين جاكتاتهم ولا يفكون أزرار قمصانهم ولا يفتحون ياقاتهم، وهذا يذكرنا بالعادات الموجودة بالصحراء والتي تشير إلى أن ما يحمى الإنسان من البرد يحيمه أيضاً من الحرارة ولذلك فهم يغلقون ملابسهم كما لو كانوا يخفون أنفسهم في داخلها.

وعند منحنى بالطريق كان جمهور قد تجمع تحت شجرة حيث راح أناس يصيحون ونساء يمزقن شعورهن بينما جسد رجل ممدا على الأرض، ويخفض سائل الأتوبيس من سرعته لكي يسمح للمسافرين، بالقاء نظرة على هذا المشهد ولكن ريكاردو ريس يقول أو بالأحرى يصيح قائلاً للسائق: توقف هنا ودعنى أشاهد ما حدث فأنا طبيب، ويمكن سماع همهمة الاحتجاجات الصادرة عن المسافرين الذين يرغبون في الوصول بسرعة إلى أرض المعجزات ولكن احتجاجهم سرعان ما يهدأ بسبب حرصهم على عدم الاتسام بقسوة القلب، فهبط ريكاردو ريس من الأتوبيس وشق طريقة بين الجماهير المحتشدة وركع في

التراب بجوار الرجل العجوز وجس نبض الشريان الموجود في رقبته ثم قال: لقد مات، وأثار هذا النبأ موجة جديدة من الانفجار في البكاء بالدموع لأن الرجل الميت كان له أقارب كثيرون بينما أرملته وهي امرأة أكبر في السن من زوجها الميت راحت تنظر إلى الجثة بعيون جافة خالية من الدموع، وصعد اثنان من الجمهور إلى الأتوبيس لكي يبلغوا السلطات بسانت فاطيما بالوفاة لكي يقوموا بعمل الترتيبات اللازمة والتي تتعلق بنقل الجثة ودفنها في أقرب جبانة، وعاد ريكاردو ريس إلى مقعده بالأتوبيس ويقول الرجلان اللذان صعدا إلى الأتوبيس للركاب المجاورين لهما بأن الرجل المتوفي كان مريضا للغاية عندما جاء إلى هنا وكان ينبغي عليه بالقاء في منزله ولكنه أصر على المجئ وقال إنه سيشنق نفسه إذا تركوه في منزله وفي نهاية الأمر مات بعيداً عن بيته فلا أحد يهرب من مصيره وقدره، فأومأ ريكاردو ريس برأسه في موافقة بدون أن يدرى أن رأسه كان يتحرك وقال: نعم يا سيدي ذلك هو القدر ولنأمل في أن يقوم شخص ما بتثبيت صليب تحت تلك الشجرة حتى يمكن للمسافرين في المستقبل أن يصلوا الصلاة الربانية على روح هذا الرجل الذي مات بدون أن يدلى باعترافاته الدينية وبدون أن يتلقى الطقوس الكنسية رغم أنهم متجها مباشرة نحو السمات منذ اللحظة التي غادر فيها منزله.

هذا هو المكان ويتوقف الأتوبيس يونزل منه المسافرون ويذهب السائق لكي يفتح الغطاء الأمامي للموتور مستخدما قطعة من القماش البالى لكي يحمى يديه، وترتفع في الهواء سحب من البخار وروائح الماكينات التي تجعل بعض الناس يشعرون بالغثيان، وينضم ريكاردو ريس إلى موكب الحجاج، ويحاول أن يتخيل الشكل الذي يبدو عليه هذا الموكب إذا شوهد من السماء، المنظر سيبدو مثل سرب من النحل

القادم من جهات مختلفة والمنصب عند نقطة في الوسط على هيئة نجمة، هذه الفكرة أو أكان السبب هو ضوضاء موتور جعلته ينظر ببصره لأعلى نحو ارتفاعات شاهقة ورؤى أثرية، وهنالك بالسماوات كانت توجد طائرة ترسم من خلال العادم دائرة هائلة وتسقط منشورات وربما تكون صلوات مكتوبة وربما خرائط توضح الطريق المؤدى إلى بوابات الجنة، وتهبط المنشورات في بطء حيث لا توجد أية نسمة من الهواء، الأنوف تتجه إلى السماء، ويمد الحجاج أيديهم في شغف للإمساك بها والتي لها ألوان الأبيض والأصفر والأخضر والأزرق، وغالبية الناس في هذه التجمع الروحانى لا يعرفون القراءة والكتابة ولذلك فهم لا يعرفون ماذا يفعلون بهذه المنشورات، وينظر رجل مرتد لملابس ريفية إلى ريكاردو ريس ويظن فيه أن شخص يستطيع القراءة، فيسأل: ما هو المكتوب هنا يا سيدي؟، فيقول ريكاردو ريس: أنه إعلان عن البوفريل، فينظر الرجل إلى ريس في شكوك وتردد: تُرى أيطلب منه أن يشرح له معنى كلمة بوفريل أم لا وأخيرا يطوى الورقة ويضعها في جيبه، حافظ دائماً على الشيء الذي قد يبدو غير مفيد لأنك دائماً سوف تجد استخداماً له.

بحر من الناس، وحول الأرض الفضاء المقعرة الهائلة توجد مئات من الخيام التي يعسكر في داخلها الآلاف كما توجد أوانى القلى والتحمير فوق نيران خلوية وتوجد كلاب تحرس المؤن علاوة على وجود أطفال يصيحون بالإضافة إلى الذباب الذي يتدخل في كل شيء، ويتجول ريكاردو ريس بين الخيام وقد جذب انتباهه هذا الفناء للمعجزات فهو شاسع وممتد مثل أي مدينة كبيرة، هذا مخيم للغجر مستكمل بالعربات والبغال والحمير المليئة بالتقيحات والجروح مما يزيد من متعة وسعادة الذباب.

ويسير ريكاردو ريس حاملا معه حقيبته ولكنه لا يعرف إلى أين يذهب، إذ لا يوجد مكان محجوز له هنا ولا حتى مجرد خيمة ولقد اقنع نفسه الآن بأنه لا توجد أية مساكن إيوائية ناهيك عن الفنادق، وإذا كان يوجد هنا في مكان ما خفي تكية للحجاج فمن غير المحتمل أن تكون بها أية مراتب قش شاغرة لأن هذه المراتب يتم حجزها منذ فترة طويلة، فلتنفذ مشيئة الله، الشمس حارقة ومازالت هناك ساعات طويلة قبل حلول الليل، ولا توجد دلائل تشير إلى احتمال تحسن الجو وهبوط درجة الحرارة، عندما قرر ريكاردو ريس المجئ إلى فاطيما فإن ذلك كان بدافع من الأمل في مشاهدة مارسيندا، حقيبة خفيفة ولا تضم سوى شفرة الحلاقة والصابون وفرشاة الحلاقة وتغييره من الملابس الداخلية وجورب وحذاء قوى له نعل متين ينبغي له أن يستخدمه لكي لا يتلف حذاءه الغالى الثمن الذي ينتعله، لو كانت مارسيندا موجودة هنا فإنها لن تكون جالسة في خيمة، فابنة موثق عام يعمل في كوامبرا تستحق مكانا أفضل من ذلك ولكن أين هو ذلك المكان الأفضل؟ وشرع ريكاردو ريس في البحث عنها وابتدأ بالذهاب إلى المستشفي، فهو مكان جيد يمكن البدء منه، واستخدم أوراق اعتماده كطبيب فسمح له بالدخول فشق طريقة بين الغوغاء وحشود الناس، وراح ينظر ويفتش ويبحث في كل مكان وفي جميع أرجاء العنابر والدهاليز والطرقات وبين المرضى الراقدين على نقالات ومراتب موضوعة على الأرض بينما أقاربهم يحدثون ضجيجا عاليا للغاية من خلال الصلوات التي تتخللها تنهدات عميقة وصراخ مدوٍ توسلات موجهة للعذراء، وفي عنبر المشفي لم يزد عدد الأسرة على ثلاثين سريراً بينما عدد المرضى يقترب من ثلاثمائة، الناس قابعون أو مستقلون في أي بقعة تكون شاغرة على الأرض حتى أن المرء يتعثر فيهم أثناء سيره، شيء حسن أننا لم نؤمن

بالعين الحسودة، مارسيندا غير موجودة هنا ولا يندهش ريكاردو ريس من ذلك فهي على كل حال قادرة على أن تمشى على قدميها وكل ما هنالك أن ذراعها اليسرى مشلولة، وطالما أنها معتادة على وضع يدها المشلولة في جيبها فلن يلحظ أحد وجود ذلك العجز بذراعيها، وبالخارج تكون الحرارة أشد سوءا ولكن الشمس لا تنفث روائح كريهة.

جماهير الناس آخذة في التزايد كما لو كان يتم ذلك من خلال الانشطار، مثل حشود سوداء هائلة من النحل الذي يقتفي أثر العسل المقدس فإنه تئز وتدندن وتفرقع وتتحرك في موجات بطيئة وتتهدهد من خلال الحجم الخاص بها، من المتعذر العثور على أي شخص في هذا المرجل والذي هو ليس مرجل بيرو بوتيليو ولكنه يحترق على كل حال، ويذعن ريكاردو ريس للأمر الواقع ويبدو له الآن أن العثور على مارسيندا أو عدم العثور عليها لم يعد امرءاً له أهمية، فإذا شاء القدر أن نلتقي فإننا سنلتقي حتى لو حاولنا التخفي عن بعضنا البعض، كم هو سخيف لأنه يعبر عن أفكاره من خلال استخدام هذه الكلمات، فلو كانت مارسيندا موجودة هنا ولا تعرف أنني موجود هنا فإنها بذلك لن تحاول أن تخفي نفسها ولذلك تزداد فرصة لقائنا، الطائرة تستمر في التحليق في دوائر فوق رؤوسنا بينما المنشورات الملونة تتراقص في الهواء، ولكن لا أحد يعيرها اهتمامه الآن اللهم باستثناء القادمين الجدد الذين يشاهدون ذلك لأول مرة، وشعر ريكاردو ريس باحتقان وجهه فخلع جاكتته وشمر عن ذراعيه وراح يهوى على نفسه من خلال استخدام قبعته كمروحة، وعلى نحو فجائي شعر بثقل ساقيه مع الأرهاق، فيذهب للبحث عن مكان ظليل، بعض زملائه الحجاج يقضون فترة القيلولة بعد أن أنهكتهم الرحلة الطويلة وكل تلك الصلوات التي أقيمت على الطريق، إنهم يستجمعون قواهم قبل أن يقدم رسميا

تمثال العذراء ويُعرض أمام حشود الناس وقبل أن يبدأ موكب الشموع والسهر الليلى الطويل بجوار ضوء المشاعل ومصابيح الزيت، وهو أيضاً راح في سنة من النوم بعد أن استند بظهره على جذع شجرة زيتون مع وضع قفاه على طحالب لينة، وعندما فتح عينيه شاهد مساحات من السماء الزرقاء من بين الأغصان فتذكر الولد النحيل الذي كان عند محطة القطار والذي قالت له جدته: يا عزيزي ما الذي يفعله ذلك الطفل في نفس هذه اللحظة؟ من المؤكد أنه قد خلع حذاءه فذلك هو أول شيء يفعله عندما يصل إلى القرية والشيء الثاني هو أن ينزل إلى النهر وربما تحذره جدته قائلة: لا تنزل الآن فالشمس مازالت شديدة السخونة، ولكنه لا يصغى لكلامها كما أنها لا تتوقع أن تُسمع فالأولاد في هذه السن يرغبون في أن يكونوا أحرارا وليسو ممسكين بجونلات أمهاتهم، وهم يلقون بالحجارة على الضفادع ولا يعتقدون أنهم يسببون أي ضرر ولكنهم سيشعرون بالندم ذات يوم، ويجد ريكاردو ريس أن كل هذا سخيف، إذ كان من السخف أن يقتنع بالفكرة التي جعلته يسافر من لشبونة مثل شخص يسير وراء سراب وهو يدرك في كل الأوقات أن المسألة كانت سرابا ولا شيء أكثر من السراب، فها هو قد أصبح جالسا تحت ظل شجرة زيتون بين أناس لا يعرفهم وفي انتظار لا شيء، ويتمتم ريكاردو ريس قائلاً لنفسه: هل أنا عشت تجربة الحياة حقا، فيعتقد الحاج الموجود إلى جواره أن تلك التمتمة هي بمثابة صلوات جديدة يجب أن تمر أولا بمرحلة الاختبار.

الشمس تهبط نحو الأفق ولكن الحرارة لا تخمد والمكان مزدحم للغاية ومع ذلك لا يزال الناس يجيئون ويتوافدون من كل حدب وصوب بينما البعض يحاول الحصول على موقع متميز في المقدمة وعلى نحو فجائي يدرك ريكاردو ريس وجود نوع آخر من الحج ألا وهو الحج

الذي يقوم به المتسولون والشحاذون كما يدرك أنه يوجد متسولون حقيقيون ومتسولون زائفون، وأن المتسول الحقيقي هو رجل فقير يقوم بأعمال التسول في حين أن المتسول الزائف قد حول التسول إلى مهنة وأصبح الناس يعرفون أن المرء يمكن له أن يكون غنيا بالفعل من خلال ممارسة التسول الزائف، وكلا النوعين له نفس التكنيك ونفس الأساليب التي تعتمد على النشيج والشكوى والتضرع ومدّ اليد أو أحيانا مدّ اليدين بطريقة مسرحية درامية بحيث يصعب مقاومتها: الصدقات من أجل أرواح أحبائك الذين رحلوا وانتقلوا إلى رحمة + الله سوف يعوضك عن كل الخسائر+ عليك بالشفقة على رجل مسكين كفيف، وبعضهم يعرض ساقا مليئة بالجروح والتقيحات وآخرون يعرضون ذراعا مبتورة، ويبدو الأمر وكأن بوابات جهنم قد فتحت لأن هذه المناظر المريعة لايمكن أن تجيء إلا من جهنم، والآن يجيء الدور على هؤلاء الذين يبيعون تذاكر اليانصيب حيث يحدثون ضجيجا هائلا وهم ينادون على أرقام التذاكر الرابحة مما يجعل المصلين يتوقفون في صلواتهم رغم قطعهم نصف المسافة نحو السماوات، ويتم هجوم من جانب بائعى البطاطين وأربطة العنق والمناديل والسلال ومن جانب العاطلين الذين يضعون شريطاً على الذراع ويبيعون صورا مقدسة وها هي فكرة جيدة قد خطرت على ذهني الآن وهي أن يضع العاطلون شريطاً على الذراع عليه كلمة «عاطل» وذلك حتى لا ينساهم الناس ولا ينساهم أصحاب الأعمال وحتى يمكن احصاؤهم في مزيد من السهولة، والأسوأ من ذلك كله هم حشود الباعة الجائلين لأنهم يزعجون هدوءنا الروحي علاوة على ازعاج هدوء هذا المكان المقدس، ويتجنبهم ريكاردو ريس ويبتعد كثيراً عنهم لكي لا يهجمون عليه على الفور وينادون: أنظر إلى هذه الصورة أنها صفقة رابحة وهذه الصورة أنها مباركة وانظر هذه هي

صورة سيدتنا المباركة مطبوعة على الصينيات والتماثيل هذا بالإضافة إلى الصلبان والميداليات والقلوب المقدسة لكل من السيد المسيح والسيدة مريم العذراء، ويستمر ريكاردو ريس في البحث ولكن هل سيجدها، لقد ذهب بالفعل إلى المستشفي وطاف بالخيام وتجول في السوق المكشوف في جميع الاتجاهات والآن ينزل إلى الأرض المستوية التي يتنزه فيها المشاة وسائقو العربات فيشاهد حشودا كثيفة من الناس ويشاهد ممارساتهم الروحية وأعمال الإيمان الخاصة بهم وصلواتهم الجديرة بالشفقة الهزيلة ويشاهد النذور التي يحققونها من خلال الزحف على أربع كل بركبتين داميتين ويشاهد أيدٍ تساند امرأة تائبة وتمسكها من تحت الإبطين قد أن يغمى عليها بسبب الآلام وبسبب الغبطة الروحية الصوفية التي لا يمكن للمرء أن يتحملها كما يشاهد المرضى الذين أُحضروا من المستشفي وقد وضعت نقالاتهم في صفوف، وبين هذه الصفوف سيتم حمل تمثال السيدة العذراء المقدسة على محفة مزدانة بالورود البيضاء، ويتفحص ريكاردو ريس الوجوه المختلفة بحثا عن مارسيندا ولكنه لا يعثر عليها، وكما لو كان في حلم ليس له معنى مثل حلم عن طريق لا يؤدي إلى أي مكان ومثل حلم عن ظل لا يعكسه أي شيء ومثل حلم عن كلمة نطق بها الهواء ثم أنكرها الهواء، الترانيم بدائية وجوقة المنشدين لها أصوات مرتعشة وتتوقف باستمرار وتبدأ من جديد، في الثالث عشر من شهر مايو في كوفا دا إيريا يوجد صمت مطبق على نحو فجائي، فالتمثال على وشك أن يخرج من كنيسة التجليات، الارتجاف والرعشة تسرى في أوصال الجماهير، فالقوة الخارقة للطبيعة قد هبت فوق ٢٠٠ ألف رأس ومن المؤكد أن شيئاً ما سيحدث، وتسود حمى صوفية بين المرضى الحاملين لمناديلهم وصلبانهم ويأخذهم القساوسة لكي يلمسوا التمثال مستخدمين هذه

الأشياء المقدسة الموجودة في أيديهم ويعودون بهم إلى المتضرعين المتوسلين في حين أن التعساء الفقراء يتضرعون: أيتها السيدة فاطيما امنحى الحياة لي + أيتها السيدة فاطيما امنحينى معجزة المشى + أيتها السيدة فاطيما ساعديني لكي أُبصر أيتها السيدة فاطيما، والأبكم لا يتوسل ولكنه ينظر في ارتياب إذا كان لا يزال لديه عينان ينظر بهما، وراح ريكاردو ريس يصغى ويرهف السمع لكي يسمع هذه العبارة: أيتها السيدة فاطيما انظري بكل الرعاية إلى ذراعي اليسرى وامنحى الشفاء لي إذا كان بمقدورك أن تفعلى ذلك، ولكنه لم يسمعها على الإطلاق.

وحُمل التمثال إلى الخارج وتم السير به في موكب ثم اختفي، ولم يكن بمقدور الناس المكفوفين أن يبصروا ولم يتمكن الناس البكم من أن يتكلموا وظل المصابون بالشلل على ما هم عليه من شلل، والأطراف المفقودة لم ترجع إلى أصحابها ولم تتناقض آلام الناس، وراح الناس يبكون في دموع بمرارة ويلقون باللوم على أنفسهم: لقد كان إيمانى ناقصا، وكانت العذراء قد غادرت محرابها من أجل أن تمنح بعض المعجزات القليلة ولكنها وجدت المؤمنين متذبذبين في إيمانهم فقالت: لا توجد شجيرات تصلح لإشعال النيران هنا كما لا يوجد الزيت الأبدى للمصابيح وبلك لن يتم أي شيء في هذا ودعوهم يرجعون إلينا في العام القادم، وتظهر ظلال المساء مع اقتراب حلول الشفق الأحمر وفق إيقاع موكبي أيضاً، وعلى نحو تدريجى تفقد السماء الزرقة الشديدة للنهار وتتحول إلى لون رمادى فاتح ولكن هنالك نجد أن الشمس المتوارية خلف الأشجار الموجودة على التلال البعيدة تنفجر في بركان له لون قرمزى وبرتقالى وأحمر ويبدو من غير المعقول أن يحدث كل هذا في صمت، سرعان ما سيرخى الليل سدوله وتشعل نيران المخيمات، لقد توقف الباعة الجائلون عن الصراخ بينما يقوم

المتسولون بعد مكاسبهم من النقود وتحت الأشجار يتم تغذية الأجساد وتفتح حقائب الظهر والكل يأكل ولكن نوعية الطعام تختلف وفقا للوضع الاجتماعي.

وعثر ريكاردو ريس على مأوى مع مجموعة من الحجاج الذين يشاركون في خيمة، لم تتم مناقشات، فقد شاهدوه واقفا هنالك وقد ظهرت الحيرة على وجهة مع الإمساك بحقيبة صغيرة وببطانية كان قد لفها تحت ذراعه، وهو بدوره وجد أن الخيمة ستكون ملائمة له طالما أن الجو لا يصبح باردا للغاية في الليل، وقالوا له: حُذْر راحتك، فقال: لا، شكرا جزيلا، ولكنهم أصروا وقالوا: نحن نعرض عليك من كل قلوبنا وبمنتهي الصدق أن تشارك معنا، وأدرك أنهم يقولون قولا صادقا فانضم إلى هذه المجموعة التي جاءت من أبرانتيس Abrantes، هذا التنفس بصوت مسموع والذي يمكن سماعه في جميع أرجاء كوفا دا إيريا ينجم عن مضغ التبغ مثلما ينجم عن الصلاة والتضرع والتوسل إلى الله، وتحت الضوء الخافت لنيران المعسكرات لا يتمكن ريكاردو ريس من العثور على مارسيندا كما أنه لن يشاهدها بعد ذلك أثناء موكب الشموع ولا حتى في نومه عندما يهجم عليه الإرهاق والإحباط والرغبة في الاختفاء من على وجه الأرض، ويرى نفسه كشخصين: ريكاردو ريس الوقور المبجل الذي يغتسل ويحلق ذقنه يوميا وهذا الريكاردو ريس الآخر المتشرد الطويل اللحية والذي له ملابس مكرمشة وقميص متسخ وقبعة ملوثة بالعرق وحذاء مغطى بالتراب، والأول يطلب التوضيح من الثاني قائلاً له: لو سمحت لماذا جئت إلى سانت فاطيما بدون أن يكون لديك أي إيمان حيث لم يكن لديك سوى حلم جامح وحتى لو تقابلت مع مارسيندا بالفعل فما الذي ستقوله لها؟ هل يمكن لك أن تتخيل كيف أنك ستبدو سخيفا إذا هي ظهرت أمامك الآن إلى

جوار والدها أو بمفردها، أنظر إلى نفسك في تفحص، هل تعتقد حقاً أن فتاة حتى ولو كانت لها يد واحدة ستقع في غرام طبيب في منتصف العمر ومثير للسخرية، وفي خنوع وتواضع يتقبل ريكاردو ريس هذا النقد ويشعر بالفعل بالخجل من نفسه لأنه أصبح في هذه الحالة الرثة المتدنية ثم يجذب البطانية ليغطى بها رأسه ويستسلم للنوم، وبالقرب منه كان شخص ما يشخر في ارتياح وبدون أن يعطي للعالم كله أدنى اهتمام وخلف شجرة الزيتون القوية الصامدة توجد همهمة لا يمكن أن ينظر إليها بطريق الخطأ على أنها صلوات علاوة على وجود ضحكات مكتومة وتنهدات غير متفجرة من خلال الغبطة الصوفية الروحية، الفجر آخذ في البزوغ، بعض الناس الذين يصحون مبكرين يمدون أذرعهم وينهضون واقفين من أجل تحريك جمرات النيران، يوم جديد آخذ في البزوغ ويشهد محاولات جديدة من جانب أولئك الذين يسعون للحصول على ثمار وفواكه الجنة.

ويقرر ريكاردو ريس مغادرة المكان قبل الظهر، إنه لا ينتظر لحين حلول حفل الوداع الذي يقام تكريما للعذراء فهو قد استودع الناس وقال لهم «مع السلامة» وفي تلك الأثناء حلقت الطائرة مرتين وأسقطت المزيد من الإعلانات عن البوفريل وكما هو متوقع كان الأتوبيس العائد به عدد قليل من المسافرين، أما الخروج العظيم فسوف يجئ فيما بعد، وعند المنحنى بالطريق كان قد تم تثبيت صليب خشبي في الأرض، وبرغم كل شيء لم تظهر أي معجزة على الاطلاق.

(١٥)

الإيمان بالله وبسيدتنا المباركة ابتداء من عهد أفونصو هنريك حتى الحرب العظمى، تلك هي العبارة التي استحوذت على ذهن ريكاردو ريس منذ عودته من سانت فاطيما ولا يستطع أن يتذكر ما إذا كان قد قرأها في جريدة أو كتاب أو ما إذا كان قد سمعها في موعظة بالكنيسة أو في خطبة بل وربما تكون قد كتبت في اعلان عن البوفريل، الكلمات تثير اعجابه إلى درجة الانبهار والتعبير فصيح ومعد بحيث يثير العواطف ويشعل القلوب لأنه يبرهن على أننا شعب مختار لقد كانت هناك شعوب أخرى في الماضي ولسوف تكون هناك شعوب أخرى في المستقبل ولكن لا يوجد شعب تحمل على مدى هذه الفترة الطويلة للغاية وشهد ٨٠٠ عام من الولاء الراسخ ومن الالفة المستمرة مع القوى السماوية، وصحيح أننا كنا نسير ببطء في خلق الامبراطورية السادسة لن تزوغ وتتملص منا ولا حتى الامبراطورية السابعة وكل ما نحتاج إليه هو الصبر واصبر هو طبيعة متأصلة فينا، نحن الآن نقف بالفعل على الطريق الصحيح وفقا للتصريح الذي أدلى به صاحب السيادة رئيس الجمهورية الجنرال انطونيو أوسكار دى فراجوسو كارمونا في خطبة ينبغي أن تكون نموذجا لجميع الحكام الذين سيحكمون الأمة فيما بعد، إذا أشار في خطبته إلى أن البرتغال قد أصبحت تتمتع الآن بكل الاحترام في جميع ارجاء وأنه ينبغي علينا أن نكون فخورين بكوننا برتغاليين، فهذه عاطفة

لا تقل نبلا عن العاطفة السابقة عليها وكلتاهما جديرتان بالاستشهاد بهما على نحو بارز، ويمكن لنا أن نفتخر بهذا الاحترام الذي يكنه لنا العالم كله لأننا قمنا بالإبحار في المحيطات وأعالي البحار في ولاء واخلاص وكيف يمكن لنا أن نعيش بدون الولاء والاخلاص؟ لقد عاد ريكاردو ريس من فاطيما مرهقا ومتحرق البشرة وبدون أن يتمكن من مشاهدة مارسيندا أو أية معجزة فقضى ثلاثة أيام متواصلة في شقته ولم يعاود الدخول إلى العالم الخارجى إلا من خلال هذه الخطبة الوطنية التي ألقاها الرئيس المبجل، ولذلك أخذ الجريدة معه وذهب لكي يجلس تحت ظلال تمثال آداماستور، وكان الرجلان العجوزان هناك حيث كان يرقبان ويندهشان من صول البواخر التي جاءت لزيارة هذه الأرض الموعودة التي تناولتها الدول الأخرى بالمناقشة العميقة، سفن وبواخر عديدة عليها أعلام مع إطلاق أبواقها الاحتفالية بينما بحارتها مصطفون على ظهر السفن من أجل القاء التحية، وبزغ الضوء أخيراً في رأسي هذين الخفيرين عندما اعطاهما ريكاردو ريس الجريدة التي كان قد قرأها بعمق واستوعب ما فيها وحفظ ما جاء بها عن ظهر قلب، نعم لقد تطلب الأمر الانتظار على مدى ٨٠٠ عام لكي نشعر بالافتخار بأننا برتغاليون من ألتو دى سانتا كاتارينا تحييك ثمانية قرون: أوه أيها البحر العظيم، الرجلان العجوزان: النحيل والممتلى يقومان بمسح دمعة مختلسة، حيث يأسفان من أنهما لا يستطيعان البقاء للأبد في هذا المكان المطل على البحر من أجل أن يرقبا السفن والبواخر القادمة، فمثل هذه السعادة الغامرة يصعب تحملها على نحو يفوق تحمل قصر حياتهما، ومن المقعد الذي يجلس عليه ريكاردو ريس يشاهد لعبة حب ما بين جندى وخادمة، الجندى يغازلها وهي تبعده من خلال صفعات قليلة، هذا يوم من أجل الغناء وتسبيح الرب الذي هو تسبيح الناس

الذين ليسو من الأغريق، الازهار في قمة تفتحها والإنسان يكون سعيدا اللهم إلا إذا التهمته الطموحات التي لا تشبع، يقوم ريكاردو ريس بتقييم طموحاته ويرى في نهاية الأمر إلى أنه لا يهفو ولا يشتاق إلى أي شى وإلى أنه قانع بأن يراقب النهر والسفن المارة والجبال والسلام السائد هنالك إلا أنه مع ذلك لا يشعر بالسعادة في داخل كيانه ولا شيء سوى هذا القرص الحشرى السخيف الذي لا يتوقف أبداً، ويتمتم قائلاً: أنه الطقس ثم يسائل نفسه عن الاحاسيس التي قد يشعر بها لو أنه تقابل بالفعل مع مارسيندا في فاطيما أو كما يقول الناس عادة أنهما وقعا في أذرع بعضهما البعض، نحن لن نفترق عن بعضنا البعض بعد ذلك على الاطلاق، فقط عندما اعتقدتُ أنني فقدتك أدركت تماماً أنني أحبك للغاية، وهي قد تستخدم كلمات وعبارات مماثلة وبعدئذ لا يعرفان أي كلام آخر يقولانه حتى ولو كانت لهما مطلق الحرية في الجرى خلف شجرة زيتون مع التكرار لنفسيهما الهمسات والضحكات والتنهدات التي قام بها آخرون، ويشك ريكاردو ريس مرة أخرى ويشعر مرة أخرى بقرص الحشرات يتزايد في داخل عظامه، لا يمكن للمرء أن يقاوم الزمن، ونحن واقعون في داخل نطاق الزمن، ونحن نصطحب الزمن ولا شيء أكثر من ذلك، وبعد أن فرغ الرجلان العجوزان من الجريدة فإنهما يجريان القرعة من خلال الالقاء بعملة لكي يعرفا من منهما الذي سيأخذ الجريدة معه إلى منزله، وحتى الرجل الذي لا يعرف القراءة يشتهي الفوز بهذه الجائزة، لأنه لا شيء أفضل من الجرائد في تبطين أدراج المكاتب وكل الادراج الأخرى.

وعندما وصل إلى عيادته في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم قالت له كارلوتا موظفة الإستقبال: لقد وصل خطاب باسم يا دكتور وأنا وضعته على مكتبك، وعندئذ شعر ريكاردو ريس أن ضربة قد سددت

إلى قلبه أو معدته، نحن في مثل هذه اللحظات نفقد الهدوء ورباطة الجأش بل ولا نستطيع تحديد المكان الذي أصابته الضربة لأن المسافة التي تفصل القلب عن المعدة صغيرة للغاية كما يوجد هناك أيضاً الحجاب الحاجز الذي يتأثر بالحركات الصادرة عن كل من القلب والمعدة، لو أعاد الله خلق الإنسان من جديد في هذه الأيام ربما جعل جسده أقل تعقيدا، الخطاب من مارسيندا، لقد كتبته لكي تخبرنى بأنها لم تستطع السفر إلى سانت فاطيما أو أنها سافرت بالفعل وشاهدته من على مسافة بعيدة بل ولوحت له بيدها السليمة ثم شعرت باليأس أولا لأنه لم يشاهدها وثانيا لأن العذراء لم تقدم لها الشفاء والآن يا حبيبي، إنني في انتظارك في كوينتا داس لا جريماس إذا كنت مازلت تحبني، من الواضح أنه خطاب من مارسيندا، أنه يوجد هنالك في منتصف القصاصة المستطيلة للورق النشاف الأخضر اللون والمظروف له لون بنفسجى فاتح، لا هذا اللون إذا شوهد من عند الباب يبدو أبيض اللون وهذا خداع بصري، نحن نتعلم بالمدرسة أن الأزرق + الأصفر = أخضر وأن الأخضر + البنفسجى = أبيض وأن الأبيض + القلق يجعل وجهنا شاحبا، الخطاب ليس بنفسجى اللون ولا هو قد جاء من كوامبرا، لقد فتحه ريكاردو ريس في حرص وحذر ووجد بداخله قصاصة ورق صغيرة مكتوبا عليها بخط ردئ للغاية شبيه بخط الأطباء: عزيزي الزميل أحيط سيادتكم علما بأنني شفيت تماماً وآمل أن استرد عيادتى واستأنف العمل مع بداية الشهر القادم، وأنتهز هذه الفرصة لكي أعبر لك عن شكرى العميق على قيامك بالعمل نيابة عني أثناء فترة المرض الذي أصابني وأتمنى لك النجاح في العثور بسرعة على وظيفة جديدة تسمح بالاستفادة العظيمة من خبراتك ومهاراتك الكبيرة.

واستمر الخطاب على مدى سطور عديدة أخرى تضم النواحى

الرسمية الاعتيادية التي تراعى في كل الخطابات الأخرى، وأعاد ريكاردو ريس قراءة هذا الخطاب مرة أخرى وأعجبته لباقة زميله التي حولت الجميل الذي قدمه لريكاردو ريس إلى جميل قدمه ريكاردو ريس إليه مما سمح لريكاردو ريس أن يترك العمل برأس مرفوع شامخ، كما أصبح بمقدور ريس أن يأخذ هذا الخطاب معه أثناء البحث عن عمل ويعرضه كخطاب توصية بل وكدليل على تقديم الخدمة الجيدة والمخلصة للجماهير من المرضى، فهو سيكون مثل الخطاب الذي سيقدمه فندق البراجانسيا لليديا إذا قررت ترك هذا الفندق من أجل العمل في وظيفة أخرى أو من أجل الزواج، وارتدى معطفه الأبيض واستدعى المريض الأول، في غرفة الانتظار يوجد خمسة مرضى آخرين ينبغي فحصهم، أنه لن يكون لديه الآن وقت لكي يعالجهم من أمراضهم ومن حسن الحظ أن حالاتهم ليست خطيرة للغاية مما لا يجعلهم يموتون على يديه في خلال الاثنى عشر يوماً المتبقية قبل انتهاء الشهر.

ليديا لم تظهر في الأفق، صحيح أن هذا ليس هو يوم اجازتها ولكنها تعرف أن الرحلة لفاطيما هي رحلة ذهاب وعودة مباشرة وتعرف أنه قد يكون قد تقابل مع مارسيندا هناك وبذلك كان ينبغي عليها أن تجئ لكي تعرف على الأقل ما إذا كانت صديقتها مارسيندا قد أصبحت في حالة جيدة وما إذا كانت ذراعها قد شفيت، لقد كان بمقدور ليديا أن تجئ إلى ألتو دى سانتا كاتارينا والعودة منها ولا يستغرق ذلك منها سوى نصف ساعة، أو كان بمقدورها المجئ إلى عيادته القريبة للغاية من الفندق الذي تعمل به، ولكنها لم تحضر ولم تسأل، ويقبع ريكاردو ريس في داخل شقته ولا يتركها إلا من أجل الذهاب للعمل أو تناول طعام العشاء، وهو من نافذته يرقب النهر والمنحدرات البعيدة لمونتجو وصخرة آداماستور والرجلين العجوزين المواظبين وأشجار النخيل، ومن

وقت لآخر ينزل من أجل الذهاب إلى المنتزة وقراءة صفحات قليلة من كتاب ما، ويعود إلى منزله مبكرا ويفكر في فرناندو بسوا الذي أصبح ميتا الآن كما يفكر في ألبرتو كايرو الذي اختفي وهو في ريعان شبابه والذي كان تتعلق عليه آمال كبرى، ويفكر في ألفارو دى كامبوس الذي ذهب إلى جلاسجو أو هذا هو على الأقل ما قاله في البرقية حيث أشار إلى أنه ربما يستقر هناك ويعمل في بناء السفن حتى نهاية فترة حياته أو إلى أن يخرج على المعاش، ومن وقت لآخر يذهب ريكاردو ريس إلى السينما ويشاهد فيلم «خبزنا اليومي» وهو فيلم من اخراج كينج فيدور أو يشاهد فيلم «التسع والثلاثون سلّمة» من تمثيل روبرت دونات ومادلين كارول، ولا يستطيع مقاومة الذهاب إلى سو لويس Sao Luis لكي يشاهد «أوديوسكوب» وهو فيلم ٣ ـ D.

يقولون أن الزمن لا يتوقف من أجل أي رجل وإنما يواصل الزحف والمسير على الأشياء المألوفة التي مازالت تتكرر ومع ذلك هناك أناس يشعرون بالغيظ من الايقاع البطئ الذي يمر به الزمن، ينبغي انقضاء ٢٤ ساعة لكي تشكل يوماً وفي نهاية اليوم تكتشف أنه لم يكن جديرا بالاهتمام ثم تكتشف أن اليوم التالي ليست له أهمية أيضاً، لو كان فقط بمقدورنا أن نثب ونتخطى كل الأسابيع العقيمة التي لا طائل تحتها من أجل أن نعيش ساعة واحدة من الانجاز ولحظة واحدة من الاشراق الرائع، وتبدأ فكرة العودة إلى البرازيل تراود ريكاردو ريس، ومن الواضح أن موت فرناندو بسوا كان سببا قويا دعاه إلى عبور المحيط الاطلنطى عقب غياب دام ستة عشر عاما من أجل الاقامة بالبرتغال واستئناف ممارسته لمهنة الطب مع كتابة قصيدة من وقت لآخر وبحيث يكبر في السن ويحتل مكانة الشاعر الذي مات حتى ولو كان أحد لا يلحظ هذا الاستبدال، ولكنه الآن يتعجب: هذه ليست دولته إذا كانت

في الحقيقة هي دولة أي شخص، أما البرتغال فهي لا تنتمى إلا لله العظيم وسيدتنا المباركُ، إنها اسكتش حزين له بعد أن وخال من النقش البارز ولا حتى مع المشاهد الخاصة «للمجالات السمعية Audioscopes»، وفرناندو بسوا سواء أكان ظلا أم شبحا يظهر متجليا من وقت لآخر لكي يدلى ببعض التعليقات التهكمية الساخرة ولكي يبتسم في كرم وصداقة ثم يختفي، وريكاردو ريس لا يهتم بالعودة بسببه، ومارسيندا قد توقفت عن المجئ وهي تعيش في كوامبرا بشارع غير معروف له وأيامها تمر يوماً وراء يوم بدون شفاء، ربما تكون قد أخفت خطاباته في ركن ما بالعلية أو في حشوة تبطين كرسيى أو في درج سرى استخدمته أمها أمامها أو في حقيبة خادمة منزل لا تستطيع القراءة وجديرة بالثقة وربما مارسيندا تقرأ خطاباته مرارا وتكرارا مثل شخص يتلو ويكرر حلما مرات عديدة لكي لا ينساه ولكن عبثا لأن أحلامنا وما نتذكره من أحلامنا ليس بينهما أي شيء مشترك، وليديا سوف تجئ غدا لأنها دائماً ما تجئ في أيام أجازاتها ولكن ليديا هي الخادمة/ الممرضة لأنّا كارنينا وهي مفيدة من حيث جعل المنزل نظيفا ومن حيث تلبية بعض الاحتياجات الأخرى ولكنها لا تستطيع أن تملأ ـ من خلال الأمور القليلة التي يمكن أن تقدمها ـ فراغ ريكاردو ريس ولا حتى العالم كله يمكنه أن يملأ فراغة إذا تقبلنا صورته عن نفسه، مع بداية شهر يونيو سيصبح ريكاردو ريس عاطلا وسيكون عليه أن يبحث مرة أخرى عن مكان شاغر وعن وظيفة مؤقتة في الطب بحيث يحل محل طبيب في اجازة وذلك لكي يجعل الأيام تمر في مزيد من السرعة، ومن حسن الحظ أنه ما زال لديه لفيفة كبيرة من الأوراق المالية الانجليزية من فئة الجنيه لم يسحب منها أية نقود كما توجد هناك أيضاً تلك النقود التي مازالت مودعة في بنك برازيلى وهذه المبالغ العديدة ستكون كافية تماماً

لتأجير عيادة بصفة مؤقتة أو تشييد بناء لممارسة الطب العام يكون خاصا به لأن الطب العام هو ما يحتاج إليه معظم المرضى، ولا داع لأن يعمل على سبيل الهواية في مجال أمراض القلب والرئتين، بل ويمكنه استخدام ليديا من أجل تقديم الرعاية للمرضى فهي انسانة ذكية ومستهترة اخلاقيا، وليديا سرعان ما تتعلم من خلال ارشادات بسيطة كيفية نطق الكلمات على نحو جيد وبذلك تهرب من مصيرها في الحياة كخادمة غرف بالفندق، ولكن هذا ليس سوى حلم يقظة لرجل يستهلك الوقت في الانخراط في تفكير عديم الجدوى، فريكاردو ريس لن يسعى للحصول على عمل لأن أفضل شيء يمكن له أن يفعله هو أن يرجع إلى البرازيل على ظهر الباخرة هايلاند بريجيد لدى قيام هذه الباخرة بالرحلة التالية، أنه سوف يعيد في تكتم وسرية كتاب «إله المتاهة» إلى صاحبة ولن يعرف الأوبريان Obrien أبداً كيف ظهر الكتاب المفقود مرة أخرى على نحو فجائي.

ووصلت ليديا وقالت في شيء من البرود: مساء الخير وبدا عليها وكأنها منسحبة إلى داخلها نفسها، ولم تسأل أية أسئلة فاضطر ريس لأن يتحدث قائلاً: لقد ذهبت إلى فاطيما، فتساءلت: أوه هل اعجبتك؟، على أي نحو ينبغي على ريكاردو ريس أن يرد؟ أنه من حيث هو شخص غير مؤمن بزيارة الاضرحة المقدسة ليس من المتوقع له أن يكون قد عاش تجربة الغبطة الصوفية الروحانية ومن ناحية أخرى فهو لم يذهب بدافع من حب الاستطلاع فقط ولذلك يقصر نفسه على قول كلام عمومي: عدد هائل من الناس والتراب في كل مكان بل واضطررت أن أنا في العراء وهو شيء سبق لك أن حذرتينى منه ولكنه من حسن حظي أن الليل كان دافئاً، فقالت: يا دكتور أنت لست من ذلك النوع من الناس الذين يعيشون حياة خشنة أثناء الحج، فقال: لقد ذهبت لأرى

الشكل الذي يبدو عليه هذا الحج، وتمكث ليديا في المطبخ وتشغل المياه الساخنة من أجل أن تغسل الأطباق وأوضحت بدون أن تقول كلاماً كثيراً بأنه لن يتم هناك لقاء جسدي بينهما، أيمكن أن يكون السبب في هذا الحظر هو مشكلة الحيض المألوفة أم شيء من الاستياء أو الجمع ما بين الدماء والدموع؟، وجلس على مقعد طويل بالمطبخ وراح يرقبها أثناء قيامها بالعمل، ثم قال: ولم أتقابل بالمصادفة مع الدكتور سامبيو وابنته وهو أمر متوقع بسبب وجود هذا العدد الهائل من الجماهير المحتشدة، وقيلت هذه الكلمات بطريقة عفوية فهي ترفرف في المنتصف في انتظار شخص ما لكي يعير اهتمامها وانتباها، ولكن ما هي نوعية الانتباه فهو ربما يقول الصدق وربما يقول الكذب، وهذا هو عجز الكلمات واتسامها بالأزدواجية والنفاق الموجود في داخل بنائها، الكلمة تكون كاذبة وبنفس هذه الكلمة الكاذبة يمكن لنا أن نقول الصدق فنحن لسنا ما نقوله ونحن لا نكون صادقين إلا إذا صدقنا الآخرون، والتصديق من جانب ليديا غير معروف لأنها تتساءل بكل بساطة: أكانت هناك أية معجزات، فقال: لو حدثت هناك معجزات فإنني لم أشاهدها ولم تشر التقارير الواردة بالصحف إلى حدوث أية معجزات، فقالت: السينيوريتا مارسيندا مسكينة إذا كانت قد ذهبت إلى هناك على أمل أن يتم شفاؤها ومن المؤكد أنها أصيبت بالاحباط الشديد، فقال: لقد كانت تعلق آمالا قليلة، فقالت: وكيف تعرف ذلك؟ وركزت ليديا حملقتها على ريكاردو ريس بسرعة خاطفة مثل طائر مذعور، فقال لنفسه في تفكير: أنها تحاول الايقاع بي في المصيدة، ثم رد عليها قائلاً: عندما كنت مقيما بالفندق كانت مارسيندا ووالدها يرتبان بالفعل من أجل زيارة سانت فاطيما، فقالت: أوه، حقاً هذه هي المبارزات الصغيرة التي يرهق الناس أنفسهم بها إلى أن يكبروا ويصبحوا طاعنين في السن، من

الأفضل تغيير موضوع الحديث وهنا تجئ أهمية الجرائد فهي تخزن الحقائق في ذاكرة الإنسان وتساعد على استمرار المناقشات بالنسبة للرجلين العجوزين الموجودين في ألتو دى سانتا كاتارينا وبالنسبة لريكاردو ريس وليديا لأن بعض حالات الصمت لا تكون مفضلة على الكلمات، وقال ريس في نوع من الافتتاحية: وما هي الأخبار عن أخيك؟ فقالت: أخي على ما يرام ولماذا تسأل؟ فقال: لقد تذكرته بسبب قراءتى لشى ما بالجريدة عبارة عن خطاب ألقاه مهندس معين يسمى نوبر جوديس Nobre Guedes والجريدة مازالت لدى هنا، فقالت: إنني لم أسمع من قبل عن هذا الجنتلمان، فقال: إذا عرفنا ما ينبغي عليه أن يقوله عن البحارة فإنني أشك في أن أخاك سينادى عليه بكلمة جنتلمان، فقالت: وما الذي يقوله؟ فقال: انتظرى لسوف أحضر الجريدة، وغادر ريكاردو ريس المطبخ وذلك إلى غرفة المكتبة وعاد ومعه جريدة أوه سكيولو O Seculo حيث استغرق نص الحديث صفحة كاملة تقريبا، وقال: هذا هو نص الخطاب الذي ألقاه نوبر جوديس في الاذاعة الوطنية التي تشجب الشيوعية وهو يشير في إحدى النقاط إلى البحارة، فقالت ليديا: هل هو يقول أي كلام عن أخي؟ فقال: أنه لا يذكر أخاك بالاسم ولكن لكي أقدم لك مثالا فإنه هذا الكلام: يوجد منشور لعين ومروع متداول بين الناس حاليا ويعرف باسم «البحار الأحمر»، فقالت: ما معنى كلمة لعين execrable؟ فقال: هذه الكلمة تعنى شيئاً ما شريراً وحقيراً ورديئاً للغاية، فقالت: شيء ترغب في أن تصب اللعنات عليه، فقال: هذا صحيح تماماً، فقالت: لقد سبق لي مشاهدة «البحار الأحمر» وهو لم يجعلنى أشعر بالرغبة في صب اللعنات عليه، فقال: هل أخوك أراك إياه؟ فقالت: نعم لقد كان هو دانيال فقال: أذن أخوك شيوعى، فقالت: أنا لست متأكدة من ذلك ولكنه بكل

تأكيد يناصر الشيوعية، فقال: وما الفارق؟ فقالت: أنه من وجهة نظري لا يبدو مختلفا عن أناس آخرين، فقال: أتظنين أنه لو كان شيوعيا لأصبح شكله مختلفا؟ فقالت: أنني لا أعرف ولا أستطيع التوضيح والتسير فقال: حسناً، هذا المهندس الذي يسمى جوديس يقول أيضاً إن ملاحى البرتغال ليسوا مصطبغين باللون الأحمر أو الأبيض أو الأزرق وإنما هم برتغاليون فقط، فقالت: هل هو يعتقد أن كلمة برتغالي تشير إلى لون معين؟ فقال: هذا رائع للغاية، أي شخص ينظر إليك سيقول إنك لن تتسببي في كسر طبق ومع ذلك يمكن أن تفلت من يديك كمية كبيرة من الأطباق، فقالت: يدي ثابتة وأنا لست معتادة على كسر الأطباق وانظر إلى الآن ها آنذا أغسل أطباقك ولا ينزلق أي طبق من يديّ فقال: أنت فتاة غير عادية، فقالت: هذه الفتاة غير العادية ليست سوى خادمة غرف بفندق ولكن قل لي هل جوديس قال أي كلام آخر عن البحارة؟ فقال: عن البحارة لا، فقالت: أنني أتذكر الآن أن دانيال ذكر اسم بحار يسمى أيضاً جوديس ولكن اسمه كان مانويل فقال: اسمه بالكامل: مانويل جوديس وهو في انتظار صدور حكم بشأنه ومجموع المقدمين للمحاكمة أربعون شخصا، فقالت: الكثيرون لهم اسم جوديس، فقال: حسناً ولكن هذا اسمه بالكامل هو مانويل جوديس، وتم الانتهاء من غسل الأطباق ومازال أمام ليديا أعمال أخرى، إذ ينبغي عليها تغيير الملايات وترتيب السرير وفتح النافذة من أجل تجديد الهواء بالغرفة وتنظيف الحمام ووضع فوط ومناشف جديدة بالحمام، وبعد أن انتهت من كل تلك الأعمال عادت إلى المطبخ لكي تقوم بتجفيف الاطباق وهنا يتسلل ريس في خلسة وراءها ويضع ذراعة حول خصرها، وتحاول أن تتجنبه ولكنه يقبلها على رقبتها مما جعل الطبق ينزلق من يديها ويتحطم ويتناثر إلى قطع صغيرة فوق الأرضية، فقال ضاحكا: اذن

فأنت قد كسرت طبقا في نهاية الأمر، وكان من المحتم أن يحدث ذلك إن عاجلا أو آجلا فلا أحد يستطيع الهروب من قدره ومصيره، ثم أدارها نحو وقبلها بقبلة كاملة في شفتيها، ولم تعد تقاومه ولكنها قالت له بكل بساطة: لا نستطيع أن نفعل ذلك اليوم.

وبعدئذ كان فرناندو بسوا هو الذي قام بزيارة ريكاردو ريس، فبعد مرور أيام عديدة ظهر متجليا قبل منتصف الليل مباشرة عندما كان جميع الجيران قد أخلدوا للنوم في السرير، وصعد على السلالم على أطراف أصابع قدميه متخذا هذا الاجراء الوقائي لأنه لم يكن متأكدا أبداً من أنه غير مرئي، في بعض الأحيان كان الناس ينظرون عبره ومن خلاله حيث كان يدرك ذلك من خلال عدم وجود تعبيرات على وجوههم ولكن في حالات نادرة كانوا يحملون نحوه كما لو كان هناك شيء عجيب يتعلق به ولكنهم لا يعرفون طبيعة ذلك الشيء العجيب، ولو قال لهم أحد إن هذا الرجل المرتدى ثيابا سوداء ليس سوى شبح فإنهم لن يصدقوا ذلك، إذن لقد صعد فرناندو بسوا على السلالم وطرق في خفة على الباب وفق الاشارة المتفق عليها مع ريس مع الحرص على أن لا يتسبب في إحداث مشهد درامى مثل أن تشاهده امرأة على بسطة السلم فتصرخ بأعلى صوتها قائلة: النجدة يوجد لص يوجد حرامى أهذا معقول؟ فرناندو بسو المسكين حرامى؟ ذلك الرجل الذي أخذ منه كل شيء بما في ذلك حياته ذاتها، وحاول ريكاردو ريس وهو جالس في غرفة مكتبه أن يؤلف قصيدة وما أن كتب بيتاً واحداً وهو: نحن لا نشاهد الأقدار التي تسحقنا نحن ننسى وجودها، حتى سمع طرقا خفيفا فأدرك على الفور من يكون الطارق وسارع إلى فتح الباب ثم قال مرحبا: يا لها من مفاجأة سارة، أين كنت بحق الجحيم؟ فأشار فرناندو بسوا إلى أنه قد جاء توا من المقابر الريفية بمنطقة براذارز حيث لا يستطيع هناك مجرد

الخلود إلى الراحة في سلام لأن جدته ديونيسيا الضارية الشرسة قد دفنت أيضاً هناك وتطلب منه يومياً تقريراً تفصيلياً عن حالات مجيئة وذهابه فيرد حفيدها في ضيق: كنت أتريض في نزهة مثلما يرد الآن على ريكاردو ريس وأن كان في غير ضيق أو توتر، وغاص فرناندو بسوا في الأريكة مع الأتيان بحركة تدل على أنه يشعر بإعياء لا نهائي ثم رفع يده إلى جبهته كما لو كان يحاول تهدئة ألم أو إبعاد سحابة من نوع ما ثم نزل بأصابعه على وجهه في تمليس وعلى عينيه بكل تأكيد مع الضغط على زاويتي فمه والتلميس على شاربه وذقنه المدبب، بدا على الأصابع وكأنه ترغب في إعادة تشكيل ملامحه وارجاعها إلى شكلها الأصلى ولكن الفنان قد التقط ممحاة بدلا من قلم رصاص فتقوم بالازالة أثناء مرورها ويفقد جانب واحد كامل من الوجه ملامحه الرئيسية وهو أمر متوقع لأن ستة شهور قد مضت على وفاة فرناندو بسوا، وقال ريس في تذمر وشكى: رؤيتي لك تقل تدريجيا في هذه الأيام، فقال بسوا: لقد حذرتك في اليوم الأول، فأنا أصبح نسَّايا أكثر وأكثر مع مرور الزمن بل والآن وهناك في شارع كالهاريس كان على أن أفكر في عمق لكي أتذكر الطريق المؤدى إلى شقتك، فقال ريس: كان عليك فقط أن تحدد موقع تمثال آداماستور، فقال فرناندو: لو كنت قد ركزت ذهني على آداماستور لكنت قد وقعت في المزيد من الارتباك واللخبطة لأنني كنت سأعتقد أنني رجعت زمنيا بثمانى سنوات في دورباان Durban وبذلك أتعرض للضياع مرتين: في الزمان وفي المكان أيضاً، فقال ريس: حاول أن تجئ إلى هناك مرات كثيرة وبهذه الطريقة يمكن لك أن تنعش ذاكرتك: فقال بسوا: اليوم تم ارشادى من خلال رائحة بصل عالقة في الجو فقال.ريس: رائحة بصل؟ فقال بسوا: يبدو أن صديقك البصل لم يتوقف عن التجسس عليك، فقال ريس: هذا أمر سخيف،

فقال بسوا: لا يمكن لك أن تعرف أبداً ما يدوف في ذهن رجل الشرطة وربما تكون أنت قد أعطيت انطباعا حسناً وربما فيكتور يرغب في كسب صداقتك ولكنه يدرك أنك تعيش في عالم المختارين بينما هو يعيش في عالم المعلونين وذلك هو السبب في أنه يمضى الليل محملقا لأعلى نحو نافذتك ليرى ما إذا كان يوجد هناك أي ضوء مثل رجل واقع في حب جنونى، فقال ريس: أنت تقول نكتة على حساب أعصابي، فقال بسوا: أنني حزين للغاية من أجلك، فقال ريس: ولكن هذا التجسس المستمر ليس له ما يبرره على الاطلاق، فقال بسوا: هناك بعض المبررات، مثال ذلك هل من الطبيعي لأي شخص أن يزوره شخص قادم من العالم الآخر، فقال ريس: ولكن لا أحد يستطيع مشاهدتك، فقال بسوا: هذا يتوقف على أمور أخرى ففي بعض الأحيان لا يكون لدى الشخص الميت الصبر على أن يظل غير مرئي أو أحيانا تنقصه الطاقة ولا يضع في الحسبان الحقيقة التي مفادها أن هناك أناسا معينين من الأحياء لهم عيون تستطيع مشاهدة غير المرئي، فقال ريس: من المؤكد أن هذا لا ينطبق على فيكتور، ثم رفع ريكاردو ريس قصاصة الورق التي كان يكتب عليها أبياتا من الشعر وقال: لدى هنا بعض أبيات من الشعر ولا أعرف على أي نحو ستنتهي، فقال بسوا: إقرأها لي، فقال ريس: إنه مجرد مطلع للقصيدة بل وربما أغير هذا المطلع أيضاً، فقال بسوا: اقرأها لي، فقال ريس: «لأننا لا نشاهد الأقدار التي تحطمنا وتسحقنا فإننا ننسى أنها توجد»، فقال بسو: أنني معجب بهذا البيت الشعرى ولكني أرى ـ بقدر ما أتذكر ـ أنك قد كتبت كثيراً في نفس هذا المعنى حيث كتبت ذلك آلاف المرات وبآلاف الطرق المختلفة قبل أن تسافر إلى البرازيل ويبدو أن المناطق الاستوائية لم تنعش ولم تثر عبقريتك الشعرية وليس لدى كلام آخر أقوله، فقال ريس: أنا لست

ملك، فقال بسوا: لسوف تصبح مثلي ولا داع لأن تشعر بالقلق، فقال ريس: الالهام الخاص بي هو من النوع الذي يمكن أن نسميه بالالهام الداخلى، فقال بسوا: الالهام هو مجرد كلمة، فقال ريس: أنا آرجوس Argos له ٩٩٩ عينا وكلها عمياء، فقال بسوا: وهذه استعارة جميلة أيضاً وتوحي بأنك لا يمكن أن تكون في جودة رجل الشرطة، فقال ريس: على فكرة ـ يا فرناندو ـ هل تقابلت في أي وقت من الأوقات بطريق المصادفة مع رجل يسمى أنطونيو ڤيرو وهو سكرتير الدعاية الوطنية؟ فقال بسوا: نعم فنحن كنا صديقين وأنا مدين له بحصولي على جائزة قدرها خمسة آلاف ريس Reris عن ديوانى الصادر تحت عنوان «المنساجم» ولماذا تأسل؟ فقال ريس: لسوف تعرف في خلال لحظات، لدى هنا خبر، هل تعرف أن الجوائز الأدبية التي منحتها الحكومة قد صرفت للمستحقين منذ أيام قليلة؟ فقال بسوا: وكيف يمكن لي أن أعرف؟ فقال ريس: سامحنى فأنا أنسى دائماً أنك لم تعد تستطيع القراءة، وقال بسوا: ومن الذي كسب الجائزة في هذا العام؟ فقال ريس: لقد كسبها كارلوس كويروس، فقال بسوا: آه، كارلوس، فقال ريس: أكنت تعرفه؟ فقال بسوا: كان كارلوس كويروس أبن أخ امراة تسمى أوفيلينيا Ophelinha ويكتب اسمها بـ Ph من F وهذه المرأة ظللتُ واقعا في حبها لبعض الوقت، حيث كنا نعمل في نفس المكتب، فقال ريس: أنني لا أستطيع أن أتخيل أنك تقع في الحب والغرام، فقال بسوا: نحن نقع في الحب مرة واحدة على الأقل طوال فترة حياتنا الحب التي كنت تكتبها، فقال: أذكر أنها كانت إلى حد ما أقل تفاهة من معظم خطابات العشق والغرام والحب، فقال ريس: ومتى حدث هذا الحب؟ فقال ببسوا: لقد بدأ بمجرد أن سافرت أنت إلى البرازيل، فقال ريس: وهل استمر هذا الحب؟ لفترة طويلة؟ فقال بسوا: مدة كافية

بالنسبة لي لأن أكون قادرا على أن أقول مثل الكاردينال جونزاجا إنني أيضاً قد عرفت الحب، فقال ريس: أجد من الصعب على أن أصدق هذا، فقال بسوا: هل تعتقد أنني أكذب؟ فقال ريس: لا بكل تأكيد وكيف تقول كلاماً كهذا فنحن لم نكذب على بعضنا البعض في أي وقت من الأوقات على الاطلاق وعندما كان الموقف يتطلب منا أن نكذب كنا نقصر أنفسنا على استخدام الكلمات التي تكذب، فقال بسوا: اذن فما هو الشيء الذي تجده صعبا للغاية بحيث لا يمكن لك أن تصدقه؟ فقال ريس: هو أنك قد وقعت في الحب فأنت من خلال معرفتى بجوانب شخصيتك تماماً تعتبر من وجهة نظري ذلك النوع من الشخص الذي هو غير قادر على الحب، فقال بسوا: مثل دون جوان؟ فقال ريس: نعم مثل دون جوان ولكن لسبب مختلف فدون جوان كان غير قادر على بسبب وجود قدر هائل من الشبق لديه مما كان يضطره إلى توزيع ذلك الشبق على النساء اللاتي يرغب فيهن بينما الوضع بالنسبة لك بقدر ما أتذكر هو العكس من ذلك تماماً، فقال بسوا: وماذا عنك؟ فقال ريس: أنني شيء ما يوجد في المنتصف، أنني أمثل الوضع العادي أو المتوسط لا أمثل الأشياء الزائدة على اللازم أو الأقل من اللازم وبكلمات أخرى إنني أمثل العاشق المتوازن على نحو جيد، وعلى كل حال فالحب يتسم بالتعقيد يا عزيز فرناندو، فقال بسوا: لا يمكن لك أن تشتكي فأنت لديك ليديا الخاصة بك، فقال ريس: ليديا هي خادمة غرف بفندق، فقال بسوا: وأوفيلينيا كانت كاتبة على آلة كاتبة، فقال ريس: بدلا من التناقش في شيءون النساء فنحن نتناقش في وظائف النساء، وقال بسوا: وعندك أيضاً الفتاة التي قابلتها في الحديقة ماذا كان اسمها؟ فقال ريس: مارسيندا، وأضاف: خبرتى المحدودة

تقول إن العاطفة هي الاتجاه المشترك للرجال إزاء النساء، فقال بسوا: يا عزيزي ريكاردو كان ينبغي أن نقضى وقتاً أطول مع بعضنا البعض.

ونهض فرناندو بسوا واقفا على قدميه وراح يجوب غرفة المكتبة جيئة وذهابا ثم رفع قصاصة الورق التي كان ريكاردو ريس قد كتب عليها أبيات الشعر التي قرأها وقال: كيف تسنى لك أن تقول هذا البيت «ولأننا لا نشاهد الأقدار التي تحطمنا فإننا ننسى أنها توجد» ولابد أن يكون المرء أعمى بالفعل عندما لا يشاهد الأقدار وهي تحطمنا يوماً وراء يوماً كما يقول المثل الشعبي: «لا يوجد أناس أكثر عمى من أولئك الذين لن يشاهدوا».

(١٦)

حشرات زيز الحصاد تغنى بدون أن يراها أحد في أشجار النخيل الواقعة في ألتو دى سانتا كاتارينا، ويصاب آداماستور بالصمم بسبب الكوراس العالى النغمة الصادر عنها والذي لا يستحق أن يطلق عليه الاسم الجميل لكلمة «موسيقى» ولكن مسألة الموسيقى تتوقف إلى درجة كبيرة على الذي يصغى ويستمع، ولكن العملاق المحبوب لم يكن يسمع تلك الأصوات وهو يمشي الهوينا ويذرع الشاطئ جيئه وذهابا في انتظار مجئ القوادة دوريس Doris وعمل الترتيبات اللازمة اللقاء المرغوب فيه للغاية لأن البحر كان يغنى آنئذ وكان الصوت المحبوب لتيتيس Thetis يرفرف فوق المياه كما يقول عادة عن روح الإله، ولكن الذي يغنى هو زيز الحصاد الذكر حيث يقوم بحك جناحيه في اهتياج لكي ينتج هذا الصوت الاستحواذى القاسي عديم الشفقة الشبيه بصرخات قاطع الرخام لدى الاصطدام بعرق أكثر صلابة في داخل الحجر الرخامى، الجو خانق وشديد الحرارة، في سانتا فاطيما كانت الشمس مثل جمرات محترقة ولكن بعدئذ وعلى مدى أيام أصبحت السماء ملبدة بالغيوم بل وأمطرت رذاذا في بعض الأحيان، وفي نهاية الأمر انحسر الفيضان بالأراضى المنخفضة ولم يتبق من ذلك البر الشاسع الممتد في داخل الأراض سوى مستنقعات صغيرة من نفايات المياه التي تجففها الشمس تدريجيا، وفي الصباح عندما يكون

الهواء مازال منعشا يحضر الرجلان العجوزان مظلتيهما ولكن أصبحت الحرارة الآن شديدة الوطأة ولذلك تستخدم الشماسي من حيث هي مظلات خفيفة للوقاية من الشمس، البواخر والسفن تدخل إلى الميناء وتغادره مع أعلامها ومداخنها وبحارتها الذين يشبهون النثل وأبواقها التي تصم الآذان، البحار عقب سماع ذلك الضجيج مرارا وتكرارا أثناء العواصف بالبحر ينتهي به الأمر إلى أن يتحدث حديث الند للند مع اله الأعماق، هذان الرجلان العجوزان لم يذهبا إلى البحر على الاطلاق ولكن دماءهما لا تبرد في قشعريرة عندما يسمعان ذلك الزئير الجبار وأن كان زئيرا مكتوما من خلال المسافة أن الارتجاف والاهتزاز يوجد في أعماق كيانهما وكما لو كانت هناك سفن تبحر في داخل قنوات شرايينهما وفقدت في غياهب ظلام جسديهما ووسط العظام العملاقة للعالم، عندما تخف الحرارة سيرجعان إلى ألتو لكي يجلسا على نفس المقعد الخشبي الطويل ولكن مع فتح مظلتيهما لأن الحماية من جانب الأشجار لا يعتمد عليها كما نعرف فما أن تنزل الشمس قليلا حتى تختفي ظلال أشجار النخيل، هذا الرجلان العجوزان سوف ينتقلان إلى رحمة الله بدون أن يعرفا أن أشجار النخيل لا تعتبر أشجارا أن يكون الناس على هذا القدر الكبير من الجهل هو شيء لا يصدقه العقل، ولكن ليس من المهم أن تكون شجرة النخيل بمثابة شجرة أم لا، فالذي يهم هو الظلال التي تنجم عنها، ونحن إذا قمنا بتوجيه سؤال لهذا الدكتور الذي يجئ إلى هنا يوميا في فترة ما بعد الظهر عما إذا كانت شجرة النخيل تعتبر شجرة أم لا فإنه سيضطر إلى العودة إلى منزله من أجل الرجوع إلى انسكلوبيديا النبات الخاصة به اللهم إلا إذا كان قد تركها في البرازيل، أغلب الظن أن كل ما يعرفه عن عالم النباتات هو المجاز الضئيل الذي يزين به قصائده من خلال الازهار بوجه عام وقليل

من أكاليل الغار لأنها ترجع إلى الأزمنة الميثيولوجية وبعض الأشجار التي ليس لها أي اسم سوى كلمة شجرة والكرمات وعباد الشمس وبنات السمَّار الذي يرتعش مع التيار ونبات اللبلاب وأنواع الفل والورد، ويتحدث الرجلان العجوزان في حرية مع ريكاردو ريس ولكنه عندما يترك شقته لا يخطر على باله أن يسألهما: هل عرفتما أن شجرة النخيل لا تعتبر شجرة؟ ولأنهما متأكدان تماماً من الأمور التي يعتقدان أنهما يعرفانها فإنه لن يخطر لهما أبداً أن يسألاه قائلين: يا دكتور هل شجرة النخيل هي شجرة وذات يوم سيسيران في طريقين منفصلين ولسوف يظل السؤال الجوهرى عما إذا كانت شجرة النخيل بمثابة شجرة لأنها تشبه شجرة أو ما إذا كان هذا الظل الذي نلقيه على الأرض هو حياة لأنه يشبه الحياة بدون إجابة.

بدأ ريكاردو ريس يعتاد على الاستيقاظ من النوم متأخرا، وتعلم أن يكبت أية رغبة في تناول طعام في الفترة الصباحية، والصينينات المليئة بالأطعمة الغنية التي اعتادت ليديا احضارها إلى غرفته بفندق البراجانسيا تبدو الآن وكأنها تنتمى لماضي شخص ما آخر أنه يذهب للنوم متأخرا ثم يستيقظ ولكنه يستأنف النوم مرة أخرى ويقوم بدراسة النوم الخاص به وبعد محاولات عديدة نجح في تثبيت ذهنه على حلم واحد بحيث يكون دائماً هو نفس الحلم وهو عن شخص يحلم بأنه لا يرغب في أن يخفي حلما بآخر مثل محو انطباعات الأقدام الواشية، هذا شيء بسيط فكل ما عليك أن تفعله هو أن تجرجر غصن شجرة وراءك بحيث لا تترك وراءك سوى بعض الأوراق المتناثرة التي سرعان ما تذروها الرياح وتختلط مع التراب، وعندما يستيقظ من النوم يكون موعد تناول الغداء قد حل، فيغتسل ويحلق ذقنه ويرتدى ملابسه في حركات آلية لا يشالك فيها الذهن إلا نادرا، هذا الوجه المغطى برغوة الصابون هو قناع يمكن

أن يتلاءم مع وجه أي رجل، وعندما يكشف الموسى تدريجيا عما تحته يثار اهتمام ريكاردو ريس من خلال ما يراه بل ويشعر بالانزعاج وكما لو كان خائفا من احتمال بزوغ آفة أو كارثة من نوع ما، ويتفحص نفسه في دقة في المرآة ويقارن وجهه بالوجه المختلفة غير المعروف الذي كان لديه ذات يوم، ويقول لنفسه أنه طالما يحلق ذقنه في كل يوم ويشاهد في كل يوم هاتين العينين وهذا الفم وهذه الأنف وهذا الذقن وهذين الخدين الشاحبين وهذين العضوين الاضافيين السخيفين اللذين يسميان بالأذنين فإن مثل هذا التغير يعتبر أمراً مستحيلا ومع كل ذلك فهو يشعر بأنه متأكد تماماً من أنه قد أمضى سنوات في مكان ما بدون مرايا لأنه حاليا ينظر ولا يستطيع التعرف على نفسه، وفي كثير من الأحيان يتقابل بالمصادفة ـ لدى خروجه لتناول طعام الغداء ـ مع الرجلين العجوزين لدى مجيئهما في الشارع فيلقيان بالتحية عليه: نهارك سعيد يا دكتور، فيرد عليهما: نهاركما سعيد، رغم أنه لا يعرف اسميهما وقد يكونان بمثابة شجرتين أو نخلتين، وعندما يشعر بأنه منحرف المزاج فإنه يذهب للسينما ولكنه يرجع عادة إلى شقته عقب الغداء، الحديقة مهجورة في التوهج الوحشى للشمس ولمعان النهر يحدث زغللة في العيون وآداماستور محبوس في داخل كتلة صخرية وعلى وشك أن يطلق صرخة هائلة لأنه غاضب من الوجه الذي منحه له النحات ولأنه حزين لأسباب لا نعرفها منذ صدور القصيدة الملحمية التاريخية التي كتبها كاموس، ومثل الناس الطاعنين في السن يحتمى ريكاردو ريس بظلال مسكنه الذي عاد إليه التعفن السابق تدريجيا، وتقوم ليديا بفتح كل النوافذ عندما تجئ ولكن هذا لا ينفع لأن رائحة العفن تبدو وكأنها تنبعث من الثاث ومن الحوائط ذاتها والصراع غير متكافئ على نحو أكيد وليديا بدأت تجئ على مدى مرات أقل من ذى قبل، ومع اقتراب فترة المساء ومع

ظهور الدلائل الأولى للنسيم يخرج ريكاردو ريس ويجلس على مقعد خشبي طويل بالحديقة وبحيث لا يكون قريبا للغاية أو بعيداً للغاية عن الرجلين العجوزين، واعطاؤه لهما جريدة الصباح عقب الانتهاء من قراءتها يعتبر هو الاحسان الوحيد الذي يقوم به، فهو لا يقدم لهما الطعام لأنهما لم يطلبا منه تزويدهما بأي طعام على الرغم من أنهما لم يطلبا الحصول على هذه الصفحات المطبوعة للأبناء أيضاً ويمكن لك أيها القارئ أن تعتبر أي العملين أكثر كرما لو تم الإتيان بهما معا، ولو سألنا ريكاردو ريس عما يفعله في شقته بمفرده طوال كل ذلك الوقت، فإنه قد يهز كتفيه بكل بساطة، ربما يكون قد نسى أنه انخرط في بعض القراءات وكتب قليلا من الشعر وتجول في الدهاليز والطرقات وأمضى بعض الوقت في الجزء الخلفي من المبنى المطل على الفناء أسفله وعلى أحبال الملابس المغسولة والملايات البيضاء والفوط والمناشف وعلى حظائر الدواجن وعلى القطط النائمة على الحوائط والجدران تحت الظلال، لا توجد هناك كلاب ولكن لا توجد ممتلكات تتطلب الحراسة، ثم هو قد رجع إلى قراءاته وإلى أشعاره حيث يكتب ويمزق الأوراق مرارا وتكرارا عندما يشعر أن القصيدة التي كتبها لا تستأهل الاحتفاظ بها، وبعدئذ كان ينتظر لحين أن تخف درجة الحرارة ولحين أن يبدأ النسيم الأول لفترة المساء، وبينما كان يهبط على السلالم ظهرت الجارة التي تسكن بالدور الثاني عند بسطة السلم، الزمن قد خفف من حدة الدردشة الخبيثة ولم يعد يوجد هناك نفس الاهتمام الشديد إذ عاد المبنى كله إلى الهارمونية والتوافق والتعايش الودى وتساءل ريس: حسناً هل يشعر زوجك بالتحسن؟ فقالت: شكرا جزيلا لك يا دكتور فمساعدتك كانت عملا من أعمال العناية الالهية كانت بمثابة معجزة فقال: ذلك كل ما نسعى إليه فنحن نسعى لمشاهدة أعمال

العناية الآلهية والمعجزات، فقالت: أليس من المعجزات أن يكون لدينا طبيب يسكن معنا في نفس العمارة بحيث يمكن له المجئ لمساعدتنا عندما نتعرض للآلام؟ فقال ريس: هل أفرغ محتويات أمعائه؟ فقالت: لقد تخلص من كل ما في جوفه شكرا لله يا دكتور، وهكذا هي الحياة فاليد التي تكتب اسم الدواء المسهل للأمعاء بالروشتة تكتب أيضاً الشعر الرفيع المستوى أو الشعر المقبول على الأقل «تكون لديك شمس مشرقة إذا كانت توجد هناك شمس مشرقه وتكون لديك ازهار إذا كانت توجد هناك ازهار وتكون لديك ثروة كبيرة إذا ابتسم لك الحظ».

الرجلان العجوزان يقومان بقراءة الجريدة ونحن نعرف بالفعل أن أحدهما أمي لا يعرف القراءة والكتابة ولذلك فهو يكون أكثر انخراطاً في التعليقات عندما تجيء الفرصة لإبداء التعليقات وبذلك تكون أراؤه وتعليقاته بمثابة وسيلة لعمل تعادل في كفتى الميزان، فإذا كان أحدهما يعرف فالآخر يشرح ويفسر، استمع إلى هذه القصة عن لون سيكس هاندريد مثيرة للضحك حقا، وأنا قد عرفته على مدى سنوات وعرفته عندما كان يقود تراما وكان دائماً ما يصطدم بالعربات الكارو حيث كان يحلو له أن يفعل ذلك فوضعوه في السجن ٣٨ مرة وأخيرا أصدروا قرارا بفصله من العمل بعد أن اكتشفوا أنه لا سبيل إلى إصلاحه على الإطلاق ولكن اللوم كان يقع بعض الشيء على سائقى العربات الكارو لأنهم كانوا يتحركون في سرعة ضئيلة للغاية ولا يسرعون أبداً وعندئذ كان لون سيكس هاندريد يدوس على الجرس بكعب حذائه ذى الرقبة ويرغى ويزبد موجها الشتائم العربجية إلى أن يصبح غير قادر على تحمل الموقف والصبر أكثر من ذلك ومن هنا كان ينطحهم ويرتطم بقوة بهم ويتفجر الشجار والمعارك فتجيء الشرطة وتأخذ كل شخص إلى السجن ولكن لون سيكس هاندريد يقود الآن عربة كارو أيضاً ويتشاجر مع

سائقي الترام الذن هم زملاؤه السابقون لأنهم يعاملونه بنفس الطريقة التي اعتاد أن يعامل بها سائقي العربات الكارو والمثل القديم يقول: كما تزرع تحصد، وهكذا اختتم الرجل العجوز الذي لا يعرف القراءة كلامه بحكمة أعطت كلامه تأثيراً شفائياً، وكان ريكاردو ريس جالسا على نفس المقعد الخشبي الطويل وهو أمر نادرا ما يحدث ولكن كل المقاعد الأخرى مشغولة اليوم، ولإدراكه أن مونولوج الرجل العجوز كان لصالحه فإنه تساءل: وهذا اللقب التهكمي لون سيكس هاندريد كيف حصل عليه؟ فقال الرجل العجوز الأمي: أنه عمل في شركة الترام وكان رقمه ٦٠٠ ثم اطلق الناس عليه كلمة لون بسبب سلوكه الردئ، فقال ريس لقد فهمت، وعندما عاد الرجلان العجوزان إلى القراءة سمح ريكاردو ريس لأفكاره بأن تطوف في تجوال، ترى ما هو اللقب التهكمي الذي يتلاءم معي؟ ربما يكون ذلك الدكتور بارد اختصارا للعائد من البرازيل، الرجلان العجوزان يحبان أن تنصب القراءة على الدراما النابضة بالحياة عن الحياة اليومية مثل حالات النصب والدجل والسلوك المتنافي مع الأخلاق والحشمة وأعمال العنف أو اليأس والأعمال الخفية الغامضة التي تتم في الليل والجرائم المتعلقة بالعاطفة والجنين المتخلَّى عنه وحوادث تصادم السيارات وعجل مولود برأسين وكلبة ترضع القطط الصغيرة، على الأقل فإن هذه الكلبة لا تشبه أوجولينا التي أكلت صغارها، وتدور مناقشاتهما الآن عن ميكاس سلوى التي لها اسم حقيقي وهو ماريا كونسيكو والتي صدر ضدها ١٦٠ حكما بالسجن بسبب السرقة علاوة على نفيها إلى أفريقيا مرات عديدة، وبعدئذ كانت هناك جوديت ميلكاس الكونتيسة المزيفة القادمة من كاستيلو مليور والتي خدعت ضابطاً برتبة ملازم يعمل في الحرس الجمهورى الوطني واستولت على مبلغ ٢ كونتو نم ٥٠ ريس وهو مبلغ من المال سوف

يبدو تافها للغاية بعد مرور خمسين عاما من الآن ولكنه في تلك الأوقات العجاف يعتبر بمثابة ثروة، حيث أن نساء بينافينتى اللاتي يعملن من الفجر حتى غروف الشمس في مقابل عشرة آلاف ريس يمكن أن يشهدن على ذلك، الانباء الأخرى أقل إثارة وأقل متعة: عقد مهرجان لمدة يوم في نادى جوكي حضره الآلاف من الضيوف ولا ينبغي لنا أن نندهش من حضور كل هذا الحشد الكبير للغاية فنحن نعرف كيف أن البرتغاليين يحبون كثيراً المهرجانات وخاصة الاحتفالات التي تنظم لصالح ضحايا فيضان ريباتيجو ومن بينهم ميكاس دى بوردا التي هي من بينافينتى والتي سوف تتسلم نصيبها من المبلغ الإجمالى الذي يبلغ ٤٥٠٧٥٣ اسكود.

الاخبار عن باقى انحاء العالم لم تتغير كثيراً والاضراب عن العمل ما زال مستمرا في فرنسا حيث وصل الآن عدد العمال المضربين حوالى ٥٠٠ ألف عامل ومن المتوقع للحكومة التي يرأسها البرت ساروت أن تقدم استقالتها ويعقب ذلك حكومة جديدة يقوم بتشكيلها ليون بلوم وسيظهر انطباع ولو بصفة مؤقتة يشير إلى أنه تمت تلبية مطالب المُضربين.

وفي الصباح المبكر ذات يوم وبينما يرقد ريكاردو ريس يغفو في سنة من النوم يسمع طلقات مدافع صادرة عن السفن الحربية الموجودة في نهر التاجوس، حيث انطلقت ٢١ طلقة رزينة على فترات منتظمة مما جعل زجاج النوافذ يهتز، فظن أن حربا أخرى قد تفجرت وبعدئذ تذكر أنه كان قد قرأ في اليوم السابق أن العاشر من يونيو هو العيد القومي للبرتغال الذي يذكرنا بالاجداد ويؤكد على تفانينا في تحقيق انجازات المستقبل، وبينما هو شبه نائم ساءل نفسه في تعجب عما إذا كانت لديه القوة التي تعينه على أن يقفز خارجا من هذه الملايات لكي يفتح النوافذ

على مصاريعها ويدع التحيات المدوية في بطولة تدخل بدون اعاقة وتشتت الظلال الموجودة في داخل شقته وتبدد العفن الفطرى ورائحة العفن الماكرة، ولكن بينما كان يفكر في هذا الأمر ويتناقش مع نفسه تلاشت آخر الذبذبات وهبط صمت هائل مرة أخرى على ألتو دى سانتا كاتارينا وهنا أغلق ريكاردو ريس عينيه واستسلم للنوم مرة أخرى، الحياة على هذا النحو تدار على نحو ردئ، فنحن ننام عندما ينبغي علينا أن نكون متيقظين ونرحل عندما ينبغي علينا أن نكون في حالة وصول ونغلق النافذة عندما ينبغي علينا أن نتركها مفتوحة، وفي فترة ما بعد الظهر ولدى عودته عقب تناول طعام الغداء شاهد باقات من الزهور عند قدمي تمثال كاموس حيث وضعت اجلالا من جانب اتحاد الوطنيين نحو الشاعر الملحمى البطولى الذي عبر عن شجاعة الأمة وبسالتها حتى يمكن للجميع أن يعرفوا أننا تخلصنا من الاكتئاب الذي أصابنا بالضعف وحط من قدرنا في القرن السادس عشر، وصدقنى أننا اليوم شعب سعيد للغاية وبمجرد أن يهبط الظلام سنشعل كل المصابيح ذات الضوء الغامر هنا في الميدان بل وسيتم انارة تمثال السينيور كاموس بل وسيتغير تماماً منظر هذا التمثال من خلال الاشراق المبهر للأبصار، وصحيح أن عينه اليمنى مصابة بالعمى ولكنه مازال يستطيع الرؤية بعينه اليسرى وإذا اشتكى من أن الضوء مبهر للغاية وعبر عن ذلك بكل حرية وبدون أي تردد فإنه يمكن لنا بكل سهولة أن نخفض الضوء بحيث يصبح شبيها بضوء الشفق الأحمر وهو التوهج الأصلى الذي اعتدنا عليه، لو كان ريكاردو ريس قد خرج في هذا المساء لكان قد تقابل مع فرناندو بسوا في براسا دى لويس دى كاموس الذي كان جالسا على أحد تلك المقاعد الخشبية الطويلة كما لو كان يستمتع بنسيم الهواء الجميل ولقد جاءت إلى نفس المكان عائلات وأفراد بحثا عن نفس هذا الانتعاش

وتجديد النشاط وتوجد كميات هائلة من الضوء حتى انها تكاد تكون مماثلة لضوء النهار فتتوهج الوجوه كما لو كانت تمر بحالة من الغبطة الصوفية الغامرة ومن هنا يمكن للمرء أن يفهم السبب في أن هذا اليوم يسمى: العيد القومي للأمة، ولكي يشارك فرناندو بسوا في الاحتفال بهذه الذكرى السعيدة فإنه يحاول أن يتلو في داخل ذهنه تلك القصيدة التي وردت في ديوان «المنساجم» والتي أهديت لكاموس ويتطلب الأمر مرور بعض الوقت لكي يدرك أنه لا توجد هناك قصيدة كهذه، أهذا معقول؟ لن يتأكد إلا من خلال الرجوع إلى الديوان ذاته، وفي نفس هذه اللحظة وفي شقته بالدور الثالث بشارع سانتا كاتارينا، كان ريكاردو ريس يحاول أن يكتب قصيدة من أجل مارسيندا لكي لا تقول الاجيال القادمة أنها قد ماتت بدون أن تأخذ نصيبها من التبجيل والاحترام «إنني متهلف من الآن على مجئ الصيف وأنا أيضاً أبكي من أجل أزهاره التي أدرك أنها سوف تذبل بكل تأكيد»، ذلك هو الجزء الأول من القصيدة وإلى حد كبير لن يخمن أحد أنه يتكلم عن مارسيندا ولكن غالبا ما يبدأ الشعراء من عند الأفق لأن ذلك هو أقصر طريق يؤدي إلى القلب، وبعد ذلك بنصف ساعة أو ساعة أو أكثر من ساعة لأن الأمر إذا كان يتعلق بكتابة الشعر فإن الزمن أما أن يتطبأ أو يسرع تشكل الجزء الأوسط من القصيدة، أنه ليس التفجع والرثاء الذي تبدى في بادئ الأمر وإنما هو تقبل الشى الذي ليس له علاج، بعد أن عبرتُ عتبة كل عام المحتومة أبدأ أشاهد أمامى الوادى الخالى من الأزهار والجحيم الذي يدمدم في قعقعة»، الوقت الآن في الفجر والمدينة كلها تنام والأضواء المبهرة الغامرة المحدقة بالتمثال قد تلاشت لأنها بدون مشاهدين لها لا تخدم أي غرض، ويعود فرناندو بسوا إلى بيته ويقول: لقد رجعت الآن يا جدتى، وفي نفس هذه اللحظة تستكمل القصيدة نفسها في شيء من

الصعوبة، إذ تم ادخال شولة منقوطة بدون رغبة حيث قاومها ريكاردو ريس ولم يكن يريدها ولكنها انتصرت «وأنا أقطف الوردة لأن القدر يقطف مارسيندا ويعزها ويدللها ويتمسك بها ويبقيها لديه، دعوها تذبل على صدرى وليس على السطح النهارى الشاسع المنحنى للكرة الأرضية» ويستلقى ريكاردو ريس على السرير وهو ومرتدٍ ثيابه الكاملة بينما يده اليسرى ملقاة على قصاصة الورقة، لو انتقل الآن من مرحلة النوم إلى مرحلة الموت سيظن الناس بطريق الخطأ أن تلك القصاصة هي وصيته أو خطاب توديع ولن يعرفوا ماذا يصنعون بتلك القصاصة حتى بعد قراءتهم لها لأنه من الذي سمع عن امرأة تسمى مارسيندا؟ فمثل هذا الاسم يجئ من كوكب آخر والمثال على ذلك كلمة بليموندا Blimunda أيضاً فهي اسم غامض بانتظار أن يستخدم بمعرفة امرأة مجهولة، على الأقل امرأة تسمى مارسيندا قد عثر عليها ولكنها تعيش في مكان بعيد.

هنا إلى جواره وعلى نفس هذا السرير كانت توجد ليديا عندما شعرا بالأرض تهتز، استمر الارتجاف لفترة قصيرة ولكنه هز المبنى من أعلاه لأسفله قبل أن ينقضى مما جعل الجيران الواقفين على السلالم في حالة هستيريا وجعل النجفة تهتز مثل بندول الساعة، وكانت تلك الأصوات المليئة بالرعب تبدو فاحشة وداعرة، المدينة كلها ربما من خلال ذكرى رهيبة عن زلازل أخرى مازالت محفورة في داخل أحجارها كانت تنتظر وهي مشدوهة في ذهول بين طيات الصمت الذي لا يحتمل والذي أعقب الهزة الأرضية عندما لا يستطيع المرء أن يفكر وإنما يسائل نفسه: هل الهزة الأرضية ستعود مرة أخرى؟ وهل أنا سأموت؟ بقى ريكاردو ريس وليديا في السرير، وكانا عاريين تماماً، ومستلقيين على ظهريهما مثل تمثالين وبدون أن يكون هناك مجرد ملاية تغطى جسديهما، لو جاء

الموت في هذه اللحظة لوجدهما في حالة استسلام واذعان ورضا ولوجدهما مازلا يتنفسان في أنفاس لاهثة عميقة ولوجدهما مازالا مبللين بالعرق والافرازات الخاصة بهما بينما قلباهما يدقان في عنف لأن جسديهما لم ينفصلا إلا منذ دقائق قليلة مما جعلهما مليئين بالحياة تماماً، وعلى نحو فجائي يرتجف السرير ويهتز الأثاث ويصدر صوت كالصرير من الأرضية والسقف، هذه ليست اللحظة النهائية المتسمة بالدوخة لهزة الجماع وإنما هي الأرض تزأر من داخل أعماقها، وقالت ليديا: نحن بصدد أن نموت، ومع ذلك فهي لم تمسك في تشبث بالرجل الموجود إلى جوارها على النحو الذي يمكن أن يتوقعه المرء، النساء بوجه عام يكن على هذا النحو، أما الرجال فهم الذين يقولون في رعب: الأمر بسيط للغاية، عليك بالالتزام بالهدوء لقد انتهت هذه الموجة فهي كلمات يقولونها من أجل تهدئة أنفسهم وليس تهدئة الآخرين، ومع الارتجاف في رعب قال ريكاردو ريس هذا أيضاً وكان على حق لأن موجة الزلزال قد انتهت بالفعل وهدأت تدريجيا أصوات الجيران الذين كانوا يصيحون على السلالم إلا أن المناقشات استمرت حيث نزل أحدهم إلى الشارع وذهبت إحداهن إلى نافذتها من أجل أن ترقب الضجيج العمومى، ولدى استعادة الهدوء والسلام على نحو تدريجى تستدير ليديا نحو ريكاردو ريس فيستدير هو الآخر نحوها ويضع كل منهما ذراعه على جسد الآخر فيقول مرة أخرى: لقد كان الأمر بسيطاً للغاية، فتبتسم له إلا أن ابتسامتها كانت تحمل معنى مختلفا وكان من الواضح أنها لا تفكر في الهزة الأرضية، انهما في حالة استلقاء مع تبادل النظرات إلا أنهما كانا بعيدين للغاية عن بعضهما البعض ومختلفين من حيث الأفكار التي تدور في رأس كل منهما على نحو ما نشهده الآن عندما تقول في سرية وعلى نحو فجائي: أعتقد أنني حامل

فالحيض قد تأخر الآن عن موعده بعشرة أيام، فيحاول أن يكسب بعض الوقت فيقول: ماذا قلت؟ فتقول ليديا: العادة الشهرية تأخرت عن موعدها بعشرة أيام وأعتقد أنني حامل، ومرة أخرى تبدو أكثر اتزانا وتماسكا منه، إنها على مدى الأسبوع الماضي وفي كل يوم وفي كل لحظة لم تفكر في أي شيء آخر بخلاف هذا الموضوع، وربما هي فكرت في هذا الموضوع عندما قالت منذ لحظات نحن بصدد أن نموت، وقد يتساءل المرء في تعجب عما إذا كان ريكاردو ريس متضمنا في ذلك الجمع، إنه يتوقع منها أن تسأل سؤالاً مثل: ما الذي ينبغي على أن أفعله؟ ولكنها تظل ملتزمة بالصمت ومخفية العظم العانى الخاص بها من خلال انحناء خفيف لركبتيها، لا توجد دلائل مرئية على الحمل اللهم إلا إذا كان بمقدورنا أن نفك شفرة ما تقوله عيناها، ويبحث ريكاردو ريس في ذهنه عن الكلمات المناسبة ولكن كل ما يجده في داخل نفسه هو اللامبالاة، وعدم الاكتراث كما لو أنه يشعر أنه غير متورط في هذا الموضوع وذلك على الرغم من أنه يدرك أنه مضطر لتقديم المساعدة من أجل حلّ هذه المشكلة، أو بالأحرى هو يرى نفسه قائما بدور طبيب أفضت له مريضته بسرها، إذ تقول له: آه يا دكتور إنني حامل وهذا الحمل جاء في وقت غير ملائم على الإطلاق، والطبيب لا يقول لها: يمكن عمل إجهاض لك بسهولة ولا تكوني ساذجة وبلهاء، وإنما على العكس من ذلك فهو يتخذ طابع الوقار ويقول: إذا لم تكوني قد اتخذت أنت وزوجك الاجراءات الوقائية فإنه من المحتمل أن تكوني حاملا ولكن فلننتظر على مدى أيام قليلة أخرى فلربما تكون العادة الشهرية قد تأخرت عن موعدها فذلك يحدث في بعض الأحيان، ولكن ريكاردو ريس لا يستطيع التحدث بمثل هذا الحياد لأنه والد هذا الجنين حيث لا توجد أية دلائل تشير إلى أن ليديا

في خلال الشهور القليلة الأخيرة قد اضطجعت مع أي رجل آخر سواه وما زال الأب يجاهد مع الكلمات من أجل اختيار الملائم منها، وأخيرا وبعد أن تحسس طريقه في حذر شديد وبعد أن قام بتقييم كل عبارة سيقولها فإنه يقوم بتوزيع اللوم حيث يقول: لقد كنا مهملين وغير ملتزمين بالحرص والحذر وبالتالي كان من المتوقع أن يحدث هذا الحمل على نحو أكيد إن عاجلا أم آجلا، ولكن ليديا لا تتساءل قائلة: ما هي التدابير التي كان على أن اتخذها فهو لم يسحب نفسه أبداً أثناء اللحظة الحرجة بالجماع بل ولم يستخدم أبداً الأكياس المطاطية ولكن هذا لايزعجنى، وإنما تقول بكل بساطة: إنني حامل، وبرغم كل شيء فإن الحمل يحدث لكل امرأة تقريبا وأن تصبح امرأة حاملا لا يعتبر زلزالا، ويتخذ ريكاردو ريس قرارا أنه ينبغي له أن يعرف نواياها ومقاصدها ولا داع للزوغان وتجنب هذه المشكلة، فيتساءل: أتفكرين في الاحتفاظ بالطفل؟ وطالما أنه لا يوجد أحد يسترق السمع وإلا فإن ريكاردو ريس سيجد نفسه متهما بالتحريض على الاجهاض ولكن قبل سماع الشهود وقبل أن يصدر القاضى حكمه تأخذ ليديا خطوة للأمام وتعلن: لسوف أحتفظ بالطفل، ولأول مرة يشعر ريكاردو ريس بإصبع يلمس قلبه، إنه لا يمر بتجربة آلام أو التواء أو برد ولكنه احساس على غير مثال مثل أول تصافح بالأيدي بين رجلين ينتميان لكوكبين مختلفين وكلاهما من الآدميين ولكنهما غريبان عن بعضهما البعض تماماً ويسائل ريكاردو ريس نفسه في صمت: ما هو الجنين البالغ من العمر عشرة أيام؟ ولا يستطيع العثور على إجابة، في سنواته كطبيب كان قد شاهد خلايا تتكاثر من خلال الميكروسكوب كما شاهد رسومات توضيحية تفصيلية في الكتب إلا أنه الآن لا يرى أي شيء سوى هذه المرأة الصامتة الكئيبة غير المتزوجة والتي تعمل خادمة غرف بفندق والتي

تسمى ليديا والتي انكشف ثدياها وبطنها ولا شيء مغطى في خجل سوى عظام العانة كما لو كانت تخفي سرا، وجذبها نحوه فاستسلمت مثل شخص ما يجد أخيراً ملاذا يبتعد به عن العالم كله، وعلى نحة فجائي يحمر وجهها خجلا ويتفجر بالغبطة الغامرة ويتوسل مثل عروسة خائفة بينما تقول: ألست غاضباً مني؟ فيقول: كيف تقولين ذلك ولماذا ينبغي أن أكون غاضبا؟ هذه الكلمات لا تعبر بصدق عما يعتمل في داخل كيانه، إذ كان غضب هائل يموج في داخل كيان ريكاردو ريس وهو يقول لنفسه في تفكير صامت: لقد أوقعت نفسي في ورطة كبيرة وإذا لم يتم اجهاضها سيصبح لدى طفل بين يدي ولسوف اضطر للاعتراف به على أنه طفلي فأنا إنسان متسم بالالتزام الأخلاقي يا لها من ورطة شديدة، لم يخطر على بالى من قبل أن شيئاً من هذا القبيل يمكن أن يحدث لي، واقتربت ليديا منه في تودد وهي ترغب في أن يمسك بها في احكام لأن ذلك سيجعلها تشعر بالارتياح ثم قالت بطريقة عرضية هذه الكلمات التي لا يصدقها العقل: إذا كانت لا ترغب في الاعتراف بالطفل فهذا لا يهمنى فالطفل يمكن أن يكون غير شرعي مثلي أنا تماماً، فشعر ريكاردو ريس بالدموع تملأ عينيه بعضها دموع الخجل والحياء والبعض الآخر دموع الشفقة لو كان هناك شخص ما يستطيع أن يعرف الفارق، وأخيرا وفي اخلاص في نهاية الأمر احتضنها وقبلها، تصوروا أنه قبلها في قبلة طويلة وعميقة للغاية في شفتيها بعد أن شعر بالتخفف من هذا العبء الهائل، توجد لحظات كهذه في الحياة نظن فيها أننا نمر بتجربة العاطفة بينما هي في حقيقة الأمر ليس سوى اندفاع للتعبير عن الإقرار بالفضل والعرفان بالجميل، ولكن الانغماس في الشهوات الحسية يعطي انتباها ضئيلا نحو هذه الأمور الرقيقة ففي خلال ثوان أصبح ريكاردو ريس وليديا متحدين في اتصال جنسي مليء

بالتأوهات والتنهدات فهما لم يعودا بحاجة للاحتراس والحذر الآن بعد أن أصبح الطفل موجودا في الرحم بالفعل.

هذه هي أيام من الجنة والنعيم، فقد حصلت ليديا على إجازة من العمل بالفندق وأصبحت تمضى كل وقتها تقريبا مع ريكاردو ريس ثم تذهب لتنام في منزل والدتها وذلك بهدف تجنب الشائعات التي تتفجر بين الجيران الذين على الرغم من العلاقات الطيبة التي تكونت منذ أن قدم الدكتور بعض النصائح الطبية يستمرون في التعليق في خبث على هذه الاتصالات المشينة التي تتم بين السيد والخادمة وهو أمر شائع في لشبونة هذه مهما تمت محاولات الاخفاء في حذر شديد، فقد يلمح شخص ما حساس إلى أن الناس بمقدورهم أيضاً أن يفعلوا أثناء النهار ما يفعلونه عادة أثناء الليل ولكن آخر قد يرد مشيرا إلى أنه أثناء النهار لا يوجد متسع من الوقت بسبب التنظيف الهائل الذي يتم في فصل الربيع في البيوت في كل عيد فصح عقب الشتاء الطويل مما يوضح السبب في أن خادمة الدكتور تجيء مبكرة في كل صباح وتغادر شقته مع حلول الشفق الأحمر وتنجز أعمالها على خير ما يرام مستخدمة الفرشاة والمنفضة وفرشاة الحك ومقشة وقطعة من الخيش، فالشقة تحتفل بسبت البعث وأحد عيد الفصل من خلال أعمال هذه الخادمة المتواضعة التي تمر بيديها فقو الأشياء فتحولها إلى أشياء لامعة نظيفة، ولو كانت مارسيندا تعيش هنا من حيث هي سيدة المنزل الشرعية لما استطاعت أن تتنافس ـ حتى ولو كانت يداها الاثنتان سليمتين ـ مع ليديا في أعمال النظافة، فمنذ أيام قليلة كانت الشقة تنتشر بها رائحة العفن الفطرى والتراب ورائحة المجارى المسدودة بينما يتغلغل الضوء والنور الآن في كل الأركان البعيدة ويجلع كل الزجاج شبيها بالبللور ويلمع كل سطح بينما السقف في حد ذاته يصبح مضاء بالانعكاسات لدى دخول الشمس

من النوافذ، ومن خلال العمل اليدوى الحقير كان هذا التحول الرائع يتحقق، وربما كانت هذه الشقة سماوية الطابع وذلك بسبب كثرة ممارسة الحب ما بين ريكاردو ريس وليديا وتلك هي متعة الأخذ والعطاء الخاصة بهما وأنا لا أعرف ما الذي دهاهما حتى يمارسا بهذه الكثرة والقوة، أيكون الصيف هو الذي يشعل السخونة في جسديهما؟ أيكون السبب في ذلك هو وجود ذلك الاهتياج الضئيل لديها.

ولكن إجازة ليديا قد انتهت الآن ويعود كل شيء إلى الوضع الطبيعي السابق فهي سوف تجيء ـ كما كان يحدث قبل ـ مرة واحدة أسبوعيا في يوم أجازتها، والآن وحتى إذا عثرت الشمس على نافذة مفتوحة يكون الضوء مختلفا حيث يكون أكثر ضعفا، إذ أن منخل الزمن قد بدأ ينخل مرة أخرى التراب الشديد النعومة الذي يجعل الخطوط الخارجية تتعتم ويجعل الملامح ضبابية ومشوشة، فعندما يطوى ريكاردو ريس أغطية السرير في الليل فإنه لا يكاد يرى الوسادة التي سيريح عليها رأسه إلا بصعوبة، وفي الصباح لا يستطيع النهوض بدون أن يتعرف على نفسه أولا ويحدد مستخدماً يديه الاثنتين خطاً وراء خط ما يمكن أن يعثر عليه من نفسه مثل بصمة أصبع تنطمس جزئيا من خلال ندبة غائرة كبيرة وذات ليلة قام فرناندو بسوا الذي لا يظهر أبداً عندما تكون هناك حاجة إليه بالطرق على باب شقة ريكاردو ريس، فقال له ريسس: إنني لم أخرج كثيراً في الآونة الأخيرة لأنني أصبحت أضل الطريق بسهولة كبيرة مثل امرأة عجوز متخاذلة الذاكرة والشيء الوحيد الذي ينقذنى هو الصورة الذهنية التي مازلت احتفظ بها لتمثال كاموس فإذا ركزت ذهني عليها أستطيع عندئذ التعرف من جديد على الاتجاهات ومن ثم لا أضل الطريق، فقال ريس: ولنأمل أن تقوم السلطات بإزالة تمثال كاموس حيث توجد في هذه الأيام موجة جنون تنصب على إزالة الأشياء،

وذهب ريكاردو ريس إلى المطبخ من أجل الحصول على بعض القهوة ثم عاد إلى المكتبة وجلس في مواجهة فرناندو بسوا وقال: أشعر دائماً أنه من العجيب ألا أكون قادرا على أن أقدم لك فنجانا من القهوة، فقال بسوا: املأ فنجانا آخر بالقهوة وضعه أمامي وأنا سأكون بصحبتك أثناء قيامك بتناول القهوة، قال ريس: لا أستطيع الاعتياد على الفكرة التي مفادها أنك لا توجد، فقال بسوا: سبعة أشهر قد انقضت الآن وهي فترة تكفي لتكوين حياة ولكنك تعرف معلومات عن الحياة أكثر مني لأنك طبيب.

وبعد أن انتهي ريكاردو ريس من تناول القهوة راح يتناقش فيما إذا كان عليه أن يقرأ القصيدة التي أهداها إلى مارسيندا وهي القصيدة التي تبدأ بـ«متلهفة من الآن على حلول الصيف» وعندما اتخذ قرارا في هذا الشأن وبدأ ينهض من الأريكة قال فرناندو بسوا: من المؤكد أن لديك فضائح أخرى تريد الاعتراف بها، وعلى الفور وبدون تفكير أعلن ريكاردو ريس في سبع كلمات عن أكبر الفضائح كلها، إذ قال: إنني على وشك أن أصبح والدا، فنظر فرناندو بسوا إليه في دهشة بالغة ثم انفجر ضاحكا في صوت مدو حيث لم يستطع أن يصدق ذلك النبأ وقال: أنت تمزح، فقال ريكاردو ريس في شيء من الضيق والخشونة: إنني لا أمزح وعلاوة على ذلك فإنني لا أعرف السبب الذي يجعلك تدهش فإذا كان هناك رجل ينام بصفة منتظمة مع امرأة يصبح من المحتمل جداً أن تحبل وذلك هو ما حدث بالنسبة لحالتي، فقال فرناندو بسوا: ومن هي الأم، ؟ هل هي ليديا الخاصة بك أم مارسيندا الخاصة بك أم توجد هناك امرأة ثالثة فمعك لا يمكن للمرء أن يعرف أبدا؟ فقال ريكاردو ريس: لا توجد امرأة ثالثة كما أنني لم أتزوج مارسيندا، فقال بسوا: آه اذن فأنت لن تنجب من مارسيندا إلا إذا كنت

متزوجا منها؟ فقال ريكاردو ريس: حسناً هذا شيء واضح فأنت تعرف الطابع الأخلاقي المتشدد الذي تحرص عليه العائلات المتمسكة بالتقاليد، فقال فرناندو بسوا: وخادمات الغرف بالفنادق ليس لديهن مثل هذه التقاليد المتشددة؟ فقال ريكاردو ريس: أحيانا يكون لديهن نفس التقاليد المتشددة، فقال فرناندو بسوا: هذا صحيح، أتذكر عندما قال لنا ألفارو دى كامبوس كيف أن خادمة فندق قد سخرت منه وتهكمت عليه؟ فقال ريكاردو ريس: ليس بذلك المعنى، فقال فرناندو بسوا: الأشياء التي يعرفها المرء بعد أن يموت، فقال ريس: أنت لا تعرف ليديا، فقال بسوا: يا عزيزي ريس لسوف أتناول دائماً موضوع ابنك بكل الاحترام والتبجيل ولكن نظرا لأنني شخصيا لم يسبق لي أن كنت والدا فإننا لا أستطيع أن أترجم هذه المشاعر الميتافيزيقية إلى الحقائق المضجرة للحياة اليومية، فقال ريس: توقف عن هذه السخرية اللاذعة، فقال بسوا: من المؤكد أن أبوتك الفجائية قد جعلت حواسك متبلدة وإلا لكنت قد أدركت أنه لا يوجد أي تهكم لاذاع في الكلام الذي أقوله لك، ثم راح فرناندو بسوا يملس على شاربه وتساءل: أمازلت تفكر في العودة إلى البرازيل؟ فقال ريكاردو ريس: تجيئ على أيام أشعر فيها وكأنني قد رجعت إلى البرازيل وأصبحت موجودا هناك بالفعل كما تجيئ على أيام يسيطر على فيها انطباع بأنني لم يسبق لي الذهاب إلى البرازيل على الإطلاق، فقال فرناندو بسوا: أي بكلمات أخرى فأنت تطفو في منتصف المحيط فلا أنت هنا ولا أنت هناك، فقال ريكاردو ريس: شأني في ذلك شأن بقية الشعب البرتغالي: فقال بسوا: ولكن هذا يعطيك فرصة عظيمة لتكوين حياة جديدة لنفسك مع زوجة وطفل، فقال ريكاردو ريس: إنني لا أنوى الزواج من ليديا بل ولم أتخذ قرارا حتى الآن بشأن ما إذا كنت سأعترف بأبوتى للطفل أم لا، فقال فرناندو

بسوا: إذا سمحت لي بأن أقول لك رأيي يا عزيزي ريس فإنني أقول لك إنك وغد ونذل، فقال ريس: ربما ولكن ألفارو دى كامبوس أخذ قروضا ولم يردها على الإطلاق، فقال فرناندو بسوا: وهو أيضاً كان وغدا ونذلا فقال ريكاردو ريس: أنت في الحقيقة لم تكن تنسجم معه على الإطلاق، فقال بسوا: إنني في الحقيقة لم أكن أنسجم معك على الاطلاق، فقال ريس: نحن في حقيقة الأمر لم نكن نفهم بعضنا البعض، فقال بسوا: كان ذلك أمراً محتوما نظرا لأن كل واحد منا يضم في داخل كيانه عددا هائلا من الناس المختلفين، فقال ريس: الذي لا أفهمه هو هذه النغمة الأخلاقية العالية الخاصة بك أو هذا النزوع إلى الطابع التقليدي ومقاومة التجديد، فقال بسوا: الرجل الميت من خلال التعريف بهويته هو رجل محافظ على التقاليد القديمة ولا يطيق أي تلاعب مع النظام القديم، فقال ريس: أنت ذات مرة وقفت بعنف ضد النظام، فقال بسوا: وأنا الآن أقف بعنف لصالح النظام، فقال ريس: لو كنت مازلت على قيد الحياة ووجدت نفسك في مكاني وفي نفس حالتي أي موجودا مع طفل غير مرغوب فيه ومع أمه التي هي من طبقة اجتماعية منخفضة لكانت نفس الشكوك قد اعتملت في داخلك، فقال بسوا: نفس الشكوك بالضبط؟ فقال ريس: شكوك الوغد النذل فقال بسوا: هذا صحيح يا عزيزي ريس، شكوك الوغد الجبان النذل، فقال ريس: ربما أكون أنا وغدا ولكن ليست لدى النية في التخلى عن ليديا، فقال بسوا: ربما لأنها تجعل الأمور سهلة بالنسبة لك، فقال ريس: هذا صحيح بما فيه الكفاية فهي قد قالت لي إنني يمكن لي ألا أعترف بالطفل على أنه ابنى، فقال بسوا: فلماذا تكون النساء على هذا النحو؟ فقال ريس: كلهن على هذا النحو، فقال بسوا: أوافقك ولكن النساء فقط يمكن أن يكن على هذا النحو، فقال ريس: أي انسان يصغى إليك

سيظن أنك لديك قدر كبير من الخبرات والتجارب مع النساء، فقال بسوا: التجربة الوحيدة التي مررت بها هي تجربة المشاهد أو المراقب، فقال ريس: لا ينبغي على المرء أن ينام معهن ويسبب لهن الحمل والحبل، حتى ولو انتهي الأمر بالاجهاض فينبغي على المرء أن يشاهدهن عندما يكن في حالة حزن وسعادة وفي حالة ضحك وبكاء وفي حالة صمت وثرثرة وينبغي على المرء أن يرقبهن عندما لا يعرفن أنه تتم مراقبتهن، فقال بسوا: وما الذي يراه رجل ذو خبرة في مثل هذه اللحظات؟ فقال ريس: يشاهد لغزا أو متاهة أو تمثيلية تحريزية، فقال بسوا: لقد كنت دائماً ممتازا في اللعبات التحريزية، فقال ريس: ولكن الأمر يصل إلى درجة الكارثة عندما يتعلق بالنساء، فقال بسوا: سامحنى يا عزيزي ريس: أعصابي تطن مثل سلك التليفون في ليلة عاصفة، فقال ريس: إنني بدون وظيفة حاليا وليس لدى الرغبة في البحث عن وظيفة وأمضى أيامى جالسا هنا في شقتى أو جالسا في مطعم ما أو على مقعد خشبي طويل في حديقة كما لو لم يكن لدى أي شيء أفعله سوى الجلوس وانتظار مجيء الموت، فقال بسوا: دع الطفل يولد، فقال ريس: ليس الأمر متروكا لي كما أن ولادة الطفل لن تحل أية مشكلة، بل وأشعر أن هذا الطفل لا ينتمي إلى، فقال بسوا: أتظن أن شخصاً ما آخر ربما يكون هو الأب؟ فقال ريس: لا إنني متأكد تماماً من أنني الأب وهذه ليست هي المشكلة، المشكلة هي أن الأم هي فقط التي توجد حقاً أما الأب فهو بمثابة مصادفة أو حادث مفاجئ، فقال بسوا: مصادفة ضرورية؟ فقال ريس: مما لا شك فيه أنه مصادفة ضرورية، ولكنه يمكن الاستغناء عنه طالما أن الشيء الضرورى قد تم تقديمه بل ويمكن الاستغناء عنه تماماً وبحيث يمكن له أن يموت على الفور مثل حشرة فرسة النبي التي تصلي في تضرع، فقال بسوا: أنت خائف من

النساء مثلما كنت أنا خائفا منهن، فقال ريس: وربما يكون خوفي أشد، فقال بسوا: هل سمعت أية أخبار عن مارسيندا مرة أخرى؟ فقال ريس: ولا كلمة واحدة ولكني كتبت قصيدة من أجلها منذ أيام عديدة، فقال بسوا: أحقا؟ فقال ريس: لكي أكون صريحا معك فإنها ليست سوى قصيدة يظهر فيها اسمها، أتود لي أن أقرأها لك؟ فقال بسوا: لا.

فقال ريس: ولم لا؟ فقال بسوا: إنني أحفظ شعرك عن ظهر قلب سواء القصائد التي كتبتها بالفعل أو القصائد التي ستقوم بكتابتها، فقال ريس: والآن لقد جاء عليك الدور لتكون غير شفوق، فقال بسوا: ولا يمكن أن أطلب منك أن تسامحنى وتلتمس لي العذر نظرا لأن أعصابي متوترة ومن هنا أقول لك اقرأ لي هذه القصيدة، فقال ريس: الشطر الأول هو «أنت متهلفة بالفعل على حلول الصيف»، فرد بسوا قائلاً: والشطر الثاني يمكن أن يكون على هذا النحو «وأنا أيضاً أبكي من أجل أزهاره» فقال ريس: هذا صحيح تماماً، فقال بسوا: كما ترى فنحن نعرف كل شيء عن بعضنا البعض أو على الأقل أنا أعرف كل شيء عنك، فتساءل ريس: هل هناك أي شيء يخصنى أنا فقط؟ فقال بسوا: ربما لا وبعد أن أنصرف فرناندو بسوا تناول ريكاردو ريس ما تبقى من القهوة في فنجانه وكان ذلك الجزء المتبقى باردا ولكن كان له مذاق جيد.

وبعد مرور أيام قليلة أشارت الصحف في تقاريرها إلى أن ٢٥ من طلبة شباب هتلر والذين يزورون بلادنا من أجل دراسة وتنشيط وتدعيم المثل العليا الاشتراكية / الوطنية كانوا ضيوف شرف في «كلية تدريب المعلم» وبعد جولة مطولة في «معرض الذكرى العاشرة للثورة الوطنية» كتبوا الآتى في سجل الشرف: نحن لا شيء، وكان هذا يعنى ـ وفقا لما قاله الكاتب المنوط بالخدمة الذي بادر بالتفسير ـ أن الشعب لا يكون له

أي كيان إذا لم يتم إرشاده من خلال عليه القوم والزبدة والزهرة والقلائل المختارين من مجتمعنا، لاحظ أن كلمة مختار Chosen مشتقة من كلمة اختيار Choice التي تعنى انتخاب election لأننا نود أن يتم إرشاد شعبنا على أيدي القلة المختارة إذا كان بمقدورهم اختيارهم في حين كان ارشادهم من خلال زهرة أو زبدة يعتبر أمراً مثيراً للسخرية على الأقل في اللغة البرتغالية لذلك هيا بنا نستخدم الكلمة الفرنسية «عليه القوم Elite» لحين العثور على شيء ما أفضل باللغة الألمانية، وربما مع وضع هذا في الاعتبار فإن خلق حركة الشباب البرتغالي قد صدر به قرار ولسوف تبدأ هذه الحركة نشاطها في حماس في أكتوبر ولسوف يصل أعضاء هذه الحركة إلى ٢٠٠ ألف شاب هم زهرة وزبدة وخلاصة شبابنا والذي سيبزغ منه «عليه Elite القوم» الذين يقدل لهم أن يحكمونا عندما ينتهي نظام الحكم الحالي، ولو قدر لابن ليديا أن يولد ويظل على قيد الحياة فإنه في خلال سنوات قليلة سيكون قادرا على أن يشارك في المواكب وينضم إلى صفوف حركة الشباب البرتغالي ويرتدى الزى الرسمي الأخضر والكاكي ويعرض على حزامه الحرف إس S الذي يرمز إلى كل من الخدمة Serve وسالازار Salazar أو إخدم سالازار Serve Salazar وبالتالي فإن مضاعفة الإس S إلى إس إس S S تعنى مد اليد اليمنى للتحية على الطريقة الرومانية، ومارسيندا مع بيئتها الأرستقراطية سوف تنضم إلى المنظمة النسائية للتعليم القومي ولسوف ترفع أيضاً ذراعيها اليمنى طالما أن اليد اليسرى هي المشلولة فقط، ولكي نبين كيف أن شبابنا المتفجر بالحماس الوطني أخذ في التشكل فإن ممثلين عن حركة الشباب البرتغالي سوف يسافر إلى برلين في الز] الرسمي ودعونا نأمل في أن تتاح لهم الفرصة لأن يكرروا تلك العبارة المحتفل بها: نحن لا شيء أو نحن لا أحد، ولسوف يحضرون أيضاً الألعاب

الأوليمبية حيث لا حاجة بنا لأن نقول إنهم سيتكرون انطباعا رائعا، هؤلاء الشباب الفخور الوسيم والذي هو مجد الجنس اللوزيتانى Lusitanian Race ومرآة لمستقبلنا والذي هو شجرة مزهرة تمد أغصانها وفروعها في تحية رومانية، وتقول ليديا موجهة كلامها لريكاردو ريس: ابنى لن تكون له علاقة بمثل هذه المسرحية الهزلية الساخرة، ومع هذه الكلمات يمكن لنا أن نبدأ في مناقشة تستمر على مدى عشر سنوات إذا قدر لنا أن نعيش فترة طويلة كهذه.

(١٧)

فيكتور يموج بالتوتر والقلق، فهذه المهمة هي إحدى المهام الجسام التي تنطوى على مسئولية كبيرة والتي لا يمكن مقارنتها بالعمل الروتينى المنصب على تعقب الناس المشكوك في أمرهم وتقديم الرشوة لمديري الفنادق واستجواب الشياليين والعتالين الذين يفشون الأسرار على الفور، ويضع يده اليمنى على مفصل فخذه لكي يشعر بوجود مسدسه مما يهدئ من قلقه ويدخل الطمأنينة على نفسه، ثم يستخرج من الجيب الداخلي لجاكتته في بطء شديد مع استخدام أطراف أصابعه قطعة حلوى مشتملة على نعناع طبي، ويفكها في حرص شديد لأنه في الصمت الشديد بالليل يمكن أن يسمع صوت خشخشة الورق على مسافة عشر خطوات، من غير الحكمة أن يفعل هذا لأنه بذلك ينتهك تنظيمات الأمن ولكن رائحة البصل ولربما بسبب التوتر الذي يجتاحه قد أصبحت حادة للغاية وبالتالي توجد مخاطر من أن يهرب في اللحظة الحرجة صيده نظرا لوجوده في اتجاه الريح، وكان رجال الشرطة التابعون لفيكتور مختبئين خلف جذوع الأشجار وفي مداخل المنازل ومنتظرين صدور الإشارة وكانوا يحملقون في ثبات نحو النافذة التي لا ينبعث منها سوى خيط ضئيل من الضوء لا يكاد يرى، وحقيقة أن الشيش الداخلى مغلق رغم وجود هذه الحرارة الشديدة هي في حد ذاتها دليل على المؤامرة، ويرفع أحد أتباع فيكتور العتلة التي سيفتح بها الباب بالقوة

ويدفع آخر بأصابع يده اليسرى في البرجمية الحديدة وكلا الرجلين اللذين لهما خبرة طويلة سيترك أثرا من المفصلات المكسورة والفك المكسور، وعلى الرصيف المقابل يقف شرطى آخر يقوم بدور شخص من المارة برئ أو بالأحرى يقوم بدور مواطن مطيع للقوانين وعائد إلى منزله الموجود في هذا المبنى ولكنه لا يطرق مستخدما أكرة الباب الخارجى خشية أن تجئ زوجته وتفتح له الباب وتتساءل: ما الذي جعلك تتأخر كثيرا؟ وفي أقل من ١٥ ثانية يفتح الباب كما لو كان قد فُتح باستخدام عتلة، لقد تم التغلب على المشكلة الأولى، وينتظر رجل الشرطة على بسطة السلم لأن مهمته أن يصغى في دقة لكي يعطي تحذيرا إذا سمع أي شيء ولكي يبّلغ فيكتور لأن فيكتور هو العقل المدبر وراء هذه العملية، وفي المدخل يظهر الهيكل الظلى لرجل الشرطة فهو يشعل سيجارة مما يعنى أن كل شيء يسير على ما يرام، لم تُثر شكوك على الأرضية التي أحدقوا بها الآن، ويبصق فيكتور متخلصا من قطعة النعناع فهو يخشى من الاختناق في ذروة العمل إذا حدث تقاتل وتشابك بالأيدي ويتنفس من خلال فمه ويستمتع بعذوبة النعناع، إنه لم يعد شبيها بفيكتور، ويتم اقتحام الشقة ومحاصرة العمارة ويتم القاء القبض على أربعة أشخاص ومعهم المنشورات التي تدينهم، لقد كان ذلك مجرد جانب من التدريبات التي تقوم بها الشرطة.

ريكاردو ريس متلهف على مناقشة بعض الموضوعات مع فرناندو بسوا ولكن فرناندو لا يظهر في الآفق، الزمن يمر في بطء، الأيام والليالى تتعاقب في حرارة شديدة تهبط من السماء وتصعد من الأرض، الرجلان العجوزان لا يظهران في ألتو دى سانتا كاتارينا إلا في فترة متأخرة من بعد الظهر حيث لا يمكن لهما تحمل الظلال القليلة لأشجار النخيل واللمعان المنعكس عن صفحة النهر والذي يكون شديداً للغاية

بالنسبة لعيونهما المرهقة كما أن هذا الوميض الشديد يجعلهما يلهثان ويشهقان ويتنفسان بصعوبة، ويترك ريكاردو ريس شقته مبكرا قبل أن تصبح الشمس شديدة الحرارة كما استفاد أيضاً من حواف الظلال أثناء انتظاره ظهور تاكسي لكي يستقله إلى كالكادا دا استريلا ومنها إلى براذارز، الزائر ليس بحاجة للسؤال عن الطريق، فهو لم ينس الموقع ولم ينس الرقم ٤٣٧١ ووصل ريكاردو ريس إلى القضبان الحديدية للبوابة ووضع يده على الحجر الساخن وعلى الرغم من أن الشمس لم ترتفع كثيراً في كبد السماء فإنها قد ظلت تسخن تلك البقعة منذ الفجر، ومن ممر قريب يترامى صوت مسح بالفرشاة، إنها أرملة تختصر المسافة عند الطرف البعيد للطريق وقد توارى وجهها خلف حجاب من الحرير الكريب الصيني الرقيق، لا يوجد أي أثر آخر الحياة، ويسير ريكاردو ريس هابطاً إلى أن يصل إلى المنحنى فيتوقف هناك لكي يلقى نظرة على النهر وعلى بوغاز البحر أو فم البحر وهذه كلمة ملائمة للغاية هنا، لأنه هنا في هذا المكان يجيء البحر لكي يروى ظمأه الذي لا يشبع مع إرضاع الشفتين المضغوطتين على الأرض، مثل هذه الصورة ومثل هذه الاستعارة ستكون في غير محلها في البنية الصارمة لقصيدة الشعر الغنائي ولكنها تخطر على ذهننا في الصباح الباكر عندما يستسلم العقل للشعور في إذعان.

ولا يلتفت ريكاردو ريس فيما حوله فهو يعرف أن فرناندو بسوا واقف إلى جواره ولكنه في هذه المرة غير مرئي وربما قد مُنع من إظهار نفسه متجليا في الجسد بالأماكن المتاخمة للجبانة وإلا فإن المكان سيصبح مزدحما للغاية بجماهير الناس وتصبح الشوارع مزدحمة بالموتى، وهذه الفكرة تجعل المرء يرغب في الابتسام، ويترامى صوت فرناندو بسوا وهو يتساءل: ما الذي جعلك تجئ إلى هنا في الساعة

المبكرة يا عزيزي ريس؟ أليس المنظر من عند ألتو دى سانتا كاتارينا حيث يوجد تمثال آداماستور كافيا بالنسبة لك؟ فيرد ريكاردو ريس بدون أن يرد: من هنا يمكن لنا أن نرقب جنرالا إسبانيا وهو يبحر من أجل الانضمام إلى الحرب الأهلية، وهل تعرف أن الحرب الأهلية قد تفجرت في إسبانيا؟ فقال بسوا: استمر في الكلام، فقال ريس: أنهم يقولون لي إن هذا الجنرال الذي يسمى ميلان داسترای من المقرر له أن يتقابل مع ميجويل دى أونامونو ذات يوم ولسوف يصيح قائلاً: فليعش الموت وعندئذ سيكون هناك رد على ذلك، فقال بسوا: استمر في الكلام فقال ريس: وأنا أود أن أعرف الرد الذي قاله دون ميجويل، فقال بسوا: وكيف أخبرك بذلك قبل أن ينطق هو بذلك الرد؟ فقال ريس: قد يكون من المثير لك أن تعرف أن قائد سالامانكا قد وقف إلى جوار الجيش وناصر الجيش الذي ينوى الاطاحة بالحكومة والنظام، فقال بسوا: هذا لا يهمنى على الاطلاق، فقال ريس: لقد اعتقدتُ ذات يوم أن فقدان الحرية قد يكون أمراً طبيعياً وملائما في المجتمعات المزدهرة، والآن لا أعرف ما الذي يمكن لي أن أعتقد فيه على أنه هو الصواب، وكنت أعتمد عليك في هذا الشأن وبذلك فأنت خيبت ظنى، فقال بسوا: إن أقضى ما يمكن لي أن أفعله هو أن أقدم افتراضا على سبيل الجدل، فقال ريس: ما هو ذلك الافتراض؟ فقال بسوا: أن قائد سالامانكا سيرد بأن يقول إنه توجد هناك ظروف يكون فيها الالتزام بالصمت متساويا مع الكذب، فقال ريس: أسمع صيحة رهيبة تقول: يحيا الموت، فقال بسوا: هذا تناقض غير فصيح وبغيض وكريه، وقال ريس: الجنرال ميلان داسترای معوق، فقال بسوا: لا اهانة في ذلك مقصودة، وسيرفانتيس كان أيضاً معوقا ومن سوء الحظ أنه يوجد في إسبانيا حاليا عدد كبير للغاية من الناس المعوقين فقال ريس: يؤلمنى أن

أعتقد أن الجنرال ميلان داسترای قد يحاول البدء في سيكولوجيا شعبية، فقال بسوا: الشخص المعوق الذي لا يمتلك الثراء الروحي الموجود لدى سيرفانتيس يجد المواساة عادة في الضرر الذي يمكن أن يسببه للآخرين، فقال ريس: أتعتقد أنه سيقدم هذه الاجابة؟ فقال بسوا: هذه اجابة من بين عدد غير محدود من الافتراضات، فقال ريس: هذا يتفق مع ما قاله الجندى البرتغالي، فقال بسوا: يكون الأمر مهما عندما تتفق الأشياء وتعطي معنى، فقال ريس: ما هو الإحساس الذي يمكن أن يكون موجودا في يد مارسيندا اليسرى؟ فقال بسوا: إذن فأنت مازلت تفكر فيها، فقال ريس: مازلت أفكر فيها من وقت لآخر، فقال بسوا: لست بحاجة تنظر بعيداً للغاية فنحن جميعاً معوقون.

ريكاردو ريس موجود بمفرده، وعلى الأغصان المنخفضة لأشجار الدردار تبدأ حشرات زيز الحصاد في إحداث أصوات حادة كالصرير وهي أصوات مكتومة ولكنها تبتكر الصوت الخاص بها، وتدخل باخرة هائلة سواءل إلى البوغاز ولكنها سرعان ما تختفي في الانعكاس اللامع لصفحة الماء، البانوراما تبدو زائفة وغير حقيقية.

(١٨)

ريكاردو ريس لديه الآن صوت آخر في شقته، إنه يمتلك «راديو» صغيراً وهو أرخص راديو معروض في السوق وهو من طراز بيلوت Pilot الشعبي ومصنوع من مادة الباكليت البلاستيكية التي لها لون العاج، وقد تم اختياره لأنه يشغل حيزا ضئيلا ويمكن نقله بسهولة من غرفة النوم إلى غرفة المكتبة وهما الغرفتان اللتان يقضى بهما هذا الإنسان الذي يسير أثناء نومه ألا وهو ريكاردو ريس معظم أوقاته، لو كان قد قرر أن يشتري مذياعاً قبل أن تنتهي متعة العيش في مسكن جديد لكان قد اشترى الآن جهاز استقبال بالفعل المتغاير الفوقي به ١٢ قناة فضائية وقوة تكفي لإثارة الجيران وجذب جمهور للمجيء تحت نافذته، ونظرا للتلهف على الاستماع والاصغاء للأخبار والبرامج الإذاعية فإن ربات البيوت بالمنطقة سحضرن بما في ذلك الرجلان العجوزان مع إبداء روح الود والامتناع على هذا الشيء الجديد غير المألوف، ولكن ريكاردو ريس يرغب فقط في متابعة الأخبار في سرية وفي خصوصية مع تخفيض الصوت إلى درجة الهمس وهو لا يستطيع أن يقول ما إذا كانت انتصارات الجيش الثورى بإسبانيا هي التي تدخل عليه السرور أم أن الهزائم المدوية للقوات التي تساند الحكومة هي التي تبهجه، ريكاردو ريس لا يقوم بتفحص الصراع الداخلى لديه، أنه يترك قلقه مثل شخص ما تنقصه الشجاعة التي تعينه على سلخ أرنب فيطلب من شخص آخر

أن يفعل ذلك نيابة عنه بينما هو يكتفي بالوقوف ومراقبة الموقف وقد تضايق مع الغثيان الذي أصابه، ويشعر بالبغض نحو الرجل الذي قام بعملية السلخ، كيف يمكن له ولى أن ننتمى إلى نفس الجنس البشرى، وربما كان ذلك هو السبب في أننا نكره الجلاد ونرفض أن نأكل لحوم كبش الفداء.

وشعرت ليديا بالبهجة حقا، أن يكون الإنسان قادرا على سماع الموسيقى في أي وقت بالنهار أم بالليل، وهذه مبالغة من جانبها، أنها بمثابة روح بسيطة قادرة على الابتهاج من أتفه الأشياء اللهم إلا إذا كان هذا بمثابة ادعاء لكي تخفي همها وقلقها لأن ريكاردو ريس قد أصبح قذرا ومهملا في مظهره حيث لم يعد يهتم بمظهره ولم يعد يعتني بشكله، وقالت له إن دوق ألبا ودوق ميديناسيللى قد غادرا الفندق مما أدى إلى شعور سلفادور ـ الذي يهتم بزبائنه وخاصة الذية يحملون الألقاب ـ بالإحباط الشديد وأن كانوا في هذه الحالة لا يحملون ألقابا لأن فكرة المناداة على كل من دون لورينزو ودون ألونصو بلقب الدوق لم تكن سوى نكتة من جانب ريكاردو ريس وبالتالي فقد حان الوقت للتوقف عنها، أنه غير مندهش، فطالما أن يوم النصر آخذ في الاقتراب فإنهما يعيشان لحظاتهما الأخيرة في المنفي في ترف، ومن أجل مصلحة هؤلاء الإسبان الذين يعيشون بالمنفي بالبرتغال فإن نادى الراديو البرتغالي قد استخدم أخيراً مذيعة إسبانية لها صوت سوبيريتا في إحدى الأوبريتات وتقرأ أخبار حالات التقدم الوطنية بلغة سرفانتيس الرشيقة، وتحاول ليديا أن تكون مرحة رغم أنها مثقلة بالقلق على ريكاردو ريس علاوة على القلق من الأخبار الرهيبة التي تجيء من إسبانيا والتي تتزامن مع الأخبار التي تتعلق بأخيها دانيال، ولدى سماعها من المذياع أنه يتم

قصف باداجوز حتى تشرع في البكاء وهذا سلوك غريب من جانبها إذا وضعنا في الاعتبار أنها لم يسبق لها مشاهدة باداجوز، من قبل ولم يكن لها أسرة أو ممتلكات هناك، ويتساءل ريكاردو ريس: لماذا تبكين يا ليديا؟ ولكنها لا تردّ عليه وربما كان بكاؤها يتعلق بشيء ما قاله لها أخوها دانيال ولكن من الذي أخبر أخاها وما هو مصدر معلوماته؟ ومن المؤكد أن الحرب في إسبانيا تناقش على ظهر الباخرة ألفونصو أثناء قيام البحارة بإنجاز الأعمال بها حيث يمررون أحدث الأنباء فيما بينهم ولا ينبغي لنا أن نصدق كل ما يجيء بالصحف أو الاذاعة، ولكن ريكاردو ريس يحاول مواساة ليديا وتجفيف دموعها ويحاول كسبها لصالح وجهة نظرة فيكرر عليها الأخبار التي قرأها وسمعها فيقول لها: ها أنت تبكين من أجل باداجوز هل تعرفين أن الشيوعيين قطعوا آذان ١١٠ من ملاك الأراضى واغتصبوا نساءهم؟ فتقول ليديا: وكيف عرفت ذلك؟ فيقول ريس: لقد قرأت ذلك في الجريدة كما قرأت أيضاً مقالا بقلم تومى فييرا وهو صحفي ومؤلف للعديد من الكتب يشير فيه إلى أن البلاشفة فقأوا عينى قسيس عجوز ثم صبوا الجازولين عليه وأشعلوا فيه النيران، فقالت ليديا: أنني لا أصدق ذلك فقال ريس: هذا مكتوب في الجريدة، فقالت ليديا: أخي يقول أنه لا ينبغي على المرء أن يصدق دائماً ما تقوله الصحف، فقال ريس: أنني لست في وضع يسمح لي بالذهاب إلى أسبانيا لكي أعرف الحقائق بنفسي وينبغي لي أن أصدق ما يجيء بالصحف، فالصحب لا تكذب، وتلك الجريمة التي حدثت للقسيس تعتبر أشنع الجرائم التي يمكن أن يتخيلها الإنسان، فقالت: يا دكتور أنت رجل متعلم بينما أنا لا أكاد أعرف القراءة والكتابة ولكنني تعلمت شيئاً واحداً في الحياة وهو أنه دائماً ما تكون هناك حقائق كثيرة ولكنهم

غالبا ما يقولون أشياء مختلفة ونحن لن نعرف من الذي يكذب إلى أن تبدأ الحرب، فقال ريس: وماذا لو اتضح صدق الخبر القائل بأنهم فقأوا عينى القسيس وصبوا عليه الجازولين وأحرقوه؟ فقالت: تلك حقيقة رهيبة ولكن أخي يقول إنه إذا وقفت الكنيسة إلى جانب الفقراء وساعدتهم لكي يواجهوا الحياة على هذه الأرض فإن الفقراء سيكونون أول من يضحون بحياتهم من أجل الكنيسة، فقال ريس: وماذا عن قيامهم بقطع آذان أصحاب الأراضى واغتصاب زوجاتهم؟ فتقول: تلك ستكون حقيقة رهيبة أخرى ولكن أخي يقول أنه بينما يقاسي الفقراء على هذه الأرض يستمتع الأغنياء بالجنة بالفعل بدون الذهاب إلى السماوات، فقال: أنت دائماً تقدمين الاجابة من خلال كلمات أخيك، فقالت: وأنت يا دكتور تتكلم من خلال الكلمات التي تقرؤها في الصحف هذا قول صادق بما فيه الكفاية.

ومن الصحف يعرف ريكاردو ريس أن الباخرة ألفونصو قد أبحرت إلى إليسانتى لكي تنقل اللاجئين ويشعر بالحزن يدب في قلبه بسبب ارتباطه بالأقدار مع هذه الباخرة رغم أن ليديا لم تقل له إن أخاها البحار قد أبحر في مهمة إنسانية، وليديا بقدر ما يتعلق الأمر بذلك لم تظهر أخيراً، فأصبحت الأطباق المتسخة متكومة وأصبح الغبار متراكما على الأثاث وصارت الأشياء تدريجيا فاقدة شكلها كما لو كانت أصبحت مرهقة وسائمة من الوجود والذي قد يكون أيضاً بمثابة التأثير الناجم عن الارهاق الذي أصاب العيون، لم يسبق لريكاردو ريس أن شعر بمثل هذه الدرجة العميقة من الشعور بالوحدة القاسية، إنه ينام طوال النهار تقريبا على قمة السرير غير المرتب أو على الأريكة الموجودة في حجرة المكتبة، بل وحدث له ذات مرة أن نام وهو في التواليت ولكن ذلك لم

يحدث له سوى مرة واحدة فقط لأنه آنئذ استيقظ في خوف رهيب بعد أن كان يحلم بأنه قد مات على التواليت بينما بنطلونه مسحوب لأسفل وجثته خالية تماماً من مظاهر احترام الذات، ولقد قام بكتابة خطاب مطول للغاية لمارسيندا صفحة وراء صفحة منقبا عن آثار قديمة بأكملها من إحياء للذكرى ابتداء من المساء الأول بالفندق بينما الكلمات تتدفق بدون انقطاع من ذكرى لذكرى أخرى ولكن أي شيء يسأل عنه أو أي شيء يقدمه، ولذلك قام بتجميع الصفحات المكتوبة ونظمها وسوى بعض الزوايا التي كانت قد انطوت أو تكرمشت ثم مزق الخطاب بطريقة منهجية منظمة صفحة وراء صفحة إلى أن أصبح قطعا صغيرة للغاية من الورق الممزق بحيث يتعذر قراءة كلمة واحدة، ولم يلق بهذا الورق الممزق تماماً في سلة المهملات ولكن انتظر لحين حلول الساعات المبكرة من الصباح والتي يكون فيها كل شيء غارقا في نوم عميق ثم ذهب ونثر الورق على درابزين الحديقة فحمله نسيم الصباح إلى قمم أسطح المنازل بل وسوف تجيء رياح أقوى وتلتقطها وتنقلها إلى مسافات أبعد ولكن ليس إلى مسافات بعيدة للغاية بحيث تصل بالفعل إلى مدينة كوامبرا التي تسكن فيها مارسيندا، وبعد يومين قام بنسخ قصيدته على قصاصة ورق «متهلف بالفعل على حلول الصيف»، وهو يدرك أن هذه الحقيقة أصبحت الآن أكذوبة لأنه لا يشعر بالتهلف ونفاد الصبر ولا شيء يشعر به سوى اعياء وإرهاق لا نهائي وكتب على المظروف اسم مارسيندا سامبيو علاوة على عبارة «يودع في شباك البريد» بمدينة كوامبرا فهي إذا لم تذهب لاستلام هذا الخطاب من شباك البريد في كوامبرا في خلال ستة شهور سيتم تدميره وذلك الموظف المخلص المجتهد الذي يعمل بمكتب البريد والذي سبق أن تحدثنا عنه إذا أخذ هذا الخطاب

إلى مكتب الدكتور سامبيو فلن ينجم عن ذلك أي ضرر، فلدى عودته إلى المنزل وبعد أن استخدم حقه الأبوى في فتح الخطاب فإنه سيقول لابنته: يبدو أن هناك معجبا بك غير معروف، ولسوف تقوم مارسيندا بقراءة القصيدة ثم تبتسم لنفسها، بل ولا يخطر على ذهنها أن الخطاب مرسل من ريكاردو ريس لأنه لم يسبق له أبداً أن قال لها أنه شاعر وأن كانت هناك تشابهات معينة في خط اليد.

(١٩)

لقد قالت ليديا: لن أرجع إليك ومع ذلك فها هي تطرق على الباب، مفتاح الشقة موجود في جيبها ولكنها لا تستخدمه فهي لديها عزة نفسها وسبق لها أن قالت إنها لن ترجع إليه ولذلك قد يبدو الأمر رديئاً الآن لو أنها استخدمت المفتاح كما لو أن هذه الشقة هي شقتها ويفتح ريكاردو ريس الباب ويخفي دهشته، ونظرا لأن ليديا تصاب بالتردد ولا تعرف إلى أي غرفة تتجه فإنه يتحرك نحو غرفة المكتبة وبحيث يمكن لها أن تتبعه إذا رغبت في ذلك، عيناها حمراوان ومتورمتان، ربما تكون قد قررت في نهاية الأمر عقب كفاح هائل مع البهجة المتعلقة بالأمومة المرتقبة أن يتم اجهاضها لأن التعبير على وجهها لا يبدو أنه قد نجم عن سقوط مدينة ايرون أو حصار سان سيباستيان، وتقول: يجب أن تعذرنى يا دكتور حيث لم أكن قادرة على على المجيء، ولكن على الفور وفي نفس النفس تصحح كلامها قائلة: ليس بسبب هذا وإنما اعتقدت فقط أنك لم تعد بحاجة إليّ، ثم تصحح كلامها مرة أخرى قائلة: كنت أشعر بالملل والسأم من هذه الحياة، وبعد أن قالت تلك العبارة تقف هنالك في حالة انتظار، ولأول مرة تنظر نظرات مباشرة في وجه ريكاردو ريس وقالت لنفسها في تفكير صامت: ربما يكون هو مريضاً، وقال لها: لقد كنت أفتقدك وأشعر بالرغبة الشديدة في أن أراك، ثم لاذ بالصمت حيث لم يجد أي كلام آخر لديه لكي يقوله، وخطت ليديا خطوتين، أنها

سوف تبدأ بغرفة النوم وترتب له سريره ثم تذهب إلى المطبخ وتغسل الأطباق ثم تنقع ملابسه المتسخة في حوض الغسيل ولكن هذا ليس هو السبب الذي جاءت من أجله على الرغم من أنه يمكن لها أن تفعل كل تلك الأمور فيما بعد، ويقول ريكاردو ريس: قولى لي، ما هي الأمور الخاطئة التي حدثت؟ فتبدأ ليديا في الاجهاش بالبكاء فيقول: أهذا كله بسبب الطفل؟ فتهز رأسها بالنفي ثم تقول: الأمر يتعلق بأخي، ويتذكر ريكاردو ريس أن الباخرة ألفونصو قد عادت من أليسانتى وهو ميناء مازالت تحت سيطرة الحكومة الإسبانية، ويجمع ٢ + ٢ فيجد أن النتيجة أربعة وتساءل: هل أخوك ترك الخدمة العسكرية وظل باقياً في اسبانيا؟ فقالت: لا، لقد رجع مع الباخرة ولسوف تحدث كارثة، فقال: خبريني، ماذا حدث؟ فقالت بعد أن توقفت عن البكاء وجففت دموعها ومخضت أنفها: البحارة على وشك القيام بتمرد والذهاب بالباخرة إلى عرض البحر، فقال: من الذي قال لك هذا الكلام؟ فقالت أخي دانييل وطلب مني ألا أفشي هذا السر ولكن كان عليّ أن أتحدث مع أي شخص أثق به ولذلك جئت إليك هنا يا دكتور فليس لدى أي شخص آخر غيرك يمكن لي أن ألجأ إليه ووالدتى ليس لديها فكرة عن هذا الموضوع، ويندهش ريكاردو ريس عندما يكتشف أنه خال من المشاعر فربما يكون هذا هو قدرا محتوما لا يمكن تجنبه ومع ذلك نظل صامتين ومتفرجين ونرقب مشهد العالم حتى لدى مغادرتنا لهذا العالم وتساءل: هل أنت متأكد من هذا الخبر؟ فأومأت برأسها بالايجاب وقد امتلأت عيناها بالدموع مع انتظار سماع الأسئلة المناسبة التي هي من نوع أن الاجابة عليها بكلمة نعم أو لا، إلا أن مثل هذا الاستجواب يتطلب شجاعة تند عن القوى البشرية، فيقول ريس: وما هي خططه، ؟ ومن المؤكد أنهم لا يتصورون أن مجرد خروجهم إلى عرض البحر سيؤدي

إلى اسقاط الحكومة؟ وتقول ليديا: خطتهم تتلخص في الذهاب إلى أنجرا دو هيروازمو وتحرير المسجونين السياسيين الموجودين هناك والاستيلاء على هذه الجزيرة وبعدئذ الانتظار لحين تفجر التمردات والثورة هناك، فقال ريس: وإذا لم تحدث ثورات وتمردات؟ فقالت: إذا لم تحدث ثورات سيذهبون إلى اسبانيا وينضمون للحكومة، فقال: أنهم مجانين، أنهم لن يتمكنوا من الوصول إلى المضايق فقالت: وذلك هو ما قاله أخي ولكنهم يرفضون الاستماع فقال ريس: ومتى سيحدث ذلك؟ فقالت: أنه لم يخبرني بالموعد المحدد ولكن ذلك سيحدث في خلال الأيام القيلة القادمة، فقال ريس: وما هي البواخر الأخرى التي ستشارك في هذه العملية؟ فقالت: ألفونصو + دايو + بارتمولو دياس، فيقول ريكاردو ريس مرة أرى: أنهم مجانين، ولكنه لم يعد يفكر في المؤامرة التي أزيح الستار عنها بمثل هذه البراءة ولكن ما يتذكره هو وصوله إلى لشبونة ومشاهدته لزوارق الطوربيد بالميناء وقد طليت كلها باللون الرمادى المميت حيث قال له الشيال: هذه الباخرة القريبة منك تسمى دايو، ويأخذ ريكاردو ريس نفسا عميقا كما لو كان موجودا على ظهر الباخرة، وراح يكرر مرة أخرى: أنهم مجانين، هل يمكن أن تكون هناك أية لمحة أمل في صوته؟ ويقول ريكاردو ريس: ولكن قد تنتهي الأمور على خير في نهاية الأمر فمن يدرى ولربما يقومون بإلغاء خطتهم في نهاية الأمر وإذا لم يلغوا خطتهم فلربما يذهبون إلى أنجرا ولسوف نرى ما تسفر عنه الأمور وأهم شيء أن تتوقفي عن البكاء فلا فائدة ترجى من وراء البكاء فالبحارة قد يغيرون رأيهم فقالت: يا دكتور أنت لا تعرفهم وأنا متأكدة من أنهم لن يغيروا رأيهم تماماً مثل تأكدي من أن اسمي هو ليديا، وبعد أن نطقت باسمها أدركت على نحو فجائي أنها ينبغي عليها ألا توجد هنا فقالت: لا أستطيع القيام بأعمال التنظيف

اليوم إذ ينبغي عليَّ الرجوع إلى الفندق على الفور، لقد جئت إليك من أجل أخفف من أحزاني من خلال التحدث معك وآمل ألاً يكون هناك أحد بالفندق قد لاحظ عدم وجودى به، فقال ريكاردو ريس أيمكن لي أن أقدم لك أية مساعدة؟ قالت: أنهم أولئك البحارة الذين يحتاجون المساعدة طوال تلك المسافة الطويلة قبل وصولهم إلى المضايق والشيء الوحيد الذي أريده منك هو أن تحتفظ بهذا السر ولا تفشه لأي أحد على الاطلاق، فقال: لا تقلقى شفتاى مغلقتان بالشمع، ولكن شفتيه انفرجتا على نحو يكفي لإعطائها قبلة مواساة وتأوهت ليديا لأنها كانت تشعر بتعاسة شديدة رغم أن المرء يمكن له أن يتبيّن وجود صوت آخر عميق في داخل تأوهاتها فنحن الآدميون نكون على هذا النحو، إذ نشعر بأشياء كثيرة في اللحظة نفسها، ولدى نزول ليديا على السلالم نزل ريكاردو ريس وراءها حتى بسطة السلم وهو أمر غير عادي يفعله، فنظرت لأعلى نحوه وأومأ لها برأسه وابتسما معا لحظات معينة بالحياة تبدو متقنة ورائعة وتلك هي إحدى تلك اللحظات مثل صفحة كانت عليها كتابة ولكنها أصبحت الآن صفحة بيضاء مرة أخرى.

وعندما خرج ريكاردو ريس من أجل تناول طعام الغداء راح يتسكع في الحديقة ويحملق في البواخر الحربية الواقفة أمام توريرو دو باكوا، أن معلومات عن السفن والبواخر ضئيلة بوجه عام ولا يعرف سوى أن المراكب الرسمية لنقل الرسائل تعتبر أكبر حجما من زوارق الطوربيد ولكن من على مسافة تبدو كلها متشابهة للغاية، فلا يستطيع أن يعرف ما هي الباخرة ألفونصو ولا ما هي الباخر دياس، أما الباخرة دايو فكان يعرفها لأن الشيال قد حدثه عنها قائلاً له: الدايو هي القريبة للغاية منك، من المؤكد أن ليديا كانت تحلم أو أن أخاها قد تعمد إخافتها بهذه النكتة فهذه قصة لا يمكن تصديقها عن بواخر تتجه نحو عرض

البحر، ثلاث من هذا البواخر رأسية عند رصيف الميناء في هدوء شديد والفرقاطات ترتعش وتتجه أعالى النهر والمعديات التي تتجه إلى كاسيلياس تلعب لعبة المجئ والذهاب على نحو لا نهائي وبينما طيور النورس تجوب السماء الزرقاء الخالية من السحب في حين أن الشمس تسطع في اشراق على النهر المرتقب، فبرغم كل شيء فإن كل ما قاله دانيال لأخته صحيح فالشاعر يمكن له أن يحص بالخوف الذي يرتعد بين هذه المياه، وقال ريكاردو ريس: ومتى سيغادرون؟ فردت عليه ليديا: في خلال الأيام القليلة القادمة، فيشعر ريكاردو ريس بالتوتر في حلقة وتمتلئ عيناه بالدموع، فتلك كانت هي الطريقة التي ابتدأ بها البكاء العظيم لدى الفنان آداما ستور، إنه على وشك المغادرة عندما يسمع أصواتا تقول وتنادى في إثارة: هنالك، هنالك، أنهم ينتمون إلى الرجلين العجوزين بينما أناس آخرون يتساءلون: أين وما هذا؟ وأطفال يلعبون لعبة قفزات الضفدعة يقطون لعبتهم ويصيحون: أنظرو إلى البالون، أنظرول إلى البالون، ومسح ريكاردو ريس عينيه بظهر يده وشاهد منطادا هائلا يرتفع في الهواء عند الجانب الآخر من النهر من المؤكد أن هذا هو منطاد زبلن أو منطاد هايدنبرج قادما من أجل اسقاط خطابات البريد الواردة من جنوب افريقيا حيث يوجد على الدفة شعار الصليب المعقوف ذى الألوان الأبيض والأحمر والأسود مثل طائرة وروق أطلقها الأطفال في الهواء، شعار يترنح ويرفرف قد فقد معناه الأساسي حيث أصبح تهديداً بدلاً من أن يكون شهاباً، الروابط ما بين الإنسان والشعارات والرموز تكون عجيبة للغاية، علينا فقط أن نفكر في القديس فرانسيس أوف عسيِّسى المرتبط من خلال الدماء مع الصليب الخاص بالسيد المسيح ونفكر في صليب السيد المسيح الموجود على أشرطة الذراع لدى موظفي البنك في الاجتماع الجماهيرى السياسي،

انها معجزة ألا يضيع الإنسان وسط هذه المتاهة من تداعيات المعانى، منطاد هايدنبرج الذي تزأر ماكيناته طار فوق النهر في اتجاه القلعة ثم اختفي خلف بعض المنازل وتلاشى الزئير تدريجيا، المنطاد على وشك أن يسقط الخطابات البريدية عند بورتيلا دا ساكافيم وربما ستقوم الباخرة «هايلاند بريجيد» بنقل هذه الخطابات لأن العالم به الكثير من الممرات المتكررة، ويعود الرجلان العجوزان إلى المقعد الخشبي الطويل الخاص بهما ويرجع الأطفال إلى ممارسة لعبة قفزات الضفدعة وتهدأ التيارات الهوائية مرة أخرى، تقبع البواخر في أحضان الحرارة المتراكمة لفترة ما بعد الظهر في حين كانت مقدماتها تتجه نحو البحر، من المؤكد أن البحارة يتناولون طعام الغداء في هذا اليوم مثل كل يوم اللهم إلا إذا كان هذا اليوم هو آخر يوم لهم وفي المطعم قام ريكاردو ريس بملء كوبه بالخمر ثم ملأ كأس ضيفه غير المرئي ولدى رفع كأسه لكي يرتشف الرشفة الأولى قام بحركة كما لو كان يشير قائلاً للشخص الآخر «في صحتك» ونظرا لأننا لا نستطيع أن نتفحص أفكاره لكي نعرف الشيء أو الشخص الذي كان يشير بيده نحوه فدعونا تحذو حذو الجرسونات العاملين في هذه المؤسسة الذين لا يهتمون بمثل هذه الأمور لأن الزبون ربما يكون مختل العقل بعض الشيء ولكنه ليس أكثر الزبائن جنونا على الاطلاق.

كانت فترة ما بعد الظهر مستحبة ونزل ريكاردو ريس هابطاً من أجل الذهاب إلى الشيادو ومنها إلى شارع نوفا دو ألمادو من أجل أن يرقب السفن والبواخر من عند المساكن القريبة، وعلى رصيف الميناء وبينما كان يعبر التييرو دو باكو تذكر أنه طوال هذه الشهور لم يذهب إلى مقى ماريتنيو دا أركادا، وبينما كان غارقا في أحلام يقظة تتعلق بهذا المقهي وقد نسى السبب الذي جعله يجئ إلى هذا المكان حيث كان مكتفيا

بالحملقة ولا شيء سوى الحملقة سمع على نحو فجائي صوتا متراميا من ورائه قائلاً له: اذن فأنت قد جئت لكي تشاهد السفن والبواخر يا دكتور؟ وتعرّف على ذلك الصوت على الفور، أنه صوت فيكتور وكان أول ردّ فعل لدى ريس هو الشعور بالحيرة والدهشة، أين كانت تلك الرائحة؟ ثم اقتربت الرائحة لأن فيكتور كان باتجاه الريح، وشعر ريكاردو ريس بضربات قلبه وهي تدقّ في مزيد من السرعة، أكان فيكتور يشك في الأمور؟ وهل انكشفت خطة تمرّد البحارة؟ وأجاب: السفن والبواخر والنهر ولكن كان بمقدوره أيضاً أن يذكر الفرقاطات وطيور النور كم كان أيضاً على وشك أن يستقل المعدية التي تذهب إلى ساسيلياس من أجل متعة العبور ومشاهدة الدولفينات وهي تقفز في الماء ولكنه اكتفي بأن قال مكررا الكلام السابق مرة أخرى، السفن والبواخر والنهر ثم انسحب في جفاء قائلاً لنفسه بأنه تصرف في غباء حيث كان ينبغي عليه أن يتبادل معه أطراف الحديث على نحو طبيعي، فلو كان فيكتور يعرف أن هناك شيئاً ما يدور في السر لكان قد اكتشفت بكل تأكيد أنه من الأمور المثيرة للشكوك أن يجد الدكتور ريس موجودا في هذا المكان وبعدئذ خطر على ذهن ريكاردو ريس أنه ينبغي عليه أن يلفت نظر ليديا وأنه مضطر لأنه يفعل ذلك، ولكنه غيّر رايه على الفور، فماذا يمكن لي أن أقوله لها؟ هل أقول لها إنني شاهدت فيكتور في توريرو دو باكوم؟ ربما يكون ذلك قد تم بطريق المصادفة لأنه حتى الشرطة تستمتع بالنظر إلى النهر وربما كان فيكتور في يوم أجازته وفي حالة استمتاع بالنهر والبحر التي هي حالة يشترك فيها جميع البرتغاليين وكان من الطبيعي بالنسبة لفيكتور أن يلقى بالتحية على ريس بمجرد مشاهدته بطريق المصادفة حيث توجد معرفة بينهما منذ أن ذهب ريس إلى المركز الرئيسي للشرطة، ومر ريكاردو ريس من أمام مدخل فندق

البراجانسيا وواصل المسير صاعدا على شارع الكريم حيث توجد عبارات محفورة على سلالم حجرية نصها كالآتي: Clinica de enfermedades de los ojos y quirurgi cas Amascaro ١٨٧٠ ولا شـــــيء يقول لنا ما إذا كان هذا الماسكاروه Mascaro قد تخرج في كلية طبية أو كان مجرد ممارس عام؟ ففي تلك الأيام كانت القوانين والأنظمة التي تتعلق بالشهادات والدبلومات أقل صرامة بل وحتى في هذه الأيام فهي ليس صارمة بمعنى الكلمة ويكفي أن نتذكر أن ريكاردو ريس كان يعالج المرضى المصابين بالقلب بدون أن تكون لديه أية مؤهلات تسمح له بذلك وتتبّع ريكاردو ريس خط التماثيل: إيكا دى كوايروس + شيادو + دارتانيان، مسكن تمثال آداماستور الذي لا يُرى إلاً من الخلف، وتظاهر ريس بأنه شديد الاعجاب بالتماثيل حيث راح يمشي في بطء حول كل منها ثلاث مرات وهو يشعر بأنه كان يلعب لعبة «الشرطة واللصوص» ولكنه سرعان ما هدأ من روعه لأن فيكتور لم يكن يتتبعه.

انقضت فترة ما بعد الظهر وهبط الظلام، لشبونة مدينة هادئة ولهها نهر عظيم له شهرة أسطورية، لم يخرج ريكاردو ريس لكي يتناول طعام العشاء، إذ قام بسلق بيضتين ووضعهما في داخل رغيف علاوة على كأس من الخمور، بل ووجد صعوبة في ابتلاع الخمور، وبسبب التوتر والقلق نزل من شقته للذهاب إلى المنتزه عقب الساعة الحادية عشرة مساء لكي يلقى نظرة أخرى على السفن والبواخر، وكل ما استطاع مشاهدته هي أنوار المرسى وبعدئذ لم يعد بمقدوره أن يعرف الفارق ما بين زوارق البريد وزوارق الطوربيد، وكان هو المخلوق الوحيد الموجود في ألتو دى سانتا كاتارينا إذ لا يمكن أن ندخل تمثال آداماستور ضمن عدد الناس الموجودين حيث أصبح الآن متحجرا للغاية وأصبح حلقه الصارخ للأبد صامتا كما أصبح وجهة مخيفا للناظرين،

فرجع ريكاردو ريس إلى شقته فالبواخر لن تغادر مكانها ليلاً بسبب مخاطر الارتطام بالصخور واستلقى في سريره وهو مرتد بعض ملابسه ونام واستيقظ ثم عاد إلى النوم مرة أخرى وقد هدأت نفسه من خلال الهدوء الشديد والصمت المطبق الذي يخيّم في جميع أرجاء الشقة لدى تسلل أول ضوء للنهار من خلال فتحات الشيش، وعندما استيقظ لم يحدث أي شيء، وطالما أن يوماً جديداً قد بدأ بدا من المستحيل أن يحدث أي شيء، وشعر بالخجل من نفسه وشعر بالترويع لأنه لم يكن قد خلع سوى حذائه وجاكتته ورباط عنقه، وقال لنفسه في تفكير: لسوف آخذ حماما، وصمم على ذلك، وانحنى لكي يبحث عن شبشبه تحت السرير وعندئذ سمع أول تراشق بالمدفعية، ولكن ربما كان على خطأ في تقديراته وربما سقطت قطعة أثاث بالشقة الموجودة أسفله بالدور الثالث وربما صاحبة العمارة قد أغمى عليها وسقطت في ارتطام هائل على الأرض، ولكن انفجارا آخر دوي فاهتز زجاج النوافذ، البواخر الحربية تطلق النيران على المدينة، قام فتح النافذة، لقد كان الناس في حالة من الذعر والهلع الشديدين، وصاحت امرأة قائلة: فليساعدنا الله، إنها ثورة وجرت نحو الحديقة لكي تنقذ حياتها، فوضع ريكاردو ريس قدميه في حذائه وارتدى جاكتته حيث لم يكن قد خلع ملابسه قبل أن ينام تماماً كما لو كان قد عرف ما سيحدث، وكان الجيران قد نزلوا بالفعل على السلالم وهم مرتدون الأرواب دى شامبر، وعندما شاهدو الدكتور يبزغ من شقته وأي دكتور يمكن الاعتماد عليه في معرفة كل شيء سالوه في هم وقلق شديدين: هل أصيب بعض الناس بجراح يا دكتور؟ ومن المؤكد أن مغادرته لشقته بهذه السرعة كان يعنى أن أحدا ما قد استدعاه لكي يتعامل مع حالة الطوارئ، وسارت النساء وراءه مع تغطية رقابهن حتى مدخل العمالة، وعندما وصل

ريكاردو ريس إلى الحديقة كانت جماهير من الناس قد تجمعت بالفعل، المقيمون في هذا الحى لهم الحق في الوجود لأنه لا يوجد مكان أفضل من ذلك في لشبونة يمكن منه مشاهدة البواخر التي تدخل والتي تخرج من الميناء، لم تكن البواخر الحربية تطلق النيران على المدينة وإنما كانت قلعة ألمادا هي التي تطلق النيران على البواخر الحربية، على واحدة من البواخر الحربية، فتساءل ريكاردو ريس: ما اسم هذه السفينة؟ ومن حسن الحظ أنه سأل شخصاً ما كان يعرف فقال له: إنها الباخرة ألفونصو دى البوقريق، إذن فهي الباخرة التي كان يعمل بها شقيق ليديا البحار دانيال الذي لم يتقابل معه ريس على الاطلاق، وحاول ريس أن يتخيل شكل وجهه ولكنه لم يشاهد سوى وجه ليديا، من المؤكد أن ليديا في نفس هذه اللحظة تطل من نافذة بفندق البراجانسيا، أو ربما تكون قد انطلقت إلى الشارع وهي مرتدية الزي الرسمي الخاص بفندق البراجانسيا، إنها تجري إلى كاييس دو سودريه وهي تقف الآن عند رصيف الميناء وقد ضغطت بيديها على صدرها وربما هي منخرطة في البكاء وربما تبكي بدموع جافة وخدين ملتهبين بسبب التوتر ثم تطلق صرخة مدوية فجائية لأن الفونصو سقطت عليه قذيفة ثم قذيفة أخرى، شخص ما في ألتو دى سانتا كاتارينا يقوم بالتصفيق بيديه، وفي نفس هذه اللحظة يبزغ الرجلان العجوزان وهما يلهثان في توتر، كيف تمكنا من المجئ إلى هنا بهذه السرعة الكبيرة بينما هما يسكنان في أسفل التل؟ ولكنهما يفضلان الموت على أن تفوتهما فرصة مشاهدة هذه اللقطة وهذا أمر محتمل إذا وضعنا في الاعتبار المجهود الخارق الذي بذلاه، الأمر كله يبدو شبيها بحلم، وجنحت ألفونصو في بطء حيث ربما تكون قد أصيبت في جزء مهم وحيوى مثل غرفة الغلاى أو الدفة، وتستمر قلعة ألمادا في اطلاق

النيران ويبدو أن الفونصو ترد على النيران بالمثل ولكننا لسنا متأكدين من ذلك، من جانب الجانب بالمدينة يمكن سماع هدير طلقات جديدة في مزيد من الوضوح ولكن على فترات متباعدة بعض الشيء، ويقول شخص ما في تعليق: تلك هي قلعة ألتو دى دوق، إنهم قد ضاعوا الآن فهم لن يستطيعوا الفرار، وفي نفس تلك اللحظة تظهر باخرة أخرى، إنها زورق طوربيد، إنها دايو، من المؤكد أن دايو تحاول أن تحمى نفسها من خلال الدخان الذي تطلقه مع محاولة الالتفاف جنوبا بهدف الهروب من مدافع قلعة ألمادا ولكنها إذا ابتعدت عن ألمادا لن تستطيع الهرب من ألتو دى دوق، القذائف تتفجر بالقرب من الشاطئ، ويظهر بالفعل علم أبيض على الدايو ولكن القصف المستمر يلاحقها وبعدئذ تبدأ الباخرة الدايو تميل في انحراف ثم ترفع ملايات بيضاء وترفع الأكفان الجنائزية، النهاية قريبة فلن يكون لدى الدايو متسع من الوقت للفرار والنجاة والابتعاد عن مرمى النيران.

الساعة الآن التاسعة، لقد انقضت مائة دقيقة على بداية الحرب والأعمال العدوانية المتبادلة، لقد انقشع ضباب الفجر وتسطع الشمس من سماء صافية من المؤكد أنهم يبحثون الآن عن الرجال الذين قفزوا إلى مياه البحر، ومن هذا المكان المعطل على البحر لم يعد بالمستطاع مشاهدة أي شيء آخر، ولدى قيام الناس المحنكين في الشئون العسكرية والمحاربين القدماء بشرح ما حدث من أجل بعض الناس الذن جاءوا متأخرين يجلس ريكاردو ريس على مقعد خشبي طويل، وينضم إليه الناس الطاعنون في السن وهم متلهفون للدخول في مناقشة معه ولكن الدكتور لا يقول أي كلام ويكتفي بالجلوس منكس الرأس كما لو كان هو نفس الشخص الذي حاول الابحار إلى عرض البحر ولكنه وقع في الشبكة وتم الامساك به، وأثناء تناقش الناس اليافعين مع بعضهم

البعض في هذا الشأن تخف حدة الاثارة لديهم كما يبدأ الاطفال استئناف اللعب في لعبة «قفز الضفدعة» وتبدأ الفتيات الصغيرات في التغنى بأغنية «لقد ذهبت إلى حديقة سليستي، من أجل ماذا ذهبت إلى هناك؟ لقد ذهبت إلى هناك للبحث عن وردة" من الملائم أكثر أن تصدر الأغنية عن نزاري Nazare وتكون على هذا النحو "لا تذهب إلى البحر يا تونيو فقد تغرق هناك يا تونيو آه يا تونيو، أنت تونيو المسكين يا لك من شخص سيئ الحظ».

شقيق ليديا ليس هو تونيو ولكن عندما يتعلق الأمر بسوء الحظ يكون الفارق ضئيلا للغاية، ويشعر الرجال بالاستياء ويفضون عندما ينهض ريكاردو ريس واقفا على قدميه، إنه يجد بعض العزاء والراحة عندما يسمع امرأة تقول من خلال الشفقة والعطف: أيتها الأرواح المسكينة، إنها تقصد بكلامها البحارة ولكن ريكاردو ريس يشعر بتلك الكلمات وكأن شخصاً ما يربت عليه أو يضع يدا على جبهته أو يربت في رفق على شعره، وفي داخل شقته يلقى بنفسه على السرير غير المرتب ويغطى عينيه بذراعه ويبكي بكاء منطلقا خاليا من القيود، إنه يبكي بدموع سخيفة لأن هذه لم تكن هي ثورته: «حكيم ذلك الرجل يكتفي بالتفرج على العالم»، ويقول لنفسه: ينبغي على أن أكرر هذه العبارة آلاف المرات، فما أهمية كل ذلك بالنسبة لرجل لم يعد يهتم بمن الذي سيكسب ومن الذي سيخسر؟ وينهض ريكاردو ريس واقفا ويرتدي رباط عنقه، إنه على وشك الخروج ولكن لدى مروره بيده على وجهه يشعر بلحيته، إنه ليس بحاجة للنظر في المرآة لكي لا يعرف أن هناك شعرا أبيض اللون يلمع هنالك بين الشعر الأسود النذير بكبر السن، لقد تم الالقاء بقطعة النرد وتمت تغطية ورقة الكوتشينة التي ألتقي بها بورقة آسي ace رابحة فمهما كنت سريعا في الجرى لن تتمكن من انقاذ

والدك من المشنقة، تلك هي أمثال شعبية من أجل مساعدة الناس العاديين على تحمل ضربات القدر المحتوم، وريكاردو ريس الذي هو رجل عادي يبدأ في حلق ذقنه وغسل نفسه ولا ينخرط في تفكير أثناء الحلاقة وإنما يركز على موسى الحلاقة الذي يكشط ويحتك ببشرته ويقول لنفسه: في إحدى هذه الأيام ينبغي عليه أن يشحذ الموسى، وكانت الساعة السابعة والنصف عندما غادر شقته متجها إلى فندق البراجانسيا، ولم لا يذهب؟ إذ لن يندهش أحد إذا شاهد ضيفا سابقا ظل مقيما بالفندق على مدى حوالى ثلاثة أشهر، وظلت تخدمه في اخلاص خادمة بالفندق وهي الخادمة إلى شارك أخوها في التمرد، فهي نفسها قد قالت له: نعم يادكتور لي أخ يعمل في البحرية، ويخدم على ظهر الباخرة ألفونصو دى البوقريق ولا ينبغي أن يندهش أحد من أن ريكاردو ريس قد جاء لكي يستفسر وليرى ما إذا كان بمقدوره تقديم المساعدة، يا لها من بنت مسكينة من المؤكد أنها قاست كثيراً، بعض الناس يولدون تعساء.

جرس الفندق يصدر أزيزا حادا أكثر من ذى قبل، أو ربما ذاكرته بدأت تخذله وتخدعه، ويظهر بيمينتا عند قمة السلالم ويتهيأ للنزول معتقدا أن زبونا جديداً قد وصل مع حقائبه ثم يتوقف عن النزول ولا يستطيع أن يعرف من هو الشخص الصاعد على السلالم، ربما يكون قد نسى إذ تدخل وجوه كثيرة للغاية إلى حياة عتال الفندق وتخرج من حياته كما ينبغي أن نضع في الحسبان أيضاً الاضاءة الضعيفة، ولكن الوصول الجديد أصبح الآن قريبا للغاية حتى أنه رغم تخفيض وتنكيس رأسه لا يوجد هناك أي قدّر ضئيل من الشك، ويقول بيمينتا: أقسم بشرفي أن هذا هو الدكتور ريس كيف حالك يا دكتور؟ فيقول ريس: «يومك سعيد يا بيمينتا، خادمة» الغرف تلك، ما اسمها، آه ليديا، هل

ليديا هنا؟ فيقول بيمينتا: آه، لا يا دكتور فهي قد خرجت ولم تعد وأعتقد أن أخاها كان متورطاً في عملية التمرد هذه، وما أن انتهي بيمينا من كلامه حتى ظهر سلفادور على بسطة السلم متظاهرا بأنه مدهوش للغاية وقال: مرحبا يا دكتور، كما أنا سعيد للغاية لرؤيتك مرة أخرى، ويقول بيمينتا موجها كلامه لسلفادور: الدكتور يودّ أن يتحدث مع ليديا، فيقول سلفادور: آه ليديا ليست هنا ولكن هل يمكن لي أن أقدم لك أية مساعدة؟ فقال ريكاردو ريس: أنها كانت قد قالت لي إن لها أخاً يعمل في السلاح البحرى وأنا جئت فقط لأرى ما إذا كان بمقدورى أن أقدم خدمات كطبيب؟ فقال سلفادور: إنني أدرك وجهة نظرك يا دكتور ولكن ليديا خرجت من الفندق بمجرد بدء التراشق بالمدفعية وهي لم تعد حتى الآن وسلفاور يبتسم دائماً عندما يقدم معلومات لأحد فهو يحاول أن يبدو في صورة المدير الناجح ودعونا نكرر مرة أخرى وللمرة الأخيرة أنه كان لديه سبب يدعوه للشكوى من هذا الضيف السابق الذي كان ينام مع إحدى خادمات الغرف بالفندق ولربما مستمرا والذي يبزغ في الأفق الآن محاولا القيام بدور البريء وإذا كان يعتقد أنه يخدع ويضلل المدير فهو على خطأ كبير، وتساءل ريكاردو ريس: أتعرف إلى أين تكون قد ذهبت؟ فقال سلفادور: ربما تكون قريبة من هنا في مكان ما وربما تكون قد ذهبت إلى وزارة البحرية أو إلى منزل والدتها أو إلى مركز الشرطة لأن الشرطة يكون لها دائماً علاقة بمثل هذه الأمور ولكن لا داع لأن تتعب نفسك يا دكتور فلسوف أخبرها أن الدكتور ريس قد جاء إلى هنا وعندئذ ستنطلق هي للبحث عنك بكل تأكيد، ثم صدرت عن سلفادور ابتسامة أخرى مثل شخص قد نصب مصيدة ويرى فريسته وقد وضعت قدمها في المصيدة بالفعل، ولكن ريكاردو ريس أجاب قائلاً: نعم، قل لها أن تجيء لزيارتى وهذا هو عنوان منزلي، ثم كتب

الاتجاهات التي لا جدوى منها على قصاصة ورق، وتضايق سلفادور من رد الفعل هذا وتوقف عن الابتسامة ولكن ريكاردو ريس لم يعرف أبداً ما الذي كان بصدد أن يقوله لأن اثنين من الإسبان قد هبطا على السلام قادمين من الدور الثاني وكان منهمكين في مناقشة حامية وقال أحدهما متسائلاً: Senor Salvador los ha llevado el Diablo a los marineros فقال سلفادور: نعم يا دون كاميلو، لقد أخذهم الشيطان، فقال دون كاميلو: حسناً، لقد حان الوقت لأن أقول Arriba Espana, Viva Porugal Arriba ثم أضاف بيمينتا نيابة عن الوطن الأم قائلاً: Viva ولدى نزول ريكاردو ريس على السلالم دق صوت الباب الرئيسي في أزيز، لقد كان يوجد جرس من نوع آخر ولكن الضيوف اشتكوا لأن صوته كان شبيها بصوت الجرس الموجود عند بوابات جبانة.

ولم تحضر ليديا في فترة ما بعد الظهر هذه، وخرج ريكاردو ريس لكي يشتري الطبعة الأخيرة للجريدة، وألقى نظرة سريعة على المانشتات الرئيسية بالصفحة الأولى، وفي أسفل الصفحة قرأ: مقتل ١٢ بحارا وفيما يلى أسماؤهم وأعمارهم: دانيال مارتنيز، العمر ٢٣ سنة، وهنا توقف ريكاردو ريس عن المشى في منتصف الشارع وقد أمسك بالجريدة المفتوحة بين يديه بعد أن غرق في صمت رهيب، لقد توقفت عجلة الحياة بالمدينة أو أنها تمشى على أطراف أصابع أقدامها بينما إصبع السبابة مضغوط على الشفتين المغلقتين في إحكام وفجأة صدرت أصوات تصم الآذان: بوق أتوموبيل ومشاجرة بين اثنين من بائعى تذاكر اليانصيب وطفل يبكي في صراخ لأن أمه صفعته على أذنه بينما أمه تقول له: إذا كررت ذلك مرة أخرى سأضربك بالسوط، لم تكن ليديا بانتظاره بل ولم يكن هناك أي دليل على أنها جاءت إليه، لقد أسدل الليل

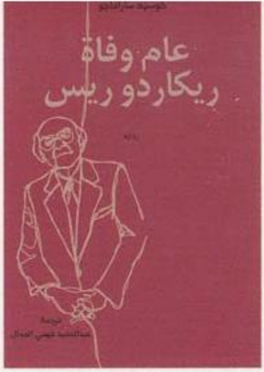
سدوله وخيم الظلام، وتشير الجريدة إلى أن الرجال الذين ألقى القبض عليهم قد تم اصطحابهم إلى كيل المنطقة ثم إلى ميترا Mitra وأن أجساد الموتى والذين لم يتم التعرف على بعضهم موجودة في معرض الجثث، من المؤكد أن ليديا تبحث حاليا عن أخيها أو ربما تكون موجودة في منزل أمها حيث تنخرط الأم وابنتها في البكاء المرير على هذه الكارثة الكبرى التي يتعذر تعويضها.

طرْق على الباب، جرى ريكاردو ريس لكي يفتح الباب بينما يداه على استعداد لاحتضان ليديا المنخرطة في البكاء بالدموع ولكنه وجد فرناندو بسوا واقفا أمامه فقال ريس: آه، إنه أنت؟ فقال بسوا: أكنت تنتظر شخصاً آخر؟ فقال ريس: لو أنك تعرف ما حدث لأدركت أنني أنتظر ليديا بكل تأكيد وأعتقد أنني سبق لي أن قلت لك إنها لها أخ يعمل في البحرية، فقال بسوا: هل هو ميت؟ فقال ريس: نعم لقد مات، وأصبحا في غرفة النوم حيث جلس فرناندو بسوا في نهاية السرير في حين جلس ريكاردو ريس على كرسى بينما الغرفة الآن قابعة تحت ظلام دامس، ومرت نصف ساعة بهذه الطريقة ثم سمعا دقات ساعة حائط مترامية من الدور الثالث الموجود فوقهما فقال ريكاردو ريس لنفسه في تفكير صامت: لا أذكر أبداً أنني سمعت لك الدقات من قبل أو ربما سمعت تلك الدقات ذات مرة ثم أخرجتها من داخل ذهني، وكان فرناندو بسوا جالسا بينما وضع يديه على ركبة واحدة وقد تشابكت أصابعه وتنكس رأسه، وبدون أن يتحرك في جلسته قال: لقد جئت لكي أقول لك إننا لن نشاهد بعضنا البعض مرة أخرى على الإطلاق، فقال ريس: ولم لا؟ فقال فرناندو بسوا: لقد انتهي الزمن المحدد لي، هل تذكر أنني قد قلت لك ذات مرة إنني لم يتبق لي سوى

شهور قليلة؟ فقال ريس: نعم أذكر ذلك، فقال بسوا: حسناً، ذلك هو السبب فتلك الشهور قد انقضت، فقام ريكاردو ريس بإحكام غلق العقدة في رباط عنقه ونهض واقفا على قدميه وارتدى جاكتته واتجه إلى الكومودينو وأخذ كتاب «إله المتاهة» ووضعه تحت ذراعه وقال: هيا بنا إذن، فقال بسوا: إلى أين أنت ذاهب؟ فقال ريس: إنني ذاهب معك، فقال فرناندو بسوا: ينبغي عليك البقاء هنا وانتظار ليديا، فقال ريكاردو ريس: أعرف أنه ينبغي عليّ الانتظار، فقال بسوا: لكي تواسيها عقب فقدان أخيها، فقال ريس: لا أستطيع أن أفعل أي شيء من أجلها، فقال بسوا: والكتاب؟ لأي شيء تريد الكتاب؟ فقال ريس: على الرغم من الوقت الذي منح لي فإنني لم أتمكن من الانتهاء من قراءته على الإطلاق، فقال بسوا: لن يكون لديك متسع من الوقت، فقال ريس: لسوف يكون لدى الوقت الذي أريده، فقال بسوا: أنت تخدع نفسك، فالقراءة، هي أولى القدرات التي يفقدها الإنسان قبل أن يموت، أتذكر أنني سبق أن قلت لك ذلك، ففتح ريكاردو ريس الكتاب وشاهد علامات لا معنى لها كما شاهد خربشة سوداء علاوة على مشاهدة صفحة من اللطخات والبقع الكبيرة، فقال: ملكة القراءة قد تركتني بالفعل ولكن لا يهم، لسوف آخذ الكتاب معي على كل حال، فقال بسوا: ولكن لماذا؟ فقال ريس: لكي أخلص العالم من أحد الألغاز.

ولدى مغادرتهما للشقة قال فرناندو بسوا له: أنت قد نسيت قبعتك، فقال ريس: أنت تعرف على نحو أفضل مني أن القبعات لا يتم ارتداؤها في المكان الذي نحن بصدد الذهاب إليه حاليا، وعلى الرصيف المواجه للحديقة راحا يرقبان الأضواء الشاحبة التي ترفرف على النهر، إنها الظلال المشئومة للجبال، وقال فرناندو بسوا: إذن هيا بنا، فقال

ريكاردو ريس موافقا: هيا بنا، آداماستور لم يستدر حوله لكي ينظر، ربما كان خائفا من أنه لو فعل ذلك لأخرج في نهاية الأمر صراخه الرهيب، هنا حيث البحر ينتهي وحيث الأرض تنتظر.



قبل أن يفوز ساراماجو بجائزة نوبل عام 1998، فازت روايته "عام وفاة ريكاردو ريس" بجائزة الرواية الأجنبية "أندبنديت" في بريطانيا عام 1988.

إنها رواية عن علاقة المؤلف نفسه بالشاعر المعروف فرناندو بيسوا (1935-1888)، حيث أعجب المؤلف بشخصية صنعها ساراماجو في شعره تسمى ريكاردو ريس، فسعى إلى إعادة إحيائها مرة أخرى، وكتب رواية عنها، وجعلها ترحل عن العالم في نفس سنة رحيل صانعها.

فنحن هنا أمام ثلاثة أشخاص معاً في عمل واحد، المؤلف، الشاعر، الشخصية المختلفة، وهو عالم مليء بالمشاعر المتدفقة، رائع بما يحتويه من تفاصيل مسحتها الأولى السحر، سحر العالم الذي ينتمي إليه، وسحر الكتابة، وبالطبع سحر الوقائع..